شرح

نهج البلاغة

لكمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني المتوفى سنة ٦٧٩

الجزء الثالث

عني بتصحيحه عدة من الأفاضل وقوبل بعدة نسخ موثوق بها

من منشورات مؤسسة النصر

شرح

نهج البلاغة

لكمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني المتوفى سنة ٦٧٩

الجزء الثالث

عني بتصحيحه عدة من الأفاضل وقوبل بعدة نسخ موثوق بها

من منشورات مؤسسة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٦ — ومن خطبة له عليه السلام

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ، وَنَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِى الْأَدْيَانِ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِى الْأَبْدَانِ.

عِبَادَ اللهِ: أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهٰذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ، وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا وَالْمُبْلِيَةِ لِأَجْسَامِكُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا؛ فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلًا فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وَأَمُّوا عَلَمًا، فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ، وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِى إِلَى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِىَ إِلَيْهَا، حَتَّى يَبْلُغَهَا، وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لَا يَعْدُوهُ؟ وَطَالِبٌ حَثِيثٌ يَحْدُوهُ فِى الدُّنْيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا؟ فَلَا تَنَافَسُوا فِى عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا، وَلَا تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَلَا تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا؛ فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى انْقِطَاعٍ، وَإِنَّ زِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلَى زَوَالٍ وَضَرَّاءَهَا وَبُؤْسَهَا إِلَى نَفَادٍ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انْتِهَاءٍ، وَكُلُّ حَىٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ، أَوَ لَيْسَ لَكُمْ فِى آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ، وَفِى آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ؟! أَوَ لَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُونَ؟ وَإِلَى

الْخَلَفَ الْبَاقِينَ لَا يَبْقُونَ ؟ أَوَ لَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُصْبِحُونَ وَيُمْسُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى : فَمَيِّتٌ يُبْكَى ، وَآخَرُ يُعَزَّى ، وَصَرِيعٌ مُبْتَلًى ، وَعَائِدٌ يَعُودُ ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ ؟؟ !! وَعَلَى أَثَرِ الْمَاضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي

أَلَا فَاذْكُرُوا هَادِمَ اللَّذَّاتِ ، وَمُنَغِّصَ الشَّهَوَاتِ ، وَقَاطِعَ الْأُمْنِيَّاتِ ، عِنْدَ الْمُسَاوَرَةِ لِلْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ ، وَاسْتَعِينُوا اللهَ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ ، وَمَا لَا يُحْصَى مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ .

أقول : الرفض : الترك . و السفر : المسافرون . وأمّوا : قصدوا . و يعدوه : يتعدّاه . ويحدوه : يسوقه . والمساورة : المواثبة .

فقوله : نحمده . إلى قوله : في الأبدان .

خصّص الحمد بما كان لأنّ الشكر على النعم مترتّب على وقوعها . والاستعانة على ما يكون لأنّ طلب العون على أمر هو بصدد أن يفعل . ثمّ سأل العافية في الأديان كما سألها في الأبدان لأنّ لها سقماً هو في الحقيقة أشدّ ، و قيل لأعرابيّ : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي . فقيل : ما تشتهي ؟ قال : الجنّة . فقيل : أفلا ندعو لك طبيباً ؟ فقال : الطبيب أمرضني ، وسمعت عصرة (عنترةخ) العابدة البصريّة رجلاً يقول : ما أشدّ العمى على من كان بصيراً فقالت : يا عبد الله غفلت عن مرض الذنوب و اهتممت بمرض الأجساد ، و عمى القلب عن الله أشدّ . والمعافاة فيها بامداد العناية الإلهيّة ببقائها سليمة وبتداركها للمذنبين بجذبهم إلى التوبة . ثمّ أردف ذلك بالرأي الصالح و الوصيّة الناصحة برفض الدنيا ، ونفّر عنها بذكر معائب :

أحدها : تركها لهم على كلّ حال و إن لم يحبّوا تركها ، و من أكبر

المصالح ترك محبوب لابدّ من مفارقته تركاً باستدراج النفس و استغفا لها كى لا يقدحها مفارقته دفعةً مع تمكّن محبّته عن جوهرها فيبقى كمن نقل من معشوقه إلى موضع ظلمانىّ شديد الظلمة .

الثانى : كونها مبلية لأجسامهم و إن أحبّوا تجديدها و إبلائها بالأمراض و الهرم ، ومن شأن المؤذى أن يجتنب لا أن يحبّ إصلاحه . ثمّ أردف ذلك بتمثيلهم في الكون بهافمثّلهم بالسفر و مثّلها بسبيل هم سالكوه ، و من سلك سبيلاً فكأنّهم قطعوه فالمشبّههم باعتبار سرعة سيرهم و قرب الآخرة منهم و قطع منازل الأعمار ، و المشبّه به قاطع ذلك السبيل : أى من سلك سبيلاً أشبه في سرعة سيره من قطعه ثمّ لمّا كان لابدّ لكلّ طريق سلك من غاية يقصد فمن سلك سبيلاً فكأنّهم بلغوا تلك الغاية : أى أشبهوا في قرب وصولها من بلغها و هو تخويف بالموت و ما بعده وتحقير لمدّة البقاء في الدنيا و المقام فيها ، و أكّد ذلك بقوله : و ما عسى المجرى إلى الغاية أن يجرى إليها حتّى يبلغها : أى إجرائه إليها بسير سريع ، و في بعض النسخ : وكم عسى ، و التقدير وكم يرجو الّذي يجرى إلى غاية من إجرائه إليها حتّى يبلغها ، و هو استفهام في معنى التحقير لما يرجوه من مدّة الجرى ، و هي مدّة الحياة الدنيا ، و مفعول المجرى محذوف و التقدير المجرى مركوبه . و لمّا لم يكن الغرض إلّا ذكر الإجراء لاجرم حذف المفعول . وقد يجىء لازماً ، و كذلك قوله : و ما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه . إلى قوله : يفارقها : أى و ما يرجى و يؤمل أن يكون من ذلك البقاء ، و كان هنا تامّة و هو في الموضعين استفهام على سبيل التحقير لما يرجى من البقاء في الدنيا والإنكار على المؤمّل الراجى له ، و عنى بالطالب الحثيث الموت و أسند إليه الطلب مجازاً و استعار له لفظ الحدو ، و قد علمت وجه هذه الاستعارة ، و كنّى بذلك الحد و عمّا يتوهّم من سوق أسباب الموت للبدن إليه .

و قوله : ولاتنافسوا . إلى قوله : إلى فناء .

نهى عن اعتبار شيء من أحوالها : خيرها وشرّها . فمن خيرها عزّها وفخرها

و زينتها و نعيمها ، و نهى عن المنافسة فيه و الإعجاب به ، و أمّا شرّها فضرّائها و شدائدها ، ونهى عن الجزع منها و علّل وجوب الانتهاء عمّا نهى عنه بانقطاعه وزواله. و ماكان من شأنه الزوال و الانقطاع فمن الواجب أن لايتنافس فيه ولايعجب به وإن عدّ نافعاً، وأن لايجزع من وجوده وإن عدّ ضارّاً .

و قوله : أوليس لكم في آثار الأوّلين . إلى قوله : لايبقون .

تذكرة لهم بآثار السابقين لهم و الماضين من آبائهم على سبيل استفهامهم عن حصول العبرة لهم بهم استفهامَ إنكار عليهم أن لايستفيدوا من ذلك عبرة على تقدير أنّهم عقلاء كما يزعمون ذلك ثمّ تنبيه لهم على وجه الاعتبار و الاتّعاظ و هو عدم رجوع الماضي منهم و عدم بقاء الباقي فإنّ ذلك محلّ العبرة ثمّ تنبيه لهم على مايرون من أحوال أهل الدنيا المختلفة ليستدلّوا على عدم بقائها باختلاف أحوالها و على أنّها لا تصلح قراراً فأهلها بين ميّت يبكى ، و آخر يعزّى ، وآخر صريع مبتلى بالأمراض والأسقام ،وآخر يعوده مشغول الخاطر به ، وآخر في المعاوقة والاحتضار ، والسالم من تلك الاُمور طالب للدنيا والموت من ورائه طالب له غافل عمّا يراد به وليس الله بغافل عنه ثمّ لابدّ له أن يمضي على أثر من مضى وإن طال بقائه ، وما في ما يمضي مصدريّة ، و إنّما قدّم الميّت في أقسام أهل الدنيا لأنّ ذكره أشدّ موعظة ، و استعار لفظ الجود للمحتضر ، و وجه المشابهة أنّه يسمح بنفسه و يسلّمها كما يسلّم الجواد مايعطيه من مال ثمّ أمرهم بذكر الموت و وصفه بلوازمه المنفّرة عنه وهي كونه هادماً للذّات الدنيويّه ، و منغّصاً لشهواتها و قاطعاً للاُمنيّات فيها ، و عيّن لهم وقت ذكره و هو عند وثباتهم إلى الأعمال القبيحة ليكون ذكره زاجراً لهم عنها ثمّ بالرغبة إلى الله في طلب معونته بجواذب عنايته و جميل لطفه على أداء واجب حقوقه الّتي كلّفنا القيام بها بالمواظبة عليها وأداء واجب مالا يحصى من نعمه بدوام شكرها و الاعتراف بها ملاحظين لجلال كبريائه باعتبار كلّ جزئى منها . و بالله التوفيق .

٩٧ - ومن خطبة له عليه السلام

الْحَمْدُ لِلَّهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ: أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعاً، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقاً، فَأَدَّى أَمِيناً، وَمَضَى رَشِيداً. وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ: مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلَامِ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ. فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ، حَتَّى يُطْلِعَ اللَّهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ، وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ فَلَا تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ، وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ؛ فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَى أَنْ تَزِلَّ إِحْدَى قَائِمَتَيْهِ، وَتَثْبُتَ الْأُخْرَى، وَتَرْجِعَا حَتَّى تَثْبُتَا جَمِيعاً.

أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ: إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اللَّهِ فِيكُمُ الصَّنَائِعُ، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ.

أقول : مرق : خرج من الدين . وزهق : هلك . والمكيث : البطيء المتأنى . و خوى النجم : سقط للمغيب . والصنيعة : النعمة .

و هذا الفصل يشتمل على إعلامهم بما يكون بعده من أمر الأئمّة و تعليمهم ما ينبغى أن يفعل الناس معهم و يمنّيهم بظهور إمام من آل محمّد عقيب آخر ، ووعدهم

بتكامل صنايع الله فيهم بما يأمّلونه من ظهور إمام منتظر .

فقوله : الحمدلله . إلى قوله : حقوقه .

شكر له تعالى باعتبار أمرين : أحدهما : نشره لفضله في خلقه . الثاني : بسطه فيهم بالجود يده ، و يده نعمته مجازاً لتقدّسه تعالى عن الجارحة ، و هو من باب إطلاق اسم السبب على المسبّب ، و ظاهر كون الجود مبدءاً للنعمة ، والنشر والبسط و إن كانا حقيقةً في الأجسام إلّا أنّهما من الاستعارات الشايعة الّتي قاربت الحقيقة ثمّ أكّد ذلك الحمد بتعميمه باعتبار كلّ صادر عنه من رخاء وشدّة . إذ الشدائد اللاحقة من نعمه أيضاً فانّها إذا قوبلت بصبر جميل استلزمت ثواباً جزيلاً كما قال تعالى « وبشّر الصابرين » الآية ، وظاهر أنّ أسباب النعم نعم ولمّا حمده على ما الحق من نعمائه طلب منه المعونة على رعاية واجب حقوقه ، و استعار لفظ الصادع للرسول و وجهها أنّه شقّ بأمر الله بيضة الشرك و قلوب المشركين فأخرج ما كان فيها من الكفر و الجهل ونطق بذكره تعالى فأودعها إيّاه فأدّى ما اُمر به أميناً عليه وقبضه الله إليه مرشداً له إلى حضرة قدسه و منازل الأبرار من ملائكته ، و صادعاً وناطقاً و أميناً و رشيداً أحوال ،وأشار براية الحقّ الّتي خلّفها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى كتاب الله و سنّته ، و أشار بتقدّمها والتخلّف عنها إلى طرفي الإفراط والتفريط من فضيلة الاستقامة عليها : أي أنّ من كان تحتها لاحقاً بها فهو على حاقّ الوسط من الفضائل ، و من تقدّمها كان على طرف الإفراط و قد تعدّى في طلب الدين و أغلى فيه على جهل فمرق منه كما فعلت الخوارج ، و من تخلّف عنها كان على طرف التفريط و التقصير فهلك في طريق الضلال والحيرة ، و لفظ الراية مستعار ، و وجه المشابهة كون الكتاب و السنّة مقصدين لتابعهما يهتدى بهما في سبيل الله كما أنّ الراية كذلك ، وأشار بدليلها إلى نفسه استعارة ، و وجهها أنّ الإمام مظهر و مبيّن لأحكام الكتاب و السنّة وما خفي منهما للسالكين إلى الله كما يرفع الراية حاملها لتابعيه ليقتدوا به ثمّ أشار إلى صفات ذلك الدليل ، و كنّى بقوله : مكيث الكلام عن تروّيه وتثبّته في أقواله و مايشير به ويحكم ، وبقوله : بطيء القيام عن تأنّيه في حركته في وجوه المصالح إلى حين استثباته

الرأى الأصلح ووجه المصلحة ، وبقوله : سريع إذا قام . عن مبادرته إلى وجوه المصلحة وانتهاضه (انتهازه خ) الفرص ثمّ أخذ يذكّرهم بموته ، وكنّى بقوله : ألنتم له رقابكم . من خضوعهم لطاعته و انقيادهم لأمره ، وبقوله : وأشرتم إليه بالأصابع عن اشتهاره فيهم وتعيّنه وتعظيمهم له ، وأشار إلى أنّه إذا تمّ الإسلام به توفّى ، ونبّه بقوله : فلبثتم بعده ماشاءالله . إلى أنّهم يخلون عن إمام يجمعهم مدّة ، والإشارة إلى مدّة بنى اُميّة ، و بقوله : حتّى يطلع الله لكم . إلى قوله : نشر كم . على أنّه لابدّ لهم بعد تلك المدّة من شخص يجمعهم ، و طلوعه ظهوره و تعيّنه للرياسة بعد اختفاء . فقيل: هو الإمام المنتظر . وقيل : هو قائم بنى العبّاس بعد انقضاء دولة بنى اُميّة .

و قوله : فلاتطمعوا في غير مقبل .

أى من لم يقبل على طلب هذا الأمر ممّن هو أهله و متعيّن له و آثر تركه إلى الخلوة بالله فلا تطمعوا فيه فإنّ له بالله شغلاً عن كلّ شيء . وقيل : المراد بغير المقبل من انحرف عن الدين بارتكاب منكر فإنّه لا يجوز الطمع في أن يكون أميراً لكم ، و روى فلا تطعنوا في عين مقبل : أى من أقبل عليكم من أهل البيت طالباً لهذا الأمر وهو أهل له فكونوا معه ، وكنّى بالطعن في عينه عن دفعه عمّا يريد .

وقوله : ولاتيأسوا من مدبر . إلى قوله : تثبتا جميعا .

أراد أنّ من أدبر عن طلب الخلافة ممّن هو أهل لها فلا ينبغى أن يحصل الإياس من عوده وإقباله على الطلب فلعلّه إنّما أدبر عن ذلك لاختلال بعض الشرائط الّتي يتعيّن عليه معها القيام ، و كنّى عن اختلال بعض أحواله من قلّة ناصر و نحوه بزوال إحدى قائمتيه وبثبات الاُخرى من وجود بعض الشرائط كثبات أهليّته للطلب أو بعض أنصاره معه ، و بقوله : فترجعا حتّى تثبتا . عن تكامل شرائط قيامه ولا ينافي النهى عن اليأس ههنا النهى عن الطمع في غير المقبل لجواز أن ينهى عن الطمع فيه حال إعراضه و إدباره عن الطلب لاختلال بعض شرائطه والنهى عن الإياس منه لجواز حصول شرائط القيام فيه وتكاملها .

و قوله : ألا إنّ مثل آل محمّد . إلى قوله : طلع نجم .

تعيين للأئمّة من آل محمد. قالت الإمامية : هم الاثنى عشر من أهل البيت. و شبّههم بالنجوم و وجه التشبيه أمران : أحدهما : أنّهم يستضاء بأنوار هدا هم في سبيل الله كما يستضيء المسافر بالنجوم في سفره و يهتدى بها . الثانى : ما أشار إليه بقوله : كلّما خوى نجم طلع نجم و هو كناية عن كونهم كلّما خلا منهم سيّد قام سيّد ، والإماميّة يستدلّون بهذا الكلام منه عليه السلام على أنّه لايخلوزمان من وجود قائم من أهل البيت يهتدى به في سبيل الله .

و قوله : فكأنّكم . إلى آخر .

إشارة إلى منّة الله عليهم بظهور الإمام المنتظر و إصلاح أحوالهم بوجوده . ووجدت له عليه السلام في أثناء بعض خطبه في اقتصاص مايكون بعده فصلاً يجرى مجرى الشرح لهذا الوعد ، و هو أن قال : ياقوم اعلموا علماً يقيناً أنّ الّذى يستقبل قائمنا من أمر جاهليّتكم ليس بدون ما استقبل الرسول من أمر جاهليّتكم و ذلك أنّ الاُمّة كلّها يومئذٍ جاهليّة إلّا من رحم الله فلا تعجلون فيعجل الخرق بكم ، واعلموا أنّ الرفق يمن وفي الإناة بقاء و راحة والإمام أعلم بما ينكر ، و لعمرى لينزعنّ عنكم قضاة السوء وليقبضنّ عنكم المراضين ، وليعزلنّ عنكم اُمراء الجور ، وليطهرنّ الأرض من كلّ غاش ، وليعملنّ فيكم بالعدل ، و ليقومنّ فيكم بالقسطاس المستقيم ، وليتمنّانّ أحيائكم لأمواتكم رجعة الكرّة عمّا قليل فيعيشوا إذن فإنّ ذلك كائن. لله أنتم بأحلامكم كفّوا ألسنتكم و كونوا من وراء معايشكم فإنّ الحرمان سيصل إليكم و إن صبرتم واحتسبتم و ائتلفتم أنّه طالب و تركم و مدرك لثاركم و آخذ بحقّكم ، واُقسم بالله قسماً حقاً أنّ الله مع الّذين اتّقوا والّذين هم محسنون .

٩٨ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يشتمل على ذكر الملاحم .

الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ ، وَالآخِرُ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ ، بِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا أَوَّلَ لَهُ وَبِآخِرِيَّتِهِ أَنْ لَا آخِرَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ

الْإِعْلَانَ ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ .

أَيُّهَا النَّاس ، لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي ، وَلَا تَتَرَامَوْا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي ، فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ ، وَلَا جَهِلَ السَّامِعُ . وَلٰكِنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضِلِّيلٍ ، قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ ، فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ . فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ ، وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا ، وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا وَبَدَا مِنَ الْأَيَّامِ كُلُوحُهَا ، وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا ، فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ ، وَقَامَ عَلَى يَنْعِهِ ، وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ ، عُقِدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ ، هٰذَا ، وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ ، وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ : وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ ، وَيُحْصَدُ الْقَائِمُ ، وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ .

يشتمل على ذكر الملاحم

أقول: [لايجرمنّكم: أى لايحملنّكم خ]. يجرمنّكم: يحقّ عليكم . واستهواه: أماله . و الضليل : الكثير الضلال . ونعق : صاح . و فحص الطائر الأرض برجله : بحثها . والضواحى : النواحى البارزة . و كوفان : اسم للكوفة . فغر فوه : انفتح . و فلان شديد الشكيمة : إذا كان قوىّ النفس أبيّاً و الكلوح : تكشر في عبوس .

والكدح : فوق الخدش . و أينع الزرع : نضج . والحطم : الدقّ .

و مضمون هذا الفصل بعد توحيد الله تحذير السامعين عن عصيانه و عن التغامز بتكذيبه فيما بينهم فيما كان يخبر هم به من الاُمور المستقبلة . فقوله : الأوّل و الآخر قد مضى تفسير هما .

و قوله : بأوليّته وجب أن لا أوّل له .

لمّا أراد بأوّليته كونه مبدءاً لكلّ شيء ، وبآخريّته كونه غاية ينتهي إليها كلّ شيء في جميع أحواله كان بذلك الاعتبار يجب أن لا يكون له أوّل هو مبدئه ولا آخر يقف عنده و ينتهي ، و وصف شهادته بأنّها الّتي يوافق السرّ الإعلان و القلب اللسان كناية عن خلوصها عن شائبة النفاق و الجحود بالله ثم أبّه بالناس وحذّرهم من شقاقه و عصيانه وتكذيبه فيما يقول و هو تقريع لمن ضعفت عين بصيرته عن إدراك فضله و إمكان الإخبار بما سيكون من مثله ثمّ أسند ما يريد أن يخبر به من ذلك وما أخبر به إلى النبّي صلّى الله عليه وآله ليكون ذلك شهادة لصدقه، وأكّد ذلك بتنزيهه صلّى الله عليه وآله وتنزيه السامع يعني نفسه من الكذب فيما بلّغ عن ربّه و فيما سمع هو عنه ، و قد بيّنّا كيفيّة أخذه لهذه العلوم عنه في المقدّمات .

و قوله : لكأنّي أنظر إلى ضليل قد نعق بالشام .

من جملة إخباراته بما سيكون ، والضليل : قيل : إنّه أشار به إلى السفيانّي الدجّال . وقيل : إنّه إشارة إلى معاوية فإنّ مبدء ملكه بالشام ودعوته بها وانتهت غاراته إلى نواحي الكوفة و إلى الأنبار في حياته عليه السلام كما عرفت ذلك من قبل ، و كنّى بفحصه براياته عن بلوغه إلى الكوفة ونواحيها كناية بالمستعار ملاحظة لشبهه بالقطاة المتّخذة مفحصاً ، و كذلك فغرت فاغرته كناية عن اقتحامه للناس كناية بالمستعار أيضاً ملاحظة لشبهه بالأسد في اقتحام فريسته ، و اشتداد شكيمته كناية عن قوّة رأسه وشدّة بأسه. وأصله أنّ الفرس الجموح قوّي الرأس محتاج إلى قوّة الشكيمة و شدّتها ، و كذلك ثقل و طأته كناية عن شدّة بأسه في الأرض على الناس ، والأشبه أنّه إشارة إلى عبدالملك ، و قد عرفت أحواله ، و ثقل و طأته في الأرض

فيما سبق ، واستعار لفظ العضّ للفتنة و وجه المشابهة ما يستلزمانه من الشدّة والألم ، ورشّح تلك الاستعارة بذكر الأنياب ، وأبناء الفتنة أهلها ، و كذلك استعار لفظ الموج للحرب ، و كنّى بهعن الاختلاط الواقع فيهما من القتل والأهوال. وللأيّام لفظ الكلوح ، و كنّى بهعن شدّة مايلقى فيهامن الشرّ كما يلقى من المعبس المكثر، و كذلك لفظ الكدوح استعارة لما يلقى فيها من المصائب الشبيهة بها ، ولفظ الزرع استعارة لأعماله ولفظ الإيناع كناية عن بلوغه غاية أفعاله ولفظ الشقاشق والبروق استعارة لحركاته الهائلة وأقواله المخوفة تشبيهاً بالسحاب ذى الشقاشق والبروق .

و قوله : عقدت رايات الفتن المعضلة .

أى :أنّ هذه الفتنة إذاقامت أثارت فتناً كثيرة بعدهايكون فيها الهرج والمرج ، وشبّه تلك الفتن في إقبالها بالليل المظلم ، و وجه المشابهة كونها لايهتدى فيهالحقّ كمالايهتدى في ظلمة الليل لمايراد ، وبالبحر الملتطم في عظمها وخلطها للخلق بعضهم ببعض و انقلاب قوم على قوم بالمحقّ لهم والهلاك كما يلتطم بعض أمواج البحر ببعض ، ثمّ أشار إلى ما يلحق الكوفة بسبب تلك الفتنة بعدها من الوقائع والفتن ، وقد وقع فيها وفى أخباره وقائع جمّة وفتن كثيرة كفتنة الحجّاج والمختار بن أبى عبيدة وغيرهما ، واستعار لفظى القاصف والعاصف من الريح لمايمرّ بها من ذلك ويجرى على أهلها من الشدائد .

و قوله : وعن قليل تلتفّ القرون بالقرون . إلى آخره .

أى عن قليل يلحق قرن من الناس بقرون ، و كنّى بالتفاف بعضهم ببعض عن اجتماعهم في بطن الأرض ، واستعار لهم لفظ الحصد والحطم لمشابهتهم الزرع يحصد قائمة و يحطم محصودة فكنّى بحصدهم عن موتهم أوقتلهم ، و بحطم محصودهم عن فنائهم وتفرّق أوصالهم في التراب .

و أعلم أنّه ليس في اللفظ دلالة واضحة على أنّ المراد بالضليل المذكور معاوية بل يحتمل أن يريد به شخصاً آخر يظهر فيما بعد بالشام كما قيل : إنّه السفيانىّ الدجّال و إن كان الاحتمال الأوّل أغلب على الظنّ . وبالله التوفيق .

٩٩ - ومن خطبة له عليه السلام

يجرى هذا المجرى .

وَذٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِنِقَاشِ الْحِسَابِ ، وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ ، خُضُوعاً ، قِيَاماً ، قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ ؛ فَأَحْسَنُهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً ، وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً .

أقول : أشار باليوم إلى يوم القيامة . ونقاش الحساب : المناقشة والتدقيق فيه . و قد عرفت كيفيّة ذلك اليوم فيما سبق و نحوه قوله تعالى « يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم »[١] الآيه. وخضوعاً كقوله تعالى «خشّعاً أبصارهم »[٢] وقياماً كقوله تعالى «يوم يقوم الناس لربّ العالمين » وهما كناية عن كمال براءتهم من حولهم وقوّتهم إذن وتيقّنهم أن لا سلطان إلّا سلطانه. وألجمهم العرق: بلغ منهم مكان اللجام ، وهو كناية عن بلوغهم الغاية من الجهد. إذ كانت غاية التاعب أن يكثر عرقه .

و قوله : ورجفت بهم الأرض .

كقوله تعالى « يوم ترجف الأرض والجبال »[٣] و « إذا رجّت الأرض رجّا و بسّت الجبال بسّا »[٤] قال بعضهم : المراد بالأرض الراجفة و المرتجّة أرض القلوب عن نزول خشية الله عليها وشدّة أهوال يوم القيامة ، وقال آخرون : إنّ ذلك صرف الكلام عن ظاهره من غير ضرورة فلا يجوز. إذ كلّ ما أخبر الصادق عنه من جزئيّات أحوال القيامة اُمور ممكنة ، والقدرة الالهيّة وافية بها .

و قوله : فأحسنهم حالاً من وجد لقدميه موضعاً ولنفسه متّسعا .

قيل المراد من وجدت لقدما عقله موضعاً من معرفة الله تعالى وعبادته، ومن وجد لنفسه متّسعا في حظائر قدس الله وسعة رحمته . وظاهر أنّ أولئك أحسن الخلق حالاً يوم القيامة ، وحمله على ظاهره موافقةً لظاهر الشريعة ممكن .

---

(١) ٩٩ – ٦ (٢) ٤٥ – ٧ . (٣) ٧٣ – ١٤ (٤) ٥٦ – ٤ .

منها: فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَلَا تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ ، وَلَا تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً : يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا، وَيُجْهِدُهَا رَاكِبُهَا ، أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُمْ ، قَلِيلٌ سَلَبُهُمْ ، يُجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ ، فِي الْأَرْضِ مَجْهُولُونَ ، وَفِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ ، فَوَيْلٌ لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذٰلِكِ ، مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ اللهِ لَا رَهَجَ لَهُ ، وَلَا حَسَّ ، وَسَيُبْتَلَى أَهْلُكِ بِالْمَوْتِ الْأَحْمَرِ ، وَالْجُوعِ الْأَغْبَرِ .

أقول : يحفزها : يدفعها من خلف . والكلب : الشرّ . والأذلّة : جمع ذليل . والرهج : الغبار . والحسّ : الصوت الخفيّ .

وقدنبّه في هذا الفصل على ما سيقع بعده من الفتن ، ويخصّ منها فتنة صاحب الزنج بالبصرة و شبّه تلك الفتن بقطع الليل المظلم ، ووجه الشبه ظاهر . ولاتقوم لها قائمة : أى لايمكن مقابلتها بما يقاومها و يدفعها ، وإنّما أنّث لكون القائمة في مقابلة الفتنة . و قيل : لاتثبت لها قائمة فرس ، و استعار لفظ الزمام و الرحل والحفز والقائد والراكب وجهده لها ملاحظة لشبهها بالناقة ، و كنّى بالزمام والرحل عن تمام إعداد الفتنة و تعبيتها كما أنّ كمال الناقة للركوب أن تكون مزمومة مرحولة، و بقائدها عن أعوانها، وبراكبها عن منشئها المتبوع فيها ، وبحفزها وجهدها عن سرعتهم فيها ، و أهلها إشارة إلى الزنج وظاهر شدّة كلبهم و قلّة سلبهم . إذ يكونوا أصحاب حرب وعدّة وخيل كما يعرف ذلك من قصّتهم المشهورة كما سنذكر طرفاً منها فيما يستقبل من كلامه في فصل آخر ، و قد وصف مقاتليهم في الله بكونهم أذلّة عند المتكبّرين ، و كونهم مجهولين في الأرض : أى ليسوا من أبناء الدنيا المشهورين بنعيمها ، و كونهم معروفين في السماء، هو إشارة إلى كونهم من أهل العلم و الا يمان

يعرفهم ربّهم بطاعتهم و تعرفهم ملائكته بعبادة ربّهم ثمّ أردف ذلك بأخبار البصرة مخاطباً لها والخطاب لأهلها بما سيقع بها من فتنة الزنج ، و ظاهر أنّه لم يكن لهم غبارولاأصوات . إذلم يكونوا أهل خيل ولاقعقعة لجم فإذن لارهج لهم ولا حسّ ، و ظاهر كونهم من نقم الله للعصاة و إن عمّت الفتنة . إذ قلّما تخصّ العقوبة النازلة بقوم بعضهم كما قال تعالى «واتّقوا فتنة لاتصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة » (١)

وقوله : وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر .

قيل : فالموت الأحمر إشارة إلى قتلهم بالسيف من قبل الزنج أو من قبل غيرهم ، و وصفه بالحمرة كناية عن شدّته وذلك لأنّ أشدّ الموت ماكان بسفك الدم . وأقول : قد فسّره عليه السلام بهلاكهم من قبل الغرق كما نحكيه عنه و هو أيضاً في غاية الشدّة لاستلزامه زهوق الروح ، و كذلك وصف الأغبر لأنّ أشدّ الجوع ما أغبرّ معه الوجه و غبر السحنة الصافية لقلّة مادّة الغذاء أورداءته فذلك سمّي أغبر ، و قيل : لأنّه يلصق بالغبراء و هى الأرض ، و قد أشار إلى هذه الفتنة في فصل من خطبته خطب بها عند فراغه من حرب البصرة وفتحها وهى خطبة طويلة حكينا منها فصولاً تتعلّق بالملاحم . من ذلك فصل يتضمن حال غرق البصرة . فعند فراغه عليه السلام من ذلك الفصل قام إليه الأحنف بن قيس فقال له : يا أميرالمؤمنين و متى يكون ذلك . قال : يا أبابحر إنّك لن تدرك ذلك الزمان و إنّ بينك و بينه لقروناً و لكن ليبلغ الشاهد منكم الغائب عنكم لكى يبلغوا إخوانهم إذاهم رأوا البصرة قد تحوّلت أخصاصها دوراً وآجامها قصوراً فالهرب الهرب فإنّه لابصيرة لكم يومئذ ثمّ التفت عن يمينه فقال : كم بينكم و بين الابلّة . فقال له المنذربن الجارود : فداك أبى وامّى أربعة فراسخ . قال له صدّقت فو الّذى بعث محمّداً وأكرمه بالنبوّة وخصّه بالرسالة و عجّل بروحه إلى الجنّة لقد سمعت منه كما تسمعون منّى أن قال : يا علىّ هل علمت أن بين الّتى تسمّى البصرة والّتى تسمّى الابلّة أربعة فراسخ وقديكون في الّتى تسمّى الابلّة موضع أصحاب القشور يقتل في ذلك الموضع من امّتى سبعون ألفاً شهيدهم يومئذ بمنزلة شهداء بدر فقال

(١) ٨ - ٢٥ .

له المنذر : يا أمير المؤمنين و من يقتلهم فداك أبى و أمى ؟ قال : يقتلهم إخوان الجنّ وهم اجيل كأنّهم الشياطين سود ألوانهم منتنة أرواحهم شديد كلبهم قليل سلبهم طوبى لمن قتلهم و طوبى لمن قتلوه ينفر لجهادهم في ذلك الزمان قوم هم أذلّة عند المتكبّرين من أهل ذلك الزمان مجهولون في الأرض معروفون في السماء تبكى السماء عليهم وسكّانها والأرض وسكّانها ثمّ هملت عيناه بالبكاء ثمّ قال: ويحك يا بصرة ويلك يا بصرة من جيش لا رهج له ولا حسّ قال له المنذر يا امير المؤمنين : و ما الّذي يصيبهم من قبل الغرق ممّا ذكرت ، وما الويح ، و ما الويل ؟ فقال : هما بابان فالويح باب الرحمة ، والويل باب العذاب يا ابن الجارود نعم ثارات عظيمة منها عصبة يقتل بعضها بعضاً ، ومنها فتنة تكون بها خراب منازل و خراب ديار و انتهاك أموال و قتل رجال و سبى نساء يذبّحن ذبحاً يا ويل أمرهن حديث عجب منها أن يستحلّ بها الدجّال الأكبر الأعور الممسوح العين اليمنى و الاُخرى كأنّها ممزوجة بالدم لكأنّها في الحمرة علقة تأتى الحدقة كهيئة حبّة العنب الطافية على الماء فيتبعه من أهلها عدّة ، من قتل بالاءبلّة من الشهداء أناجيلهم في صدورهم يقتل من يقتل و يهرب من يهرب ثمّ رجف ثمّ قذف ثمّ خسف ثمّ مسخ ثمّ الجوع الأغبر ثمّ الموت الأحمر وهو الغرق . يا منذر إنّ للبصرة ثلاثة أسماء سوى البصرة في الزبر الأوّل لا يعلمها إلاّ العلماء منها الخريبة ، ومنها تدمر ، و منها المؤتفكة يا منذر و الّذي فلق الحبّة و برىء النسمة لو أشاء لأخبرتكم بخراب العرصات عرصة عرصة ومتى تخرب ومتى تعمر بعد خرابها إلى يوم القيامة ، وإنّ عندى من ذلك علماً جمّاً وإن تسئلونى تجدونى به عالماً لا أخطىء منه علماً ولا وافياً ، و لقد استودعت علم القرون الاُولى و ما كائن إلى يوم القيامة . قال : فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين : أخبرنى من أهل الجماعة و من أهل الفرقة و من أهل السنّة ومن أهل البدعة ؟ فقال : ويحك إذا سألتنى فافهم عنّى ولا عليك أن لا تسأل أحداً بعدى : أمّا أهل الجماعة فأنا و من اتّبعنى و إن قلّوا و ذلك الحقّ عن أمر الله و أمر رسوله ، و أمّا أهل الفرقة فالمخالفون لى ولمن اتّبعنى و إن كثروا ، وأمّا أهل السنّة فالمتمسّكون بماسنّه الله و رسوله لا العاملون برأيهم و أهوائهم و إن كثروا ،

وقد مضى الفوج الأوّل و بقيت أفواجٌ وعلى الله قصمها واستيصالها عن جديد الأرض . و بالله التوفيق .

١٠٠ — ومن خطبة له عليه السلام

أُنْظُرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا ، الصَّادِفِينَ عَنْهَا ، فَإِنَّهَا وَاللهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ الثَّاوِيَ السَّاكِنَ ، وَتَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الآمِنَ ، لَا يَرْجِعُ مَا تَوَلَّى مِنْهَا فَأَدْبَرَ ، وَلَا يُدْرَى مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُنْتَظَرَ ، سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ ، وَجَلَدُ الرِّجَالِ فِيهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ ، فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا ، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا .

رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ ، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ ، وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ .

أقول : صدف : أعرض . و ثوى بالمكان : أقام به . و الفجيعة : المصيبة . و الجلد : القوّة .

و حاصل الفصل تزهيد الدنيا و التحذير منها فأمرهم أن ينظروا إليها نظر الزاهدين فيها المعرضين عنها أمرُلهم بتركها و احتقارها إلّا بمقدار الضرورة إلى ما تقوم به الضرورة ثمّ أردفه بذكر معائبها المنفّرة :

فالأوّل : إزالتها للمقيم بها المطمئنّ إليها عمّا ركن إليه منها .

الثانى : فجيعتها للمترف المتنعّم بها الّذي خدعته بأمانيها حتّى أمن فيها بسلب ما ركن إليه وأمن عليه .

Ref. 50272 M.

Author Al-Bahrani, kamal

Title Nahaj al-Balaghah, v.3

DANESH LTD., TEHRAN

الثالث : كونها لا يرجع ماتولّى منها فأدبر من شباب وصحّة ومال وعمر ونحوه .

الرابع : كونها لا يدرى ما هو آت من مصائبها فينتظر ويحترز منه .

الخامس : شوب سرورها بالحزن . إذكان مسرورها لا يعدم في كلّ أوان فوت مطلوب أو فقد محبوب .

السادس : انتهاء قوّة أهلها و جلدهم إلى الضعف كما قال تعالى « ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً و شيبة » (١) و زهّد بعض الصالحين في الدنيا فقال : عيش مشوب بسقم منساق إلى هرم مختوم بعدم مستعقب بندم هل يجوز التنافس فيه. ثمّ نهى عن الاغترار بكثرة مايعجبهم منها وعلّل حسن ذلك الانتهاء بقلّة مايصحبهم منها فإنّ المنافسة إنّما ينبغى أن يكون باقياً للإنسان حيث كان كان ، و أشار بقليل ما يصحبهم منها إلى الكفن ونحوه . ثمّ دعا لمن تفكّر فأفاده فكره عبرة : أى انتقال ذهن إلى ما هو الحقّ من وجوب ترك الدنيا و العمل للآخرة فإفادة ذلك الانتقال إدراكاً للحقّ و مشاهدة ببصر البصيرة له ثمّ أردفه بتشبيه وجود متاع الدنيا الحاضر بعدمه تنبيهاً على سرعة لحوق عدمه بوجوده فكأنّ وجوده شبيه بأن لم يكن لسرعة زواله و كذلك تشبيه عدم الآخرة الآن و ما يلحق فيها من الثواب و العقاب بوجودها الدائم : أى كأنّها لسرعة وجودها و لحوقها لم تزل موجودة ، ونبّه بقوله : و كلّ معدود منقض. على انقضاء مدد الأعمار لكونها معدودة الأيّام والساعات والأنفاس .

و قوله : و كلّ متوقّع آت و كلّ آت قريب دان .

في صورة الضرب الأوّل من الشكل الأوّل. ونتيجته فكلّ متوقّع قريب دان. والإشارة به إلى الموت و ما بعده .

منها : اَلْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ لَا يَعْرِفَ قَدْرَهُ ، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الرِّجَالِ لَعَبْداً وَكَلَهُ اللهُ إِلَى نَفْسِه ! جَائِراً عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ ؛

(١) ٣٠ - ٥٣ .

سَائِرًا بِغَيْرِ دَلِيلٍ ، إِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الدُّنْيَا عَمِلَ ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الآخِرَةِ كَسِلَ ! كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّ مَا وَنَى فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ

أقول : حصر العالم فيمن عرف قدره ، وأراد بقدره مقداره من ملك الله و محلّه من الوجود ، ولمّا كان عرفانه بذلك مستلزماً لمعرفته بنسبته إلى مخلوقات الله في العالمين و أنّه أيّ شيء هو منها ، ولأيّ شيء وجد لاجرم كان هو العالم اللازم لحدّه السالك لما اُمر به غير المتعدّي طوره المرسوم له في كتاب ربّه و سنن أنبيائه .

و قوله : و كفى بالمرء جهلا أن لايعرف قدره .

لمّا كان العلم مستلزماً لمعرفة القدر كان عدم معرفة القدر مستلزماً لعدم العلم و هو الجهل لأنّ نقيض اللازم يستلزم نقيض الملزوم ، وقوله : و كفى بذلك الجهل. إشارة إلى قوّته واستلزامه للعذاب .

و قوله : و إنّ من أبغض الرجال إلى الله . إلى قوله : قصد السبيل .

قد سبق بيانه .

و قوله : سائراً بغير دليل .

كنّى بالدليل عن أئمّة الهدى والمرشدين إلى الله ، و يدخل في ذلك الكتاب و السنّة . فإنّ من سار في معاملته لله أو لعباده بغير دليل منهما كان من الهالكين .

و قوله : إن دعى . إلى آخره .

استعار لفظ الحرث لأعمال الدنيا وأعمال الآخرة ، ووجه المشابهة كونها مستلزمة للمكاسب الاُخرويّة والدنيويّة كما أنّ الحرث كذلك ، ثمّ شبّه ما عمل له من حرث الدنيا بالواجب عليه في مبادرته إليه ومواظبته عليه ، وشبّه ما قصّر عنه من حرث الآخرة بالساقط عنه فرضه في تكاسله وقعوده عنه مع أنّ الأمر منه ينبغي أن يكون بالعكس . وبالله التوفيق .

مِنْهَا : وَذَلِكَ زَمَنٌ لَا يَنْجُو فِيهِ إِلَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ : إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ ، وَإِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى ، وَأَعْلَامُ السُّرَى

لَيْسُوا بِالْمَسَايِيحِ ، وَلَا الْمَذَايِيعِ الْبُذُرِ ، أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرَّاءَ نِقْمَتِهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الْإِسْلَامُ كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ بِمَا فِيهِ ! أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ ، وَلَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

قال الشريف : قوله عليه السلام : « كل مؤمن نومة » فانما أراد به الخامل الذكر القليل الشر ، والمساييح : جمع مسياح ، وهو الذى يسيح بين الناس بالفساد والنمائم ، والمذاييع : جمع مذياع ، وهو الذى إذا سمع لغيره بفاحشة أذاعها ونوه بها ، والبذر : جمع بذور وهو الذى يكثر سفهه ويلغو منطقه .

أقول : النومة : كثير النوم ، و روى نومة بسكون الواو . و هو ضعيف . و كفأت الإناء : قلّبته لوجهه ، و كنّى بالنومة عن خامل الذكر بين الناس المشتغل بربّه عنهم كما فسّره عليه السلام بقوله : إن شهد لم يعرف و إن غاب لم يفتقد ، وأشار بأولئك إلى كلّ مؤمن كذلك ، و استعارلهم لفظ المصابيح و الأعلام لكونهم أسباب الهداية في سبيل الله ، و قد سبق ذلك .

و قوله : ليسوابالمساييح . إلى قوله : ضرّاء نقمته . ظاهر . و قد فسّر السيّد ـ رضوان الله عليه ـ مشكله .

و قوله : أيّها الناس . إلى قوله : الإناء بما فيه .

إخبار بما سيكون من فساد أهل الزمان و ما يكون فيه من الفتن وترك الدين كما سبق إشاراته ، و شبّه قلبهم للزمان بقلب الإناء بما فيه ، و وجه الشبه خروج الإسلام عن كونه منتفعاً به بعد تركهم للعمل به كما يخرج مافي الإناء الّذى كبّ عن الانتفاع . و أحسن بهذا التشبيه . فإنّ الزمان للإسلام كالإناء للماء ، و أشار إلى

أنّ ذلك ليس بظلم بقوله : إنّ الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم في قوله تعالى « وما ربّك بظلّام للعبيد »[١] إنّ ذلك ابتلاء منه يبتلى به عباده كما قال تعالى « إنّ في ذلك لآيات وإن كنّا لمبتلين »[٢] فمن صبر نفعه صبره ومن كفر فعليه كفره ، وقد عرفت معنى ابتلاء الله لخلقه وفائدته فلا وجه لإعادته . وبالله التوفيق .

١٠١ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقد تقدم مختارها بخلاف هذه الرواية

أَمّا بَعدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبحانَهُ بَعثَ مُحَمَّداً ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِه ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً ، وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً وَلَا وَحْياً ، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ ، يَسُوقُهُمْ إِلَى مَنْجَاتِهِمْ ، وَيُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ يَحْسِرُ الْحَسِيرُ وَيَقِفُ الْكَسِيرُ ، فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّى يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ ، إِلَّا هَالِكاً لَا خَيْرَ فِيهِ ، حَتَّى أَرَاهُمْ مَنْجَاتَهُمْ ، وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ ، فَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ ، وَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ ، وَايْمُ اللهِ لَقَدْ كُنْتُ فِي سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا ، وَاسْتَوْسَقَتْ قِيَادَهَا : مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبُنْتُ ، وَلَا خُنْتُ ، وَلَا وَهَنْتُ ، وَايْمُ اللهِ لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ ، حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ .

أقول : لنشرح ما انفردت هذه الرواية من الزيادة على الفصل المتقدّم: فالحسير : الّذى أعيا في طريقه . والرحا : قطعة من الأرض تستدير و ترفع على ما حولها . و استوسقت : اجتمعت وانتظمت . وخمت : جبنت .

فقوله : فقاتل بمن أطاعه من عصاه . معناه ظاهر .

---

(١) ٤١ – ٤٦ (٢) ٢٣ – ٣١ .

و قوله : و يبادر بهم الساعة أن تنزل بهم .

أى يسارع إلى هديهم و تسليكهم لسبيل الله كيلا تنزل بهم الساعة على عمى منهم عن صراط الله فيقعوا في مهاوى الهلاك .

و قوله : يحسر الحسير و يقف الكسير . إلى قوله : لاخير فيه .

إشارة إلى وصفه عليه السلام بالشفقة على الخلق في حال أسفارهم معه في الغزوات ونحوها: أى أنه كان يسير في آخرهم ويفتقد المنقطع منهم عن عياء وانكسار مركوب فلا يزال يلطف به حتى يبلّغه أصحابه إلّا مالا يمكن إيصاله ولايرجى . قال بعض السالكين : كنّى بالحسير و الكسير عمّن عجز و وقف قدم عقله في الطريق إلى الله لضعف في عين بصيرته واعوجاج في آلة إدراكه، وبقيامه عليه حتى يلحقه إلى غايته عن أخذه له بوجوه الحيل والجواذب إلى الدين حتى يوصله إلى ما يمكن من العقيدة المرضيّة و الأعمال الزكيّة الّتى هى الغاية من طريق الشريعة المطلوب سلوكها .

و قوله : إلّا هالكاً لاخير فيه .

أراد به من كان مأيوساً من رشده لعلمه بأنّ تقويمه غير ممكن كأبى لهب و أبى جهل ونحوهما .

و قوله : فاستدارت رحاهم .

استعار لهم لفظ الرحا لاجتماعهم و ارتفاعهم على غيرهم كما يرتفع القطعة من الأرض عن تألّف التراب ونحوه .

و قوله : و استوسقت في قيادها .

إشارة إلى طاعة من أطاع من العرب وانقاد للإسلام ، و استعار لفظ الاتّساق والقياد ملاحظة لتشبيههم بالإبل المجتمعة لسائقها و المنتظمة في قياده لها ، واستعار لفظ الخاصرة للباطل ، و رشّح تلك الاستعارة بذكر البقر ملاحظة لشبهه بالحيوان المبتلع ما هو أعزّ قيمة منه ، و كنّى به عن تميّز الحقّ منه . وبالله التوفيق .

١٠٢ — ومن خطبة له عليه السلام

حَتَّى بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، شَهِيدًا ، وَبَشِيرًا ، وَنَذِيرًا ،

خَيْرُ الْبَرِيَّةِ طِفْلاً ، وَأَنْجَبَهَا كَهْلاً ، أَطْهَرُ الْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً ، وَأَمْطَرُ الْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً ، فَمَا احْلَوْلَتْ لَكُمُ الدُّنْيَا فِي لَذَّتِهَا ، وَلَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلَافِهَا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا صَادَفْتُمُوهَا جَائِلاً خِطَامُهَا ، قَلِقاً وَضِينُهَا ، قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ ، وَحَلَالُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ ، وَصَادَفْتُمُوهَا ، وَاللهِ ، ظِلّاً مَمْدُوداً إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ ، فَالْأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ . وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ ، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ ، أَلَا إِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً ، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً ، وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ ، وَهُوَ اللهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ وَلَا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ . فَأُقْسِمُ بِاللهِ يَا بَنِي أُمَيَّةَ عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ . أَلَا وَإِنَّ أَبْصَرَ الْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفُهُ ، أَلَا إِنَّ أَسْمَعَ الْأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكِيرَ وَقَبِلَهُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ ، وَامْتَاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدَرِ .

عِبَادَ اللهِ ، لَا تَرْكَنُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ ، وَلَا تَنْقَادُوا إِلَى أَهْوَائِكُمْ ؛ فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ ، نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ

مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ ، يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَا يَلْتَصِقُ ، وَيُقَرِّبَ مَا لَا يَتَقَارَبُ ، فَاللَّهَ اللَّهَ ، أَنْ تَشْكُوا إِلَى مَنْ لَا يُشْكِي شَجْوَكُمْ وَلَا يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ لَكُمْ . إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، إِلَّا الْبَلَاغُ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَالْاِجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ ، وَالْإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا ، وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَى أَهْلِهَا : فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ ؛ فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي .

أقول : الشيمة : الخلق . واحلولى : حلا . و الخلف : حلمة ضرع الناقة . و الوضين : حزام الهودج . و المخضود : الّذي لا شوك فيه . و الماتح : الجاذب للدلو من البئر . و شغر الكلب : رفع إحدى رجليه ليبول . و الترويق : التصفية . و الجرف : المكان يأكله السيل . وهار : أصله هائر و هو المنهدم نقلت من الثلاثي إلى الرباعي كشائك و شاكي . و الشجو : الهمّ والحزن . وصوّح النبت : يبس .

وقوله : حتّى بعث محمداً ﷺ . إلى قوله : من بعده .

افتخار به ﷺ و مدح له بالقوّة في الدين و توبيخ لجمّع الدنيا و محبّيها بعده ، و هو غاية لفصل سابق كأنّه ذكر فيه ما كانوا عليه من سوء الحال و القشف و الفقر ، ومنّ عليهم بذكر هذه الغاية الحسنة لتلك الأحوال ، ووصّفه بأوصاف :

أحدها : كونه شهيداً ، أى على الخلق بأعمالهم يوم القيامة كما قال تعالى « فكيف إذا جئنا من كلّ أُمّة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيدا » (١) وقد عرفت كيفيّة هذه الشهادة .

(١) ٤ - ٤٥ .

الثانى : و بشيراً للخلق بما أعدّهم من الثواب العظيم .

الثالث : ونذيراً لهم بما أعدّ للعصاة من العذاب الأليم. وينتظم هذه الأوصاف قوله تعالى « إنّا أرسلناك شاهداً و مبشّراً ونذيراً » (١) و الثلاثة أحوال .

الرابع : خير البريّة طفلاً ، و لمّا علمت أنّ الأفضليّة إنّما هى بالأعمال الصالحة و التسديد لسلوك سبيل الله و كان هو ﷺ منذ صباه و طفوليّته أفضل الخلق في لزوم ذلك لا جرم كان خير الناس طفلاً .

الخامس : و أنجبها كهلاً ، و لمّا كانت النجابة مستلزمة لكرم الخصال و التقاط الفضائل و تتبّعها و كان هو ﷺ في كهولته و زهوته منبع كلّ فضيلة لاجرم كان أنجبهم كهلاً . و طفلاً و كهلاً منصوبان على الحال أيضاً .

السادس : كونه أطهر المطهّرين شيمة ، ولمّا كان ﷺ متمّم مكارم الأخلاق الظاهرة و كلّ خلق عدل فمنه مكتسب لاجرم كان أطهر الشيمة وأكرم الخلق..

السابع : أجود المستمطرين ديمة. استعار له وصف السحاب المرجوّ منه نزول الديمة و هى المطر الّذى لا رعد فيه و لا برق ، و رشّح بلفظ الديمة و كنّى بذلك عن غاية جوده و كرمه ، وقد كان ﷺ إذا أمسى آوى إلى البيت فلا يجد فيه شيئاً من فضّة أو ذهب إلّا تصدّق به و لم يبت في بيته منه شيء . و شيمة و ديمة تميزان .

و قوله : فما احلولت لكم الدنيا في لذّاتها . إلى قوله : من بعده .

الخطاب لبنى اُميّة و نحوهم و تبكيت لهم بتطعّمهم لذّة الدنيا وابتهاجهم بها وتمكّنهم منها بعد الرسول ﷺ وتذكير لهم بمخالفتهم لسنّته في ذلك . واستعار لفظ الأخلاف ، و كنّى به عن وجوه مكاسب الدنيا ولذّاتها ، و رشّح تلك الاستعارة بذكر الرضاع ، و كنّى به عن تناولها ملاحظة لتشبيهها بالناقة .

و قوله : وصا دفتموها . إلى قوله : غير موجود .

استعار لها لفظ الخطام و الوضين و رشّحهما بالقلق و الجولان ، و كنّى بذلك عن مصادفتهم للدنيا بعد رسول الله ﷺ غير منظومة الحال ولا مضبوطة على ما ينبغى

---

(١) ٣٣ - ٤٤ .

لضعف ولاتها عن إصلاح حالها كما أنّ الناقة قلقة الحزام ، و جائلة الخطام غير منظومة الآلة ولا مضبوطة الحالة فهي بمعرض أن تمشي و تنصرف على غير استقامة فهلك راكبها، ثمّ ذكر رذيلة القوم فشبّه حرامها بالسدر المخضود معهم ، و وجه الشبه أنّ نواهي الله و وعيداته على فعل المحرّمات تجري مجرى الشوك للسدر في كونها مانعة منه كما يمنع شوك السدر جانبه من تناول ثمرته ، ولمّا كان بعض الاُمّة قد طرح اعتبار النواهي و الوعيد جانباً عن نفسه و فعل ما حرم عليه جرى ذلك عنده مجرى تناوله للسدر الخالي عن الشوك في استسهاله تناوله وإقدامه عليه. و كون حلالها بعيداً غير موجود : أي بين اُولئك المشار إليهم . وجائلاً وقلقاً حالان .

قوله : و صادفتموها والله . إلى قوله : معدوداً .

استعار لفظ الظلّ لها و رشّح بالممدود ، و كنّى بذلك عن زوالها بعد حين تهديداً لهم به، ثمّ استعار لفظ الشاغرة للأرض ، و كنّى به عن خلوّها لهم. يقال : بقي الأمر الفلانيّ شاغراً برجله إذا لم يكن له طالب ولا حام يحميه ، و كنّى ببسط أيديهم فيها عن قدرتهم على التصرّف ، وأراد بالقادة الخلفاء ، و بسلاطة سيوفهم على القادة جرأتهم وحكمهم عليهم ، و بقبض سيوف القادة عدم تمكّنهم منهم .

و قوله : ألا إنّ لكلّ دم ثائراً . إلى قوله : من هرب .

تهديد بالله لبني اُميّه وتخويف بأخذه وعقابه. وهاتان الكلّيّتان ظاهرتا الصدق فإنّه تعالى هو الثائر لكلّ دم معصوم والطالب به إن عدم طالبه أو ضعف ، ولمّا كان دم مثلهم عليهم السلام وسائر الصحابة ممّن عصم الله دمه و منع منه و حرّمه يجري مجرى الحقّ الثابت المتعارف لله في كونه يطلب به ولا يهمله و هو الحاكم المطلق لا جرم استعار لفظ الثائر ، وإنّما قال : كالحاكم لأنّ إطلاق لفظ الحقّ لله تعالى به ليس بحقيقة . إذ الحقّ من شأنه أن ينتفع بأخذه ويتضرّر بتركه والباري منزّه عن ذلك لكن لمّا جرى ذلك الدم مجرى الحقّ له تعالى، به أشبه الحاكم منّا في استيفاء الحقّ. و وصفه تعالى بأنّه لا يعجزه مطلوب ولا يفوته هارب في معرض التهديد لهم بأخذه وقوّته . ثمّ أردف ذلك بالقسم البارّ مخاطباً لبني اُميّة لتعرفنّها : أي الدنيا وإمرتها

في يد غيرهم من أعدائهم. وذلك ظاهر الصدق بانتقالها إلى بني عبّاس، ثمّ شرع بعده في التنبيه على الفكر في تحصيل السعادة الباقية والخير الدائم و على قبول الوعظ والتذكّر فأشار إلى أنّه أبصر الأبصار مانفذ في الخير طرفه ، وأسمع الأسماع ماوعى التذكير فقبله ، وأراد بطرف البصر العقل وسمعه استعارة، أو حسّ البصر والسمع على معنى أنّ أفضل إبصار البصر وسماع السمع ما عاد على المبصر والسامع بالفائدة المطلوبة منهما وهي تحصيل الكمالات النفسانيّة من العلوم والأخلاق ، ولمّا قدّم ذلك أمام مقصوده أيّه بالناس بعده إلى قبول قوله والاستصباح بنوره ، واستعار لنفسه لفظ المصباح ، ورشّح بذكر الشعلة والاستصباح ، واستعار لفظ العين ورشّح بذكر الصفو والترويق والمتح ، ووجه الاستعارة الاُولى كونه مقتدى به كالمصباح ، و وجه الثانية كون المستفاد منه مادّة الحياة الأبديّة كما أنّ ماء العين مادّة الحياة الدنيويّة وكنّى بترويقها من الكدر عن رسوخه فيما علم بحيث لايتطرّق إليه فيه شبهة تكدر يقينه ، و هو أمر لهم بالاهتداء به وأخذ العلوم والأخلاق عنه . ثمّ لمّا أمر بأخذهما عنه أردفه بالنهي عن الجهل والركون إليه ثمّ عن الانقياد للأهواء الباطلة المخرجة عن كرائم الأخلاق إلى رذائلها وعن حقّ المصالح إلى باطلها .

و قوله : فإنّ النازل بهذا المنزل .

أراد المنزل المشير المدّعي للنصيحة لهم عن جهل منه بوجوه المصالح و ذلك أنّه عليه السلام كان يرى الرأى الصالح ، ويشير عليهم به فإذا خلا بعضهم إلى بعض فما كان من ذلك فيه مشقّة عليهم من جهاد أو مواظبة على عمل شاقّ أشار منافقوهم المبغضون المدّعون لأهليّتهم لمقامه بعكس ما رأى فيه وأشار به ردّوهم عنه إلى ما يوافق أهوائهم ويلائم طباعهم إفساداً في الدين ، وأشار عليه السلام إلى ما نزّل نفسه منزلة المشير الناصح مع أنّ كلّ ما يشير به عن هوى متّبع و جهل فهو على شفا جرف هار ، واستعار لفظ الجرف للآراء الفاسدة الصادرة فإنّها لم تبن على نظام العقل ولم ترخّص فيه الشريعة فكانت منهارة لايبنى عليها إلّا ماكان بصدد أن ينهار ، وكأنّ المشير بها واقف على شفا جرف هار منها ينهار به في نار جهنّم أو في الهلاك الحاضر .

يقال لمن فعل فعلاً على غير أصل أو يتوقّع له منه عقوبة مثلا : إنّه على شفاجرف هار ، و نحوه قوله تعالى « أمّن أسّس بنيانه على شفاجرف هار » (١) الآية .

و قوله : ينقل الردى على ظهره من موضع .

لمّا كان الردى هو الهلاك و كان الرأى الفاسد يستلزم الهلاك للمشار عليه وللمشير كان المشير على الخلق به عن هوى كالناقل للهلاك من شخص إلى غيره والمقسّم له على من يشير عليهم به . و هو فيمعرض التنفير عنه .

و قوله : لرأى يحدثه بعد رأى يريد أن يلصق مالا يلتصق.

ذكر غاية تنقّله من موضع إلى آخر فإنّ نقله للردى يستلزم أن ينقله ، وروى : و لرأى بالواو . و على هذا يكون كلاماً مستأنفاً ، والتقدير أنّ بسبب رأى يحدثه يريد إلصاق مالا يلتصق . و استعار لفظ اللصق للصلح : أى يريد أن يصلح بينكم و بين أعدائكم و ذلك أمر لا ينصلح ، و وجه المشابهة كون الخصمين في طرفين يجمعهما الصالح و يوجب لهما الاتّحاد كما يجمع اللصاق بين الملتصقين ، و يحتمل أن يريد أن يلصق بكم من الآراء الفاسدة مالا ينبغى أنيلتصق بكم ، و كذلك قوله : ويقرّب مالايتقارب ويقرّب عليكم مابينكم وبينهم من البعد والافتراق و ذلك أمر لايتقارب. ويفهم من هذا أنّ منكان ينهاهم عن الركون إلى استشارته كان يخذلهم عن الحرب بذكر الصلح بينهم و بين معاوية والدخول فيه . ثمّ حذّرهم الله وعقابه فيأن يشكوا إلىمن لايشتكى حزنهم ، وذلك أنّ المشتكىإليه والمستشار إذا لم يساهم الشاكى همّه لم يكن أهلاً للرأى في مثل ذلك الأمر المشكوك وإنكان معروفاً بجودة الرأى ، وسرّ ذلك أنّ الاهتمام بالأمر يبعث رائد الفكر على الاستقصاء في تفتيشوجوه الآراء الصالحة فيه فيكون بصددأن يستخرج منهاأصلحها و أنفعها وإنكان دون غيره فيجودةالرأى بخلاف الخلىّ العديمالباعث على طلبالأصلح. وأردفهم بنهيهم عن أن ينقض برأيه الفاسد ما قد أبرمه هو عليه السلام لهم من الرأى الصائب في التجرّد للحرب . ثمّأردفهبيان ما يجب على الإمام ممّا

(١) ٩ - ١١٠ .

هو تكليفه بالنسبة إلى الرعيّة ، وفائدة ذلك الإعذار إليهم فيماهم عساهم ينسبونه إليه من تقصير فيركنون إلى غيره في الرأى ونحوه ، وذكر اُموراً خمسة : الإبلاغ فيموعظةالعباد . ثمّ الاجتهاد في النصيحةلهم . ثمّ الإحياء لسنّةالله ورسوله فيهم . ثمّ إقامة الحدود الّتي يستحقّونها بجناياتهم. ثمّ إصدار السهمان على أهلها . والسهمان : جمع سهم وهو النصيب المستحقّ به للمسلم من بيت المال. ثمّ لمّا سبق نهيه عن الركون إلى الجهل أمرهنا بالمبادرة إلى العلم من قبل تصويح نبته ، واستعار لفظ النبت ، و رشّح بذكر التصويح ، و كنّى به عن عدمه بموته عليه السلام .

وقوله : من قبل أن تشغلوا بأنفسكم .

أى بتخليصها من شرور الفتن الّذي ستنزل بهم من بني اُميّة و معاناتها ، ومستشار العلم ما استشير منه واستخرج، و أهله هو عليه السلام و من في معناه . ثمّ أمرهم بالانتهاء عن المنكر ، ثمّ ينهى غيرهم فإنّ النهى عن الشيء بعد الانتهاء عنه هو النهى المثمر المطابق لمقتضى الحكمة . إذكان انفعال الطباع عن مشاهدة الأفعال والاقتداء بها أقوى و أسرع منها عن سماع الأقوال خصوصاً إذا خالفها فعل القائل . و ذلك أمر ظاهر شهدت به العقول السليمة والتجارب وتوافقت عليه الآراء والشرائع ، وإليه أشار الشاعر :

لاتنه عن خلق و تأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

١٠٣ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى شَرَعَ الْإِسْلَامَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ ، وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ فَجَعَلَهُ أَمْنًا لِمَنْ عَلِقَهُ ، وَسِلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ ، وَنُورًا لِمَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ ، وَفَهْمًا لِمَنْ عَقَلَ ، وَلُبًّا لِمَنْ تَدَبَّرَ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ ، وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ ، وَثِقَةً

لِمَنْ تَوَكَّلَ ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ ، وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ ، فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَنَاهِجِ ، وَأَوْضَحُ الْوَلَائِجِ ، مُشْرَفُ الْمَنَارِ مُشْرِقُ الْجَوَادِّ ، مُضِيءُ الْمَصَابِيحِ ، كَرِيمُ الْمِضْمَارِ ، رَفِيعُ الْغَايَةِ ، جَامِعُ الْحَلْبَةِ ، مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ ، شَرِيفُ الْفُرْسَانِ : التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ ، وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ ، وَالدُّنْيَا مِضْمَارُهُ وَالْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ .

أقول : الأبلج : الواضح المشرق . و الوليجة : بطانة الرجل وخاصّته . والمضمار: محلّ تضمير الخيل للسباق . والحلبة : خيل يجمع من مواضع متفرّقة للسباق ، و قد تطلق على مجمعها . والسبقة : ما يستبق عليه من الخطر .

و قد حمدالله سبحانه باعتبار ماأنعم به من وضع شريعةالإسلام للعقول لتسلك بها إليه ، وأشار بشرائعه إلى موارد العقول من أركانه، وتسهيله لها إيضاح قواعده و خطاباته بحيث يفهمهما الفصيح والألكن و يشارك الغبىّ في ورود مناهلها الفطن الذكىّ ، وإعزاز أركانه حمايتها و رفعها على من قصد هدمه و إطفاء نوره مغالبة من المشركين والجاهلين .ثمّ مدح الإسلام بأوصاف أسندها إلى مفيضه و شارعه سبحانه و تعالى :

أحدها : جعله أمناً لمن علقه . وظاهر كونه أمناً لمن تعلّق به في الدنيا من القتل وفي الآخرة من العذاب .

الثاني : و سلماً لمن دخله : أى مسالماً له ، و في الأوّل ملاحظة لتشبيهه بالحرم باعتبار دخوله، وفي الثاني ملاحظة لشبهه بالمغالب من الشجعان باعتبار مسالمته. و معنى مسالمة الإسلام له كونه محقون الدم مقرّاً على ماكان يملكه فكأنّ الإسلام سالمه أو صالحه لكونه لا يقتصّ ما يؤذيه بعد دخوله فيه .

الثالث : كونه برهاناً لمن تكلّم به : أى فيه ماهو برهان .

الرابع : كونه شاهداً لمن خاصم به : والشاهد أعمّ من البرهان لتناوله الجدل

والخطابة .

الخامس : كونه نوراً يستضاء به. فاستعار له لفظ النور ، ورشحه بذكر الاستضاءة، ووجه المشابهة كونه مقتدى به في طريق الله إلى جنته .

السادس : كونه مفهماً لمن عقل . ولما كان الفهم عبارة عن جودة تهيؤ الذهن لقبول ما يرد عليه كان الدخول في الإسلام و رياضة النفس بقواعده وأركانه سبباً عظيماً لتهيؤ الذهن لقبول الأنوار الإلهية و فهم الأسرار لاجرم أطلق عليه لفظ الفهم مجازاً إطلاقاً لاسم المسبب على السبب .

السابع : كونه لباً لمن تدبر . ولما كان اللب هو العقل أطلق عليه لفظ العقل وإن كان مسبباً له كالمجاز الأول ، وأراد العقل بالملكة و ما فوقه من مراتب العقل فإن الإسلام و قواعده أقوى الأسباب لحصول العقل بمراتبه .

الثامن : كونه آية لمن توسم . وأراد من تفرس طرق الخير و مقاصده فإن الإسلام آية وعلامة لذلك المتفرس، إذ اهتدى بها فقد وقع فى طريق الهدى .

التاسع : كونه تبصرة لمن عزم . وأراد من عزم على أمر قصده فإن في الإسلام تبصرة لكيفية فعله على الوجه الذى ينبغى .

العاشر : كونه عبرة لمن اتعظ . و ذلك ظاهر فإن الإسلام نعم المعبر بنفس المتعظ إلى حضرة قدس الله بما فيه من أحوال القرون الماضية وتصرف الزمان بهم .

الحادى عشر: كونه نجاة لمن صدق الرسول صلى الله عليه وآله فيما جاء به. فإن دخوله في الإسلام سبب نجاته من سيوف الله في الدنيا وعذابه في الآخرة ، وأطلق عليه اسم النجاة إطلاقاً لاسم المسبب على السبب .

الثانى عشر : كونه ثقة لمن توكل : أى هو سبب ثقة المتوكلين على الله لاشتماله على الوعد الكريم و به يكون استعدادهم للتوكل .

الثالث عشر : كونه راحة لمن فوض : أى من ترك البحث والاستقصاء في الدلائل و تمسك بأحكام الإسلام ودلائل القرآن والسنة المتداولة بين أهله وفوض أمره إليه استراح بذلك التفويض . و قيل : بل المراد أن فيه الندب إلى تفويض

الأمور إلى الله وعلم مالم يعلم منها و ترك التكليف به و ذلك راحته ، و قيل : بل المراد أنّ المسلم إذا كمل إسلامه و فوّض أمره إلى الله كفاه الله جميع اُموره وأراحه من الاهتمام بها .

الرابع عشر : كونه جنّة لمن صبر : أى صبر على العمل بقواعده و أركانه ، وظاهر كونه جنّة من عذاب الله ، ولفظ الجنّة مستعار .

الخامس عشر : أبلج المناهج ، و مناهج الإسلام طرقه و أركانه الّذي يصدق على من سلكها أنّه مسلم ، وهى الإقرار بالله ورسوله والتصديق بما ورد به الشريعة كما يفسّره هوبه ، وظاهر كونها أنوار واضحة الهدى .

السادس عشر : كونه واضح الولايج: واضح البواطن والأسرار لمن نظر إليه بعين الاعتبار .

السابع عشر : كونه مشرف المنار ، و منار الإسلام الأعمال الصالحات الّتي يقتدى بها السالكون كالعبادات الخمس و نحوها ، و ظاهر كونه مشرفة عالية على غير ها من العبادات السابقة .

الثامن عشر : كونه مشرق الجوادّ . وهو قريب من أبلج المناهج .

التاسع عشر : كونه مضيء المصابيح . و كنّى بها عن علماء الإسلام و أئمّته كناية بالمستعار ، و رشّح بذكر الإضائة ، و كنّى بها عن ظهور العلم عنهم و اقتداء الخلق بهم ، و يحتمل أن يريد بالمصابيح أدلّة الإسلام كالكتاب والسنّة .

العشرون: كونه كريم المضمار ، ومضمار الإسلام الدنيا كماسنذكره ، ولاشكّ في كونها كريمة باعتبار اقتباس الأنوارمنها والعبور بهاإلى الله تعالى ، ولفظ المضمار مستعار لها ، و قد سبق بيانه .

الحادى والعشرون : كونه رفيع الغاية ، ولمّا كانت غايته الوصول إلى حضرة ربّ العالمين الّتي هى جنّة المأوى لاجرم كان رفيع الغاية . إذلا غاية أرفع منها وأعلى مرتبة .

الثاني والعشرون : كونه جامع الحلبة ، و استعار لفظ الحلبة للقيامة

فإنّها حلبة الإسلام كما سنبيّنه ، و وجه الاستعارة كونها محلّ الاجتماع بها للسباق إلى حضرة الله الّتي هي الجنّة كاجتماع الخيل للسباق إلى الرهن .

الثالث والعشرون : كونه متنافس السبقة ، ولمّا كانت سبقته الجنّة كانت أشرف ما يتنافس فيها .

الرابع والعشرون : كونه شريف الفرسان ، و استعار لفظ الفرسان لعلمائه الّذين هم فرسان العلوم ورجالها لملاحظة شبههم بالفرس الجواد الّذي يجاري راكبه.

الخامس والعشرون: التصديق منهاجه ، وهي إلى آخره تفسير لما أُهمل تفسيره من منهاجه و مناره و غايته و مضماره و حلبته و سبقته ، و إنّما جعل الموت غاية : أي الغاية القريبة الّتي هي باب الوصول إلى الله تعالى ، و يحتمل أن يريد بالموت موت الشهوات فإنّها غاية قريبة للإسلام أيضاً ، و كذلك استعار لفظ السبقة للجنّة لكونها الثمرة المطلوبة والغاية من الدين كما أنّ السبقة غاية سعي المتراهنين .

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

حَتَّى أَوْرَى قَبَسًا لِقَابِسٍ ، وَأَنَارَ عَلَمًا لِحَابِسٍ ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ ، وَبَعِيثُكَ نِعْمَةً ، وَرَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً . اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسَمًا مِنْ عَدْلِكَ ، وَاجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ . اللَّهُمَّ أَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ ، وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَتَهُ ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَزَايَا ، وَلَا نَادِمِينَ ، وَلَا نَاكِبِينَ ، وَلَا نَاكِثِينَ ، وَلَا ضَالِّينَ ، وَلَا مُضِلِّينَ ، وَلَا مَفْتُونِينَ .

قال الشريف : وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم ، إلا أننا كررناه ههنا لما في الروايتين من الاختلاف .

أقول : القبس : الشعلة . و أورى : أشعل . والحابس : الواقف بالمكان . والنزل : ما يهيّأ للنزيل من ضيافة ونحوها . والسناء : الرفعة . والزمرة : الجماعة من الناس . والناكب: المنحرف من الطريق .

فقوله : حتّى أورى . إلى قوله : لحابس .

غاية لكلام مدح فيه النبيّ صلى الله عليه وآله و ذكر جهاده و اجتهاده في الدين للغاية المذكورة ، واستعار لفظ القبس لأنوار الدين المشتعلة لتقتبس منها نفوس الخلائق أنوار الهدى ، و كذلك استعار لفظ العلم وأسند إليه تنويره . ويفهم منه أمران :

أحدهما : أنّه أظهر أنواراً جعلها أعلاماً يهتدى بها في سبيل الله من حبسته [أجلسته خ] ظلمة الحيرة والشبهة عن سلوكها فهو واقف على ساق التحيّر كقوله تعالى « و إذا أظلم عليهم قاموا »(١) و كنّى بتلك الأعلام عن آيات الكتاب والسنن.

الثاني : أن يكون المراد بالأعلام أئمّة الدين، وتنويره لها تنوير قلوبهم بما ظهر عن نفسه القدسيّة من الكمالات والعلوم .

وقوله : فهو أمينك المأمون .

أى على وحيك، و شهيدك يوم الدين : أى على خلقك ، وبعيثك نعمةً : أى مبعوثك إليهم نعمة عليهم بهدايتهم به إلى جنّتك، ورسولك بالحقّ رحمة لعبادك أن يقعوا فى مهاوى الهلاك بسخطك « وما أرسلناك إلّا رحمةً للعالمين » ثمّ أردفه بالدعاء له صلى الله عليه وآله فدعا الله أن يقسم له مقسماً من عدله ، ولمّا كان مقتضى عدل الله أن يبلغ نفساً هى محلّ الرسالة أقصى ما استعدّت له من درجات الكمال ويعدّها بذلك لكمال أعلى ، دعا له أن يقسم له نصيباً وافراً من عدله يعدّه به للدرجات من رتب الوصول الغير المتناهية .

وقوله : واجزه مضاعفات الخير من فضلك .

لمّا دعا له بما يستحقّه زاد على ذلك فدعا له بأن يتفضّل عليه بزيادة من فضله فيضاعف له ما يستحقّه من الخيرات .

---

(١) ٢ - ١٩ .

وقوله : اللّهمّ أعل على بناء البانين بنائه .

دعاء ليشيّد مابناه من قواعدالدين على سائربناء البانين للشرائع من الرسل قبله ، وأراد ما بناه لنفسه من مراتب الكمال ، ولفظالبناء مستعار. ثمّ دعا أن يكرم لديه ما هيّأه له من الثواب الجزيل وأن يشرّفمقامه في حضرة قدسه وأن يؤتيه ما يتوسّل به إليه ويقرّبه منه ، وهوأن يكمّل استعداده لما هوأتمّ القوّة على الوصول إليه ، وأن يعطيه الرفعة ويشرّفه بالفضيلة التامّة ، وأن يحشره فيزمرتهعلى أحوال: غير خازين : أى بقبائح الذنوب ، ولانادمين على التفريط في جنب الله والتقصير في العمل بطاعته ، ولاناكبينمنحرفين عن سبيله إلى أحد طرفيالتفريط والإفراط ، ولاناكثين لعهوده و مواثيقه الّتى واثق بها خلقه أن يعبدوه و يخلصواله الدين ، و لاضالّين عنسواء السبيلالعدل ، ولامفتونين بشبهات الأباطيل . وبالله التوفيق .

ومنهافى خطاب أصحابه :

وَقَدْبَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ ، وَيُوصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ وَيُعَظِّمُكُمْ مَنْ لَافَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ ، وَيَهَابُكُمْ مَنْ لَايَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً ، وَلَا لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ ، وَقَدْتَرَوْنَ عُهُودَاللهِ مَنْقُوضَةً فَلَاتَغْضَبُونَ وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبَائِكُمْ تَأْنَفُونَ ، وَكَانَتْ أُمُورُ اللهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ ، وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ ، وَأَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللهِ فِي أَيْدِيهِمْ ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ وَايْمُ اللهِ لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ لَجَمَعَكُمُ اللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ .

أقول : صدّر هذا الفصلبتذكيرهمالمنزلة الّتى أكرمهم الله بها من الإسلام

والهداية للإيمان وما في تلك المنزلة من الفضل حتى عمت حرمتها إمائهم وجيرانهم وإن كانوا غير مسلمين، وعظمهم من لا فضل لهم عليه ولا يد لهم عنده، وهابهم من لا يخاف سطوتهم. وظاهر أن سبب ذلك كله هو كرامة الله لهم بالإسلام والهداية للإيمان. ثم لما قرر نعمة الله عليهم أردف ذلك بالتوبيخ لهم على التقصير في أداء واجب حقه، وأشار إلى ارتكابهم لبعض مسببات كفران نعمته و هو عدم إنكارهم لما يرون من نقض عهود الله وسكوتهم عليها وعدم غضبهم منها كالراضين بذلك، وأراد بذلك بغي البغاة وخروج الخوارج وسائر المنكرات التى وقعت من أهل الشام و غيرهم، خالفوا فيها أمر الله ونكثوا بيعته التى هى عهد من عهود الله عليهم فإن السكوت على مثل ذلك مع التمكن من إزالته وإنكاره بالجهاد منكر هم راكبوه، والواو في قوله: وأنتم للحال: أى وأنتم مع ذلك تأنفون لنقض ذمم آبائكم فكان يجب منكم بطريق الأولى أن تأنفوا لعهود الله أن تنقض وذممه أن تخفر. ثم ذكرهم تفريطهم وتهاونهم في الأمور التى كان الله سبحانه فرضها عليهم وجعلهم موردها ومصدرها من أمور الإسلام وأحكامه والتسلط به على سائر الناس وبكتهم بتمكينهم الظلمة في منزلتهم تلك من الإسلام، وأراد بالظلمة معاوية وقومه وبتمكينهم لهم تخاذلهم عنهم وإلقائهم أزمة الأمور إليهم بذلك، ولفظ الأزمة مستعار، والأمور التى سلموها إليهم أحوال بلاد الإسلام. كل ذلك بالتقصير عن مجاهدتهم. وعملهم بالشبهات: عملهم على وفق أوهامهم الفاسدة و آرائهم الباطلة التى يتوهمونها حججاً فيما يفعلون، وسيرهم في الشهوات: قطع أوقاتهم بالانهماك في مقتضيات الشهوة.

وقوله: وأيم الله. إلى آخره.

تحذير لهم وإنذار بما سيكون من بنى أمية من جمع الناس في بلائهم وشرورهم وعموم فتنتهم، و كنى باليوم عن مدة خلافتهم التى كانت شر الأوقات على الإسلام و أهله، و إنما نسب التفريق إليهم و الجمع إلى الله تقريراً لما سينزل به قدره من ابتلاء الخلق بهم فإنهم لو فرقوهم في أطراف البلاد لم يغنهم ذلك التفريق عن لحوق قدر الله لهم ولم يمنعهم من نزوله بجميعهم بما يراد لهم من الابتلاء بدولة بنى أمية

وشرورها ، وأحوال دولتهم مع الخلق خصوصاً الصالحين من عبادالله ظاهرة . و بالله العصمة والتوفيق .

١٠٤— ومن خطبة له عليه السلام

وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ ، وَانْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ ، تَحُوزُكُمُ الْجُفَاةُ الطَّغَامُ وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ ، وَيَآفِيخُ الشَّرَفِ ، وَأَنْفُ الْمُقَدَّمِ وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ ، وَلَقَدْ شَفَى ، وَحَاوِحَ صَدْرِي ، أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ ؛ حَسّاً بِالنِّضَالِ وَشَجْراً بِالرِّمَاحِ ، تَرْكَبُ أُولَاهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالْإِبِلِ الْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ ، تُرْمَى عَنْ حِيَاضِهَا ، وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا .

أقول : الجولة : الدولة . وانحاز :زلّ . والطغام : أوغاد الناس . واللهاميم : جمع لهموم وهوا لجواد من الناس . و اليئافيخ : جمع يأفوخ و هوأ على الدماغ . والوحاوح : جمع وحوحةوهو صوت فيه بحح يصدر عن المتألّم . والحسّ : الاستيصال. والنضال : جمع نضل السيف . والشجر : الطعن . وتذاد : تساق و تطرد .

وفي هذا الفصل تبكيت لأصحابه بانحيازهم عن عدوّهم و تقريع ، ثمّ تنحية و إغراء كيلا يعادوا إلى الفرّ ، و ذلك قوله : وقد رأيت . إلى قوله : أهل الشام : أى وقد رأيت تخاذلكم عنهم حتّى حاز كم أراذل أهل الشام مع أنّكم أهل الشرف و سادات العرب ، واستعار لفظ اليئافيخ لهم. إذكانوا بالنسبة إلى العرب في علوّهم و شرفهم كاليئافيخ بالنسبة إلى الأبدان ، و كذلك استعار لفظ الأنف والسنام ، ووجه المشابهة عزّهم وشرفهم كعزّة الأنف وتقدّمه ، وحسن الوجه به بالنسبة إلى باقى الأعضاء ، و كعزّة السنام وعلوّه بالنسبة إلى باقى أعضاء الجمل . ثمّ أردف ذلك

التبكيت والتذكير بالرذيلة بذكر فضيلتهم الّتي ختموا بها و هي حوزهم لعدوّهم بالأخرة كحوزهم لهم أوّلاً و إزالتهم عن مواقفهم كما أزالوهم و حسّهم استيصالاً وطعناً يركب مقدّمهم تاليهم ، وأوّلهم آخرهم ليثبتوا على مثل هذه الأفعال في مثل تلك المواقف ، وعدّ ذلك شفاء لوحاوح صدره ، و كنّى بالوحاوح عمّا كان يجده من التألّم بسبب انقهار أصحابه وغلب عدوّهم لهم و شبّههم في تضعضعهم وركوب بعضهم لبعض مولّين بالإبل العطاش الّتي اجتمعت على الحياض ليشرب ثمّ طردت ورميت عنها بالسهام و ذيدت عمّا وردته فإنّ طردها على ذلك الاجتماع يوجب لها أن يركب بعضها بعضاً ويقع بعضها على بعض . و بالله التوفيق .

١٠٥ — ومن خطبة له عليه السلام

وهى من خطب الملاحم

اَلْحَمْدُ للهِ الْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ ، وَالظّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ ، خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ ؛ إِذْ كَانَتِ الرَّوِيّاتُ لاتَليقُ إِلّا بِذَوِي الضَّمائِرِ . وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ خَرَقَ عِلْمُهُ باطِنَ غَيْبِ السُّتُراتِ ، وَأَحاطَ بِغُمُوضِ عَقائِدِ السَّرِيراتِ

أقول : حمد الله تعالى باعتبارات خمسة :

أحدها : اعتبار تجلّيه لخلقه بخلقه ، و قد علمت غير مرّة أنّ تجلّيه يعود إلى إجلاء معرفته من مصنوعاته لقلوب عباده حتّى أشبهت كلّ ذرّة من مخلوقاته مرآة ظهر فيها لهم . فهم يشاهدونه على قدر قبولهم لمشاهدته وتفاوت تلك المشاهدة بحسب تفاوت أشعّة ابصار بصائرهم .فمنهم من يرى الصنيعة أوّلاً والصانع ثانياً ، و منهم من يراهما معا ، و منهم من يرى الصانع أوّلاً ، و منهم من لايرى مع الصانع غيره.

الثاني : الظاهر لقلوبهم بحجّته : أى الواضح وجوده لقلوب منكريه بأوهامهم و ألسنتهم بقيام حجّته عليهم بذلك وهي إحكام الصنع وإتقانه في أنفسهم وإن احتاجوا إلى تنبيه ما كقوله تعالى « وفي أنفسكم أفلاتبصرون» و كذلك في ملكوت السماوات

والأرض كقوله تعالى « أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض و ما خلق الله من شيء »[1] الآية و هو قريب ممّا مرّ .

الثالث : خلقه الخلق بلا رويّة وفكر في كيفيّة خلقه ، و أشار إلى برهان سلب الرويّة عنه بقوله : إذ كانت الرويّات لاتليق إلّا بذوى الضمائر : أى بذى قلب و حواسّ بدنيّة . و ليس بذى ضمير في نفسه . والقياس من الشكل الثانى ، و ترتيبه كلّ روية فلذى ضمير ، ولاشيء من واجب الوجود بذى ضمير . فينتج أنّه لاشيء من الرويّة لواجب الوجود سبحانه . والمقدّمتان جليّتان ممّا سبق غير مرّة .

الرابع : كون علمه خارقاً لباطن غيب السترات ، و هو إشارة إلى نفوذه في كلّ مستتر وغائب بحيث لايحجبه ستر ولا يستره حجاب .

الخامس : كونه محيطاً بغموض عقائد السريرات : أى بما دقّ من عقائد أسرار القلوب كقوله تعالى « يعلم السرّ وأخفى » .

منها فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله وسلم :

أَخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمِشْكَاةِ الضِّيَاءِ ، وَذُؤَابَةِ الْعَلْيَاءِ ، وَسُرَّةِ الْبَطْحَاءِ ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ ، وَيَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ .

أقول : الذؤابة : ما تدلّى من الشعر و نحوه . و بطحاء مكّة : بسيط واديها. وسرّة الوادى : أشرف موضع فيه .

و في الفصل استعارات :

الأولى : لفظ الشجرة لصنف الأنبياء عليهم السلام ووجه المشابهة كون ذلك الصنف ذا ثمر و فروع؛ ففروعه أشخاص الأنبياء ، وثمره العلوم والكمالات النفسانيّة كما أنّ الشجرة ذات غصون و ثمر .

الثانية : لفظ المشكاة لآل إبراهيم ، ووجه المشابهة أنّ هؤلاء قد ظهرت منهم

(١) ٧ - ١٨٣ .

الأنبياء وسطع من بيتهم ضياء النبوّة ونور الهداية كما يظهر نور المصباح من المشكاة .

الثالثة : لفظ الذؤابة .ويشبه أن يشير به إلى قريش ، ووجه المشابهة تدلّيهم في أغصان الشرف والعلوّ عن آبائهم كتدلّي ذؤابة الشعر عن الرأس .

الرابعة : سرّة البطحاء ، وأشار به إلى اختياره من أفضل بيت في مكّة .

الخامسة : استعارة لفظ المصابيح للأنبياء أيضاً . ووجه المشابهة ظاهر. وقدمرّ غير مرّة كونهم مصابيح ظلمات الجهل .

السادسة : استعارة لفظ الينابيع ، ووجه المشابهة فيضان العلم والحكمة عنهم كفيضان الماء عن ينابيعه .

ومنها : طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ : قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ ، وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ يَضَعُ مِنْ ذٰلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ : مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ ، وَآذَانٍ صُمٍّ ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ ، فَهُمْ فِي ذٰلِكَ كَالْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ . قَدْ انْجَابَتِ السَّرَائِرُ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ الْحَقِّ لِخَابِطِهَا وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا ، وَظَهَرَتِ الْعَلَامَةُ لِمُتَوَسِّمِهَا . مَالِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلَا أَرْوَاحٍ ؟ وَأَرْوَاحاً بِلَا أَشْبَاحٍ ، وَنُسَّاكاً بِلَا صَلَاحٍ ، وَتُجَّاراً بِلَا أَرْبَاحٍ ، وَأَيْقَاظاً نُوَّماً ، وَشُهُوداً غُيَّباً ، وَنَاظِرَةً عَمْيَاءَ ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ ؟ رَايَةُ ضَلَالَةٍ ، قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا ، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا ، قَائِدُهَا خَارِجٌ عَنِ الْمِلَّةِ ، قَائِمٌ عَلَى الضِّلَّةِ ، فَلَا يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلَّا ثُفَالَةٌ كَثُفَالَةِ الْقِدْرِ ، أَوْ نُفَاضَةٌ كَنُفَاضَةِ الْعِكْمِ ، تَعْرُكُكُمْ ،

عَرْكَ الْأَدِيمِ ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمْ اُسْتِخْلَاصَ الْحَبَّةِ الْبَطِينَةِ ، مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ ، أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ الْمَذَاهِبُ وَتَتِيهُ بِكُمُ الْغَيَاهِبُ ، وَتَخْدَعُكُمُ الْكَوَاذِبُ ؟ ؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ ، فَاسْتَمِعُوهُ مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ ، وَاسْتَيْقِظُوا إِذْ هَتَفَ بِكُمْ ، وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ ، وَلْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ ؛ فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الْأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَآخِذَهُ ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ ، وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبُعِ الْعَقُورِ ، وَهَدَرَ فَنِيقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ ، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ ، وَتَحَابُّوا عَلَى الْكَذِبِ ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غَيْظًا وَالْمَطَرُ قَيْظًا ، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضًا ، وَتَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْضًا ، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِئَابًا ، وَسَلَاطِينُهُ سِبَاعًا ، وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالًا ، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتًا ، وَغَارَ الصِّدْقُ ، وَفَاضَ الْكَذِبُ ، وَاسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ ، وَتَشَاجَرَتِ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ ، وَصَارَ الْفُسُوقُ نَسَبًا ، وَالْعَفَافُ عَجَبًا ، وَلُبِسَ الْإِسْلَامُ لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلُوبًا

أقول : المواسم : المسامير الّتي تكوى . وانجابت : انكشفت . والمتوسّم : المتفرّس . والضلّة : الضلال . والعكم بكسر العين : العدل . والبطينة : الممتلية . والغياهب : الظلم. وتؤفكون: تصرفون. والفنيق : الفحل المكرم . و كظوم الجمل: سكوته عن الجرّة .

فقوله : طبيب دوّار بطبّه .

كناية عن نفسه كناية بالمستعار فإنّه طبيب مرضى الجهل و رذائل الأخلاق ، و كنّى بدورانه بطبّه تعرّضه لعلاج الجهّال من دائهم و نصب نفسه لذلك ، واستعار لفظ المراهم لما عنده من العلوم ومكارم الأخلاق ، ولفظ المواسم لما يتمكّن منه من إصلاح من لا ينفع فيه الموعظة والتعليم بالجلد و سائر الحدود . فهو كالطبيب الكامل الّذي يملك المراهم والأدوية والمكاوى لمن لا ينفع فيه المراهم يضع كلّ واحد من أدويته ومواسمه حيث الحاجة إليه من قلوب عمى يفتح عماها بإعدادها لقبول أنوار العلم والهداية لسلوك سبيل الله ، ومن آذان صمّ يعدّها لقبول المواعظ ، وتجوّز بلفظ الصمم في عدم انتفاع النفس بالموعظة من جهتها فهي كالصمّاء إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه. إذ كان الصمم يستلزم ذلك العدم ، و من ألسنة بكم يطلقها بذكر الله والحكمة، وأطلق لفظ البكم مجازاً في عدم المطلوب منها بوجودها وهو التكلّم بما ينبغى فإنّها لفقدها ذلك المطلوب كالبكم .

و قوله : متّبع .

صفة لطبيب ، ومواضع الغفلة ومواطن الحيرة كناية عن قلوب الجهّال [الجهلة خ] ولذلك أشار إليهم بأنّهم لم يستضيؤا بأضواء الحكمة : أى لم يكسبوا شيئاً من العلوم والأخلاق و لم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة الّتي تثقب سترات الحجب كما يستخرج بالزناد النار .

و قوله : فهم في ذلك: أى في عدم استضائتهم بأضواء الحكمة كالأنعام السائمة و الصخور القاسية . و وجه المشابهة بينهم وبين الأنعام استوائهم في الغفلة والانخراط في سلك الشهوة والغضب دون اعتبار شيء من حظّ العقل وعدم التقيّد به كما لا قيد

للأنعام السائمة . وبينهم وبين الصخور قساوة قلوبهم وعدم لينها وخشيتها من ذكر الله وآياته كما قال تعالى « ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة »(١)

و قوله : قد انجابت السرائر لأهل البصائر .

إشارة إلى انكشاف ما يكون بعده لنفسه القدسيّة و لمن تفرّس من اُولى التجارب والفطن السليمة ممّا يكون من ملوك بنى اُميّة وعموم ظلمهم ، ويحتمل أن يريد بالسرائر أسرار الشريعة وانكشافها لأهلها .

و قوله : ووضحت محجّة الحقّ لخابطها .

إشارة إلى وضوح الشريعة و بيان طريق الله ، وفايدة القضيّة الاُولى التنبيه على النظر في العواقب ، و فائدة الثانية الجذب إلى اتّباع الدين و سلوك سبيل الله إذ لا عذر للخابطين في جهالاتهم بعد وضوح دين الله .

و قوله : وأسفرت الساعة عن وجهها :

أى بدت مقبلة ، ولمّا كان وجه الشيء أوّل ما يبدو منه و ينظر كنّى به عمّا بدا من أمر الساعة وهو قيام الفتن وإقبالها .

وقوله : وظهرت العلامة لمتوسّمها :

أى علامة قيام الساعة و هي الفتن المتوقّعة المتفرّسة (المتغرّسة خ) من بنى اُميّة و من بعدهم ، و ذكره لإسفار الساعة و علاماتها تهديد و ترغيب في العمل لها .

و قوله : مالى أراكم أشباحاً بلا أرواح .

شبّهم في عدم انتفاعهم بالعقول و عدم تحريك المواعظ والتذكير لهم بالجمادات الخالية من الأرواح ، كما قال تعالى « كأنّهم خشب مسنّدة » (٢).

و قوله : وأرواحاً بلا أشباح .

قيل فيه وجوه : الأوّل : أنّ ذلك مع ما قبله إشارة إلى نقصانهم : أى أنّ منهم من هو شبح بلا أرواح كما سبق ، و من كان له روح وفهم فلاقوّة له بأمر الحرب

(١) ٢ – ٦٩ . (٢) ٦٣ – ٤ .

ولا نهضة معه فهو كروح خلت عن بدن ، فهم في طريق تفريط وإفراط .

الثاني: قيل : كنّى بذلك عن عدم نهضة بعضهم إلى الحرب دون بعض إذا دعوا إليه كما لا يقوم البدن بدون الروح ولا الروح بدون البدن .

الثالث : قال بعضهم : أراد أنّهم إن خافوا ذهلت عقولهم وطارت ألبابهم فكانوا كالأجسام بلا أرواح و إن أمنوا تركوا الاهتمام بأمورهم وضيّعوا الفرص ومصالح الإسلام حتّى كأنّهم في ذلك أرواح لا تعلّق لها بما يحتاج الأجسام إليه .

و قوله : ونسّاكاً بلا صلاح .

إشارة إلى أنّ من تزهّد منهم فزهده ظاهريّ ليس عن صلاح سريرته . وقيل: أراد من تزهّد منهم عن جهل فإنّه وإن عمل إلّا أنّ أعماله لمّا لم تكن عن علم كانت ضايعة واقعة على غير الوجه المرضيّ والمأمور به . كما روى عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : الزاهد الجاهل مسخرة الشيطان .

و قوله : وتجّاراً بلا أرباح .

إشارة إلى من يتّجر منهم بالأعمال الفاسدة و هو يعتقد كونها قربة إلى الله مستلزمة لثوابه وليس كذلك ، و لفظ التجّار والربح مستعاران ، ووجه الاستعارتين ظاهر .

و قوله : وأيقاظاً نوّماً .

كنّى بنومهم عن نوم نفوسهم في مراقد الطبيعة و مهاد الغفلة فهم بهذا الاعتبار أيقاظ العيون نوّم العقول .

و قوله : و شهوداً غيّباً :

أى شهوداً بأبدانهم غيّباً بعقولهم عن التفطّن لمقاصد الله والتلقّي لأنوار من الموعظة والأوامر الإلهيّة .

و قوله : وناظرة عمياء .

أراد و عيوناً ناظرة عمياء : أى عن تصفّح آثار الله للعبرة بها والانتفاع في أمر الآخرة فهي تشبه العمى في عدم الفائدة بها .

و قوله : و سامعةً صمّاء :

أى : وآذاناً سامعة للأصوات صمّاء عن نداء الله والنافع من كلامه فهي تشبه الصمّ في عدم الفائدة المقصودة .

و قوله : و ناطقةبكماء :

أى : و ألسنة ناطقة بكماءعن النطق بما ينبغى فأشبهت البكم ، ولفظ العمياء والصمّاء والبكماء مستعارللمشابهات المذكورة، وقدراعى فى ذلك التضادّ في الألفاظ وأراد ذوى عيون وآذان وألسنة بالصفات المذكورة : أى خالية عن الفائدة .

وقوله : راية ضلالة [رأيت ضلالة خ] .

لمّانبّههم وأيقظهم بالتوبيخ والتقريع والتنقيص ألقى إليهم ماينبغى أن يحترزوا منه و يأخذوا اُهبّتهم له من ظهور الفتن المتوقّعة لبنى اُميّـة ، و كنىّ عن ظهورها بقوله : راية ضلالة ، و التقدير هذه راية ضلالة ، و كنّى بقيا مها على قطبها عن اجتماع أهلهاعلى قائدالفتنةورئيسهم فيها، و كنّى بالقطب عنه كناية بالمستعار . وتفرّقها وتشعّبها انتشارها في الآفاق وتولّدفتن اُخرىعنها. ثمّ استعار لفظ الكيل لأخذهم وإهلاكهم زمرة زمرة ملاحظة لشبهها بالكيّال في أخذه لمايكيل جملة جملة، ورشّح بلفظ الصاع، و كذلك استعارلفظ الخبط لايقاع السيف و الأحكام الجائرة فيهم على غير قانون دينىّ ولانظام حقّ لشبهها بالبكرة النفور من الا بل الّتى تخبط ما تلقاه بيديها ، و رشّح الاستعارة بذكر الباع . ولم يقل بيدها لأنّ ذكر الباع أبلغ في البعير عن قوّة الخبط .

و قوله : قائدها خارج عن الملّة :

أى خارج عن الدين و الشريعة فاسق عن أمر الله قائم على الضلّة : أى مقيم على الضلالة .

وقوله . فلايبقى يومئذ منكم إلّاثفالة كثفالة القدر .

استعار لفظ الثفالة و كنّى به عمّن لاخير فيه من الأرذال و من لاذكر له و لاشهرة ، وشبّه اُولئك بثفالة القدر فى كونهم غير معتبرين ولاملتفت إليهم، و كذلك

نفاضة العرك وهوما يبقى فى أسفل العدل من أثر الزاد أو الحنطة ونحوها. ثمّ استعار لفظ العرك لتقليب الفتن لهم ورميهم وتذليلهم بها كما يذلّل ويليّن الأديم ، و كذلك استعار لفظ الدوس لإهانتهم لهم و شدّة امتهانهم إيّاهم بالبلاء ، و شبّه ذلك بدوس الحصيد من الحنطة ونحوها وهوظاهر ، ثمّ أشار إلى استقصاء أهل تلك الضلالة على المؤمنين واستخلاصهم لهم لإيقاع المكروه بهم ، وشبّه ذلك الاستخلاص باستخلاص الطير الحبّة السمينة الممتلية من الفارغة الهزيلة و ذلك أنّ الطير ترتاز بمنقاره سمين الحبّ من هزيله فيخلّى عن الهزيل منه . ثمّ أخذ يسألهم على سبيل التهكّم والتقريع لهم ببقائهم على غوايتهم فسألهم عن غاية أخذ مذاهب الضلال، وعمّا تتيه بهم ظلم الجهالات ، وعمّا تخدعهم أوهامهم الكواذب جاذباً لهم إليه ، منكراً عليهم مطلوباً آخر غير الله تعالى ، رادعاً لهم من طريق غير شريعته . ثمّ سألهم عن الجهة الّتى يؤتون منها : أى من أين أتتكم هذه الأمراض. وهو عليه السلام يعلم أنّ الداخل إنّما دخل عليهم من جهلهم لكن هذا وجه من البلاغة و ذكرنا أنّه يسمّى تجاهل العارف وهو كقوله تعالى « فأين تذهبون » و كذلك قوله : فأنّى تؤفكون : أى متى يكون انصرافكم عمّا أنتم عليه من الغفلة .

وقوله : ولكلّ أجل كتاب ولكلّ غيبة إياب .

تهديد بالإشارة إلى قرب الموت و أنّهم بمعرض أن يأخذهم على غفلتهم فيكونوا من الأخسرين أعمالاً . ثمّ أمرهم باسماع الموعظة منه. والربّانىّ: العالم علم الربوبيّة المتبحّر فيه . ثمّ باحضار قلوبهم و هو التفاتهم بأذهانهم إلى مايقول . ثمّ بالاستيقاظ من نوم الغفلة عند هتفه بهم وندائه لهم. وقوله: وليصدق رائد أهله. مثل نزّله هنا على مراده ، وأصله :لايكذب رائد أهله . فاستعار لفظ الرائد للفكر ، ووجه المثل أنّ الرائد لمّا كان هو الّذى يبعثه القوم لطلب الكلاء والماء أشبه الفكر في كونه مبعوثاً من قبل النفس فى طلب مرعاها و ماء حياتها من العلوم و سائر الكمالات فكنّى به عنه ، وأهله على هذا البيان هو النفس فكأنّه عليه السلام قال : فلتصدق أفكاركم و متخيّلاتكم نفوسكم ، وصدقها إيّاها تصرّفها على حسب إشارة العقل فيما تقوله وتشير به دون

التفات إلى مشاركة الهوى فإنّ الرائد إذا أرسلته النفس عن مشاركة ميل شهوانيّ كذبها و دلّيها بغرور ، و يحتمل أن يريد بالرائد أشخاص من حضر عنده فإنّ كلاًّ منهم له أهل وقبيلة يرجع إليهم فأمرهم أن يصدقهم أمرلهم بتبليغ ماسمع على الوجه الّذي ينبغي والنصيحة به والدعوة إليه كما يرجع طالب الكلاء والماء الواجد لهما إلى قومه فيبشّرهم به ويحملهم إليه .

وقوله : و ليجمع شمله :

أى ما تفرّق و تشعّب من خواطره في اُمور الدنيا ومهمّاتها، وليحضر ذهنه : أى و ليوجّهه إلى ما أقول .

وقوله : ولقد فلق لكم الأمر فلق الخرزة :

أى أوضح لكم أمر ما جهلتموه من الدين وأحكام الشريعة ، و قيل : أمرما سيكون من الفتن . وشقّ لكم ظلمة الجهل عنه كايتّضح باطن الخرزة بشقّها،وقرفه قرف الصمغة : أى ألقى إليكم علمه بكلّيّته والنصيحة فيه حتّى لم يدّخر عنكم شيئاً كمايقرف الصمغة قارفها ، يقال : تركته على مثل مقرف الصمغة ،إذا لم تترك له شيئاً لأنّ الصمغة تقتلع من شجرها حتّى لاتبقى عليها علقة .

وقوله : فعند ذلك .

متّصل بقوله : من بين هزيل الحبّ : أى فعند ما تفعل بكم تلك الفتن وراية الضلال ما تفعل قد أخذ الباطل مآخذه : أى استحكم وثبت وأخذ مقارّه ، و كذلك يركب الجهل مراكبه : أى كان ذلك وقت حملته ملاحظة لتشبيهه بالمستعدّ للغارة قد ركب خيله ، و كنّى بمراكبه عن الجهّال .

وقوله : وعظمت الطاغية :

أى الفتنة الطاغية الّتي تجاوزت في عظمها الحدّ و المقدار ، و قلّت الراعية : أى رعاة الدين وأهله الّذين يحمون حوزته : أى الفرقة الراعية ، و روى الداعية : أى الفرقة الداعية إلى الله .

وقوله : وصال الدهر صيال السبع العقور .

استعار وصف الصيال للدهر ملاحظة لشبهه بالسبع ، و وجه الاستعارة كون الدهر مبدءاً قويّاً لتلك الشرور الواقعة فأشبه السبع الضارى العقور في شدّة صياله . ثمّ استعار لفظ الفنيق للباطل ورشّح الاستعارة بذكر الهدير والكظوم ، ووجه المشابهة ظهور الباطل وإكرام أهله و تمكّنهم من الأمر والنهى كالفحل المكرّم ذى الشقشقة ، وعنى بالهدير ظهورهم و تمكّنهم وبالكظوم خفاء الباطل و خمول أهله في زمان ظهور الحقّ و قوّته .

وقوله : و تواخى الناس على الفجور :

أى كان اتّصالهم ومحبّة بعضهم لبعض على الفجور واتّباع الأهواء . وتهاجروا على الدين : أى من أحسّوا منه قوّة في دينه هجروه ورفضوه . فهجرهم . والتحابّ على الكذب داخل تحت التواخى على الفجور ، والتباغض على الصدق داخل تحت التهاجر على الدين ، والغرض بتعداد ذلك تنفير السامعين عن تلك الرذايل وتخويفهم بوقوعها .

و قوله : فإذا كان ذلك كان الولد غيظاً :

أى إذا اُحدث ذلك اشتغل كلّ امرء بنفسه لينجو بها . فيكون الولد الّذي هو أعزّ محبوب غيظاً لوالده : أى من أسباب محنته و غيظه ، و أطلق لفظ الغيظ عليه إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب .

وقوله : والمطر قيظاً .

جعل وقوع المطر قيظا من علامات تلك الشرور وهو أيضاً ممّا يعدّ شرّاً لأنّه لا يثير نباتاً ولا يقوم عليه زرع و يفسد الثمار القائمة ، و كأنّه كنّى به عن انقلاب أحوال الخير شروراً .

وقوله : وكان أهل ذلك الزمان . إلى قوله : أمواتاً .

أهل كلّ زمان ينقسمون إلى ملوك أكابر ، وأوساط ، وأداني . فإذا كان زمان العدل كان أهله في نظام سلكه فيفيض عدل الملوك على من يليهم ثمّ بواسطتهم على من يليهم حتّى ينتهي إلى أداني الناس ، وإذا كان زمان الجور فاض الجور كذلك فكانت السلاطين سباعاً ضارية مفترسة لكلّ ذى سمن ، و كان أهل ذلك الزمان وأكابره ذئاباً ضارية

على أوساط الناس و كانت الأوساط أكّالاً لهم ، وكانت الفقراء أمواتاً لانقطاع مادّة حياتهم ممّن هو أعلى منهم رتبةً ، و تجوّز بلفظ الأموات عن غاية الشدّة والبلاء لكون الموت غاية ذلك إطلاقاً لاسم السبب الغائيّ على مسبّبه . ثمّ استعار لفظ الغيض لقلّة الصدق والفيض لظهور الكذب و كثرته ملاحظة لشبهها بالماء ، واستعمال المودّة باللسان إشارة إلى النفاق وهو التودّد بالقول مع التباعد بالقلوب و عقدها على البغض و الحسد ، واستعار لفظ التشاجر بالقلوب ملاحظة لشبهها بالرماح فكما أنّ الرمح يشجر به فكذلك قلوب بعضهم تعقد على هلاك بعض و الطعن فيه بأنواع المهلكات ، و كذلك لفظ النسب للفسوق ، و وجه المشابهة كون الفسق بينهم يومئذ هو سبب التواصل و التزاور و التحابّ كما أنّ النسب كذلك ، و صار العفاف عجباً لقلّة وجوده و ندرته بينهم ، و لبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً من أحسن التشبيه وأبلغه و المشبّه به هيهنا هو لبس الفرو و وجه الشبه كونه مقلوباً ؛ و بيانه أنّه لمّا كان الغرض من الإسلام أن يكون باطناً ينتفع به القلب و يظهر فيه منفعته فقلّب المنافقون غرضه و استعملوه بظاهر ألسنتهم دون قلوبهم أشبه قلبهم له لبس الفرو . إذ كان أصله أن يكون حمله ظاهراً لمنفعة الحيوان الّذي هو لباسه فاستعمله الناس مقلوباً . وبالله التوفيق .

١٠٦ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لَهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ : غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَمَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ ، وَمَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ ، لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ ، لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ ، وَلَا

اَسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ ، وَلَا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ ، وَلَا يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ ، وَلَا يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ ، كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ ، أَنْتَ الْأَبَدُ لَا أَمَدَ لَكَ ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَى لَا مَحِيصَ عَنْكَ ، وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ لَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ ، سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ ، وَمَا أَصْغَرَ عِظَمَهُ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ ، وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ ، وَمَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ ، وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ .

أقول : هذا الفصل من أشرف الفصول المشتملة على توحيد الله و تنزيهه وإجلاله و تعظيمه .

و اللهف : الحزن ، والملهوف : المظلوم يستغيث . والأبد : الدائم . والأمد: الغاية . و حاص عن الشيء : عدل و هرب . والمحيص : المهرب .

و فيه اعتبارات ثبوتيّة وسلبيّة: أمّا الثبوتيّة فعشرة :

الأوّل : خشوع كلّ شيء له ، و الخشوع مرادهنا بحسب الاشتراك اللفظيّ . إذ الخشوع من الناس يعود إلى تطأ منهم و خضوعهم لله و من الملائكة دؤو بهم في عبادتهم ملاحظةً لعظمته ، و من سائر الممكنات انفعالها عن قدرته و خضوعها في رقّ الإمكان و الحاجة إليه ، و المشترك و إن كان لا يستعمل في جميع مفهوماته

حقيقة فقد بيّنّا أنّه يجوز استعماله مجازاً فيها بحسب القرينة و هي هنا إضافته إلى كلّ شيء أو لأنّه في قوّة المتعدّد كقوله تعالى « إنّ الله و ملائكته يصلّون على النبيّ » [1] فكأنّه قال: الملك خاشع له والبشر خاشع له، و هذا الاعتبار يستلزم وصفه تعالى باعتبارين: أحدهما: كونه عظيماً، و الثاني: كونه غنيّاً: أمّا العظيم فينقسم إلى مايكبر حاله في النفس ولكن يتصوّر أن يحيط بكماله العقول و يقف على كنه حقيقته، و إلى ما يمكن أن يحيط به بعض العقول و إن فات أكثرها، و هذان القسمان إنّما يطلق عليهما لفظ العظمة بالإضافة، وقياس كلّ إلى ما دونه فيما هو عظيم فيه، وإلى مالا يتصوّر أن يحيط به العقل أصلاً و ذلك هو العظيم المطلق الّذي جاوز حدود العقول أن يقف على صفات كماله و نعوت جلاله، و ليس هو إلّا الله تعالى، و أمّا الغنيّ فسنذكره.

الثاني: قيام كلّ شيء به. و اعلم أنّ جميع الممكنات إمّا جواهر أوأعراض وليس شيء منها يقوم بذاته في الوجود: أمّا الأعراض فظاهر لظهور حاجتها إلى المحلّ الجوهريّ، و أمّا الجواهر فلأنّ قوامها في الوجود إنّما يكون بقيام عللها وتنتهي إلى الفاعل الأوّل جلّت عظمته فهو إذن الفاعل المطلق الّذي به قوام كلّ موجود في الوجود، و إذ ثبت أنّه تعالى غنيّ عن كلّ شيء في كلّ شيء و ثبت أنّ به قوام كلّ شيء ثبت أنّه القيّوم المطلق. إذ مفهوم القيّوم هو القائم بذاته المقيم لغيره فكان هذا الاعتبار مستلزماً لهذا الوصف.

الثالث: كونه تعالى غنى كلّ فقير، و يجب أن يحمل الفقر على ما هو أعمّ من الفقر المتعارف و هو مطلق الحاجة ليعمّ التمجيد كما أنّ الغنى هو سلب مطلق الحاجة، و إذ ثبت أنّ كلّ ممكن فهو مفتقر في طرفيه منته في سلسلة الحاجة إليه، و أنّه تعالى المقيم له في الوجود ثبت أنّه تعالى رافع حاجة كلّ موجود بل كلّ ممكن و هو المراد بكونه غنى له، وأطلق عليه تعالى لفظ الغنى و إن كان الغنى به مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب.

(١) ٣٣ - ٥٦.

الرابع : كونه عزّ كلّ ذليل ، و قدسبق أنّ معنى العزيز هو الخطيرالّذى يقلّ وجود مثله ويشتدّ الحاجة ويصعب الوصول إليه فما اجتمعت فيه هذه المفهومات الثلاثة سمّى عزيزاً ، وسبق أيضاً أنّ هذه المفهومات مقولة بالزيادة و النقصان على ما تصدق عليه ، و أنّه ليس الكمال في واحد منها إلّا لله سبحانه ، و يقابله الذليل و ثبت أنّه تعالى عزّ كلّ موجود لأنّ كلّ موجود سواه إنّما يتحقّق فيه هذه المفهومات الثلاثة منه سبحانه الناظم لسلسلة الوجود والواضع لكلّ من الموجودات في رتبته من النظام الكلّي فمنه عزّ كلّ موجود ، و كلّ موجود ذليل في رقّ الإمكان و الحاجة إليه في إفاضة المفهومات الثلاثة عليه فهو إذن عزّ كلّ ذليل و إطلاق لفظ العزّ عليه كإطلاق لفظ الغنى .

الخامس : و قوّة كلّ ضعيف : القوّة تطلق على كمال القدرة و على شدّة الممانعة و الدفع و يقابلها الضعف و هما مقولان بالزيادة و النقصان على من يطلقان عليه ، وإذ ثبت أنّه تعالى مستند جميع الموجودات والمفيض على كلّ قابل مايستعدّ له و يستحقّه فهو المعطى لكلّ ضعيف عادم القوّة من نفسه كماله و قوّته فمنه قوّة كلّ ضعيف بالمعنيين المذكورين لها ، و روى أنّ الحسن قال : و اعجبا لنبىّ الله لوط عليه السلام إذ قال لقومه : لوأنّ لى بكم قوّة أوآوى إلى ركن شديد أتراه أراد ركناً أشدّ من الله تعالى . و إطلاق لفظ القوّة عليه كإطلاق لفظ الغنى أيضاً .

السادس : كونه مفزع كلّ ملهوف : أى إليه ملجأ كلّ مضطرّ في ضرورته حال حزن أو خوف أو ظلم كما قال تعالى «ثمّ إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون»(١) « و إذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلّا إيّاه » (٢) فكلّ مفزع و ملجأ غيره فلمضطرّ لا لكلّ مضطرّ و مجاز لا حقيقة وإضافيّ لاحقيقىّ ، و هذا الاعتبار يستلزم كمال القدرة لله لشهادة فطرة ذى الضرورة بنسبة جميع أحوال وجوده إلى جوده و يستلزم كمال العلم لشهادة فطرته باطّلاعه على ضرورته ، و كذلك كونه سميعاً وبصيراً و خالقاً و مجيباً للدعوات وقيّوماً ونحوها من الاعتبارات.

---

(١) ١٦-٣٣ (٢) ١٧-٦٩ .

السابع : كونه من تكلّم سمع نطقه .

الثامن: من سكت علم سرّه ، وهما إشارتان إلى وصفي السميع والعليم ، ولمّا كان السميع يعود إلى العالم بالمسموعات استلزم الوصفان إحاطته بما أظهر العبد و أبداه و ما أسرّه و أخفاه في حالتي نطقه وسكوته ، و قد سبقت الإشارة إلى ذلك .

التاسع : و من عاش فعليه رزقه .

العاشر : و من مات فإليه منقلبه ، وهما إشارتان إلى كونه تعالى مبدء للعباد في وجودهم و مايقوم به عاجلاً ومنتهى و غاية لهم آجلاً فإليه رجوع الأحياء منهم و الأموات ، و به قيام وجودهم حالتي الحياة و المماة .

الحادي عشر من الاعتبارات السلبيّة : لم تراك العيون فتخبر عنك . و فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى « إيّاك نعبد » و هذا الالتفات و عكسه يستلزم شدّة عناية المتكلّم بالمعنى المنتقل إليه ، و حسنه معلوم في علم البيان ، واعلم أنّ هذا الكلام لابدّ فيه من تجوّز أو إضمار، وذلك إن جعلنا الرائي هو العيون كما عليه اللفظ ويصدق حقيقة لزم إسناد قوله فتخبر إليها مجازاً لكون الإخبار ليس لها ، وإن راعينا عدم المجاز لزم أن يكون التقدير: لم تراك العيون فتخبر عنك أربابها، أو لم تراك أرباب العيون فتخبر عنك. فيلزم الإضمار ويلزم التعارض بينه وبين المجاز لكن قد علمت في مقدّمات اُصول الفقه: أنّهما سيّان في المرتبة ، و غرض الكلام تنزيهه تعالى عن وصف المشبّهة ونحوهم و إخبارهم عنه بالصفات الّتي من شأنها أن يخبر عنها الراءون عن مشاهدة حسيّة مع اعترافهم بأنّ إخبارهم ذلك من غير رؤية ، ولمّا كان الإخبار عن المحسوسات و ما من شأنه أن يحسّ إنّما يصدق إذا استند إلى الحسّ لاجرم استلزم سلبه لرؤية العيون له سلب الإخبار عنه من جهتها و كذب الإخبار عنه بما لايعلم إلّا من جهتها، ويخبر وإن كان في صورة الإثبات إلّا أنّه منفيّ لنفي لازمه وهي رؤية العيون له . إذ كان الإخبار من جهتها يستلزم رؤيتها ، ونصبه بإضمار أن عقيب الفاء في جواب النفي ، و الكلام في تقدير شرطيّة متّصلة صورتها لوصحّ إخبار العيون عنك لكانت قد رأتك لكنّها لم تراك فلم تصحّ أن تخبر عنك ، فأمّا قوله : بل

كنت قبل الواصفين من خلقك. فتعليل لسلب الرؤية المستلزم لسلب الإخبار عنها بقياس ضمير تقدير كبراه : و كلّ من كان قبل واصفيه لم يروه فلم يخبروا عنه، وهذه الكبرى من المظنونات المشهورات في بادی النظر ، وهی کما علمت من موادّ قياس الخطيب و إن كانت إذا تعقّبت لم يوجد كلّيّة . إذ ليس كلّما وجد قبلنا بطل إخبارنا عنه ، و يمكن حمل هذا القول على وجه التحقيق و هو أن نقول : المراد بقبليّته تعالى للواصفين قبليّة وجوده بالعليّة الذاتيّة و هو بهذا الاعتبار مستلزمة لتنزيهه تعالى عن الجسميّة ولواحقها المستلزم لامتناع الرؤية المستلزم لكذب الإخبار عنه من وجه المشابهة الحسيّة .

الثاني عشر : كونه لم تخلق الخلق لوحشة ، و هو إشارة إلى تنزيهه عن الطبع المستوحش و المستأنس ، و قد سبق بيان ذلك في الخطبة الاُولى .

الثالث عشر : و لا استعملتهم لمنفعة : أی لم يكن خلقه لهم لمنفعة تعود إليه ، و قد سبق بيان أنّ جلب المنفعة و دفع المضرّة من لواحق المزاج ـ المنزّه قدس الله تعالى عنه ـ .

الرابع عشر : ولا يسبقك من طلبت : أی لا يفوتك هربا .

الخامس عشر : ولا يفلتك من أخذت : أی لا يفلت منك بعد أخذه فحذف حرف الجرّ ، و عدّى الفعل بنفسه كما قال تعالى « و اختار موسى قومه » و هذان الاعتباران يستلزمان كمال ملكه وتمام قدرته و إحاطة علمه . إذ أیّ ملك فرض فقد ينجو من يده الهارب و يفلت من أسره المأخوذ بالحيلة و نحوها .

السادس عشر : ولا ينقص سلطانك من عصاك .

السابع عشر : ولا يزيد في ملكك من أطاعك ، وهما تنزيه له تعالى من أحوال ملوك الدنيا . إذ كان كمال سلطان أحدهم بزيادة جنوده وكثرة مطيعه و قلّة المخالف و العاصی له ، و نقصان ملكه بعكس ذلك و هو سبب لتسلّط أعدائه عليه وطمعهم فيه. فأمّا سلطانه تعالى فلمّا كان لذاته و كمال قدرته مستولياً و هو مالك الملك يؤتی الملك من يشاء و ينزع الملك ممّن يشاء و يذلّ من يشاء بيده الخير وهو

على كلّ شيء قدير . لم يتصوّر خروج العاصي بعصيانه عن سلطانه حتّى يؤثّر في نقصانه ، و لم يكن لطاعة الطائع تأثير في زيادة ملكه .

الثامن عشر : ولا يردّ أمرك من سخط قضائك. يريدبالأمر هنا القدر النازل على وفق القضاء الإلهيّ و هو تفصيل القضاء كما بيّناه ، و هذا الاعتبار أيضاً يستلزم تمام قدرة الله و كمال سلطانه . إذ كان ما علم وجوده فلابدّ من وجوده سواء كان محبوباً للعبد أو مكروهاً له كما قال تعالى « و يأبى الله إلّا أن يتمّ نوره و لو كره الكافرون » [1] « إنّ عذاب ربّك لواقع ماله من دافع » [2] « وإن يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له إلّا هو و إن يمسسك بخير فهو على كلّ شيء قدير » [3] وإنّما خصّص المتسخّط للقضاء بالعجز عن ردّ الأمر . إذ كان من شأنه أن لو قدر لردّ القدر .

التاسع عشر : ولا يستغنى عنك من تولّى عن أمرك. أراد بالأمر ههنا ظاهره ، و هو أمر عباده بطاعته و عبادته ، و ظاهر أنّ من تولّى عن أمر الله فهو إليه أشدّ فقراً وأنقص ذاتاً ممّن تولّى أمره ، وهذا الاعتبار يستلزم كمال سلطانه وغناه المطلق .

العشرون : كلّ سرّ عندك علانية .

الحادى و العشرون : و كلّ غيب عندك شهادة . هذان الاعتباران يستلزمان كمال علمه وإحاطته بجميع المعلومات ، ولمّا كانت نسبة علمه تعالى إلى المعلومات على سواء لاجرم استوى بالنسبة إليه السرّ والعلانية ، و أيضاً فان السرّ و الغيب إنّما يطلقان بالقياس إلى مخفيّ عنه و غائب عنه و هى القلوب المحجوبة بحجب الطبيعة و أستار الهيئات البدنيّة و الأرواح المستولى عليها نقصان الإمكان الحاكم عليها بجهل أحوال ما هو أكمل منها ، و كلّ ذلك ممّا تنزّه قدس الصانع عنه .

الثانى و العشرون : أنت الأبد فلا أمد لك : أى أنت الدائم فلا غاية لك يقف عندها وجودك ، و ذلك لاستلزام وجوب وجوده امتناع عدمه و انتهائه بالغاية ، و قال بعض الشارحين : أراد أنت ذو الأبد كما قيل : أنت خيال . أى ذو خيال من الخيلاء وهو الكبر . وأقول في تقرير ذلك : إنّه لمّا كان الأزل والأبد لازمين لوجود

(١) ٩ – ٣٢ (٢) ٥٢ – ٧ (٣) ٦ – ١٧ .

الله تعالى أطلق الأ بد على وجوده مجازاً للمبالغة في الدوام وكان أحدهما هو بعينه الآخر كقولهم: أنت الطلاق. للمبالغة في البينونة .

الثالث و العشرون : وأنت المنتهى فلا محيص عنك .

الرابع و العشرون : و أنت الموعد فلا منجا منك إلاّ إليك : أمّا أنّه تعالى المنتهى و الموعد فلقوله تعالى « و إنّ إلى ربّك المنتهى » (١) و قوله « إلى الله مرجعكم جميعاً » و المنتهى في كلامه عليه السلام الغاية ، و قد سبق بيان أنّه تعالى غاية الكلّ و مرجعه و أمّاأنّه لامعدل عنه ولا ملجأ منهإلّا إليه فإشارة إلى ضرورة لقائه كقوله تعالى « و ظنّوا أن لا ملجأ من الله إلّا إليه » .

الخامس و العشرون : بيدك ناصية كلّ دابّة : أى في ملكك وتحت تصريف قدرتك كقوله تعالى «ما من دابّة إلّا هو آخذ بناصيتها » (٢) و إنّما خصّتالناصية لحكم الوهم بأنّه تعالى في جهة فوق فيكون أخذه بالناصية ، و لأنّها أشرف ما في الدابّة فسلطانه تعالى على الأشرف يستلزم القهر و الغلبة و تمام القدرة .

السادس و العشرون : و إليك مصير كلّ نسمة ، و قد سبق أنّه تعالى منتهى الكلّ ، و إليه مصيره .

و قوله : سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك . إلى آخره .

تنزيه و تقديس لله تعالى عن أحكام الأوهام على صفاته بشبهيّة مدركاتها و تعجّب في معرض التمجيد من عظم ما يشاهد من مخلوقاته كأطباق الأفلاك والعناصر و ما يتركّب عنها ،ثمّ من حقارة هذهالعظمة بالقياس إلى ما تعبّره العقول من مقدوراته و ما يمكن في كمال قدرته من الممكنات الغير المتناهية ، و ظاهر أنّ نسبة الموجود إلى الممكن في العظم و الكثرة يستلزم حقارته و صغره ،ثمّ من هول ما وصلت إليه العقول من عظمة ملكوته، ثمّ من حقارته بالقياس إلى ما غاب عنها و حجبت عن إدراكه بأستار القدرة و حجب العزّة من الملأ الأعلىوسكّانحظائر القدس وحالالعالم العلوي ،ثمّمنسبوغ نعمة الله تعالى على عباده في الدنيا وحقارة

(١) ٥٣ - ٣٣ (٢) ١١ - ٥٩ .

تلك النعم بالقياس إلى النعمة الّتى أعدّها لهم في الآخرة ، وظاهر أنّ نعم الدنيا إذا اعتبرت إلى نعم الآخرة في الدوام و الكثرة و الشرف كانت بالقياس إليها في غاية الحقارة . وبالله التوفيق .

منها : مِنْ مَلَائِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمٰوَاتِكَ ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ ، هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْكَ ، لَمْ يَسْكُنُوا الْأَصْلَابَ ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا الْأَرْحَامَ ، وَلَمْ يُخْلَقُوا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، وَلَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ رَيْبُ الْمَنُونِ ، وَإِنَّهُمْ - عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ ، وَاسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ ، وَكَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ لَكَ ، وَقِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ - لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ لَحَقَّرُوا أَعْمَالَهُمْ ، وَلَزَرَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ ،

أقول : المهين : الحقير . والتشعّب : الاقتسام والتفريق . والمنون : الدهر . و ريبة : ما يكره من حوادثه . والمكانة : المنزلة . وكنه الشيء : نهاية حقيقته . وزريت عليه : عبث فعله .

و اعلم أنّ من في صدر هذا الفصل لبيان الجنس ، و ذلك أنّه عليه السلام لمّا شرع في بيان عظمة الله تعالى وجلاله جعل مادّة ذلك التعظيم تعديد مخلوقاته وذكر الأشرف فالأشرف منها فذكر الملائكة السماوية، و أشار إلى أفضليّتهم بأوصاف :

الأوّل : كونهم أعلم خلق الله به ، و هو ظاهر . إذ ثبت أنّ كلّ مجرّد كان علمه أبعد عن منازعة النفس الأمّارة بالسوء الّتي هي مبدء الغفلة و السهو و النسيان كان أكمل في معارفه و علومه ممّن عداه ، و لأنّ الملائكة السماويّة وسائط لغيرهم

في وصول العلم و سائر الكمالات إلى الخلق فكانوا كالاُستادين لمن عداهم ، و ظاهر أنّ الاُستاد أعلى درجة من التلميذ ، و قد عرفت في الخطبة الاُولى أنّ المعارف مقولة بحسب التشكيك .

الثاني : كونهم أخوف له ؛ وذلك لكونهم أعلم بعظمة الله و جلاله و كلّ من كان أعلم بذلك كان أخوف و أشدّ خشية : أمّا الاُولى : فلما مرّ ، و أمّا الثانية : فلقوله تعالى « إنّما يخشى الله من عباده العلماء » [١] فحصر الخشية في العلماء . و بحسب تفاوت العلم بالشدّة و الضعف يكون تفاوت الخشية بهما .

الثالث : كونهم أقرب منه ؛ والمراد لا القرب المكانىّ لتنزّهه تعالى عن المكان بل قرب المنزلة و الرتبة منه . و ظاهر أنّ من كان أعلم به و أخوف منه كان أقرب منزلة عنده لقوله تعالى « إنّ أكرمكم عندالله أتقيكم » [٢] .

الرابع من سلب النقصانات البشريّة عنهم : كونهم لم يسكنوا الأصلاب ، و لم يضمّنوا الأرحام ، و لم يخلقوا من ماء مهين ، ولم يختلف عليهم حوادث الدهر . و ظاهر كون هذه الاُمور الأربعة نقصانات تلزم الحيوان العنصرىّ لاستلزامها التغيّر و مخالطة المحالّ المستقذرة و معاناة الأسقام و الأمراض و سائر الهيئات البدنيّة المانعة عن التوجّه إلى الله فكان سلبها عمّن لايجوز عليه من كمالاته .

و قوله : و إنّهم على مكانتهم [مكانهم خ] منك . إلى آخره .

لمّا بيّن عظمة الملائكة بالنسبة إلى من عداهم شرع في المقصود و هو بيان عظمة الله تعالى بالنسبة إليهم ، و حقارتهم على عظمتهم بالقياس إلى عظمته و كبريائه: أى أنّهم مع كونهم على هذه الأحوال الّتي توجب لهم العظمة و الإجلال من قرب منزلتهم منك و كمال محبّتهم لك وغرقهم في أنوار كبريائك عن الالتفات إلى غيرك لو عرفوا كنه معرفتك لصغرت في أعينهم أعمالهم ، و علموا أن لا نسبة لعبادتهم إلى عظمتك و جلال وجهك ، و لمّا كان كمال العبادة و مطابقتها للأمر المطاع بحسب العلم بعظمته ، وكان ذات الحقّ سبحانه أعظم من أن يطّلع عليه بالكنه ملك مقرّب

(١) ٣٥ - ٢٥ (٢) ٤٩ - ١٣ .

أو نبيّ مرسل لاجرم كانت عبادة الملائكة بحسب معارفهم القاصرة عن كنه حقيقته . فكلّ من كانت معرفته أتمّ كانت عبادة من دونه مستحقرة في جانب عبادته حتّى لو زادت معارفهم به و أمكن اطّلاعهم على كنه حقيقته لزادت عبادتهم و كانت أكمل. فاستحقروا ما كانوا فيه و عابوا أنفسهم بقصور الطاعة و العبادة عمّا يستحقّه كما له المطلق ، وعبّر بقلّة الغفلة عن عدمها في حقّهم مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه . إذ كان كلّ معدوم قليل ولا ينعكس ، و جعل قلّة الغفلة في مقابلة كثرة الطاعة ، و يحتمل أن يريد بقلّة الغفلة قوّة معرفة بعضهم بالنسبة إلى بعض مجازاً أيضاً إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه . إذ كانت قلّة الغفلة مستلزمة لقوّة المعرفة وزيادتها، و قد سبق ذكر أنواع الملائكة السماويّة و غيرهم ، و ذكر نكت من أحوالهم في الخطبة الأولى .

الفصل الثاني : قوله :

سُبْحَانَكَ خَالِقًا وَمَعْبُودًا : بِحُسْنِ بَلَائِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ ، خَلَقْتَ دَارًا ، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً : مَشْرَبًا ، وَمَطْعَمًا ، وَأَزْوَاجًا ، وَخَدَمًا ، وَقُصُورًا ، وَأَنْهَارًا ، وَزُرُوعًا ، وَثِمَارًا ، ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِيًا يَدْعُو إِلَيْهَا ، فَلَا الدَّاعِيَ أَجَابُوا ، وَلَا فِيمَا رَغَبْتَ إِلَيْهِ رَغِبُوا ، وَلَا إِلَى مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا ، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا ، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئًا أَعْشَى بَصَرَهُ ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا ، وَلِمَنْ فِي يَدِهِ شَيْءٌ مِنْهَا : حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا ، وَحَيْثُمَا أَقْبَلَتْ

أَقْبَلَ عَلَيْهَا، وَلَا يَزْدَجِرُ مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ، وَلَا يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ؛ وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُوذِينَ عَلَى الْغِرَّةِ — حَيْثُ لَا إِقَالَةَ وَلَا رَجْعَةَ — كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ، فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ، اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجًا، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ — عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ — يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمْرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ، وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالًا جَمَعَهَا: أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا: تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبْءُ عَلَى ظَهْرِهِ. وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ، نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمْرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ! فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ: يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَا يَسْمَعُ

رَجْعَ كَلَامِهِمْ . ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ الْتِيَاطًا ، فَقَبَضَ بَصَرَهُ كَمَا قَبَضَ سَمْعَهُ ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ : قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ ، لَا يُسْعِدُ بَاكِيًا ، وَلَا يُجِيبُ دَاعِيًا . ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي الْأَرْضِ ، وَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ .

أقول : المأدبة بضمّ الدال و فتحها : الطعام يصنع و يدعى إليه . و الوله : التحيّر لشدّة الوجد والمحبّة . و أغمض : أى اذداد من مطالبها و تساهل في وجوه اكتسابها و لم يحفظ دينه . و التبعة : ما يلحق من إثم و عقاب . و المهنأ : المصدر من هنؤ بالضمّ و هنىء بالكسر . و العبء : الحمل . و أصحر : انكشف . و رجع الكلام: جوابه وترديده . و الالتياط : الالتصاق . و المخطّ : موضع الخطّ كناية عن القبر يخطّ أوّلاً ثمّ يحفر ، و يروى بالحاء . و محطّ القوم : منزلهم .

و في هذا الفصل نكت :

الاُولى : أنّ خالقاً و معبوداً حالان انتصبا عمّا في سبحانك من معنى الفعل: أى اُسبّحك خالقاً و معبوداً ، و أشار بذلك إلى وجوب تنزيهه في هذين الاعتبارين أعنى اعتبار كونه خالقاً للخلق و معبوداً لهم عن الشركاء و الأنداد فإنّه لمّا تفرّد بالإبداع و الخلق ، و استحقّ بذلك التفرّد تفرّده بعبادة الكلّ له وجب تنزيهه عن مساوله في الاعتبارين .

الثانية : قوله : بحسن بلائك عند خلقك خلقت داراً . الجارّ و المجرور متعلّق بخلقت ، و لفظ الدار مستعار للإسلام ، و لفظ المأدبة للجنّة ، و الداعى هو الرسول صلّى الله عليه و آله . و قد جمعها الخبر في بعض أمثاله صلّى الله عليه و آله إنّ الله جعل الإسلام داراً و الجنّة مأدبةً و الداعى إليها محمّداً . و وجه الاستعارة الاُولى أنّ الإسلام يجمع أهله و يحميهم كالدار ، و وجه الثانية: أنّ الجنّة مجتمع الشهوات و منتجع اللذّات

كالمأدبة ، و يحتمل أن يريد بالدار الآخرة باعتبار كونها مجمعاً و مستقرّاً والمأدبة فيها الجنّة ، و المنصوبات الثمانية مميّزات لتلك المأدبة ، وظاهر أنّ وجودالإسلام و الجنّة و الدعوة إليها بلاء حسن من الله لخلقه ، وقد عرفت معنى ابتلائه تعالى ، و قال بعض الشارحين : إنّ قوله : بحسن بلائك متعلّق بسبحانك أو بمعبود و هو بعيد .

الثالثة : قوله : فلا الداعى أجابوا . إلى قوله : بواعظ . شرح لحال العصاة الّذين لم يجيبوا داعى الله ، و بيان لعيوبهم و غرقهم في حبّ الباطل من الدنيا و فائدته : أمّا للمنتهين اللازمين لأوامر الله المجيبين لدعوته فتنفيرهم عن الركون إلى هؤلاء و الوقوع فيما وقعوا فيه ، و أمّا لهؤلاء فتنبيههم من مراقد غفلاتهم بتذكيرهم عيوبهم لعلّهم يرجعون ، و استعار لفظ الجيفة للدنيا ، و وجه المشابهةأنّ لذّات الدنيا وقيناتها في نظر العقلاء و اعتبار الصالحين منفور عنها و مهروب منها و مستقذرة كالجيفة و إلى ذلك أشار الواصف لها :

و ما هي إلّا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهنّ اجتذابها

فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلها و إن تجتذبها نازعتك كلابها

ويمكن أخذ معنى البيت الثاني في وجه الاستعارة المذكورة ، و كذلك استعار لفظ الافتضاح للاشتهار باقتنائها و جمعها والخروج بها عن شعائر الصالحين ، و وجه الاستعارة أنّه لمّا كان الإقبال على جمع الدنيا و الاشتغال بها عن الله من أعظم الكبائر و المساوى في نظر الشارع والسالكين لطريق الله ، و كان الافتضاح عبارةعن انكشاف المساوى المتعارف قبحها لاجرم أشبه الاشتهار بجمعها وانكشاف الحرص عليها الافتضاح ، و يمكن أن يصدق الافتضاح هيهنا حقيقة ، و كنّى بأكلها عن جمعها ، و تجوّز بلفظ الاصطلاح في التوافق على محبّتها إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه فإنّ الاصطلاح عبارة عن التراضى بعد التغاضب و يلزمه الاتّفاق على الأحوال ، و قوله : من عشق شيئاً أعمى بصره و أمرض قلبه. كبرى قياس دلّ على صغراه قوله : و اصطلحوا على حبّها . لأنّ الاصطلاح على محبّة الشيء يستلزم شدّة محبّته و هو

معنى العشق و نتيجته أنّ المذكورين في معرض الذمّ قد أعشت الدنيا أبصارهم وأمرضت قلوبهم ، واستعار لفظ البصر لنور البصيرة ملاحظةً لشبه المعقول بالمحسوس، و لفظ العشاء لظلمة الجهل ملاحظةً للشبه بالظلمة العارضة للعين بالليل ، و إسناد الإعشاء إلى الدنيا يحتمل أن يكون حقيقة لما يستلزمه حبّها من الجهل و الغفلة عن أحوال الآخرة ، و يحتمل أن يريد بالبصر حقيقته، ويكون لفظ العشاء مستعاراً لعدم استفادتهم بأبصارهم عبرة تصرفهم عن حبّ الدنيا إلى ملاحظة أحوال الآخرة ، و يؤيّده قوله: فهو ينظر بعين غير صحيحة ، و كنّى بعدم صحّتها عمّا يلزم العين غير الصحيحة من عدم الانتفاع بها في تحصيل الفائدة ، و كذلك استعار لفظ المرض للداء الأكبر و هو الجهل استعارة لفظ المحسوس للمعقول ، و قوله : فهو يسمع بأُذن غير سميعة ، و كنّى بذلك عن عدم إفادتها عبرة من المواعظ و الزواجر الإلهيّة كما سبق ، و كذلك استعار لفظ التخريق لتفرّق عقله في مهمّات الدنيا و مطالبها .
و وجه الاستعارة أنّ العقل إذا استعمل فيما خلق لأجله من اتّخاذ الزاد ليوم المعاد و اقتباس العلم و الحكمة من تصفّح جزئيّات الدنيا و الاستدلال منها على وجود الصانع و ما ينبغى له و نحو ذلك ممّا هو كماله المستعدّ في الآخرة فإنّه يكون منتظماً منتفعاً به ، وأمّا إن استعمل فيما لا ينبغى من جميع متفرّقات الدنيا وتوزيع الهمّة في تحصيل جزئيّاتها وضبطها حتّى يكون أبداً في الحزن و الأسف على فوات ما فات ، وفي الخوف من زوال ما يحصل ، و في الهمّة والحرص على جمع مالم يحصل بعد فإنّه يكون كالثوب المخرّق الّذي لا ينتفع به صاحبه . و نحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : من جعل الدنيا أكبر همّه فرّق الله عليه همّه ، و جعل فقره بين عينيه . الحديث ، ونسبة ذلك التخريق إلى الشهوات ظاهرة . إذ كان زمام عقله بيد شهوته فهى تفرّقه و تمزّقه على حسب تصرّفاتها و ميولها إلى أنواع المشتهيات ، و كذلك استعار لفظ الإماتة لقلبه ، و وجه المشابهة خروجه عن الانتفاع به الانتفاع الحقيقىّ الباقى كالميّت ، والضمير في قوله : عليها يعود إلى الدنيا : أى وولّهت الدنيا على نفسها، و كنّى بالتولّه عن شدّة المحبّة لها وأطلقه مجازاً تسمية للشيء بما هو من غاياته ، و كذلك

استعار لفظ العبد له لكونه محبّها و المتجرّد لتحصيلها متصرّفاً بحسب تصريفها و دائراً في حركاته حيث دارت فإن كانت في يده أقبل عليها بالعمارة و الحفظ ، وإن زالت عنه أنصب إلى تحصيلها و خدمة من كانت في يده لغرضها فهو في ذلك كالعبد لها بل أخسّ حالاً كما قال عليه السلام في موضع آخر : عبد الشهوة أذلّ من عبدالرقّ . إذا الباعث لعبد الرقّ على الخدمة و الانقياد قد يكون قسريّاً ، و الباعث لعبد الشهوة طبيعيّ ، و شتّان مابينهما .

الرابعة : قوله : و هو يرى المأخوذين على الغرّة فالواو في قوله : و هو للحال ، و هو شروع في وصف نزول الموت بالغافلين عن الاستعداد له و لما ورائه من أحوال الآخرة و كيفيّة قبض الموت لأرواحهم من مبدء نزوله بهم . إلى آخره ، و كيفيّة أحوالهم مع أهليهم و إخوانهم معه ، و هو وصف لا مزيد على وضوحه و بلاغته و فائدته تذكير العصاة بأهوال الموت و تنبيههم من غفلتهم في الباطل بذلك على وجوب العمل له، وتثبيت للسالكين إلى الله على ما هم عليه ، و مراده بقوله : ما كانوا يجهلون. لاالموت فإنّه معلوم لكلّ أحد؛ بل تفصيل سكراته وأهواله. و ماكانوا يأمنون. إشارة إلى الموت وما بعده فإنّ الغافل حال انهماكه في لذّات الدنيالايعرض له خوف الموت بل يكون في تلك الحال آمناً منه، و قوله : فغير موصوف مانزل بهم : أى ليس ذلك ممّا يمكن استقصائه بوصف بل غايته التمثيل كما ورد في التوراة: أنّ مثل .الموت كمثل شجرة شوك اُدرجت في بدن بن آدم فتعلّقت كلّ شوكة بعرق و عصب ثمّ جذبها رجل شديد الجذب فقطع ما قطع واُبقى ما اُبقى ، و استعار لفظ الولوج لمايتصوّر من فراق الحياة لعضو عضو فأشبه ذلك دخول جسم في جسم آخر، و كذلك استعار لفظ العبء للآثام الّتي تحملها النفس ، ورشّح بذكر الظهر استعارة لفظ المحسوس للمعقول .

الخامسة : قوله : و المرء قد غلقت رهونه بها . ضربه مثلا لحصول المرء في تبعات ما جمع و ارتباطه بها عن الوصول إلى كماله و انبعاثه إلى سعادته بعد الموت ، و قد كان يمكنه فكاكها بالتوبة والأعمال الصالحة فأشبه ما جمع من الهيئات الرديئة

في نفسه عن اكتساب الأموال فارتهنت بها بما على الرهن من المال ، و قال بعض الشارحين : أراد أنّه لمّا أشفى على الفراق صارت الأموال الّتي جمعها مستحقّة لغيره ولم يبق له فيها تصرّف فاُشبهت الرهن الّذي غلّق على صاحبه فخرج عن كونه مستحقّاً لصاحبه و صار مستحقّاً للمرتهن . و هذا و إن كان محتملاً إلّا أنّه يضيّع فائدة قوله : بها . لأنّ الضمير يعود إلى الأموال المجموعة و هو إشارة إلى المال الّذي تعلّق الرهن به فلاتكون هي نفس الرهن ، و قوله : و هو يعضّ يده . كناية عمّا يلزم ذلك من الأسف و الحزن و الندم على تفريطه في جنب الله حيث انكشف له حال الموت انقطاع سببه من الله ، و فوت ما كان يتوهّم بقائه عليه ممّا اشتغل به عن ربّه، و حيث يتحسّر على ذلك التفريط كما قال تعالى « أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرّطت في جنب الله و إن كنت لمن الساحرين » (١) ويتمنّى هداية الله فيقول : لو أنّ الله هدانى لكنت من المتّقين ، أوالرجعة إلى الدنيا لامتثال ما فرّطت فيه من الأوامر الإلهيّة فيقول حين يرى العذاب : لو أنّ لى كرّة فأكون من المحسنين ، و كما قال تعالى « ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتّخذت مع الرسول سبيلا » (٢) و قد نبّه عليه السلام في هذا الكلام على أنّ آلة النطق تبطل من الإنسان حال الموت قبل آلتى السمع و البصر بقوله : فحيل بين أحدهم و بين منطقه ، و إنّه لبين أهله ينظر ببصره و يسمع باُذنه على صحّة من عقله. ثمّ نبّه على بطلان آلة السمع بعدها قبل آلة البصر و أنّ آلة البصر تبطل مع المفارقة بقوله : حتّى خالط سمعه. إلى قوله : يرى حركات ألسنتهم ولايسمع رجع كلامهم . و ذلك لعلمه عليه السلام بأسرار الطبيعة ، وليس كلامه مطلقاً بل في بعض الناس وأغلب ما يكون ذلك فيمن تعرّض الموت الطبيعىّ لآلاته ، و إلّا فقد تعرّض الآفة لقوّة البصر و آلته قبل آلة السمع و آلة النطق ، والّذى يلوح من أسباب ذلك أنّه لمّا كان السبب العامّ القريب للموت هو انطفاء الحرارة الغريزيّة عن فناء الرطوبة الأصليّة الّتي منها خلقنا ، وكان فناء تلك الرطوبة عن عمل الحرارة الغريزيّة فيها التجفيف و التحليل و قد تعينها على

(١) ٣٩ - ٥٧ (٢) ٢٥ - ٢٩ .

ذلك الأسباب الخارجيّة من الأهوية و استعمال الأدوية المجفّفة وسائر المخفّفات كان كلّ عضو أيبس من طبيعته وأبرد أسرع إلى البطلان وأسبق إلى الفساد .

إذا عرفت ذلك فنقول : أمّا أنّ آلة النطق أسرع فساداً من آلة السمع فلأنّ آلة النطق مبنيّة على الأعصاب المحرّكة ومركّبة منها ، و آلة السمع من الأعصاب المفيدة للحسّ ، و اتّفق الأطبّاء على أنّ الأعصاب المحرّكة أيبس وأبرد لكونها منبعثة من مؤخّر الدماغ دون الأعصاب المفيدة للحسّ فإنّ جلّها منبعث من مقدّم الدماغ فكانت لذلك أقرب إلى البطلان ، و لأنّ النطق أكثر شرائط من السماع لتوقّفه مع الآلة و سلامتها على الصوت و سلامة مخارجه ومجارى النفس ، والأكثر شرطاً أسرع إلى الفساد ، وأمّا بطلان آلة السمع قبل البصر فلأنّ منبت الأعصاب الّتي هي محلّ القوّة السامعة أقرب إلى مؤخّر الدماغ من منابت محلّ القوّة الباصرة فكانت أيبس و أبرد و أقبل لا نطفاء الحرارة الغريزيّة و لأنّ العصب المفروش على الصماخ الّذي رتّبت فيه قوّة السمع احتاج أن يكون مكشوفاً غير مسدود عنه سبيل الهواء بخلاف العصب الّذي هو آلة البصر فكانت لذلك أصلب ، و الأصلب أيبس و أسرع فساداً . هذا مع أنّه قد يكون ذلك لتحلّل الروح الحامل للسمع قبل الروح الحامل للبصر أو لغير ذلك . و الله أعلم ، و أمّا سبب النفرة الطبيعيّة من الميّت و التوحّش من قربه فحكم الوهم على المتخيّلة بمحاكاة حاله في نفس المتوهّم ، و عزل العقل في ذلك الوضع حتّى أنّ المجاور لميّت في موضع منفرد يتخيّل أنّ الميّت يجذبه إليه ويصيّره بحالة مثل حالته المنفورة عنها طبعاً .

السادسة: قوله: وأسلموه فيه إلى عمله . إشارة إلى أنّ كلّ ثواب وعقاب اُخروىّ يفاض على النفس فبحسب استعدادها بأعمالها السابقة الحسنة و السيّئة فعمل الانسان هو النافع أو الضارّ له حين لا ناصر له ، و لمّا كان ميله عليه السلام في هذا الكلام إلى الانذار والتخويف لاجرم ذكر إسلامهم له إلى عمله لأنّ الاسلام إنّما يكون إلى العدوّ فلمّا حاول أن ينفّر عن قبح الأعمال نبّه على أنّ عمل الانسان القبيح يكون كعدوّه القوىّ عليه يسلم إليه .

الفصل الثالث : قوله :

حَتَّى إذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أجَلَهُ ، وَالْأَمْرُ مَقَادِيرَهُ ، وَأُلْحِقَ آخرُ الْخَلْقِ بأوَّلِه ، وَجَاءَ مِنْ أمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ : مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِه ؛ أَمَادَ السَّمَاءَ وَفَطَرَهَا ، وأَرَجَّ الْأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا ، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا ، وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلَالَتِه ، وَمَخُوفِ سَطْوَتِه ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا فَجَدَّدَهُمْ عَلَى أَخْلَاقِهِمْ ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ ، وَخَبَايَا الْأَفْعَالِ ؛ وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ : أَنْعَمَ عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَانْتَقَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ : فَأَمَّا أَهْلُ طَاعَتِهِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِه وَخَلَّدَهُمْ فِي دَارِه ، حَيْثُ لَا يَظْعَنُ النُّزَّالُ ، وَلَا يَتَغَيَّرُ لَهُمُ الْحَالُ ، وَلَا تَنُوبُهُمُ الْأَفْزَاعُ ، وَلَا تَنَالُهُمُ الْأَسْقَامُ ، وَلَا تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ ، وَلَا تُشْخِصُهُمُ الْأَسْفَارُ ؛ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ ، فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ ، وَغَلَّ الْأَيْدِيَ إِلَى الْأَعْنَاقِ وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَامِ ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ ، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِه فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَلَجَبٌ وَلَهَبٌ سَاطِعٌ ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ ، لَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا ، وَلَا يُفَادَى أَسِيرُهَا ، وَلَا تُفْصَمُ كُبُولُهَا ، لَا مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى ، وَلَا أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى .

أقول : الرجّ ، و الرجف : الاضطراب الشديد ، و يروى رجّها بغير همزة ، و هو الأشهر . ونسفها : قلعها من اُصولها و بثّها . و دكّ بعضها بعضاً : تصادمت . و تنوبهم : تعودهم . و الخطر : الإشراف على الهلاك . و شخص : خرج من منزله

إلى آخر ، وأشخصه : غيّره . و الكلب : الشدّة . و الجلب و اللجب : الصوت . و القصيف : الصوت الشديد . والكبول : الأغلال واحدها كبل . وفصمها : كسرها.

و أشار بقوله : حتّى إذا بلغ الكتاب أجله . إلى غاية الناس في موتهم ، و هو بلوغ الوقت المعلوم الّذي يجمع له الناس و هو يوم القيامة ، و أراد بالأمر القضاء ومقاديره و تفاصيله من الآثار الّتي توجد على وفقه كما سبق بيانه ، ولحوق الخلق بأوّله إشارة إلى توافيهم في الموت و تساويهم فيه كما نطقت الشريعة به ، و تجديد الخلق بعثهم و إعادتهم ، وأمّا إمادة السماء و شقّها و إرجاج الأرض ونسف الجبال فظاهر الشريعة الناطق بخراب هذا العالم ناطق به ، و أمّا من زعم بقائه فربّما عدلوا إلى التأويل ، و الّذي يحتمل أن يقال في ذلك وجوه :

أحدها : أنّ القيامة لمّا كانت عندهم عبارة عن موت الإنسان و مفارقته لهذا البدن و لما يدرك بواسطته من الأجسام والجسمانيّات و وصوله إلى مبدئه الأوّل كان عدمه عن هذه الأشياء مستلزم لغيبوبتها عنه و عدمها و خرابها بالنسبة فيصدق عليه أنّه إذا انقطع نظره عن جميع الموجودات سوى مبدئه الأوّل - جلّت عظمته - أنّها قد عدمت و تفرّقت ، وكذلك إذا انقطع نظره عن عالم الحسّ و الخيال و متعلّقاتهما من الأجسام و الجسمانيّات و اتّصل بالملأ الأعلى فبا لحرىّ أن يتبدّل الأرض و السماوات بالنسبة إليه فيصير عالم الأجسام و الجسمانيّات أرضاله وعالم المفارقات سمائه .

الثانى : أنّ هذه الموجودات المشار إليها لمّا كانت مقهورة بلجام الإمكان في قبض القدرة الإلهيّة كان ما نسب إليها من الانشقاق والانفطار و الارجاج والنسف و غيرها أموراً ممكنة في نفسها وإن امتنعت بالنظر إلى الأسباب الخارجيّة فعبّر عمّا يمكن بالواقع مجازاً . و حسنه في العربيّة معلوم ، و فائدته التهويل بما بعد الموت و التخويف للعصاة بتلك الأهوال .

الثالث : قالوا : يحتمل أن يريد بالأرض القوابل للجود الإلهىّ استعارة فعلى هذا إمادة السماء عبارة عن حركاتها واتّصالات كواكبها الّتي هى أسباب معدّة

لقوابل هذا العالم، و انفطارها إفاضة الجود بسبب تلك المعدّات على القوابل، و ارجاج الأرض إعداد المواد لإعادة أمثال هذه الأبدان أو لنوع آخر بعد فناء النوع الإنسانى، و قلع الجبال و نسفها ودقّها إشارة إلى زوال موانع الاستعدادات لنوع آخر إن كان، أو لإعادة بناء هذا النوع استعارة. ووجهها أنّ الأرض بنسف الجبال يستوى سطحها ويعتدل فكذلك قوابل الجود يستعدّ ويعتدل لأن يفاض عليها صورة نوع اُخرى لا بناء هذا النوع.

الرابع: قالوا: يحتمل أن يريد بالسماء سماء الجود الإلهى، و بالأرض عالم الإنسان. فعلى هذا يكون إمادة السماء عبارة عن ترتيب كلّ استحقاق لقابله في القضاء الإلهى، و الفطر عبارة عن الفيض، و إرجاج الأرض و إرجافها عبارة عن الهرج و المرج الواقع بين أبناء نوع الإنسان، و قلع جبالها و نسفها و دكّ بعضها بالبعض عبارة عن إهلاك الجبابرة و المعاندين للناموس الإلهى و قتل بعضهم ببعض. كلّ ذلك بأسباب قهريّة مستندة إلى هيبة جلال الله و عظمته، و إخراج من فيها و تجديدهم إشارة إلى ظهور ناموس آخر مجدّد لهذا الناموس و المتّبع له إذن قوم آخرون هم كنوع جديد، وتمييزهم فريقين منعم عليهم و منتقم منهم ظاهر فإنّ المستعدّين لاتّباع الناموس الشرعىّ و القائلين به هم المنعم عليهم المثابون، والتاركين له المعرضين عنه هم المنتقم منهم المعاقبون، فأمّا صفة الفريقين و ما أعدّ لكلّ منهم بعد الموت فعلى ما نطق به الكتاب العزيز و وصفته هذه الألفاظ الكريمة.

و على تقدير التأويلات السابقة لمن عدل عن الظواهر فثواب أهل الطاعة جوار بارئهم و ملاحظة الكمال المطلق لهم، وخلودهم في داره: بقائهم في تلك النعمة غير جائز عليهم الفناء كما تطابق عليه الشرع والبرهان، و كونهم غير ظاعنين ولا متغيّرى الأحوال ولا فزعين ولا ينالهم سقم ولا خطر و لا يشخصهم سفر فلأنّ كلّ ذلك من لواحق الأبدان و الكون في الحياة الدنيا فحيث زالت زالت عوارضها ولواحقها، و أمّا جزاء أهل المعصية فإنزالهم شرّ دار؛ وهى جهنّم الّتي هي أبعد بعيد عن جوار الله، وغلّ أيديهم إلى أعناقهم إشارة إلى قصور قواهم العقليّة عن تناول ثمار المعرفة، و اقتران

النواصي بالأقدام إشارة إلى انتكاس رءوسهم عن مطالعة أنوار الحضرة الالهيّة ، و إلباسهم سرابيل القطران : استعار لفظ السرابيل للهيئات البدنيّة المتمكّنة من جواهر نفوسهم ، و وجه المشابهة اشتمالها عليها و تمكّنها منها كالسربال للبدن، و نسبتها إلى القطران إشارة إلى شدّة استعدادهم للعذاب ، و ذلك أنّ اشتغال النار فيما يمسح بالقطران أشدّ ، و نحوه قوله تعالى « سرابيلهم من قطران »[١] و كذلك مقطّعات النيران: إشارة إلى تلك الهيئات الّتي تمكّنت من جواهر نفوسهم ، ونسبتها إلى النار لكونها ملبوس أهلها فهي منها كما قال تعالى « قطّعت لهم ثياب من نار »[٢] ولمّا كان سبب الخروج من النار هو الخروج إلى الله من المعاصي بالتوبة ، والرجوع إلى تدبّر الآيات و العبر النوافع . و كان البدن و حواسّه أبواب الخروج إلى الله فبعد الموت تغلق تلك الأبواب فلا جرم يبقى الكفّار وراء طبق تلك الأبواب في شدائد حرارة ذلك العذاب ، ولهب النار و لجبها وأصواتها الهايلة: استعارة لأوصاف النار المحسوسة المستلزمة للهيبة و الخوف حسّاً للنار المعقولة الّتي هي في الحقيقة أشدّ ـ نعوذ بالله منها ـ و إنّما عدل إلى المحسوس للغفلة عن صفات تلك النار و عدم تصوّر أكثر الخلق لها إلّا من هذه الأوصاف المحسوسة ، و كونها لايظعن مقيمها كناية عن التخليد و ذلك في حقّ الكفّار ، ولفظ الأسير و الفدية استعارة ،و كذلك لفظ الكبول استعارة لقيود الهيئات البدنيّة المتمكّنة من جواهر نفوس الكفّار فكما لاينفصم القيد الوثيق من الحديد ولا ينفكّ المكبّل به كذلك النفوس المقيّدة بالهيئات الرديئة البدنيّة عن المشي في بيداء جلال الله و عظمته و التنزّه في جنان حظائر قدسه و مقامات أصفيائه ، و لمّا كان الأجل مفارقة البدن لم يكن لهم بعد موتهم أجل ، إذ لا أبدان بعد الأبدان و لا خلاص من العذاب للزوم الملكات الرديئة لأعناق نفوسهم ، وتمكّنها منها . فهذا ما عساهم يتأوّلونه أو يعبّرون به عن الأسرار الّتي يدّعونها تحت هذه العبارات الواضحة الّتي وردت الشريعة بها. لكنّك قد علمت أنّ العدول إلى هذه التأويلات و أمثالها مبنيّ على امتناع المعاد البدنيّ ، و ذلك ممّا

(١) ١٤ ـ ٥١ (٢) ٢٢ ـ ٢٠ .

صرّحت به الشريعة تصريحاً لا يجوز العدول عنه ، و نصوصاً لا يحتمل التأويل ، و إذا حملنا الكلام على ما وردت به الشريعة فهذا الكلام منه عليه السلام أفصح ما يوصف به حال القيامة و المعاد. والتعرّض لشرحه يجرى مجرى إيضاح الواضحات . وبالله التوفيق .

ومنها فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله وسلم:

قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا ، وَأَهْوَنَهَا وَهَوَّنَهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ زَوَاهَا عَنْهُ اخْتِيَارًا ، وَبَسَطَهَا لِغَيْرِهِ احْتِقَارًا ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا بِقَلْبِهِ ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا ، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَامًا ، بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِرًا ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِرًا . وَدَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّرًا

نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ ، وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ ، وَيَنَابِيعُ الْحِكَمِ ، نَاصِرُنَا وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ ، وَعَدُوُّنَا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ

أقول : الرياش : اللباس .

و الفصل اقتصاص لحال الرسول صلى الله عليه وآله و أوصافه الحميدة ليبنى عليها ممادح نفسه بعد. فتحقيره للدنيا وتصغيرها وتهوينها إشارة إلى ما كان يجذب الخلق بعنها من ذكر مذامّها و تعديد معايبها ، و إهوانه بها إشارة إلى زهده فيها ، و علمه بإزواء الله إيّاها عنه اختياراً إشارة إلى أنّ زهده فيها كان عن علم منه باختيار الله له ذلك و تسبّب أسبابه و هو وجه مصلحته ليستعدّ نفسه بذلك لكمال النبوّة و القيـام بأعباء الخلافة الأرضيّة و بسطها لغيره احتقاراً لها ، . وقد عرفت معنى الاختيار من الله لخلقه غير مرّة . فكان إعراضه عنها بقلبه إماتة ذكرها عن

نفسه ، ومحبّته لأن تغيب زينتها عن عينه لئلاّ يتّخذ منها رياشاً ولايرجو فيهامقاماً جذباً للعناية الإلهيّة له عن الالتفات إلى الالتقاط إلى الكمالات المعلومة له ، وعن أن ينحطّ لمحبّتها عن مقامه الّذي قضت العناية الإلهيّة بنظام العالم بسببه . ثمّ أعقب ذلك بذكر ثلاثة أحوال هى ثمرة النبوّة الّتي هى ثمرة الزهد المشار اليه ؛ و هى تبليغ رسالة ربّه إعذاراً إلى خلقه أن يقولوا يوم القيامة : إنّا كنّا عن هذا غافلين ، والنصح لهم إنذاراً بالعذاب الأليم في عاقبة الإعراض عن الله ، ودعائه إلى الجنّة مبشّراً لمن سلك سبيل الله و نهجه المستقيم بما أعدّ له فيها من النعيم المقيم. ثمّ عقّب اقتصاص تلك الممادح بالإشارة إلى فضيلة نفسه ، و ذلك منه في معرض المفاخرة بينه و بين مشاجريه كمعاوية فأشار إلى فضيلته من جهة اتّصاله بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان من البيت الّذي هو شجرة النبوّة ومحطّ الرسالة و معدن العلم و ينبوع الحكمة بأفضل مكان بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما سبق بيانه في بيان فضائله ، و لفظ الشجرة و المعادن و الينابيع مستعار كما سبق ، و إذا كان من تلك الشجرة كما علمت ولكلّ غصن من الشجرة قسط من الثمرة بحسب قوّته و قربه من الأصل و عناية الطبيعة به علمت مقدار فضيلته ونسبتها إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

و قوله بعد ذلك : ناصرنا ومحبّنا . إلى آخره .

ترغيب في نصرته و محبّته و جذب إليها بالوعد برحمة الله و إفاضة بركاته و تنفير عن عداوته و بغضه بلحوق سطوة الله ، و لعلّ ذلك هو غايته هنا من ذكر فضيلته . و بالله التوفيق والعصمة .

١٠٧ - وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إنَّ أَفْضَلَ مَاتَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إلَى اللهِ ، سُبْحَانَهُ ، الْإيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْجِهَادُ فِى سَبِيلِهِ فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الْإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ ، وَإقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ ، وَصَوْمُ شَهْرِ

رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ، وَحَجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ الذَّنْبَ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ، وَمَنْسَأَةٌ فِي الْأَجَلِ وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ، وَصَدَقَةُ الْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ، وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ.

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ، وَارْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ، وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ، وَاسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهُ أَهْدَى السُّنَنِ، وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وَأَحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ، فَإِنَّ الْعَالِمَ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ، بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْوَمُ.

أقول: ذروة الشيء: أعلاه. والملّة: الدين: و الجنّة: الوقاية. ويرحضان بفتح الحاء: يغسلان. و الرحض: الغسل. و المثراة: المكثرة، وهي محلّ كثرة المال و الثروة. والمنسأة: محلّ النسأ، و هو التأخير. و الإفاضة في الذكر: الاندفاع فيه. و الهدى: ضدّ الإضلال، وهو مصدر.

و قد أشار عليه السلام في هذا الفصل إلى أنّ أفضل الوسائل الموصلة إلى الله سبحانه هو الإيمان الكامل فالإيمان بالله هو التصديق بوجوده، و هو إشارة إلى أصل الإيمان. ثمّ له لواحق و كمالات:

أحدها : التصديق برسوله . وإنّما قدّمه على سائر العبادات لأنّه أصل لها لاتصحّ بدونه .

الثاني : الجهاد في سبيله ، و قد عرفت فضائل الجهاد فيما سلف ، و أشار إلى وجه فضيلته بكونه ذروة الإسلام ، و استعار لفظ الذروة له ملاحظة لشبهه في العلوّ و المرتبة في الإسلام بالسنام للبعير و إنّما قدّمه على الصلاة لكون سالكه على يقين من لقاء الله و قوّة من التصديق بما جاء به الرسول حيث يلقى نفسه إلى التهلكة الحاضرة الّتي ربّما يغلب على ظنّه أو يتيقّنها ، و لأنّه الأصل الأعظم في جمع العالم على الدين .

الثالث : كلمة الإخلاص ؛ وهي كلمة التوحيد المستلزمة لنفي الشركاء والأنداد و هي معنى الإخلاص و لذلك اُضيفت إليه ، و وجه فضيلتها كونها فطرة الله الّتي فطر الناس عليها فإنّ العقول السليمة البريّة عن شوائب العلائق البدنيّة وعوارض التربية شاهدة و مقرّة بما اُخذ عليها من العهد القديم من توحيد صانعها و برائته عن الكثرة ، و أطلق عليها اسم الفطرة و إن كانت الفطرة عليها مجازاً إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه .

الرابع : إقامة الصلاة ، و إنّما جعلها الملّة و إن كانت بعض أركان الدين لأنّها الركن القويّ من أركانه فأطلق عليها ذلك اللفظ إطلاقاً لاسم الكلّ على الجزء مجازاً .

و اعلم أنّ للصلاة فضائل و أسرار يجب التنبيه عليها : أمّا فضيلتها فقد ورد فيها أخبار كثيرة بعد تأكيد القرآن الكريم للأمر بها كقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : الصلاة عمود الدين من تركها فقد هدم الدين ، و قوله : مفتاح الجنّة الصلاة ، و قوله في فضل إتمامها : إنّ الرجلين من اُمّتي يقومان في الصلاة و ركوعهما و سجودهما واحد و إنّما بين صلاتيهما ما بين السماء و الأرض ، وقوله : أمّا يخاف الّذي يحوّل وجهه في الصلاة أن يحوّل الله وجهه وجه حمار ، و قوله : من صلّى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر الله له ذنوبه . وأمّا أسرارها فينقسم إلى عامّة و إلى خاصّة ،

و أمّا العامّة فقد بيّنّا فيما سلف في ذكر الحجّ في الخطبة الأولى السرّ العامّ لجميع العبادات ، و هي كونها متمّمة للغرض الثاني من أغراض العارف من الرياضة و معينة على تطويع النفس الأمّارة بالسوء للنفس المطمئنّة و تمرينها على موافقتها ، و إذا لاح لك هذا السرّ فقد علمت أنّ جميع الآيات و الأخبار الواردة في فضلها يرجع معناها إليه كنهيها عن الفحشاء و المنكر في قوله تعالى « إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» إذ كان سببهما القوّة الروعيّة [التروّعيّة خ]إذا خرجت عن حكم العقل فإذا كانت الصلاة هي الّتي توجب دخولها تحت حكم العقل والعقل ناه عن الفحشاء و المنكر فقد كانت الصلاة هي السبب في الانتهاء فكانت ناهية ، فظهر أيضاً معنى كونها عماد الدين. إذ قال : بني الإسلام على خمس. فكلّ منها عماد بحسب شرائطه فمن أخلّ بها فقد هدم بنيانه الّذي يصعد به إلى الله ، و كذلك كونها مفتاحاً للجنّة . إذ بها ينفتح باب من أبواب الوصول إلى الله ، و لذلك ظهر التفاوت الّذى يشير إليه صلّى الله عليه و آله و سلّم في صلاة الرجلين من اُمّته فإنّه إذا كانت فائدة الصلاة هو الالتفات إلى الله تعالى بقمع الشيطان و كان أحد الرجلين في صلاته خاشعاً لخشية الله مستحضراً لعظمته ، و الآخر غافل عن هذه الجهة قد صرف الشيطان وجه قلبه إلى غير القبلة فأين أحدهما من الآخر ، و كذلك ما أشار إليه من التخويف لمن يحوّل وجهه في الصلاة فإنّه نهى منه عن الغفلة عن الالتفات إلى الله و ملاحظة عظمته في حال الصلاة فإنّ الملتفت يميناً و شمالاً ملتفت عن الله و غافل عن مطالعة أنوار كبريائه ، و من كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه فيتحوّل وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلّة عقليّته للاُمور العلويّة و عدم إكرامه بشيء من العلوم و القرب إلى الله ، و كذلك غفران ذنب المصلّي بسبب تركه حديث نفسه بشيء من الدنيا فإنّه في تلك الحال يلتفت إلى الله تعالى غافل عن غيره، والالتفات إليه هو روح العبادة وخلاصتها ، ولذلك قال صلّى الله عليه و آله و سلّم : إنّما فرضت الصلاة و اُمر بالحجّ والطواف و اشعرت المناسك لإقامة ذكر الله فإذا لم يكن في قلبك المذكورُ الّذي هو المقصود و المبتغى عظمته، ولا هيبته فما فيه ذكرك . وعن عايشة قالت : كان رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم

يحدّثنا و نحدّثه فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً بالله عن كلّ شيء . وكان عليّ عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلوّن فيقال له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات و الأرض فأبين أن يحملنها و أشفقن منها ، و كان عليّ بن الحسين عليهما السلام إذا حضر للوضوء اصفرّ لونه فيقول أهله : ماهذا الّذي يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول : ماتدرون بين يدي من أقوم . و كلّ ذلك إشارة إلى استحضار عظمة الله و الالتفات إليه حال العبادة والانقطاع عن غيره ، و أمّا ما يخصّها من الأسرار فقد علمت أنّ الصلاة ليس إلّا ذكر وقرائة و ركوع و سجود و قيام و قعود : أمّا الذكر فظاهر أنّه محاورة و مناجاة لله تعالى وغايتها استلزام الالتفات إليه، وتذكّر ما ينجذب القوى الشيطانيّة تحت قياد العقل و يستمرّ تعوّدها بذلك وهو المقصود من القرائة والأذكار والحمد و الثناء و التضرّع و الدعاء ، وليس المقصود منه الحرف و الصوت امتحاناً للّسان بالعمل و إن حصلت الغفلة فإنّ تحريك اللسان بالهذيان خفيف على الإنسان لا كلفة فيه من حيث إنّه عمل ، و سنبيّن حال الذكر و فضيلته و فائدته في موضع أليق به إنشاء الله تعالى ، و أمّا الركوع و السجود و القيام و القعود فالغرض بها التعظيم لله تعالى المستلزم للالتفات إليه وذكره أيضاً. إذ لو جاز أن يكون معظّماً لله بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يعظّم صنماً موضوعاً بين يديه وهو غافل عنه، و يؤيّد ذلك ما روى عن معاذ بن جبل من عرف من على يمينه وشماله متعمّداً في الصلاة فلا صلاة له ، وقال عليه السلام : إنّ العبد ليصلّى الصلاة لا يكتب له سدسها ولاعشرها و إنّما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها ، و لمّا عرفت أنّ الأصل من أركانها هو الالتفات إلى الله تعالى فاعلم أنّ الالتفات إليه مستلزم للتذكّر والتفهّم لإنّ الالتفات إليه إنّما يراد لمطالعة كبريائه و عظمته ، و المطالعة ليس إلّا الفكر الّذي هو عين البصيرة و حدقة العقل الإنسانيّ . ثمّ إنّ التذكّر والتفهّم مستلزم للتعظيم فإنّ مطالعة عظمة الله أعظم من أن لا يعظّمها العارف بها ، و التعظيم مستلزم للخوف و الرجاء فإنّا نجد عند تصوّر عظمة ملك من ملوك الدنيا وجداناً ضروريّاً أنّا

ننقهر عن مكالمته و محاورته ونلزم معه السكون و الخضوع و ربّما يتبع ذلك رعدة البدن و تعثّم اللسان ، و منشأ كلّ ذلك الخوف الحادث عن تصوّر عظمته فكيف يتصوّر جبّار الجبابرة و ملك الدنيا و الآخرة ، وكذلك الرجاء فإنّا عند تصوّر عظمة الله نتصوّر أنّ الكلّ منه و ذلك باعث على رجائه ، خصوصاً و قد تأكّد ذلك بالآيات الواردة في باب الخوف و الرجاء ، وكذلك يستلزم الحياء لأنّ المتصوّر لعظمة الآمر لا يزال مستشعراً تقصيراً و متوهّماً ذنباً و ذلك الاستشعار والتوهّم يوجب الحياء من الله سبحانه .

الخامس : إيتاء الزكاة ، وهي ركن قويّ من أركان الدين ، و أشار إلى وجه فضلها بكونها فريضة واجبة. قال قطب الدين الراوندي : أراد بالفريضة السهم المنقطع من المال للفقراء المستحقّين المسمّى زكاة. قال : و هو عرف شرعيّ لأنّ الفريضة بمعنى الواجب فإنّ كلّ العبادات الواجبة كذلك ، و لأنّ الفرض و الواجب بمعنى فيكون قوله : فريضة واجبة. تكرارا ، وأقول : ما ذكره وجه حسن ، و هو إشارة إلى بعض أسرارها كما نبيّنه ، و لهذه العبادة مع السرّ العامّ الشامل لجميع العبادات وهو الالتفات إلى الله تعالى ومحبّته أسرار :

الأوّل : أنّ المراد بكلمة الشهادة التوحيد المطلق وإفراد المعبود بالتوجّه إليه و ذلك لا يتمّ إلّا بنفي كلّ محبوب عداه فإنّ المحبّة لا يحتمل الشركة ، و التوحيد باللسان قليل الفائدة في الباطن و إنّما تمتحن درجة الحبّ بمفارقة المحبوبات ، و الأموال محبوبة عند الخلق لأنّها آلة تمتّعهم بالدنيا و اُنسهم بها ونفرتهم عن الموت فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب و استنزلوا عن المال الّذى هو معشوقهم كما قال تعالى « إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة » (١) ولمّا فهم الناس هذا المعنى انقسموا أقساماً : فطائفة أخلصوا في حبّ معشوقهم و وفوا بعهده فبذلوا أموالهم ولم يدّخروا منها شيئاً حتّى قيل لبعضهم : كم تجب من الزكاة في مائتي درهم؟ قال : أمّا على العوامّ فبحكم الشرع خمسة دراهم ، و أمّا علينا فيجب بذل الجميع ، و منهم من قعد عن هذه المرتبة و أمسكوا أموالهم

وراقبوا مواقيت الحاجة ومواسم الخيرات وجعلوا قصدهم في الادّخار الإنفاق على قصد الحاجة دون التنعّم ، وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البرّ ، و هؤلاء لايقتصرون على واجب الزكاة كالنخعي والشعبي ومجاهد ، وقيل للشعبي : هل في المال حقّ سوى الزكاة ؟ فقال : نعم أماسمعت قوله تعالى « و آتى المال على حبّه ذوي القربى » الآية واستدلّوا بقوله تعالى « وممّا رزقناهم ينفقون » ولم يجعلوا ذلك مخصوصاً بآية الزكاة بل هو داخل في حقّ المسلم على المسلم ، ومعناه أنّه يجب على المؤسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته بمايفضل عن مال الزكاة ، ومنهم من اقتصر على أداء الواجب من الزكاة من غير زيادة و لانقصان وهي أدون الرتب و قداقتصر مع العوامّ على ذلك لجهلهم بسرّ البذل وبخلهم المال وضعف حبّهم للآخرة ، ويلزم لهذا السرّ تطهير ذوي الأموال عن رذيلة البخل فإنّها من المهلكات قال عليه السلام : ثلاث مهلكات : شحّ مطاع ، وهوى متّبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، ووجه كونه مهلكاً أنّه إنّما يصدر عن محبّة المال وقدعلمت أنّ الدنيا والآخرة ضرّتان بقدرمايقرّب من إحديهما يبعّد من الاُخرى فكانت محبّة المال صارفة عن التوجّه إلى الله ومبعّدة منه ، وذلك يستلزم الهلاك الاُخروي كمابيّناه ، وإنّما تزول هذه الرذيلة بتعوّد البذل . إذحبّ الشيء لاينقطع إلّابقهر النفس على مفارقته بالتدريج حتّى يصيرذلك عادة فالزكاة بهذا المعنى طهور : أي تطهّرصاحبها عن خبث البخل المهلك و إنّما طهارته بقدر بذله و فرحه و استبشاره بصرفه في جنب الله طاعةً و محبّة له وملاحظة لحذف كلّ محبوب عداه عن سمت القبلة .

السرّ الثاني : شكر النعمة فإنّ لله على العبد نعمة في نفسه وشكرها العبادات البدنيّة، ونعمة في ماله وشكرها العبادات الماليّة ، وليس أحد أخسّ وأبعد عن رحمة الله ممّن ينظر إلى فقير قدضيّق عليه الرزق ثمّ اضطرّ إليه فلم يسمح نفسه بأن يؤدّي شكر الله تعالى على ماأغناه عن السؤال وأحوج غيره إليه بعشر ماله أوبربع عشره .

السرّ الثالث: يتعلّق بإصلاح المدن وتدبيرأحوال أهلها وهو أن جعل الله هذا الفرض في أموال الأغنياء شركة للفقراء لأن يسدّ به خلّتهم، وإليه أشار عليه السلام بكونه

فريضة واجبة ، وفي هذا السرّ سرّان : أحدهما : أن يكون ذلك عوناً لهؤلاء على عبادة الله كي لا يشتغلوا بالطلب عنها. الثاني : أن تنكسر همّهم عن حسد أهل الأموال و السعي بالفساد في الأرض فلا ينتظم أمر المدنيّة ، وتكون قلوبهم ساكنة إلى ذلك القدر معلّقة به مستمدّة من الله تعالى بالدعاء في حفظه متألّفة مع أهل الأموال منجذبة إليهم فيتمّ بذلك أمر المشاركة والمعاونة والاُنس والمحبّة الموجبات للاُلفة الموجبة لنظام العالم وقوام أمر الدين وبقاء نوع الإنسان لما لأجله وجد .

السادس: صوم شهر رمضان. وتخصيصه بكونه جنّة من العقاب مع أنّ سائر العبادات كذلك لما أنّه أشدّها وقاية ، وبيان ذلك أنّه مستلزم لقهر أعداء الله الّتي هي الشياطين المطيفة بالإنسان فإنّ وسيلة الشيطان هي الشهوات و إنّما يقوّى الشهوة و يثيرها الأكل والشرب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه بالجوع ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعايشة : داومى قرع باب الجنّة فقالت: بماذا ؟ قال: بالجوع. فكان الصوم على الخصوص أشدّ قمعاً للشيطان و أسدّ لمسالكه و تضييق مجاريه ، ولمّا كان العقاب إنّما يلحق الإنسان و يتفاوت في حقّه بالشدّة والضعف بحسب تفاوت قربه من الشيطان و بعده منه و كانت هذه العبادة أبعد بعيد عن الشيطان كان بسببها أبعد بعيد عن العقاب فلذلك خصّت بكونها وقاية منه . واعلم أنّ هذه العبادات وإن كانت عدميّة إلّا أنّها ليست عدماً صرفاً بل عدم ملكة يحرّك من الطبيعة تحريكاً شديداً ينبّه صاحبه أنّه على جملة من الأمر ليس هذراً فيتذكّر سبب ما ينويه من ذلك و أنّه التقرّب إلى الله سبحانه كما هو غاية للسرّ العامّ للعبادات .

السابع : حجّ البيت واعتماره ، وقد سبقت منّا الإشارة إلى أسراره في الخطبة الاُولى. والّذي ذكره هيهنا كونهما ينفيان الفقر و يغسلان الذنب فجمع فيه بين منفعة الدنيا و منفعة الآخرة : أمّا منفعة الدنيا فكونهما ينفيان الفقر وذلك بسبب التجارة الحاصلة في موسم الحجّ وقيام الأسواق بمكّة حينئذ ، و أمّا منفعة الآخرة لكونهما يغسلان الذنب عن لوح النفس كما علمته في أسرار العبادات وهي هذه المنافع

المشار إليها في القرآن الكريم بقوله « ليشهدوا منافع لهم » قال أكثر المفسّرين : هي منافع الدنيا من التجارة وهو المنقول عن سعيد بن جبير و ابن عبّاس في رواية أبى رزين عنه ، و منهم من جعلها عامّة في منافع الدنيا والآخرة كالتجارة والثواب ، و هو المنقول عن مجاهد وابن عبّاس في رواية عطاء عنه .

الثامن : صلة الرحم ، وذكر من فوائدها أمرين :

أحدهما : كونها مثراة في المال ، و ذلك من وجهين : أحدهما : أنّ العناية الآلهيّة قسّمت لكلّ حيّ قسطاً من الرزق يناله مدّة الحياة الدنيا و تقوم بهصورة بدنه فاذا أعدّت شخصاً من الناس للقيام بأمر جماعة و كلّفته بإمدادهم و معونتهم وجب في العناية إفاضته أرزاقهم على يده و مايقوم بإمدادهم بحسب استعداده لذلك سواء كانوا ذوى أرحام أومرحومين في نظره حتّىلونوى قطع أحد منهم فربّمانقص ماله بحسب رزق ذلك المقطوع ، و ذلك معنى كونه مثراة للمال . الثانى : أنّ صلة الرحم من الأخلاق الحميدة الّتي يستمال بها طباع الخلق فواصل رحمه مرحوم في نظر الكلّ فيكون ذلك سبباً لإمداده و معونته من ذوى الإمداد والمعونات كالملوك و نحوهم فكانت صلة الرحم مظنّة لزيادة المال .

والثانى : كونه منسأة للأجل و هو من وجهين : أحدهما : أنّ صلة الرحم توجب تعاطف ذوى الأرحام و توازرهم ومعاضدتهم لواصلهمفيكون عن أذى الأعداد أبعد و في ذلك مظنّة تأخيره وطول عمره . الثانى : أنّ مواصلة ذوى الأرحام توجب تعلّق هممهم ببقاء واصلهم و إمداده بالدعاء و يكون دعائهم له و تعلّق هممهم ببقائه من شرائط بقائه و إنساء أجله فكانت مواصلتهم منسأة في أجله .

التاسع : صدقة السرّ . و ذكر من فوائدها كونها تكفّر الخطيئة ، و إنّما خصّها بذلك مع أنّ سائر العبادات كذلك لكونها أبعد عن الرياء و مخالطة ما لايراد به إلّا وجه الله تعالى فكان الإخلاص فيها لله أتمّ فكانت أولى بالتقريب من الله و بمحو الخطيئة .

العاشر : صدقة العلانية ، و ذكر من فوائدها أنّها تدفع ميتة السوء ؛ وبيان

ذلك أنّ صدقة العلانية تستلزم الشهرة بفعل الخيرات و توجب الذكر الجميل للمتصدّق ، و لمّا كانت ميتات السوء كالحرق والغرق والصلب والقتل و نحو ذلك من الأحوال الشنيعة الّتي تكثر نفرة الناس عن الموت عليها . وكان قليلاً ما يقع شيء منها بقصد من الناس لمن أحبّوه واشتهر بالرحمة واستجلاب قلوب الفقراء بالصدقة والإيثار . فلاجرم كانت تلك الصدقة مظنّة الدفع لميتات السوء .

الحادى عشر : صنايع المعروف ، وذكر من فوائدها أنّها تقى مصارع الهوان ، و تقريره قريب ممّا قبله . إذكان اصطناع المعروف مستلزماً لتألّف قلوب الخلق و جامعاً لهم على محبّة المصطنع فقلّما يقع من ذلك نسيبهم في مصرع هوان . ثمّ لمّا فرغ من تعداد كمالات الإيمان أمر بما يؤكّده في القلوب ويثبّته وهي اُمور :

أحدها : الاندفاع في ذكر الله . وهو من مؤكّدات الإيمان به ، ورغّب فيه بكونه أحسن الذكر ، وذلك لما يستلزمه من الحصول على الكمالات المسعدة في الآخرة والوصول إلى الله كما سنبيّن فائدته وفضيلته في موضع التوبة .

الثانى : الرغبة فيما وعد المتّقين من ثواب الآخرة و أنواعه . و هو أيضاً من مؤكّدات طاعته والعمل له ، و لمّا كان الخلف في خبره تعالى محالاً كان وعده أصدق الوعود .

الثالث : الاقتداء بهدى النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم .

الرابع : اتّباع سنّته. ولمّا كان أفضل الأنبياء كانت سنّته أشرف السنن والاقتداء به و اتّباع سنّته أهدى الطرق إلى الله .

الخامس : تعلّم القرآن . وظاهر كونه من مؤكّدات الإيمان بالله و رسوله، و استعار له لفظ الربيع ، ووجه المشابهة كون القرآن جامعاً لأنواع العلوم الشريفة والأسرار العجيبة اللطيفة الّتي هي متنزّه القلوب كما أنّ زمن الربيع محلّ الأزهار الرايقة الّتي هي مستمتع النظر ومطرح السرور .

السادس : الاستشفاء بنوره ، وظاهر كونه شافياً للقلوب من ظلمة الجهل .

السابع : حسن تلاوته. وذلك لأنّ حسن تلاوته مظنّة تفهّم معانيه وتدبّرها ،

و بحسن تلاوته تظهر فايدته و تحصل منفعة قصصه ، و إنّما يكون أنفع القصص إذا تلى حقّ تلاوته كما سبق بيانه . ثمّ أكّد الأوامر المذكورة بالأعمال الّتي عدّدها ممّا ينبغى أن يعمل على وفق العلم بالتنبيه على نقصان العالم الّذي لا يعمل بعلمه فسوّى أوّلاً بينه و بين الجاهل العادل عن سواء سبيل الله ، ووجه التسوية اشتراكهما في ثمرة الجهل وهو الجور عن قصد السبيل وفي عدم الانتفاع بفائدة العلم و ثمرته وهي الأعمال الصالحة . ثمّ جعل حال العالم أخسّ لثلاثة أوجه :

أحدها : أنّ الحجّة عليه أعظم لأنّ للجاهلين أن يقولوا : إنا كنّا عن هذا غافلين . وليس للعالم ذلك ، و روى عن الرسول صلّى الله عليه وآله أنّه قال : العلم علمان : علم على اللسان فذلك حجّة الله على بن آدم ، وعلم في القلب فذلك العلم النافع . أى الّذي يستلزم الطاعة بالعمل .

الثانى : أنّ الحسرة له ألزم . و ذلك أنّ النفوس الجاهلة غير عالمة بمقدار ما يفوتها من الكمال بالتحصيل فإذا فارقت أبدانها فهى وإن كانت محجوبة عن ثمار الجنّة و ما أعدّ الله فيها لأوليائه العلماء إلّا أنّها لمّا لم تجدلذّتها ولم تطعم حلاوة المعارف الإلهيّة لم تكن لها كثير حسرة عليها ولا أسف على التقصير في تحصيلها بخلاف العارف بها العالم بنسبتها إلى اللذّات الدنيويّة فإنّه بعد المفارقة إذا علم و انكشف له أنّ الصارف له والمانع عن الوصول إلى حضرة جلال الله هو تقصيره في العمل بما علم مع علمه بمقدار مافاته من الكمالات والدرجات كان أسفه وحسرته على ذلك أشدّ الحسرات . وجرى ذلك مجرى من علم قيمة جوهرة ثمينة يساوى جملة من المال ثمّ اشتغل عن تحصيلها ببعض لعبه حتّى فاتته فإنّه يعظم حسرته عليها و ندمه على التفريط فيها بخلاف الجاهل بقيمتها .

الثالث : أنّه يكون عندالله ألوم ؛ و أشدّيّة اللائمة بعد المفارقة مجاز في انقطاع لسان حاله عن العذر في معصيته عن علم و إنّما يكون ألوم لأنّ إقدام العالم على المعصية الّتي علم قبحها إنّما يكون عن نفس في غاية الانقياد للنفس الأمّارة بالسوء والطاعة لا بليس وجنوده طاعة تفضل على طاعة الجاهل وانقياده لقيام الصارف في حقّ العالم

وهو علمه بقبحها و ترجّح الداعي إليها عليه وعدم الصارف في حقّ الجاهل . ولاشكّ أنّ أشدّية اللائمة تابعة لأشدّية الانقياد لإبليس خصوصاً مع العلم بما يستلزم متابعته من الهلاك . وظاهر إذن كونه ألوم عندالله . وبالله التوفيق والعصمة .

١٠٨ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّى أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ ؛ لَاتَدُومُ حَبْرَتُهَا ، وَلَاتُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا ، غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ ، لَاتَعْدُو إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا ، وَالرِّضَاءِ بِهَا ، أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً) لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِى حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهَا عَبْرَةً ، وَلَمْ يَلْقَ فِى سَرَّائِهَا بَطْناً ، إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً ، وَلَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ ، إِلَّا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ ، وَحَرِيٌّ ، إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً ، أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ ، وَاحْلَوْلَى أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى . لَا يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً ، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً ، وَلَا يُمْسِي مِنْهَا فِى جَنَاحِ أَمْنٍ إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ ، غَرَّارَةٌ غُرُورٌ مَا فِيهَا فَانِيَةٌ ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا

لَاخَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى ، مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اُسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ ، وَمَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اُسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ ، كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا فَجَعَتْهُ ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ قَدْ صَرَعَتْهُ ، وَذِي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيرًا ، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا ؟ سُلْطَانُهَا دُوَلٌ ، وَعَيْشُهَا رَنِقٌ ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ ، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ ، حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ ، وَصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ ، مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ ، وَمَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ ، أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَارًا ، وَأَبْقَى آثَارًا ، وَأَبْعَدَ آمَالًا ، وَأَعَدَّ عَدِيدًا ، وَأَكْثَفَ جُنُودًا : تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ وَآثَرُوهَا أَيَّ إِيثَارٍ ؛ ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ ، وَلَاظَهْرٍ قَاطِعٍ ؟؟! ! فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْسًا بِفِدْيَةٍ ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً ؟ بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْفَوَادِحِ ، وَأَوْهَنَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ ، وَضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ ، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ ، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ الْمَنُونِ ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا ، وَآثَرَهَا ، وَأَخْلَدَ لَهَا حَتَّى ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ ، وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلَّا السَّغَبَ ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ ؟ فَهَذِهِ تُؤْثِرُونَ ، أَمْ إِلَيْهَا

تَطْمَئِنُّونَ ، أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ ؟؟ فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا ، فَاعْلَمُوا — وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ — بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا ، وَظَاعِنُونَ عَنْهَا وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا ، وَأُنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ ضِيفَانًا ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ ، وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ ، فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا ، وَلَا يُبَالُونَ مَنْدَبَةً : إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا : جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ مُتَدَانُونَ لَا يَتَزَاوَرُونَ وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارَبُونَ ، حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ ، وَجُهَلَاءُ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ ، لَا يُخْشَى فَجْعُهُمْ وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ ؛ اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنًا ، وَبِالسَّعَةِ ضِيقًا وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً ، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً ، فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا حُفَاةً عُرَاةً ، قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ ، وَالدَّارِ الْبَاقِيَةِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعْدًا عَلَيْنَا ، إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)

أقول : الحبرة : السرور . والفجعة : الرزيّة . و غوّالة : أي تأخذ على غرّة. وأوبى: أمرض. والغضارة : طيب العيش . وقوادم الطير: مقاديم ريش جناحه . وأوبقه : أهلكه . والاُبّهة : العظمة . ورنق : كدر . و رمام : بالية منقطعة . والمحروب : مسلوب المال . وأرهقتهم : غشيتهم. وفدحه الأمر: اغتاله وأثقله. والقارعة : الداهية الشديدة . وضعضعتهم: أذلّتهم. والمناسم: أخفاف الإبل. والسغب: الجوع. والأجنان: جمع جنن جمع جنّة وهي الستر .

و اعلم أنّ مدار هذا الفصل على التحذير من الدنيا و التنفير عنها بذكر معايبها، و فيه نكت :

فالأولى : استعار لفظ الحلاوة و الخضرة المتعلّقين بحسّي الذوق و البصر لما يروق النفس منها و يلذّ ، و وجه المشابهة المشاركة في الالتذاذ به ، و إنّما خصّ متعلّق هذين الحسّين لأكثريّة تأديتهما إلى النفس و الالتذاذ بواسطتهما دون سائر الحواسّ .

الثانية : وصف الدنيا بكونها محفوفة بالشهوات . و في الخبر : حفّت الجنّة بالمكاره ، و حفّت النار بالشهوات . قال أصحاب المعانيّ : و في ذلك تنبيه على أنّ النار هي الدنيا ، و محبّتها بعد المفارقة هو سبب عذابها . قلت : إنّ ذلك غير مفهوم من كلامه عليه السلام ، و أمّا معنى الخبر فجاز أن يراد فيه النار المعقولة فيكون قريباً ممّا قالوا ، و جاز أن يراد بالنار المحسوسة ، و يكون المعنى على التقديرين أنّ النار إنّما تدخل بالانهماك في مشتهيات الدنيا و لذّاتها و الخروج في استعمالها عمّا ينبغي إلى مالا ينبغي فكأنّها لذلك محفوفة و محاطة بالشهوات لايدخل إليها إلّا منها . وأراد بالعاجلة اللذّات الحاضرة الّتي مالت القلوب إلى الحياة الدنيا بسببها فأشبهت المرئة المتحبّبة بمالها و جمالها. فاستعير لها لفظ التحبّب ، و كذلك قوله : راقت بالقليل : أي أعجبت بزينتها القليلة بالنسبة إلى متاع الآخرة كميّة و كيفيّة ، و كذلك تجلّيها بالآمال الكاذبة المنقطعة و بزينتها ممّا هو في نفس الأمر غرور و باطل فإنّه لولا الغرور و الغفلة عن عاقبتها لما زانت في عيون طالبيها .

الثالثة : استعار لها أوصاف المحتالة الخدوع ؛ وهي كونها غرّارة و غوّالة : أي كثيرة الاستغفال لأهلها و الخداع لهم ، و وصف السبع العقور لكونها أكّالة لهم ، و كنّى بالأوّلين عن كونها كالمخادع في كونها سبباً لغفلتهم عمّا خلقوا لأجله بالاشتغال بها و الانهماك في لذّاتها ، و بالأكّالة عن كونها كالسبع في إفنائهم بالموت و طحنهم تحت التراب .

الرابعة : معنى قوله : لاتعدوا . إلى قوله : مقتدراً. أنّ غاية صفائها للراغبين فيها و الراضين بها و موافقتها لهم لا يتجاوز المثل. وهو: أن تزهر في عيونهم و تروقهم

محاسنها ثمّ عن قليل تزول عنهم فكأنّها لم تكن . كما هو معنى المثل المضروب لها في القرآن الكريم « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء »(١) الآية .

الخامسة : كنّى بالعبرة عن الحزن المعاقب للسرور ، و تخصيصه البطن بالسرّاء والظهر بالضرّاء ، و يحتمل أمرين : أحدهما : أن يريد بطن المجنّ و ظهره ، و ذلك من العادة في حال الحرب أن يلقى الإنسان ظهر المجنّ ، و في حال السلم أن يلقى المجنّ فيكون بطنه ظاهراً . فجرى المثل به في حقّ المتنكّرين والمخاصمين بعد سلم . فقيل : قلّب له ظهر المجنّ . كما قال عليّ عليه السلام لابن عبّاس في بعض كتبه إليه : قلّبت لابن عمّك ظهر المجنّ . فكذلك استعمل هيهنا لقائها للمرء ببطنها في إقبالها عليه و لقائه منها ظهراً في إدبارها عنه ومحاربتها له . الثاني : يحتمل أن يريد بطنها وظهرها . و ذلك أنّ العادة فيمن يلقى صاحبه بالبشر والسرور أن يلقاها بوجهه و بطنه و فيمن يلقاه بالتنكير والإدبار أن يلقى بظهره مولّياً عنه فاستعير ذلك للدنيا و عبّر به عن إقبالها و إدبارها .

السادسة : وإنّما خصّ منها بالجناح . لأنّ الجناح محلّ التغيّر بسرعة فنبّه به على سرعة تغيّراتها ، وإنّما خصّ الخوف بالقوادم من الجناح لأنّ القوادم هى رأس الجناح وهى الأصل في سرعة حركته وتغيّره وهو في مساق ذمّها و التخويف منها فحسن ذلك التخصيص ، ومراده أنّه وإن حصل فيها أمن فهو في محلّ التغيّر السريع والخوف إليه أسرع لتخصيصه بالقوادم .

السابعة : لا خير في شيء من أزوادها إلّا التقوى . استثنى ما هو المقصود من خلق الدنيا وأشار إلى وجود هذا النوع فيها وهو التقوى الموصل إلى الله سبحانه ، وإنّما كان من أزواد الدنيا لأنّه لا يمكن تحصيله إلّا فيها ، وقد سبقت الإشارة إليه في قوله : فتزوّدوا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً . و ظاهر أنّه لا خير فيها عداه من أزوادها لفنائه ومضرّته في الآخرة .

الثامنة : من أقلّ منها استكثر ممّا يؤمنه : أى من الزهد فيها ، و قد عرفت

(١) ١٨ – ٤٣ .

كيفيّة الأمان من عذاب الله ، ومن استكثر منها استكثر ممّا يوبقه وهو ملكات السوء الحاصلة عن حبّ قيناتها و ملذّاتها الفانية الموجبة للهلاك بعد مفارقتها و زوالها .

التاسعة : استعار لفظ العذب والحلو للذّاتها ، ولفظي الاُجاج -وهو المالح- والصبر لما يشوب لذّاتها من الكدر بالأمراض و التغيّرات ، و وجه الاستعارات الاشتراك في الالتذاذ والإيلام .

العاشرة : استعار لفظ الغذاء ، وكنّى به عن لذّاتها أيضاً ، و لفظ السمام له. ووجه الاستعارة ما يستعقب الانهماك في لذّاتها من الهلاك في الآخرة كما يستعقبه شرب السمّ ، و السمام : جمع سمّ. ثمّ أعقب التحذير منها بالتنبيه على مصارع السابقين فيها ممّن كان أطول أعماراً وأشدّ بأساً من تغيّراتها وتنكّراتها لهم مع شدّة محبّتهم وتعبّدهم لها. والسؤال على سبيل الإنكار عن دوام سرورها لهم وحسن صحبتها إيّاهم ، وصرّح بعده بالإنكار بقوله : بل أرهقتهم بالفوادح ، واستعار لها لفظ الإرهاق والتضعضع و التعفير والوطئ و إعانة ريب المنون عليهم ، و أسند إليها أفعال الأحياء ملاحظة تشبهها بالمرئة المتزيّنة لخداع الرجال عن أنفسهم وأموالهم ونحو ذلك .

الحادى عشر: لمّا فرغ من ذمّها والتنفير عنها بتعديد مذامّها استفهم السامعين على سبيل التقريع لهم عن إيثارهم لها بهذا المذامّ واطمينانهم إليها وحرصهم عليها. ثمّ عاد إلى ذمّها مجملاً بقوله : بئست الدار لمن لم يتّهمها : أى لمن اعتقد بصحبتها وأنّها مقصودة بالذات فر كن إليها فإنّها بذلك الاعتبار مذمومة في حقّه إذكانت سبب هلاكه في الآخرة. فأمّا المتّهم لها بالخديعة والغرور فإنّه يكون فيها على وجل منها عاملاً لما بعدها فكانت محمودة له إذكانت سبب سعادته في الآخرة . ثمّ شرع في الأمر بالعمل على وفق العلم بمفارقتها ، وذلك أنّ ترك العمل للآخرة إنّما يكون للاشتغال بالدنيا فالعالم بضرورة مفارقتها له وما أعدّ لتاركى العمل من العذاب الأليم إذا نبّه على تلك الحال كان ذلك صارفاً له عنها و مستلزماً للعمل لغيرها ، و أكّد التنبيه على مفارقتها بالتذكّر بأحوال المفارقين لها بعد مفارقتها المضادّة للأحوال المعتادة للأحياء الّتى ألفوها و استرا حوا إليها . إذكان من عادتهم إذا حملوا أن

يسمّوا ركباناً، وإذا نزلوا أن يسمّوا ضيفانا ، وإذا تجاوروا أن يجيبوا داعيهم ويمنعوا عنه الضيم ، وأن يفرحوا إن جادهم الغيث ، ويقنطوا إن قحطوا منه ، وأن يتزا وروا في التداني ويحلموا عند وجود الأضغان، ويجهلوا عند قيام الأحقاد ويخشوا ويرجوا. فسلبت عنهم تلك الصفات وعرفوا بأضداد تلك السمات .

الثانية عشر : فجاؤوها كما فارقوها : أى أشبه مجيئهم إليها و وجودهم فيها وخروجهم منها يوم مفارقتهم لها ، و وجه الشبه كونهم حفاة عراة ، و هو كناية عن النفر منها ، ودلّ على ذلك استشهاده بالآية الكريمة. و موضع قوله : قد ظعنوا عنها. النصب على الحال. كما انتصب حفاة عراة ،والعامل فارقوها. ولا يقدّر مثله بعد جاؤوها و إن قدّر مثل الحالين السابقين . قال الإمام الوبرىّ ـ رحمة الله عليه ـ : فراقهم من الدنيا إن خلقوا منها ومجيئهم إليها إن دفنوا فيها قال الله تعالى « هو الّذى خلقكم من تراب». ثم قلت: وكان الحامل لهذا الإمام على هذا التأويل أنّه لو كان مراده مجيئهم إليها هو دخولهم فيها حين الولادة مع أنّه في ظاهر الأمر هو المشبّه ومفارقتهم هى المشبّه به لانعكس الفرض . إذا المقصود تشبيه المفارقة بالمجىء وذلك يستلزم كون المشبّه هو المفارقة والمشبّه به هو المجىء لكن ينبعى أن يعلم أنّ المشابهة إذا حصلت بين الشيئين في نفس الأمر جاز أن يجعل أحدهما أصلاً والآخر فرعاً ، وجاز أن يقصد أصل المساواة بينهما من دون ذلك فحمله هنا على الوجه الثانى أولى من التعسّف الّذي ذكره. فأمّا الآية فإنّ ـ من ـ فيها لبيان الجنس فلا تدلّ على المفارقة والانفعال . و بالله التوفيق .

١٠٩ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

ذكر فيها ملك الموت

هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا ؟ أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَدًا ؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى

الْجَنِينَ فِى بَطْنِ أُمِّهِ ؟ أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا ، أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا ؟ أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِى أَحْشَائِهَا ؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلٰهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ !!؟

أقول : هذا الفصل من خطبة طويلة ذكره في معرض التوحيد والتنزيه لله تعالى عن اطّلاع العقول البشريّة على كنه وصفه فقدّم التنبيه بالاستفهام على سبيل الإنكار عن الإحساس به في دخوله منازل المتوفّين وذلك قوله : هل تحسّ به . إلى قوله : أحدا . و نبّه باستنكار الإحساس به على أنّه ليس بجسم . إذ كان كلّ جسم من شأنه أن يحسّ بإحدى الحواسّ الخمس . ثمّ عن كيفيّة توفّيه للجنين في بطن اُمّه وهو استفهام من قبيل تجاهل العارف بالنسبة إليه ، وذلك قوله : بل كيف يتوفّى الجنين . إلى قوله : في أحشاها. وجعل الحقّ من هذه الأقسام في الوسط و هو إجابتها بإذن ربّها ليبقى الجاهل في محلّ الحيرة متردّداً . ثمّ لمّا بيّن أنّ ملك الموت لايتمكّن الإنسان من وصفه نبّه على عظمة الله سبحانه بالنسبة إليه ، وأنّه إذا عجز الإنسان عن وصف مخلوق مثله فبالأولى أن يعجز عن صفة خالقه و مبدعه الّذي هو أبعد الأشياء عنه مناسبة ، و تقدير البيان بذلك التنبيه أنّ العبد عاجز عن صفة مخلوق مثله لما بيّناه من العجز عن صفة ملك الموت و حاله ، و كلّ من عجز من صفة مخلوق مثله فهو من صفة خالق ذلك المخلوق و مبدعه أشدّ عجزاً . و لنشر إشارة خفيفة إلى حقيقة الموت وإلى ما عساه يلوح من وصف ملك الموت إنشاء الله تعالى .
فنقول : أمّا حقيقة الموت: فاعلم أنّ الّذي نطقت به الأخبار و شهد به الاعتبار أنّ الموت ليس إلّا عبارة عن تغيّر حال ، و هو مفارقة الروح لهذا البدن الجارى مجرى الآلة لذي الصنعة ، وأنّ الروح باقية بعده كما شهدت به البراهين العقليّة في مظانّها، والآثار النبويّة المتواترة. ومعنى مفارقتها له هو انقطاع تصرّفها فيه لخروجه عن حدّ الانتفاع به فما كان من الاُمور المدركة لها تحتاج في إدراكه إلى آلة فهى متعطّلة

عنه بعد مفارقة البدن إلى أن تعاد إليه في القبر أو يوم القيامة ، وماكان مدركاً لها لنفسها من غير آلة فهو باق معها يتنعّم به و يفرح أو يحزن من غير حاجة إلى هذه الآلة في بقاء تلك العلوم والإدراكات الكلّيّة لها هناك . و قد ضرب للمفارقة الّتي سمّيناها بالموت مثلاً : فقيل : كما أنّ بعض أعضاء المريض متعطّل بحسب فساد المزاج يقع فيه أو بحسب شدّة تعرّض للأعصاب فتمنع نفوذ الروح فيها فتكون النفس مستعملة لبعض الأعضاء دون ما استقصى عليها منها فكذلك الموت عبارة عن استقصاء جميع الأعضاء كلّها و تعطّلها ، وحاصل هذه المفارقة يعود إلى سلب الإنسان عن هذه الأعضاء والآلات والقينات الدنيويّة من الأهل والمال والولد و نحوهـا ، ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء عن الإنسان أو يسلب هو عنها . إذ كان المولم هو الفراق ، و قد يحصل ذلك بنهب مال الرجل وسبى ذريّته ، و قد يحصل بسلبه ونهبه عن ماله وأهله . فالموت في الحقيقة هو سلب الانسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر فإن كان له في هذا العالم شيء يأنس به و يستريح إليه فبقدر عظم خطره عنده يعظم تحسّره عليه في الآخرة وتصعب شقاوته في مفارقته ، ويكون سبب عظم خطره عنده ضعف تصوّره لما اُعدّ للأبرار المتّقين في الآخرة ممّا يستحقر في القليل منه أكثر نفائس الدنيا. فأمّا إن كانت عين بصيرته مفتوحة حتّى لم يفرح إلّا بذكر الله ولم يأنس إلّا به عظم نعيمه و تمّت سعادته . إذخلّى بينه و بين محبوبه فقطع علائقه و عوائقه الشاغلة له عنه و وصل إليه و انكشف له هناك ماكان يدركه من السعادة بحسب الوصف انكشاف مشاهدة كما يشاهد المستيقظة من نومه صورة ما رآه في النوم. والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا .

إذا عرفت ذلك فاعلم أن ملك الموت عبارة عن الروح المتولّى لإفاضة صورة العدم على أعضاء هذا البدن ولحال مفارقة النفس له ، ولعلّه هو المتولّى لإفاضة صورة الوجود عليها لكنّه بالاعتبار الأوّل يسمّى ملك الموت. ثمّ لمّا كانت النفوس البشريّة إنّما تدرك المجرّدات مادامت في هذا العالم وتستثبتها بأن تستصحب القوّة المتخيّلة معها فيتحاكى ما كان محبوباً منها للنفس و مستبشراً بلقائه بصورة بهيّة كتصوّرها

لجبرئيل في صورة دحية الكلبي ّ وغيره من الصور البهيّة الحسنة ، وماكان مستكرهاً مخوفاً منفوراً من لقائه بصورة هائلة لاجرم اختلف رؤية الناس لملك الموت فمنهم من يراه على صورة بهيّة وهم المستبشرون بلقاء الله الّذين قلّت رغبتهم في الدنيا و رضوا بالموت ليصلوا إلى لقاء محبوبهم وفرحوا به لكونه وسيلة إليه كما روى عن إبراهيم عليه السلام أنّه لقى ملكاً فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا ملك الموت . فقال له : أتستطيع أن تريني الصورة الّتى تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم أعرض عنّي فأعرض عنه فإ ذاً هو شابّ فذكر من حسنه و ثيابه (شبابه خ) وطيب ريحه فقال : ياملك الموت لولم يلق المؤمن من البشرى إلّا حسن صورتك لكان حسبه، ومنهم من يراه على صورة قبيحة هائلة المنظر وهم الفجّار الّذين أعرضوا عن لقاء الله و رضوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها كما روى عن إبراهيم عليه السلام أيضاً أنّه قال لملك الموت : فهل تستطيع أن تريني الصورة الّتى تقبض فيها روح الفاجر ؟ فقال : لا تطيق ذلك . فقال : بلى قال : فأعرض عنّي فأعرض عنه . ثمّ التفت إليه فإ ذاً هو رجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه و مناخره النار والدخان فغشى على إبراهيم عليه السلام . ثمّ أفاق ، و قد عاد ملك الموت إلى حالته الاُولى فقال : يا ملك الموت لولم يلق الفاجر عند موته إلّا هذه الصورة لكفته . وبالله التوفيق .

١١٠ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا ، فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ ، قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا ، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا ، هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا : فَخَلَطَ حَلَالَهَا بِحَرَامِهَا ، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا ، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا ، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا : لَمْ يُصْفِهَا اللهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ ، خَيْرُهَا زَهِيدٌ ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ ، وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ

وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ ، فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ ؟ وَعُمُرٍ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ ؟ ! اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ . إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِى الدُّنْيَا تَبْكِى قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا ، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا ، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ اغْتَبَطُوا بِمَا رُزِقُوا ، قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجَالِ ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الْآمَالِ ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الْآجِلَةِ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللهِ : مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْثُ السَّرَائِرِ ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ : فَلَا تَوَازَرُونَ ، وَلَا تَنَاصَحُونَ ، وَلَا تَبَاذَلُونَ ، وَلَا تَوَادُّونَ !! مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُمْلِكُونَهُ ، وَلَا يُحْزِنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ ، وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذٰلِكَ فِى وُجُوهِكُمْ وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِىَ مِنْهَا عَنْكُمْ ؟؟ !! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ ، وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ !! وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ إِلَّا مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ ، قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الْآجِلِ ، وَحُبِّ الْعَاجِلِ ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَى لِسَانِهِ صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ عَنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ !

أقول : يقال : هذا منزل قلعة بضمّ القاف : أى لا يصلح للاستيطان . والنجعة بضمّ النون : طلب الكلاء . و العتيد : المهيّأ المعدّ . واللعقة بالضمّ : اسم لما تأخذه الملعقة . و في هذا الفصل نكت :

فالأولى : التحذير من الدنيا والاستدراج إلى تركها بذكر معايبها ، و ذلك من أوّل الفصل إلى قوله : انقطاع السير. فأشار أوّلاً إلى أنّها لاتصلح للاستيطان وطلب الكلاء ، و كنّى به عمّا ينبغى أن يطلب من الخيرات الباقية الّتى هى محلّ الأمن والسرور الدائم .

و ثانياً إلى أنّ زينتها سبب لاستغفالها الخلق والاغترار بهاسبب لاستحسانها .

فإن قلت : فقد جعل الزينة سبباً للغرور ، والغرور سبباً للزينة و ذلك دور .

قلت : إنّما جعل الزينة سبباً للاستغرار ، والغرور سبباً لاستحسانها و عدم التنبّه لمعائبها . فلا دور .

وثالثاً : أنّها هانت على ربّها : أى لم تكن العناية الآلهيّة إليها بالذات فلم تكن خيراً محضاً بل كان كلّ ما فيها ممّا يعدّ خيراً مشوباً بشرّ يقابله ، و ذلك بحسب الممكن فيها و زهادة خيرها بالنسبة إلى خير الآخرة .

الثانية : التأديب بأوامر : أحدها : أن يجعلوا فرائض الله عليهم من جملة ما يطلبونه منه ، و الغرض أن تصير محبوبة لهم كمحبّتهم لما يسألونه من مال و غيره فيواظبوا على العمل بها .الثانى : أن يسألوه أداء حقّه عنهم ، وذلك بالإعانة والتوفيق والإعداد لذلك كما سألهم أداء حقّه ، والغرض أيضاً أن يصير الأداء مهمّاً لهم محبوباً إليهم ، و نحوه في الدعاء المأثور : اللّهمّ إنّك سألتنى من نفسى مالا أملكه إلّا بك فأعطنى منها مايرضيك عنّى . الثالث : أن يسمعوا داعي الموت آذانهم : أى يقصدون سماع كلّ لفظ يخوّف الموت و أهواله ، و ذلك بالجلوس مجالس الذكر و محاضرة الزاهدين في الدنيا ، و فائدة ذكر الموت تنغيص اللذّات الدنيويّة كما قال عليه السلام: أكثروا ذكرها دم اللذّات .

الثالثة : شرح حال الزاهدين في الدنيا ليهتدى من عساه أن ينجذب إلى الله إلى

كيفيّة طريقتهم فيقتدى بهم. فذكر لهم أوصافاً : الأوّل : أنّهم تبكى قلوبهم وإن ضحكوا ، و ذلك إشارة إلى دوام حزنهم لملاحظتهم الخوف من الله فان ضحكوا مع ذلك فمعاملة مع الخلق . الثانى : أنّهم يشتدّ حزنهم وإن فرحوا. و هو قريب ممّا قبله . الثالث : أنّه قديكثر لبعضهم متاع الحياة الدنيا ولكنّهم يتمرّدون على أنفسهم فيترکون الالتفات إليها بالزينة و طاعتها فيما تدعوهم إليه من متاع الحياة الدنيا الحاضرة وإن غبطهم غيرهم بما قسّم لهم من رزق .

الرابعة : تعنيف السامعين على ماهم عليه من الأحوال المضرّة في الآخرة ، و ذلك بالغفلة عن ذكر الأجل واستحضارهم للآمال الكاذبة و غيرها من الأحوال المذكورة . إلى آخر الفصل ، ومحلّ ـ تدركونه و تحرمونه ويفوتكم ـ النصب على الحال ، و ـ قلّةصبركم ـ عطف على وجوهكم : أى حتّى يتبيّن ذلك الفلق في وجوهكم وفي قلّة صبركم عمّا غيّب عنكم منها .

وقوله : و ما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه . إلى آخره .

أى ما يمنع أحدكم من لقاء أخيه لعيبه ولا ئمته عليه إلّا الخوف منه أن يلقاه بمثله لمشاركته إيّاه فيه كما صرّح به في قوله : تصافيتم على رفض الآجل . إلى آخره ، واستعار لفظ اللعقة لما ينطق به من شعار الإسلام والدين كالشهادتين ونحوهما من دون ثبات ذلك في القلب ورسوخه والعمل على وفقه ، و ـ صنيع ـ نصب على المصدر: أى صنعتم صنيعاً مثل صنيع من أحرز رضا سيّده بقضاء ما أمره به ، ووجه التشبيه الاشتراك في الترك والإعراض عن العمل . وبالله التوفيق .

١١١ ــ ومن خطبة له عليه السلام

الْحَمْدُ للهِ الْوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ ، وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ . نَحْمَدُهُ عَلَى آلائِهِ ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلائِهِ ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هٰذِهِ النُّفُوسِ الْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ ، السِّرَاعِ

إلَى مَا نُهِيتُ عَنْهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ: عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ. وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ الْغُيُوبَ، وَوَقَفَ عَلَى الْمَوْعُودِ: إِيمَاناً نَفَى إِخْلَاصُهُ الشِّرْكَ، وَيَقِينُهُ الشَّكَّ. وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ الْقَوْلَ، وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ: لَا يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ، وَلَا يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ عَنْهُ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ، وَبِهَا الْمَعَادُ، زَادٌ مُبْلِغٌ، وَمَعَادٌ مُنْجِحٌ، دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ، فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا، وَفَازَ وَاعِيهَا

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ تَقْوَى اللهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللهِ مَحَارِمَهُ، وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ، فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ وَالرِّيَّ بِالظَّمَإِ، وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ، فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ، فَلَاحَظُوا الْأَجَلَ. ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ: فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ، لَا تُخْطِىءُ سِهَامُهُ، وَلَا تُؤْسَى جِرَاحُهُ، يَرْمِي الْحَيَّ بِالْمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ، وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ: آكِلٌ لَا يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ، وَيَبْنِي مَا لَا يَسْكُنُ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللهِ لَا مَالاً

حَمَلَ ، وَلَا بِنَاءٌ نَقَلَ ، وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطًا ، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُومًا ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا نَعِيمًا زَلَّ ، وَبُؤْسًا نَزَلَ ، وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ ، فَيَقْطَعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ ، فَلَا أَمَلٌ يُدْرَكُ ، وَلَا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ ! فَسُبْحَانَ اللهِ !! مَا أَغَرَّ سُرُورَهَا ، وَأَظْمَأَ رِيَّهَا ، وَأَضْحَى فَيْئَهَا ، لَا جَاءٍ يُرَدُّ ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَدُّ ! فَسُبْحَانَ اللهِ !! مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ .

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ ، فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ فِي الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا ؛ فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ . إِنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ ، وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ ، قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ ، وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ ، فَلَا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ ، مَعَ أَنَّهُ ، وَاللهِ ، لَقَدِ اعْتَرَضَ الشَّكُّ وَدَخِلَ الْيَقِينُ ، حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي ضَمِنَ

لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ ، وَكَأَنَّ الَّذِي قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ ! فَبَادِرُوا الْعَمَلَ ، وَخَافُوا بَغْتَةَ الْأَجَلِ : فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمْرِ مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ ، مَا فَاتَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمْرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ . الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي ، وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي (فَاتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

أقول : لا توسى : أي لاتداوى . ولا ينقع : لا يسكن عطشه . و أضحى : برز لحرّ الشمس .

و في الخطبة لطائف :

الاُولى : أنّه صدّر الخطبة بحمد الله تعالى باعتبارين :

أحدهما : وصله حمد حامديه بإفاضة نعمه عليهم. كماقال تعالى « ولئن شكرتم لأزيدنّكم » وسرّه أنّ العبيد يستعدّ بشكر النعمة .

الثاني : وصله النعم الّتي يفيضها على عباده بإفاضة الاعتراف بها على أسرار قلوبهم ، وقدعلمت : أنّ الاعتراف بالنعم هي حقيقة الشكر فظهر إذن معنى وصله النعم بالشكر ، و إنّ الشكر والتوفيق له نعم اُخرى كما سبقت الإشارة إليه في الخطبة الاُولى ، و يحتمل أن يريد الشكر منه تعالى لعباده الشاكرين كما قال تعالى « والله شاكر عليم » و ظاهر أنّ وصله نعمه بشكره في نهاية التفضّل والانعام فانّ الإحسان المتعارف يستتبع الشكر من المحسن إليه فأمّا من المحسن فذلك تفضّل آخر و رتبة أعلى .

الثانية : أنّه نبّه بتسويته بين حمده على النعماء و حمده على البلاء تنبيهاً منه على وجوب ذلك لأنّ النعمة قد تكون بلاءاً من الله كما قال تعالى « و نبلو كم بالشرّ والخير فتنة » والبلاء منه أيضاً نعمة يستحقّ به الثواب الآجل ، وسبب النعمة

نعمة ، و بهذا الاعتبار يجب الشكر على البلاء أيضاً كما يجب على النعماء . إذ الكلّ نعمة .

الثالثة : نبّه على وجوب استعانته تعالى على النفوس ، و ذكر ما لأجله الاستعانة عليها وهو كونها بطاءاً عمّا اُمرت به من سائر التكاليف . و ذلك لحاجة النفوس إلى مقاومة الطبيعة سراعاً إلى ما نهيت عنه من المعاصي ، و ذلك لموافقتها مقتضى الطبيعة .

الرابعة : نبّه على وجوب طلب المغفرة من الله لكلّ ذنب صغير أو كبير ممّا أحاط به علمه وأحصاه كتابه المبين ولوحه المحفوظ ـ جبرئيل الأمين ـ علماً أحاط بكلّ شيء و كتاباً غير مغادر لشيء .

الخامسة : إنّما خصّ إيمان من عاين الغيوب ووقف على الموعود : أي وقف على ما وعد به المتّقون بعين الكشف لكونه أقوى درجات الإيمان فإنّ من الإيمان ما يكون بحسب التقليد ، و منه ما يكون بحسب البرهان وهو علم اليقين ، وأقوى منه الإيمان بحسب الكشف والمشاهدة و هو عين اليقين ، وذلك هو الإيمان الخالص فيه و بحسب الإخلاص فيه يكون نفي الشرك ، وبحسب يقينه يعني اعتقاد أنّ الأمر كذا مع اعتقاد أنّه لا يمكن أن يكون إلّا كذا يكون نفي الشكّ ، وقد علمت أنّه عليه السلام من أهل هذه المرتبة .

السادسة : كون الشهادتين تصعدان القول وترفعان العمل ، و ذلك أنّ إخلاص الشهادتين أصل لقبول الأقوال والأعمال الصالحة لا يصعد إلى الله قول وعمل لا تكونان أصلاً له ، و أشار إلى ذلك بقوله : لا يخفّ ميزان توضعان فيه ولا يثقل ميزان ترفعان عنه . وقد أشرنا إلى معنى الوزن فيما سبق وسنزيده بياناً إنشاء الله تعالى .

السابعة : أراد بكون تقوى الله هي الزاد أنّها الزاد المبلّغ وأنّ بها المعاد : أي المعاد المنجح ، ولذلك أوردهما تفسيراً .

الثامنة : أراد بأسمع داعٍ أشدّ الداعين إسماعاً و تبليغا و هو الرسول صلى الله عليه وآله و أراد بخير واعٍ المسارعين إلى داعي الله الّذين هم أفضل القوابل الإنسانيّة .

التاسعة : وصف ما يستلزم تقوى الله من الآثار في أولياء الله ، ووصف الليالى بالسهر، والهواجر بالظماء لكونهما ظرفين . فالليالى لقيام الصلاة والنهار للصوم فكان مجازاً من باب إطلاق صفة المظروف على الظرف ، وهو كقولهم : نهاره صائم و ليله قائم ، وأخذهم الراحة : أى في الآخرة بالنصب : أى بتعب الأبدان من القيام ، والريّ من عين تسمّى سبيلا بالاستعداد بظمأ الصيام ، والفاء في فبادروا ولا حظوا للتعليل فانّ استقراب الأجل مستلزم للعمل له ولما بعده ، و كذلك تكذيب الأمل وانقطاعه ملازم لملاحظة الأجل .

العاشرة . ذكر مذامّ الدنيا إجمالاً ، وهو كونها دار فناء و عناء و غير و عبر . ثمّ أعقب ذلك الإجمال بتفصيل كلّ جملة وذلك إلى قوله : ولا مؤمّل يترك . واستعار لفظ الإيتار لإيتار الدهر ، و رشّح بذكر القوس ، و وجه الاستعارة أنّ الدهر كما يرمى بمصائبه المستندة إلى القضاء الإلهيّ الّذي لا يتغيّر كما يرمى الرامى الّذي لا يخطىء، و كذلك استعار لفظ الجراح لنوائب الدهر لاشتراكهما في الإيلام ، و رشّح بذكر عدم المداواة ، و كذلك استعار له لفظ الآكل والشارب عديمى الشبع والريّ ، ووجه المشابهة كونه يأتى على الخلق فيفنيهم كما يأتى الآكل والشارب المذكوران على الطعام والشراب فيفنيانهما ، وأراد بالمرحوم الّذي يرى مغبوطاً أهل المسكنة والفقر الّذي يتبدّل فقرهم بالغنى فيغبطون ، وبالمغبوط الّذي يرى مرحوماً أهل الغنى المتبدّلين به فقراً بحسب تصاريف الدهر فيصيروا في محلّ الرحمة ، وقوله: ليس ذلك إلّا نعيماً زلّ : أى عن المغبوطين وبؤساً نزل بهم .

الحادية عشر : نسب الغرور إلى سرورها والظماء إلى ريّها والضحى إلى فيئها، وأتى بلفظ التعجّب ، و كنّى بريّها عن استتمام لذّاتها، و بفيئها عن الركون إلى قنياتها والاعتماد عليها ، ووجه هذه النسب أنّ سرورها وفيئها هي الصوارف عن العمل للآخرة والملفتات عن الإقبال على الله فكان سرورها أقوى سبب للغرور بها ، وريّها وفيئها أقوى الأسباب لظماء منهمك فيها من شراء الأبرار وأوجب لأبراره إلى حرّ الجحيم فلهذه النسبة جازت إضافة الغرور والظماء والضحى إلى سرورها و ريّها و فيئها و

قوله : لاجاءٍ يردّ : أي من آفات الدهر كالموت والقتل ونحوهما ، ولا ماضٍ يرتدّ : أي من الأموات والفائت من القنيات .

الثانية عشر : قوله : أنّه ليس شيء بشرّ من الشرّ إلّا عقابه . إلى قوله: سماعه. يحتمل أن يريد الشرّ والخير المطلقين ، و يكون ذلك للمبالغة . إذ يقال للأمر الشريف والشديد : هذا أشدّ من الشديد وأجود من الجيّد ، و يحتمل أن يريد شرّ الدنيا وخيرها فإنّ أعظم شرّ في الدنيا مستحقر في عقاب الله ، و أعظم خير فيها مستحقر بالنسبة إلى ثواب الله . ثمّ أكّد ذلك بأعظميّة أحوال الآخرة بالنسبة إلى أحوال الدنيا . و مصداق كلامه عليه السلام أنّ أعظم شرّ يتصوّر الإنسان بالسماع و يستهوله و يستنكره ممّن يفعله صورةُ القتل والجراح فإذا وقع في مثل تلك الأحوال وشاهدها واضطرّ إلى المخاصمة والمحاربة سهل عليه ما كان يستصعبه منها وهان في عينه ذلك الوقع والخوف ، و كذلك لا يزال الإنسان يتخوّف المثول بين يدى الملوك و يتصوّر عظمتهم و بطشهم إلى أن يصل إلى مجالسهم فإنّه يجد من نفسه زوال ذلك الخوف . فكانت مشاهدة ما كان يتصوّره شرّاً عظيماً أهون عنده من وصفه والسماع له، و كذلك حال الخير فإنّ الإنسان لايزال يحرص على تحصيل الدرهم والدينار و غيرهما من سائر مطالب الدنيا ، و يكون قلبه مشغولاً بتحصيله فرحاً بانتظار وصوله فإذا وصل إليه هان عليه. و هو أمر وجدانيّ ، وأمّا أحوال الآخرة فالّذي يسمعه من شرورها وخيراتها إنّما يلاحظها بالنسبة إلى خيرات الدنيا و شرورها ، و ربّما كانت في اعتبار أكثر الخلق أهون من خيرات الدنيا و شرورها لقرب الخلق من المحسوس و قرب الدنيا منهم و ذوقهم لها دون الآخرة مع قيام البرهان العقليّ على ضعف الأحوال الحاضرة من خير وشرّ بالقياس إلى أحوال الآخرة فلذلك كان عيان أحوالها أعظم من سماعها. وإذا كانت الحال كذلك فينبغي أن يكتفي من العيان بالسماع، ومن الغيب بالخبر حيث لا يمكن الاطّلاع على الغيب ومشاهدة العيان لتلك الأحوال في هذه العالم . ثمّ نبّه على أفضليّة الآخرة بأنّ ما زاد فيها ممّا يقرّب إلى الله تعالى فإن استلزم نقصان الدنيا من بذل مال أو جاه خير من العكس . وبيان هذه الخيريّة

كون خيرات الدنيا في معرض الزوال مشوبة بالأوجاع والأوجال (الأوحال خ) وكون تلك باقية على كلّ حال مع كونها في نهاية الكمال، وضرب المثل بأكثريّة المنقوص من الدنيا الرابح في الآخرة، وهم أولياء الله و أحبّائه الّذين اشترى منهم أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنّة، وبأكثريّة المزيد الخاسر الّذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم. ثمّ أكّد الحثّ على سلوك طريق الآخرة ببيان اتّساعها بالنسبة إلى طريق الدنيا. فقال: إنّ الّذى اُمرتم به أوسع من الّذي نهيتم عنه، و ذلك ظاهر فإنّ كبائر ما نهيناعنه خمس: القتل. وفي الحلم والعفو والصبر الّتى هى من أشرف الأخلاق المحمودة سعة عنه. ثمّ الظلم. وفي العدل والاقتصار على تناول الاُمور المباحة الّتى هى أكثر و أوسع سعة عنه. ثمّ الكذب الّذي هو رأس النفاق و عليه يبتنى خراب العالم. و في المعاريض والصدق الّذي هو بضدّه في عمارة العالم مندوحة عنه. ثمّ الزنا. ولا شكّ أنّ في سائر وجوه النكاحات مع كثرتها و سلامتها عن المفاسد اللازمة عن الزنا سعة عنه. ثمّ شرب الخمر الّتى هى اُمّ الخبائث ومنشأ كثير من الفساد. وفي تركها إلى مايقارب أفعالها الّتى تدّعى كونها محمودة من سائر الأشربة وغيرهامعدل عنهاوسعة. و كذلك قوله: وما اُحلّ لكم أكثرممّا حرّم عليكم فإنّ الواجب والمندوب والمباح والمكروه يصدق على جميعها اسم الحلال، وهى أكثر من الحرام الّذي هوقسم واحدمن الأحكام ثمّ لمّا نبّه على وجه المصلحة في ترك المنهىّ والمحرّم أردف ذلك بالأمر بتركهما لأنّ العقل إذا لاحظ طريقاً مخوفاً واحداً بين طرق كثيرة آمنة اقتضى العدول عن المخوفة لضرورته.

الثالثة عشر: نبّه بالنهى عن ترجيح طلب الرزق على الاشتغال بفرائض الله، و على أنّ الاشتغال بها أولى بكون الرزق مضموناً. فالسعى في تحصيله يجرى مجرى تحصيل الحاصل. ثمّ أردف ذلك بمايجرى مجرى التوبيخ للسامعين على ترجيحهم طلب الرزق على الاشتغال بالفرائض فأقسم أنّ ذلك منهم عن اعتراض الشكّ لهم فيما تيقّنوه من تكفّل الله سبحانه بأرزاقهم و وعده وضمانه لهم بقوله «وفي السماء

رزقكم و ما توعدون » أى في سماء جوده ، و قد علمت أنّ الجدّ في طلب الرزق يستند إلى ضعف التوكّل على الله و هو مستند إلى ضعف اليقين فيه و سوء الظنّ به ، وذلك يستلزم استناد العبد إلى نفسه و توكّله عليها. و جعلهم في طلب الرزق كمن تيقّن المضمون له مفروضاً طلبه عليه ، والمفروض عليه طلبه موضوعاً عنه. مبالغة في قلّة احتفالهم بفرائض الله عليهم واشتغالهم عنها بطلب الدنيا .

الرابعة عشر : نبّه على وجوب المحافظة على العمر بالعمل فيه للآخرة ، و على أولويّة مراعاته بالنسبة إلى مراعاة طلب الرزق بكون العمر لا يرجى من رجعته ما يرجى من رجعة الرزق فإنّ العمر في تنقّص و نقصان ، و ما فات منه غير عائد بخلاف الرزق فإنّه يرجى زيادته وجبران ما نقص منه في الماضى ، و لمّا كان العمر الّذي من شأنه أن لا يعود مافات منه طرفاً للعمل و يفوت بفواته وجب تدارك العمل بتداركه ، و قوله :الرجاء مع الجائى. يريد الرزق ، واليأس مع الماضى. يريد العمر. وهو مؤكّد لما قبله .

الخامسة عشر : أنّه ختم بالآية اقتباساً من نور القرآن ، ووجه هذه الاقتباس أنّه لمّا كان الكلام في معرض جذب السامعين إلى العمل الّذي هو سبب تطويع النفس الأمّارة بالسوء للنفس المطمئنّة الّذي هو جزء من الرياضة ، و كان التقوى عبارة عن الزهد في الدنيا الّذي حقيقته حذف الموانع الداخليّة والخارجيّة عن القلب الّذي هو الجزء الثانى من الرياضة ، و كان الإسلام هو الدين الحقّ المركّب من ذينك الجزئين لاجرم حسن إيراد الآية المشتملة على الأمر بالتقوى والموت على الإسلام بعد الأمر بالعمل ليكون ذلك أمراً بإكمال الدين وإتمامه . وبالله التوفيق.

١١٢ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فى الاستسقاء

اَللّٰهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ جِبَالُنَا ، وَاغْبَرَّتْ أَرْضُنَا ، وَهَامَتْ دَوَابُّنَا ، وَتَحَيَّرَتْ فِى مَرَابِضِهَا ، وَعَجَّتْ عَجِيجَ الثَّكَالَى عَلَى أَوْلَادِهَا ، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِى مَرَاتِعِهَا ،

وَالْحَنِينَ إِلَى مَوارِدِهَا. اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِينَ الآنَّةِ، وَحَنِينَ الْحَانَّةِ. اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا، اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ الْجُودِ؛ فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ وَالْبَلَاغَ لِلْمُلْتَمِسِ: نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا، وَانْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ الْمُنْبَعِقِ، وَالرَّبِيعِ الْمُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ، سَحًّا وَابِلًا، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ. اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ، مُحْيِيَةً، مُرْوِيَةً، تَامَّةً، عَامَّةً، طَيِّبَةً، مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً، مَرِيعَةً، زَاكِيًا نَبْتُهَا، ثَامِرًا فَرْعُهَا، نَاضِرًا وَرَقُهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ. اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا، وَتَجْرِي بِهَا وِهَادُنَا، وَتُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدَى بِهَا أَقَاصِينَا، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا، مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ عَلَى بَرِيَّتِكَ الْمُرْمِلَةِ وَوَحْشِكَ الْمُهْمَلَةِ، وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً، مِدْرَارًا هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا، وَلَا جَهَامٍ عَارِضُهَا وَلَا قَزَعٍ رَبَابُهَا، وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُهَا، حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا الْمُجْدِبُونَ،

وَيَحَابِيرَ كَتِهَا الْمُسْنِتُونَ ، فَإِنَّكَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ بَعْدَ مَاقَنَطُوا ، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ .

قال الشريف : قوله عليه السلام «انصاحت جبالنا» أى : تشققت من المحول. يقال : انصاح الثوب ، إذا انشق . ويقال أيضا : انصاح النبت وصاح وصَوَّح إذا جَفَّ ويَبِسَ . وقوله «وهامت دوابنا» أى : عطشت ، والهيام : العطش وقوله «حدابير السنين» جمع حدبار : وهى الناقة التى أنضاها السير فشبه بها السنة التى فشا فيها الجدب ، قال ذو الرمة :ــ

حَدَابِيرُ مَاتَنْفَكُّ إلَّا مُنَاخَةً عَلَى الْخَسْفِ أَوْ نَرْمِي بِهَا بَلَدًا قَفْرًا

وقوله «ولا قزع ربابها» : القزع : القطع الصغار المتفرقة من السحاب ، وقوله «ولا شفان ذهابها» فإن تقديره : ولا ذات شفان ذهابها ، والشفان : الريح الباردة ، والذهاب : الأمطار اللينة ، فحذف «ذات» لعلم السامع به .

وأقول : اعتكرت : اختلطت وازدحمت . والمخائل : جمع مخيلة للسحابة الّتى ترجى المطر . والمبتئس : الحزين . والمنبعق والمنبعج : السحاب المنصبّ بشدّة . والربيع هنا : المطر . والسقيا بالضمّ : الاسم من السقى . والمريع : المخصب . والنجاد : جمع نجد و هو المرتفع من الأرض . والضواحى : النواحى البارزة : أى أهل نواحينا . والمرملة : قليلة المطر . والمخضلة : الرطبة . والودق : التلر . والجهام : المظلم الّذي لاماء فيه . والخلّب : الّتى يكذب الظنّ فيها . والمسنتون : الّذين أصابتهم شدّة السنة .

و اعلم أنّه نبّه بقوله . ندعوك عن لا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا . على أنّ للذنوب والأعمال الخارجة عن أوامر الله تأثير في رفع الرحمة . و سرّ ذلك

أنّ الجود الإلهي لا بخل فيه ولا منع من قبله وإنّما يكون ذلك بحسب عدم الاستعداد و قلّته و كثرته ، و ظاهر أنّ المقبلين على الدنيا المرتكبين لمحارم الله معرضون عنه غير متلقّين لآثار رحمته بل مستعدّون لضدّ ذلك أعني سخطه وعذابه بحسب استعدادهم بالانهماك في محارمه والجور عن سبيله ، وحريّ بمن كان كذلك أن لا تناله بركة ، ولا يفاض عليه أثر رحمة ، و نصب سحّاً و وابلاً على الحال والعامل انشر ، و أراد بالسماء المخضلة هنا السحاب ، والعرب تقول : كلّ ما علاك فهو سماؤك ، ومعنى إنزاله إرسال مائه و إدراره ، و يحتمل أن يريد بالسماء المطر نفسه ، و نحوه أنزل علينا الغيث ، و قد اقتبس من القرآن الكريم ختام هذا الفصل أيضاً ، ووجه مناسبته للآية ظاهر . وبالله التوفيق .

١١٣ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى الْحَقِّ ، وَشَاهِداً عَلَى الْخَلْقِ ، فَبَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ ، غَيْرَ وَانٍ وَلَا مُقَصِّرٍ ، وَجَاهَدَ فِي اللهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ ، إِمَامُ مَنِ اتَّقَى وَبَصَرُ مَنِ اهْتَدَى .

أقول : الواهن : الضعيف . والمعذّر بالتشديد: المقصّر .

واعلم أنّ الأوصاف الّتي ذكرها للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ظاهرة ، و قد سبقت الإشارة إليها غير مرّة فأمّا كونه إمام من اتّقى فلاستناد أهل التقوى إليه في كيفيّة سلوك سبيل الله الّتي هي التقوى ، و قد استعار لفظ البصر له . ووجه المشابهة كونه سبباً لاهتداء الخلق إلى سبيل الرشاد كما يهتدي صاحب البصيرة في طريقه المحسوس . و بالله التوفيق .

منها : لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ عَنْكُمْ غَيْبُهُ إِذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ ، تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَرَكْتُمْ

أَمْوَالُكُمْ لَاحَارِسَ لَهَا ، وَلَا خَالِفَ عَلَيْهَا ، وَلَهَمَّتْ كُلَّ امْرِىءٍ نَفْسُهُ ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ غَيْرِهَا ، وَلَـٰكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَاذُكِّرْتُمْ ، وَأَمِنْتُمْ مَاحُذِّرْتُمْ ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ ، وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ : قَوْمٌ ، وَاللهِ ، مَيَامِينُ الرَّأْيِ ، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ ، مَضَوْا قُدُماً عَلَى الطَّرِيقَةِ ، وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ ، أَمَا وَاللهِ لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ الْمَيَّالُ : يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ ، وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ إِيهٍ أَبَا وَذَحَةَ !

قال الشريف : أقول : الوذحة : الخنفساء ، وهذا القول يومىء به إلى الحجاج ، وله مع الوذحة حديث ليس هذا موضوع ذكره .

أقول : الصعدات : جمع الصعد ، و هو جمع صعيد و هو وجه الأرض . واللدم والالتدام : ضرب الوجه و نحوه . ورأي ميمون : مبارك . و قدما بضمّ القاف والدال : أي تقدّموا ولم يثنوا . والوجيف : ضرب من السير فيه قوّة . والوذحة : ـ كما قيل ـ كنية للخنفساء . و لم ينقل ذلك في المشهور من كتب اللغة و إنّما المشهور أنّها القطعة من بعر الشاة تنعقد على أصواف أذنابها وتتعلّق بها .

وهذا الفصل من خطبة له بالكوفة يستنهض فيها أصحابه إلى حرب الشام ، ويتبرّم من تقاعدهم عن صوته. فنبّههم أوّلاً على جهلهم بماسيقع من الفتن في الإسلام ممّا غاب عنهم علمه ـ وعلمه هو من الله ورسوله ـ بحيث لو تصوّروا ما علمه منها لاحتال كلّ منهم في الخلاص لنفسه ، ولها موا على وجه الأرض باكين من تقصيرهم في أعمالهم

على وفق أوامره الّتى بها يكون نظام العالم إلى الأبد، والأمن من تلك الفتن لوفعلوها. ولكنّهم نسوا ما ذكّروا به من آيات الله و أمنوا التحذير فضلّت عنهم آراؤهم الصالحة الّتى يكون بها نظام أُمورهم فاستعقب ذلك تشتّت أُمورهم و غلبة العدوّ على بلادهم، و قيل: أراد بما طوى عنهم غيبه و علمه هو ما يلقى المقصرّون من أهوال الآخرة. و الأوّل أنسب لسياق الكلام. ثمّ عقّب ذلك بالتبرّم منهم وطلب فراقهم واللحاق باخوانه من أولياء الله مباركى الآراء، ثقال الحلوم لايستخفّنّهم جهل الجهّال، ملازمى الصدق و نصيحة الدين من شأنهم ترك البغى على أنفسهم وغيرهم، مضوا على الطريقة الحميدة، سالكين لمحجّة الله غير ملتفتين عنها فوصلوا إلى الثواب الدائم والنعيم المقيم. وقرينة الظفر تخصّص العقبى بالثواب. والعرب تصف النعمة والكرامة بالبرد. ثمّ بيّن لهم بعض ماسيلحقهم من الفتن العظيمة ممّا طوى عنهم غيبه و هى فتنة الحجّاج بن يوسف بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن ملك بن كعب بن الأخلاف - قوم من ثقيف - و كان ضعيف العين، دقيق الصوت، ذيّالاً: أى طويل الذيل يصحبه تبختراً، ميّالا: أى يكثر التمايل كبراً، وأخبر أنّه يأكل خضرتهم، و كنّى بها عمّاهم عليه من الأبّهة وسلامة النفوس والأموال وحسن الأحوال وبأكله لها عن إزالة تلك وتغيير ها إلى أضدادها، ولفظ الأكل مستعار لذلك، و وجه الاستعارة ظاهر، و كذلك استعار الشحمة لثرائهم وقوّتهم ووصف الإذابة لإفناء ذلك بالقتل والإهانة، ومصداق ذلك المشهور من فعله بأهل العراق كماسبق بيانه في ذكر الكوفة. ثمّ قال: إيه أباوذحة. و كلمة إيه اسم من أسماء فعل الأمر يستدعى بها الحديث المعهود من الغير - إن سكنت - و إن نوّنت كانت لاستدعاء قول أوفعلٍ ما، وقيل: التسكين للوقف والتنوين للدرج فأمّا تلقيبه عليه السلام له بأبى وذحة فروى في سبب ذلك أنّه كان يوماً يصلّى على سجّادة له فدبّت إليه خنفساء. فقال: نحوّها عنّى فإنّها وذحة من و ذح الشيطان. و روى أنّه قال: قاتل الله قوماً يزعمون أنّ هذه من خلق الله. فقيل له: ممّاهى؟ فقال: من وذح إبليس، و كأنّه شبّهها بالوذحة المتعلّقة بذنب الشاة فى حجمها أوشكلها

فاستعار لها لفظها ونسبته لها إلى إبليس لاستقذاره إيّاه واستكراهه لصورتها أولاً نّها تشوّشه في الصلاة ، و روى أبوعليّ بن مسكويه: أنّه نحّاها بقصبته وقال : لعنك الله وذحة من وذح الشيطان ، ونقل بعض الشارحين ودجة بالدال والجيم ، و كنّى بذلك عن كونه سفّاكاً للدماء قطّاعاً للأوداج ، وفيه بعد .

١١٤ — و من كلام له عليه السلام

فَلَا أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا ، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا ، تَكْرُمُونَ بِاللهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَا تُكْرِمُونَ اللهَ فِي عِبَادِهِ ، فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ .

أقول : مدار هذا الفصل على التوبيخ بالبخل بالأموال والأنفس ، وفي قوله : للّذي رزقها وخلقها. استدراج حسن فانّ البخيل إنّما يستقبح بذله لملاحظة أمرين : أحدهما : خوف الفقر ، والثاني : أنّه كثيراً ما يتوهّم الأشحّاء أن لامستحقّ للمال إلّا هم فيكون ذلك وأمثاله عذراً لهم مع أنفسهم في عدم البذل ، و كذلك الشحيح بنفسه إنّما يشحّ بها خوف الموت وأن لايكون له من هذه الحياة عوض يساويها فإذا علم أنّ بذل المال لرازقه إيّاه بعد أن يكون حسن الظنّ به زال عذره في البخل لعلمه بتعويضه خيراً منه وبأنّه أحقّ منه . إذ كان المملوك ومايملك لمولاه ، و كذلك يزول عذر الشحيح بنفسه لعلمه أنّ الطالب لبذلها هو الأحقّ بها وأنّه القادر على أن يوصله إلى ماهو خير له من هذه الحياة الفانية ، و في انقطاع مايتوهّمونه عذراً في البخل بالمال والنفس يكون سهولة بذلهما في سبيل الله .

وقوله : تكرمون بالله على عباده .

أى تفخرون و تشرفون على الخلق بأنّكم أهل طاعة الله و عباده . ثمّ لاتكرمونه فيمايدعوكم إليه ولاتجيبون داعيه في إكرام عباده والالتفات إلى فقرائهم باليسير ممّا رزقكم . ثمّ أمرهم باعتبار نزولهم منازل الدارجين ، وانقطاعهم عن أوصل

إخوانهم تنبيهاً لهم على أنّهم أمثالهم في اللحاق بمن سلف والانقطاع عمّن يبقى، و روى عن أصل إخوانكم: أى أقربهم أصلاً إليكم، و فائدة هذا الاعتبار تذكّر الموت والعمل لما بعده.

١١٥ ــ و من كلام له عليه السلام

أَنْتُمُ الأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ، وَالإِخْوَانُ فِى الدِّينِ، وَالْجُنَنُ يَوْمَ الْبَأْسِ وَالْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ، بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ، فَأَعِينُونِى بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ؛ سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ؛ فَوَاللهِ إِنِّى لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ

أقول: الجنن: جمع جنّة وهى ما استترت به من سلاح. و بطانة الرجل: خاصّته.

و قد اشتمل هذا الفصل على استمالة طباع أصحابه إلى مناصحته في الحرب. فمدحهم بكونهم من أهل الدين. ثمّ بالشجاعة. ثمّ بإعلامهم أنّهم من أهل خاصّته الّذين يعتمد عليهم في ضرب المدبر و طاعة المقبل، و طلب منهم الإعانة بمناصحة صادقة سليمة من الشكّ في صحّة إمامته وأنّه أولى بالأمر من غيره فلذلك أقسم أنّه كذلك. و قد سبق بيانه.

١١٦ــ و من كلام له عليه السلام

وقد جمع الناس وحضهم على الجهاد فسكتوا مليا

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمُخْرَسُونَ أَنْتُمْ؟ فقال قوم منهم: ياأمير المؤمنين، إن سرت سرنا معك؛ فقال عليه السلام:

مَا بَالُكُمْ لَا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ، وَلَا هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ؟ أَفِى مِثْلِ هٰذَا يَنْبَغِى أَنْ

أَخْرُجَ ؟! إِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هٰذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُمْ، وَلَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ الْمِصْرَ، وَالْجُنْدَ، وَبَيْتَ الْمَالِ، وَجِبَايَةَ الْأَرْضِ وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ. وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَى: تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتُهَا اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا. هٰذَا – لَعَمْرُ اللهِ – الرَّأْيُ السُّوءُ!! وَاللهِ لَوْلَا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوَّ لَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ؛ لَقَرَّبْتُ رِكَابِي، ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ، فَلَا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ. إِنَّهُ لَا غَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ، مَعَ قِلَّةِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ. لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ.

أقول: الكتيبة: الجيش. والقدح: السهم قبل أن يراش. والجفير: كالكنانة أوسع منها. و ثفال الرحى: الجلد الّذي يوضع عليه ليسقط عليه الدقيق. و حمّ الأمر: قدر.

و مدار هذا الفصل على الدعاء عليهم مصدّراً بالاستفهام عن حالهم القبيحة الّتى هم عليها من مخالفته على سبيل الإنكار عليهم. ثمّ عمّا أشاروا به من خروجه بنفسه إلى الحرب منكراً لذلك أيضاً. ثمّ على الإشارة إلى من ينبغى أن يخرج عوضاً له. ثمّ بيّن وجه المفسدة في خروجه بنفسه وهو تركه للمصالح الّتى عدّدها ممّا يقوم به أمر الدولة ونظام العالم. وقبح ذلك ظاهر.

وشبّه خروجه معهم بالقدح في الجفير . ووجه الشبه أنّه كان قد نفذ الجيش قبل ذلك و أراد أن يجهز من بقى من الناس في كتيبة اُخرى فشبّه نفسه في خروجه في تلك الكتيبة وحده مع تقدّم أكابر جماعته و شجعانها بالقدح في الجفير الفارغ في كونه يتقلقل . وفي العرف أن يقال للشريف إذا مشى في حاجة ينوب فيها من هو دونه ، و ترك المهام التّى لا تقوم إلّا به : ترك المهمّ الفلانى و مشى يتقلقل على كذا . ثمّ استعار لنفسه لفظ القطب ملاحظة لدوران الإسلام و مصالحه عليه كما تدور الرحى على قطبها و ذلك هو وجه الاستعارة ، واستلزم ذلك تشبيهه الإسلام و أهله بالرحى ، و أنّه إذا أهملها بخروجه إلى الحرب اضطربت كاضطراب الرحى و خروج مدارها واستحارته عن الحركة المستديرة إلى المستقيمة ، و لمّا بيّن وجه المفسدة في رأيهم حكم بردائته ، و أكّد ذلك بالقسم البارّ . ثمّ أقسم أنّه لولا رجائه لقاء الله بالشهادة في لقاء العدوّ لو قدّر له ذلك لفارقهم غير متأسّف عليهم و لا طالب للعود إليهم أبداً تبرّماً من سوء صنيعهم و كثرة مخالفتهم لأوامره . و بالله التوفيق .

١١٧ — وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

تَاللهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالاَتِ ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ ، وَعِنْدَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَبْوَابُ الْحُكْمِ ، وَضِيَاءُ الْأَمْرِ ، أَلاَ وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ ، وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ ، مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ اعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ ، وَمَنْ لاَ يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ ، وَاتَّقُوا نَاراً حَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ .

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ، يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ.

أقول: صدّر الفصل بذكر فضيلته وهى علمه بكيفيّة تبليغ الرسالات وأدائها، وعلمه بإتمام الله تعالى ماوعد به المتّقين في دار القرار. فتمام وعده أن لاخلف فيه، وتمام إخباره أن لا كذب فيها، و تمام أوامره و نواهيه اشتمالها على المصالح الخاصّة والغالبة. وهكذا ينبغى أن يكون أوصياء الأنبياء و خلفائهم في أرض الله و عباده. ثمّ أردف ذلك بالإشارة إلى فضل أهل البيت عامّاً، وأراد بضياء الأمر أنوار العلوم الّتى يبتنى عليها الأُمور و الأعمال الدينيّة والدنيويّة، وما ينبغى أن يهتدى الناس به في حركاتهم من قوانين الشريفة و ما يستقيم به نظام الأمر من قوانين السياسات و تدبير المدن والمنازل و نحوها. إذ كان كلّ أمر شرع فيه على غير ضياء من الله و رسوله أو أحد أهل بيته و خلفائه الراشدين فهو محلّ التيه و الزيغ عن سبيل الله، و استعار لفظ الشرايع وهى موارد الشاربة لأهل البيت. ووجه الاستعارة كونهم موارد لطلّاب العلم كما أنّ الشرائع موارد طلبة الماء، و كونها واحدة إشارة إلى أنّ أقوالهم لاتختلف في الدين بل لمّا علموا أسراره لم تختلف كلمتهم فيه فكلّهم كالشريعة الواحدة، و كذلك استعار لهم لفظ السبل، ووجه المشابهة كونهم موصلين إلى المطالب على بصيرة وقصد كما يوصل الطريق الواضح.

و قوله: من أخذ بها لحق.

أى من أخذ عنهم واقتدى بهم لحق بالسابقين من سالكى سبيل الله و ندم على تفريطه بتخلّفه. و قيل: أراد بشرائع الدين وسيلة قوانينه الكلّيّة فإنّ أىّ قانون عمل به منها فإنّه مستلزم لثواب الله فهى واحدة في ذلك و موصل إلى الجنّة من غير جور ولا عدول وذلك معنى كونها قاصدة، والأوّل أظهر لكونه في معرض ذكر فضيلتهم. ولمّا كان غرض الخطيب من إظهار فضيلته قبول قوله شرع في الأمر بالعمل ليوم القيامة. والذخائر: الأعمال الصالحة. ومعنى قوله: ومن لاينفعه حاضر لبّه. إلى قوله:

أعوز : أن اعتبروا حال حضور عقولكم فإنّها إن لم ينفعكم الآن كانت أعوز وأعجز عن نفعكم إذا عزبت عند حضور الموت و مقاساة أهواله ومابعده من أحوال الآخرة.
ثمّ أكّد التخويف بمناقشة الحساب بالتخويف بالنار ، و أراد بحليتها من الحديد ما أعدّ فيها للعصاة من الأغلال والأصفاد والمقامع والسلاسل الّتى تشبه الحلية .

و قوله : ألا و إنّ اللسان . إلى آخره .

تنبيه لهم على طلب الذكر الجميل من الناس في العقبى و تهوين للمال ، وقد سبقت الاشارة إلى هذا في قوله : أمّا بعد فإنّ الأمر ينزل من السماء إلى الأرض .

١١٨ - ومن خطبة له عليه السلام

وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال : نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها ، فلم ندر أى الأمرين أرشد ؟ فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال :

هٰذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ ! أَمَا وَاللهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللهُ فِيهِ خَيْراً : فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ ، وَإِنْ أَعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ ؛ لَكَانَتِ الْوُثْقَى ، وَلٰكِنْ بِمَنْ ؟ وَإِلَى مَنْ ؟ أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي ، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا .

اللّٰهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هٰذَا الدَّاءِ الدَّوِيِّ ، وَكَلَّتِ النَّزَعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِيِّ أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ ؟ وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ ،

وَهُيِّجُوا إِلَى الْقِتَالِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلَى أَوْلَادِهَا ، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً وَصَفّاً صَفّاً؟ بَعْضٌ هَلَكَ وَبَعْضٌ نَجَا ! لَا يُبَشَّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ ، وَلَا يُعَزَّوْنَ بِالْمَوْتَى ، مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ ، خُمْصُ الْبُطُونِ ، مِنَ الصِّيَامِ ، ذُبْلُ الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ ، صُفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ ، عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ ، أُولَئِكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ ، فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ ، وَنَعَضَّ الْأَيْدِيَ عَلَى فِرَاقِهِمْ . إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً ، وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ ، فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ ، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ ، وَاعْقِلُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ .

أقول : الضلع بفتح الضاد و سكون اللام : الميل والهوى . والداء الدويّ : الشديد ـ وصف بما هومن لفظه ـ والدويّ : اسم فاعل من دوى إذامرض . والنزعة : المستقون . والركيّ : جمع ركيّة و هي البئر . ومره : جمع مارهة و هي العين الّتي فسدت : أي عيونهم مارهة . و سنّى له كذا : حسّنه و سهّله . و عقلت عليه كذا: أي حبسته عليه .

وكان هذا الكلام منه عليه السلام بصفّين حين أمرهم بالحكومة بعد أن نهاهم عنها، والسبب أنّ معاوية لمّا أحسّ بالعجز وظفر عليّ عليه السلام به ليلة الهرير راجع عمرو بن العاص . فقال : إنّي خبأت لك رأياً لمثل هذا الوقت و هو أن تأمر أصحابك برفع المصاحف على الأرماح و يدعوا أصحاب عليّ إلى المحاكمة إلى كتاب الله فإنّهم إن فعلوا افترقوا و إن لم يفعلوا افترقوا ، وكان الأشتر صبيحة تلك الليلة قد أشرف على الظفر فلمّا أصبحوا رفعوا المصاحف الكبيرة بالجامع الأعظم على عشرة أرماح وهم يستغيثون : معاشر المسلمين الله في إخوانكم في الدين حاكمونا إلى

كتاب الله ، الله الله في النساء والبنات . فقال أصحاب عليّ عليه السلام : إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله فالرأى النفيس كشف لكربه عنهم فغضب عليه السلام من هذا الرأى . فقال : إنّها كلمة حقّ يراد بها باطل . كما سبق القول فيه . فافترق أصحابه فريقين : منهم من رأى رأيه عليه السلام في الإصرار على الحرب ، و منهم من رأى ترك الحرب و الرجوع إلى الحكومة و كانوا كثيرين فاجتمعوا إليه عليه السلام . فقالوا : إن لم تفعل قتلناك كما قتلنا عثمان فرجع إلى قولهم و أمر بردّ الأشتر عن الحرب . ثمّ كتبوا كتاب الصلح وطافوا به في أصحابه عليه السلام واتّفقوا على الحكومة فخرج بعض أصحابه من هذا الأمر و قالوا : كنت نهيتنا عن الحكومة ثمّ أمرتنا بها فما ندرى أيّ الأمرين أرشد . وهذا يدلّ على أنّك شاكّ في إمامة نفسك . فصفق بإحدى يديه على الاُخرى فعل النادم غضباً من قولهم ، و قال : هذا جزاء من ترك العقدة : أى عقدة الأمر الّذي عقده وأحكمه و هو الرأى في الحرب والإصرار عليها ، والّذي كان أمرهم به هو البقاء على الحرب ، وهو المكروه الّذي يجعل الله فيه خيراً من الظفر وسلامة العاقبة . وقوّمتكم : أى بالقتل والضرب ونحوه ، و كذلك معنى قوله : تداركتكم .

وقوله : لكانت الوثقى .

أى الفعلة المحكمة .

و قوله : ولكن بمن ؟

أى بمن كنت أستعين عليكم ، وإلى من ؟ أى إلى من أرجع في ذلك .

و قوله : اُريد أن اُداوى بكم .

أى اُريد أن اُداوى ما بى من بعضكم ببعض ، وأنتم دائى . فأكون في ذلك كناقش الشوكة بالشوكة و هو يعلم أنّ ضلعها معها ، و هذا مثل تضربه العرب لمن يستعان به في إصلاح من يراد إصلاحه و ميله إلى المستعان عليه يقال : لا تنقش الشوكة بالشوكة فإنّ ضلعها معها . يقول : إنّ استعانتى ببعضكم في إصلاح بعض كنقش الشوكة بالشوكة ، ووجه المشابهة أنّ طباع بعضكم يشبه طباع بعض ويميل

إليها كماتشبه الشوكة الشوكة وتميل إليهافربّما انكسرت معها في العضو واحتاجت إلى منقاش آخر . ثمّ رجع إلى الشكاية إلى الله ، و أراد بالداء الدوىّ ما هم عليه من الاعتياد المخالفة لأمره وتثاقلهم عن صوته ، وبالأطبّاء نفسه . فإنّ داء الجهل و ما يستلزمه أعظم من سائر الأدواء المحسوسة ، وفضل أطبّاء النفوس على أطبّاء الأبدان بقدر شرف النفوس على الأبدان ، و هي استعارة تكاد أن تكون حقيقة ، و كذلك استعارة لفظ النزعة له مثلٌ ضربه لنفسه معهم فكأنّهم عن المصلحة في قعر بئر عميق قد كلّ هو من جذبهم إليها . ثمّ أخذ في السؤال عن إخوانه من أكابر الصحابة الّذين بذلوا جهدهم في نصرة الدين و أعرضوا عن الدنيا استفهاماً على سبيل التوبيخ لفقدهم ، وهذا كما يقول أحدنا إذا وقع في شدّة أين أخي عنّي؟ ثمّ وصفهم بالأوصاف الحميدة ترغيباً للسامعين في مثل حالهم وإزراءً عليهم حيث لم يكونوا بهذه الأوصاف، و ذلك بطريق المفهوم .

و قوله : أولادها .

نصب بإسقاط الجارّ . إذ الفعل وهو قوله : واهوا . غير متعدّى إلى مفعولين بنفسه، وفي الخبر: لاتوله والدة بولدها. وتولّههم لها بركوبهم إيّاها عند خروجهم للجهاد .

و قوله : وأخذوا بأطراف الأرض .

أي أخذوها بأطرافها ، وزحفاً زحفاً وصفّاً صفّاً: مصدران موكّدان بمثليهما قاما مقام الحال .

وقوله : لايبشّرون بالأحياء ولايعزّون عن القتلى [الموتى خ] .

أي كانوا في تلك الحال غير ملتفتين إلى حيّهم ولا مراعين و لامحافظين على حياته حتّى يبشّرون ببقائه أو يجزعون لموته فيعزّون عليه بل مجرّدون للجهاد في سبيل الله ، و لعلّهم يفرحون بقتل من يقتلونه في سبيله وإن كان ولداً لوالده أو بالعكس ، وإنّما كان السهر موجباً لصفرة اللون لأنّه يهيّج الحرارة ويفسد السحنة وينجف البدن ويكثر فيه المرّة ، والصفرة من توابع ذلك لاسيّما في الأبدان النحيفة كما عليه أهل المدينة و مكّة والحجاز . وغبرة الخاشعين قشف الزاهدين الخائفين

من الله لعدم تحلّيهم بالدنيا ، واستعار لفظ الظماء للشوق إليهم ملاحظة لشبههم بالماء في شدّة الحاجة إليه فنزل الشوق إليهم . و الحاجة إلى لقائهم منزلة العطش إلى الماء فأعطاه لفظه ، و أراد بعقدة الدين ما اُحكم منه من القوانين والقواعد ، وبحلّ الشيطان لها تزيينه ترك قانون قانون . وسنّة الاجتماع عقدة عقدها الشارع لما سبق فيها من المصالح وأكّدها. فكانت الفرقة حلاً لتلك العقدة ، ونزعات الشيطان حركاته بالإفساد ، و نفثاته إلقائه الوسوسة في القلوب مرّة بعد اُخرى ، وعنى بمن أهدى إليهم النصيحة نفسه . وبالله التوفيق .

١١٩ — ومن كلام له عليه السلام

قاله للخوارج ، وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة فقال عليه السلام : أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ ؟ فقالوا : منا من شهد ومنا من لم يشهد ، قَالَ : فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً ، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً ، حَتَّى أُكَلِّمَ كُلاًّ بِكَلَامِهِ ؛ وَنَادَى النَّاسَ فَقَالَ : أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي ، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا ثم كلمهم عليه السلام بكلام طويل منه :

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ ـ حِيلَةً وَغِيلَةً ، وَمَكْراً ، وَخَدِيعَةً ـ إِخْوَانُنَا ، وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا : اسْتَقَالُونَا ، وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ ، وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ : هٰذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ ، فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ ، وَالْزَمُوا

طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ. وَقَدْ كَانَتْ هٰذِهِ الْفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا وَاللهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَلَا حَمَّلَنِي اللهُ ذَنْبَهَا، وَوَاللهِ إِنْ جِئْتُهَا إِنِّي لَلْمُحِقُّ الَّذِي يُتَّبَعُ، وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي: مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ: فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالْقَرَابَاتِ فَلَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيمَاناً، وَمُضِيّاً عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيماً لِلْأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْجِرَاحِ، وَلٰكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالِاعْوِجَاجِ وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ، فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللهُ بِهَا شَعَثَنَا، وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا؛ رَغِبْنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا.

أقول: التنفيس: التفريج، وأكثر هذا الفصل ظاهر مما سبق.

وقوله: هذا أمر ظاهره إيمان.

أي رفع أُولئك للمصاحف و طلبهم للحكومة فإنّ ظاهره منهم الاجتهاد في الدين بالرجوع إلى كتاب الله، و باطنه منهم عدوان: أي حيلة للظلم و الغلبة، و أوّله رحمة منكم لهم برجوعكم إلى قولهم، و آخره ندامة لكم عند تمام الحيلة عليكم فأقيموا على شأنكم: أي ما كنتم عليها من الاجتهاد في الحرب. و الناعق إشارة إلى طالبي الحكومة أو المشير عليهم بذلك الرأي وهو عمرو بن العاص، وأخرجه في أوصاف إبليس.

وقوله بعد ذلك : ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إلى قوله : مضض الجراح استدراج لهم بشرح حاله وحال الصحابة . حيث كانوا في الجهاد مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الحالة الّتي شرحها لعلّهم يتأسّون بالماضين فيها .

وقوله : ولكنّا إنمّا أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام . إلى آخره .

تنبيه على اعتراض عساهم يقولونه وجواب عنه وهو أن يقولوا : إنّما فعل إخواننا السابقون مافعلوا ليقينهم بماهم عليه من الدين الحقّ وتيقّنهم ضلال الكفّار والمحاربين لهم فأمّا نحن فإنّما نقاتل بعضنا بعضاً فكيف يجوز لنا قتل قوم مسلمين استسلموا إلينا ودعونا إلى المحاكمة إلى كتاب الله فأجاب بما معناه إنّا إنّما نقاتل في مبدء الأمر ومنتهاه دعوةً إلى الإسلام ورغبة في رسوخ قواعده ففى المبدء قاتلنا لتحصل ماهيّته في الوجود ، وفي الثانى قاتلنا لحفظ ماهيّته وبقائها ، وحيث دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل مادخل فإذا طمعنا في خلّة محمودة يجمع الله بها تفرّقنا ونتقارب بها إلى مابقى فيما بيننا من الإسلام والدين رغبنا فيها وقاتلنا طمعاً في تحصيلها ، وكأنّه عنى بالخصلة رجوع محاربيه إلى طاعته واتّفاقهم عليه ، وهذا الكلام في قوّة صغرى قياس ضمير احتجّ عليهم به ، وتقديرها إنّكم حين قلت لكم إنّ رفعهم للمصاحف خدعة منهم أجبتمونى بهذا الجواب ، وتقدير الكبرى وكلّ من أجاب بهذا الجواب فليس له أن ينكر الحكومة ، إذ كان قد رضى بها . فينتج أنّه ليس لهم أن يأبوا الحكومة . وبالله التوفيق .

١٢٠ — ومن كلام له عليه السلام

قاله لأصحابه فى ساعة الحرب

وَأَىُّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً ، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ ، بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِى فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ ، كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ . فَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ . إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ :

لَا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ . إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ ، وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ

أقول : نجدته : شجاعته . والتذبيب : الدفع والمنع .

وقد أمرهم في هذا الفصل بمساعدة بعض لبعض في الحرب و منع بعضهم عن بعض منعاً صادقاً كما يمنع عن نفسه ، وبذلك يكون انعقاد الاجتماع وتعاون الهمم حتّى يكون الجميع كنفس واحدة ، و بذلك يكون الظفر و الغلبة و استمال ذوى النجدة بذكر فضيلة تخصّهم دون من يذبّون عنه استثارة لنجدتهم وتعطيفاً لهم .

وقوله : إنّ الموت طالب حثيث . إلى قوله : إنّ أكرم الموت القتل : تسهيل للقتل و الموت بذكر أنّه لابدّ ، وتسهيل للحرب عليهم .أمّا أنّ أكرم الموت القتل فأراد القتل في سبيل الله ، وذلك لاستلزامه الذكر الجميل في الدنيا والثواب الدائم في الأخرى . ثمّ أكّد ذلك بالقسم لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على الفراش . وصدق ذلك في حقّ من نظر إلى الدنيا بعين الاستحقار في جنب نعيم الأبد في الآخرة والذكر الجميل في الدنيا و حصلت له ملكة الشجاعة ظاهر. وبالله التوفيق .

١٢١ — وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ ، لَا تَأْخُذُونَ حَقًّا ، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْمًا ! قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ . فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ .

أقول: كشيش الضباب : حكّ جلودها بعضها بالبعض عند الازدحام . والتلوّم: الانتظار والتوقّف ،

وأشار بهذا الكلام إلى أنّه ستلحقهم غلبة من العدوّ وتعضّهم الحروب بحيث يعضّون [يضعفون خ] و يأخذون في الهرب و التخفّي فلاينتفع بهم في أخذ حق أودفع ضيم ، ووصف الكشيش مستعارلهم باعتبارهيئاتهم في الحيد عن العدوّ والهرب منه ، وهووجه الشبه بكشيش الضباب .

و قوله : قد خلّيتم و الطريق .

أى وطريق الآخرة . فالنجاة للمقتحم : أى مقتحمها والمبادر إلى سلوكها ، والهلكة للمتوقّف عن ذلك . والطريق منصوب على المفعول معه .

١٢٢ — وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فى حث أصحابه على القتال

فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ ، وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ ، وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ ؛ فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ . وَالْتَوُوا فِى أَطْرَافِ الرِّمَاحِ ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ لِلْأَسِنَّةِ ، وَغُضُّوا الْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ ، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ ، وَرَايَتَكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا ، وَلَا تُخِلُّوهَا وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِى شُجْعَانِكُمْ ، وَالْمَانِعِينَ الذِّمَارَ مِنْكُمْ ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ ، هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ ، وَيَكْتَنِفُونَهَا : حِفَافَيْهَا ، وَوَرَاءَهَا ، وَأَمَامَهَا لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا ، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا .

أَجْزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ ، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ . وَايْمُ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ لَا تَسْلَمُوا مِنْ

سَيْفِ الآخِرَةِ ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ ، وَالسَّنَامُ الأَعْظَمُ . إنّ فى الفِرَارِ مَوْجِدَةَ اللهِ ، وَالذُّلَّ اللاَّزِمَ ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ ، وَإِنَّ الفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فى عُمْرِهِ ، وَلاَ مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ . الرَّائِحُ إِلَى اللهِ ، كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ ، الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِى ، الْيَوْمَ تُبْلَى الأَخْبَارُ ، وَاللهِ لأَنَا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ . اللّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ ؛ إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ يَخْرُجُ مِنْهُ النَّسِيمُ ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ ، وَيُنْدِرُ السَّوَاعِدَ ، وَالأَقْدَامَ ، وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ تَتْبَعُهَا الْمَنَاسِرُ ، وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ تَقْفُوهَا الْحَلاَئِبُ ، وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلاَدِهِمُ الْخَمِيسُ يَتْلُوهُ الْخَمِيسُ ، وَحَتَّى تَدْعَقَ الْخُيُولُ فى نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ

قال الشريف : أقول : الدعق : الدق ، أى : تدق الخيول بحوافرها أرضهم ، ونواحر أرضهم : متقابلاتها ، يقال : منازل بنى فلان تتناحر ، أى : تتقابل

أقول : هذا الكلام . قاله بصفّين .

أمور : أشدّ حركة و نفوذاً . و الجأش : روعة القلب واضطرابه عندالخوف . و الذمار : ما وراء الرجل ممّا يجب عليه حمايته ، و حفافا الشيء : جانباه . و لهاميم العرب : أجوادهم . والموجدة : الغضب . وأبسلهم: أسلمهم للهلكة . والعوالى : جمع عالية : الرمح ؛ وهو مادخل منه إلى ثلثه . والنسيم : النفس . و المنسر : القطعة من الجيش ، و كذلك الخميس : الجيش . و النواحر : جمع نحيرة و هى آخر ليلة من

الشهر مع يومها كأنّها تنحر الشهر المستقبل فيكون مراده بنواحر أرضهم أقاصيها .
و أعنان مساربهم : أقطارها و ما اعترض منها . ومساربهم : مراعيهم واحدتها مسربة
و هكذا مسارحهم : واحدتها مسرحة .

وقد أمرهم بأوامر في مصلحة الحرب و كيفيّتها ونهاهم مناهى :

فأوّلها : الأمر بتقديم الدارع وتأخير الحاسر. والمصلحة فيه ظاهرة .

الثانى : العضّ على الأضراس . وحكمته ماسبق في قوله : معاشر المسلمين استشعروا الخشية ، وفي قوله لابنه محمّد بن الحنفيّة : تزول الجبال ولا تزل ، وقد كرّره هنا أيضاً .

الثالث : الالتواء في أطراف الرماح . وعلّته ماذكر، وهو أنّه إذا التوى الإنسان مع الرمح حال إرساله كان الرمى به أشدّ ، وذلك لحركة صدر الإنسان بعد التوائه مع حركة يده حين الإرسال فكانت حركته أشدّ وأقوى نفوذا .

الرابع : غضّ الأبصار . وفائدته ماذكر من كونه أربط لاضطراب القلب وأسكن، وضدّ ذلك مدّ البصر إلى القوم فإنّه مظنّة الخوف و الفشل وعلامة لهما عند العدوّ .

الخامس : إماتة الأصوات . وفائدته أيضاً طرد الفشل ، إذ كانت كثرة اللغط (اللفظ خ) والصياح علامة لخوف الصائح ، وذلك مستلزم لطمع العدوّ فيه و جرئته عليه .

السادس : قوله : ورايتكم فلا تميلوها . فإنّ إمالتها ممّا يظنّ به العدوّ تشويشاً و اضطراب حال فيطمع ويقدم ، ولأنّها إذا أُميلت تغيب عن عيون الجيش فربمّا لايهتدى كثير منهم للوجه المطلوب .

السابع : ولا تخلّوها. وسيفسّر هو التخلية .

الثامن :لاتجعلوها. إلى قوله : منكم . وذلك أنّها أصل نظام العسكر وعليها يدور وبها يقوى قلوبهم مادامت قائمة فيجب في ترتيب الحرب أن يكون حاملها أشجع القوم . وقوله : فإنّ الصابرين . إلى قوله : فيفردوها . تخصيص لمن يحفظ الراية ويحفّها بوصف الصبر على نزول الحقائق : أى الشدائد الحقّة المتيقّنة الّتى

لاشكّ في نزولها ، كى يسارعوا إلى حفظها والإحاطة بها رغبةً في تلك المحمدة ، وبيّن بقوله : لايتأخّرون عنها . إلى قوله : فيفردوها . معنى التخلية الّتى نهاهم عنها ، وقوله : فيسلموها ويفردوها . نصب الفعلان بإضمار أن عقيب الفاء في جواب النفى .

التاسع : قوله : أجزء امرؤ قرنه .

العاشر : آسى أخاه بنفسه فعلان ماضيان في معنى الأمر ، والتقدير و ليجزى امرؤ قرنه وهو خصمه و كفوه في الحرب : أى لتقاومه وليواس أخاه بنفسه في الذبّ عنه ولايفرّ من قرنه اعتماداً على أخيه في دفعه فيجتمع على أخيه قرنه وقرن أخيه . ثم ذكّرهم عدم الفائدة في الفرار. إذ كانت غاية الفرار السلامة من الموت و هو لابدّ منه كقوله تعالى « قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل و إذاً لاتمتّعون إلّا قليلاً » [1] و استعار لفظ سيف الآخرة للموت . و وجه المشابهة كونهما مبطلين للحياة . وإنّما كان سيف الآخرة لأنّها غايته . ثمّ مدحهم بأوصاف يستقبح معها الفرار ، و هى كونهم أجواد العرب و السنام الأعظم ، و استعارلهم لفظ السنام لمشار كتهم إيّاه في العلوّ والرفعة. ثمّ أكّد تقبيح الفرار بذكر معايبه ، و أنّه لا فائدة فيه أيضاً : أمّا معايبه فكونه يستلزم غضب الله فإنّ الفارّ من الجهاد في سبيله عاص لأمره والعاصى له مستحقّ لغضبه وعقابه . ثمّ كونه مستلزماً للذّل اللازم و العار الباقى في الأعقاب وهو ظاهر ، و أمّا أنّه لافائدة فيه فلأنّ الفارّ لايزاد في عمره لفراره . إذ علمنا أنّه بفراره لم يبلغ إلّا أجاله المكتوب له فكان بقائه في مدّة الفرار من عمره لازيادة فيه و إنّ له يوماً في القضاء الإلهىّ لايحجز بينه وبينه فرار . وفيه تخويف بالموت . و قوله : رائح إلى الله كالظمآن يرد الماء . استفهام عمّن يسلك سبيل الله ويروح إليه كما يروح الظمآن استفهاماً على سبيل العرض لذلك الرواح ، و وجه الشبه القوّة في السير و السعى الحثيث ، و أشار بقوله : الجنّة تحت أطراف العوالى . إلى أنّ مطلوبه الرواح إلى الله بالجهاد وجذب إليه بذكر الجنّة ، وخصّها بجهة تحت لأنّ دخول الجنّة غاية من الحركات بالرماح في سبيل الله وتلك الحركات

(١) ٣٣ - ١٦ .

إنّما هي تحت العوالي ، و قد أطلق لفظ الجنّة على تلك الأفعال الّتي هي غاية منها مجازاً تسمية باسم غايته . ثمّ أعقب ذلك بدعاء الله على محاربيه إن ردّوا دعوته الحقّ بالتفريق و الإهلاك . ثمّ حكم بأنّهم لن يزولوا عن مواقفهم دون ما ذكر حكماً على سبيل التهديد والوعيد لهم . والطعن الدراك: المتدارك . و كنّى بخروج النسيم منه عن كونه بخرق الجوف و الأمعاء بحيث يتنفّس المطعون من الطعنة ، وروى النسم ، وروى القشم بالقاف والشين المعجمة و هواللحم و الشحم و هو بعيد . وبالله التوفيق .

١٢٣ — وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ
فى التحكيم

إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ ، وَهٰذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ ، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ . وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى ، وَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ) فَرَدُّهُ إِلَى اللهِ : أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ ، فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَنَحْنُ أَوْلَاهُمْ بِهِ .

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً فِي التَّحْكِيمِ ، فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ ، وَيَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هٰذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هٰذِهِ

الْأُمَّة ، وَلَا تُؤْخَذ بِأَكْظَامِهَا ، فَتَعْجَل عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقّ ، وَتَنْقَاد لِأَوَّلِ الْغَيّ

إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللّه مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً وَزَادَهُ ، أَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ ؟ مِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ ؟ اُسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ ، وَمُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لَا يَعْدِلُونَ بِهِ ! جُفَاةٌ عَنِ الْكِتَابِ ، نُكُبٌ عَنِ الطَّرِيقِ ، مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا ، وَلَا زَوَافِرِ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا ، لَبِئْسَ حُشَّاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ أُفٍّ لَكُمْ ، لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً !! يَوْماً أُنَادِيكُمْ ؛ وَيَوْماً أُنَاجِيكُمْ ! فَلَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ ، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ .

أقول : هذا الفصل من كلام له بعد سماعه لأمر الحكمين و خدعة عمرو بن العاص لأبى موسى .

كرثه الأمر . اشتدّ عليه . وأوزعه بكذا فهو موزع : إذا أغرى به . ونكّب بتشديد الكاف : جمع ناكب وهو العادل عن الطريق كباذل وبذّل . وزوافر الرجل : أنصاره وعشيرته . والحشّاش : جمع حاشّ وهو موقد النار ، و كذلك الحشاش بكسر الحاء وتخفيف الشين كنائم و نوّام ونيام ، وقيل : هو ما يحشّ به النار : أى يوقد . و البرح بسكون الراء : الشدّة والأذى . يقال : لقيت منه برحاً بارحا ، وروى ترحا وهو الحزن .

وهذا الفصل من أوله . إلى قوله : أولاهم به . جواب له عن شبهة التحكيم للخوارج عن أمره بالحرب بعد أن رضى بالتحكيم . و تقدير الشبهة أنّك رضيت بتحكيم رجلين في هذا الأمر وعاهدت على ذلك ، و كلّ من رضى بأمر و عاهد عليه فليس له أن ينقض عهده . فقدح في صغرى هذه الشبهة بقوله : إنّا لم نحكّم الرجال :

أى لكونها رجالاً ، وإنّما حكّمنا القرآن لكن لمّا كان القرآن لابدّ له من ترجمان يبيّن مقاصده ، ودعانا القوم إلى حكم القرآن ولم نكن نحن الفريق الكاره لكتاب الله ، المتولّى عنه بعد أمره تعالى بالرجوع إليه وإلى رسوله في الكتاب و السنّة فيما اشتبه أمره بقوله « فان تنازعتم » الآية . فإذا حكم بالصدق عن علم بكتابه فنحن أحقّ الناس به : أى أولاهم باتّباعه و أولاهم بأن ينصّ على كون الأمر لنا كما في قوله تعالى « و إن طائفتان من المؤمنين . إلى قوله : حتّى تفيء إلى أمر الله »(١) وظاهر كون اُولئك بعد عقد الإمامة بغاة عليه فوجب بنصّ الكتاب قتالهم، و كذلك الآيات الدالّة على وجوب الوفاء بالعهود و العقود وكان هو أولى بالحقّ الّذى يجب قتالهم عليه فكان الحاكم لهم مخطئا مخالفاً لكتاب الله غير عامل به فوجبت مخالفة حكمه ، وإن حكم بسنّة رسول الله فنحن أولى الناس برسول الله للقرابة وللعمل بسنّته لموافقتها الكتاب ونصّه على وجوب متابعة الإمام العادل فكان الحاكم لغيره مخالفاً للسنّة أيضاً. فصارت خلاصة هذا الجواب أنّا لم نرض بتحكيم الرجلين ولكن بتقدير حكمهما بكتاب الله الّذى هما ترجمان عنه و هو الحاكم الّذى دعانا الخصم إليه وحيث خالفاه لم يجب علينا قبول قولهما .

و قوله : وأمّا قولكم . إلى قوله : لأوّل الغيّ .

فتقدير سؤال آخر لهم مع جوابه ، و ذلك أنّهم حين اتّفقوا على التحكيم كتبوا كتاب الصلح وضربوا لحكم الحكمين أجلاً مدّة سنة ، وصورة الكتاب : هذا ما تقاضى عليه عليّ بن ابيطالب و معاوية بن أبى سفيان قاضى عليّ بن أبيطالب على أهل العراق و من كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية بن أبى سفيان على أهل الشام ومن كان من شيعته من المؤمنين والمسلمين إنّما ننزل عند حكم الله تعالى و كتابه و لايجمع بيننا إلا إيّاه ، وإنّ كتاب الله سبحانه بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيى القرآن و نميت ما أمات القرآن . فإن وجد الحكمان ذلك في كتاب الله اتّبعاه ، وإن لم يجداه أخذا بالسنّة العادلة غير المفرّقة ،

(١) ٤٩ - ٩ .

و الحكمان عبدالله و عمرو بن العاص ، و قد أخذ الحكمان من عليّ و معاوية و من الجندين أنّهما آمنان على أنفسهما وأموالهما والاُمّة لهما أنصار ، وعلى الّذى يقضيان عليه و على المؤمنين والمسلمين من الطائفتين عهد الله أن يعمل بما يقضيان عليه ممّا وافق الكتاب والسنّة ، وإنّ الأمن والموادعة ووضع السلاح متّفق عليه بين الطائفتين إلى أن يقع الحكم ، وعلى كلّ واحد من الحكمين عهد الله ليحكمنّ بين الاُمّة بالحقّ لا بما يهوى ، و أجل الموادعة سنة كاملة فإن أحبّ الحكمان أن يعجّلا الحكم عجّلاه ، وإن توفّى أحدهما فلأمير شيعته أن يختار مكانه رجلاً لا يألو الحقّ والعدل وإن توفّى أحد الأميرين كان نصب غيره إلى أصحابه ممّن يرتضون أمره ويحمدون طريقته . اللّهم إنّا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيها إلحاداً و ظلما. و شهد فيه من أصحاب عليّ عليه السلام عشرة ، و من أصحاب معاوية عشرة. فذلك معنى الأجل في التحكيم . و تقدير هذا السؤال إنّك حين رضيت بالتحكيم لم ضربت بينك وبينهم أجلاً ، وما الحكمة في ذلك. فأجاب إنّما فعلت ذلك ليتبيّن الجاهل : أى في وجه الحقّ ، ويتثبّت العالم : أى في أمره بحيث يخلص من الشبهة، ورجاء إصلاح هذه الاُمّة بهذا الصلح .

وقوله : ولا تؤخذ بأكظامها فتعجل . إلى آخره .

فعبّر بأخذ الكظم عن الأخذ بغتة وعلى غرّة ، وهؤلاء القوم لمّا اُخذوا لأوّل شبهة عرضت من رفع المصاحف وهو أوّل الغيّ و لم يتثبّتوا في أمرهم أشبهوا من اُخذ بمجرى نفسه فلم يتمكّن من الاستراحة إلى التنفيس فاستعير وصف الكظم لهم .

وقوله : إنّ أفضل الناس . إلى قوله : وزاده .

جذب إلى الحقّ و إن أدّى إلى الغاية المذكورة و تنفير عن الباطل و إن استلزم الغاية المذكورة بذكر الأفضليّة عند الله .

و قوله : من الباطل. متعلّق بأحبّ إليه .

و قوله : وإن نقصه و كرثه .

اعتراض بينهما. والحكم في هذه القضيّة ظاهر الصدق . إذ كان ملازم الحقّ

أتقى الخلق ، والأتقى أفضل عند الله تعالى كما قال تعالى « إنّ أكرمكم عند الله أتقيكم »[١] .

و قوله : فأين يتاه بكم ؟

يريد إلى أيّ غاية يكون هذا التيه الّذى أخذتم فيه ، وفيه تنبيه على أنّ ذلك التيه فعل الغير بهم . ومن أين اُتيتم ؟: أى من أىّ وجه دخلت عليكم الشبهة . ويشبه هذا السؤال تجاهل العارف . إذ كان يعلم وجه الداخل عليهم . ثمّ أعقب ذلك التعنيف لهم بالأمر بالمسير إلى أهل الشام . و وصفهم بالحيرة عن الحقّ والعمى عنه و الإغراء بالجور عن طريق الله بحيث لا مثل للجور عندهم ، وبجفاوة الطباع عن فهم كتاب الله و نبوء الأفهام عنه وبعدولهم عن طريقه كلّ ذلك إغراء بهم .

وقوله : ما أنتم بوثيقة : أى بعروة وثيقة . إلى آخره وهو عتاب لهم وتضجّر منهم على قلّة طاعته .

وقوله : يوماً اُناديكم .

أى أدعوكم إلى النصرة وأستغيث بكم ، ويوماً اُناجيكم : أى اُعاتبكم واُجادلكم على تقصيركم .

وقوله فلا أحرار صدق عند النداء .

لأنّ الحرّ من شأنه إجابة الداعى والوفاء بالوعد ولستم كذلك ، ولا إخوان ثقة عند النجاء لأنّ أخا الثقة إذا زلّ وعوتب من أخيه انعتب ، وإذا أحوج و اعتذر إليه رجع إلى صفاء الاُخوّة لمكان وثاقتها ولستم من ذلك في شيء . وبالله التوفيق .

١٢٤ — ومن كلام له عليه السلام

لما عوتب على التسوية فى العطاء

أَتَأْمُرُونِّى أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ ؟ وَاللّٰهِ مَا أَطُورُ بِهِ

---

(١) ٤٩ - ١٣ .

مَاسَمَرَ سَمِيرٌ ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً ، لَوْكَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ ؛ فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ ! أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَيَضَعُهُ فِي الآخِرَةِ ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ ، وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ ، وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلَا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ ، فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَدِينٍ ، وَأَلْأَمُ خَلِيلٍ .

أقول : لاأطوربه : أي لاأقرّ به . والسمير : الدهر. يقال : لاأفعله ماسمرسمير: أي الدهر كلّه ، و كذلك لاأفعله ماسمر ابنا سمير : أي الدهر كلّه ، و ابناه : الليل والنهار . والخدين : الصديق .

والتسوية في العطاء من سنّة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وكان أبو بكر كذلك على تلك السنّة فلمّا فضّل من بعدهما أهل السابقة و الشرف في العطاء على غيرهم اعتاد المفضّلون بذلك إلى زمانه عليه السلام ولمّا كان سالكاً مسالك الرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ومقتفياً أثر سنّته لم يمكنه إلّا التسوية فطلب المفضّلون عادتهم من التفضيل عند ولايته لهذا الأمر فقال الكلام .

فقوله : أتامرونّي أن أطلب النصر بالجور ،

جواب لمن أشار عليه بالتفضيل ، وكأنّ المشير قال له : إن فضّلت هؤلاء كانوا معك بقلوبهم ونصروك. فأجابهم بذلك. والجور : العدول عن سبيل الله بالتفضيل حيث كان خارجاً عن سنّة الرسول . ثمّ أقسم أنّه لايقرب التفضيل أبداً، وأنّ المال لو كان له لكان من العدل أن يسوّى بينهم فيه فكيف والمال لله ولهم ، ووجه ذلك أنّ التسوية هي العدل الّذى تجتمع به النفوس على النصرة وتتألّف الهمم على مقاومة العدوّ دون التفضيل

المستلزم لانكسار قلوب المفضولين مع كثرتهم. فلو كان المال لهم مع كونه بطباع البشريّة الميّالة إلى شخص دون شخص لم يسوّ بينهم فكيف والمال لله الّذى تساوى نسبة الخلق إليه ومالهم الّذى فرضه الله لهم على سواء، وهو كالاعتذار الحاسم لمادّة الطمع في التفضيل. ثمّ نبّه على قبح وضع المال في غير أهله وعلى غير وجهه . وغير أهله: هم غير المفروض لهم ، وغير وجهه: غير حقّه الّذى يفرضه الشارع ، وأشار إلى وجوه المفاسد ففى غير أهله تبذير ، وفي غير وجهه إسراف ، وعرفت أنّهما طرفا الإفراط والتفريط من فضيلة السخاء . و قوله : يرفع صاحبه في الدنيا .

أى يحصل له بالتبذير ذكر الكرم بين العوامّ والغاغة ، ومن لايعرف حقيقة الكرم، ويضعه في الآخرة . إذ كان بعلى رذيلة ، و كذلك يكرمه عند الناس و يهينه عند الله ، و أمّا حكمه عليه السلام بأنّ الواضع لماله في غير حقّه و عند غير أهله محروم شكرهم ولغيره ودّهم و على تقدير وقوع الزلّة منه الّتى يحتاج فيها إلى مساعدتهم يتقاعدون عنه فذلك أمر يحصل بالاستقراء و ربّما بلغ التجربة ، و أمّا سرّ ذلك فيحتمل أن يكون لأنّهم لمّا كانوا غير أهل لوضع المعروف لم يكونوا أهلاً للاعتراف به إمّا لجهلهم و غفلتهم أولا عتقادهم أنّ المسدى إليهم غير أهل لشكرهم ، و أنّهم على مرتبته وأحقّ بالمال منه . وأكثر مايكون عدم الشكر من هؤلاء لنظر كلّ منهم إلى أنّ غيره من المسدى إليه غير أهل ، و أنّه هو أحقّ فيرى نفسه دائماً مبخوس الحظّ من باذل المعروف فلايزال متسخّطاً عاتباً عليه ذامّاً للزمان ، وحينئذ لايتحقّق اعترافه بنعمة الباذل فإذا أصابه من غيره أدنى معروف أولم يصبه بل سمع مدح أحد و شكر الناس له ساعد على مدحه وأظهر فضله ، و قال : إنّه ممّن يضع المعروف في أهله فيكون ذلك كالمستنهض لهمّة الباذل أو كالمزرى عليه والمغاير له ، و كنّى بزلّ النعل عن خطائه وعثاره في المصائب . وبالله التوفيق .

و من كلام له عليه السلام

أيضاً للخوارج .

فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّى أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِضَلَالِى، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِى وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِى؟! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجَمَ الزَّانِىَ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ، وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ، وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِىَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَىْءِ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ، ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ.

وَسَيَهْلِكُ فِىَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِىَّ حَالًا النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، وَالْزَمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ، فَإِنَّ يَدَ اللهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ! أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هٰذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِى هٰذِهِ.

وَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ،

وَإِحْيَاؤُهُ الاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ ، وَإِمَاتَتُهُ الافْتِرَاقُ عَنْهُ : فَإِنْ جَرَّنَا القُرْآنُ إِلَيْهِمُ اتَّبَعْنَاهُمْ وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا ، فَلَمْ آتِ — لَا أَبَا لَكُمْ — بُجْرًا ، وَلَا خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ ، وَلَا لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يَتَعَدَّيَا القُرْآنَ فَتَاهَا عَنْهُ ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ ، وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ : سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا.

أقول : البجر : الشرّ والأمر العظيم . والختل : الخديعة . والصمد : القصد. وهذا الفصل مشاجرة مع الخوارج وهو منع لشبههم الّتي بها كفّروا أصحابه عليه السلام وصورتها إنّكم ضللتم بالتحكيم ، و كلّ ضالّ كافر ينتج أنّهم كفّار .

فقوله : فإن أبيتم . إلى قوله : وضللت .

يجرى مجرى تسليم جدل لما منعه أوّلاً في الفصول السابقة من صغرى شبههم و بين أنّ التحكيم لم يكن منه خطأ و لا ضلالاً . فكأنّه يقول : وهب أنّى أخطأت كما زعمتم .

وقوله : فلم تضلّلون عامّة اُمّة محمّد صلى الله عليه وآله بضلالى .

منع لصغرى هذه الشبهة .

وقوله : وتكفّرونهم بذنوبى . إلى قوله : بمن لم يذنب .

منع للكبرى. فكأنّه يقول : و هب أنّكم ضلّلتموهم بضلالى فلم تكفّرونهم، وتقتلون بسبب تكفيرهم المذنب وغير المذنب .

و قوله : وقد علمتم . إلى قوله : بين أهله .

استشهاد عليهم بفعل الرسول صلى الله عليه وآله فيمن أخطأ ، وأنّه لم يكفّرهم بذنوبهم بل أجرى عليهم أحكام الإسلام ، ولم يسلبهم اسمه ، وهذا الاستشهاد يجرى مجرى

ذكره مستند المنع . والزانى الّذى رجمه هو المحصن ، ولم يمنعه استحقاقه الرجم صدق الإسلام عليه و لحوق أحكامه له من الصلاة عليه وتوريث ماله لأهله ، و كذلك الباقون من أهل الكبائر من الأمّة لم يمنعهم ذلك من إجراء أحكام الإسلام عليهم ، وصدق اسمه المنافي لصدق الكفر عليهم ، و ضمير الاثنين في نكحا يرجع إلى السارق والزاني : أى لم يمنعهم استحقاق القطع والجلد من حصّتهما من الفيء ولامن نكاح المسلمات ، و ضمائر الجمع في قوله : فأخذهم الله بذنوبهم . إلى قوله : بين أهله راجعة إلى كلّ من جرى ذكره من المذنبين ، و الكلام المذكور حكاية لحالهم ، والضمير في أهله يرجع إلى الإسلام . ثمّ لمّا فرغ من بيان غلطهم ذمّهم و نسبهم إلى الانفعال عن الشيطان . إذ كانت وساوسه مبادى الأغلاط والشبه . ثمّ عقّب ذلك بالإخبار عن هلاك من سلك طريق الإفراط في حبّه أو بغضه لخروجهما عن الحقّ والعدل إلى الباطل والجور ، وإفراط الحبّ أن جعل إلٰهاً كالمنسوب إلى النصيريّة و نحوهم من الغلاة ، و إفراط البغض أن نسب إلى الكفر كالمنقول عن الخوارج ، وجعل خير الناس فيه حالاً النمط الأوسط في المحبّة ، وهم أهل العدل فيه . والنمط الأوسط الجماعة من الناس أمرهم واحد ، وفي الحديث خير هذه الأمّة النمط الأوسط يلحق بهم التالى ويرجع إليهم الغالى . فالتالى هو المقصّر الواقف في طرف التفريط ، والغالى هو العابر إلى طرف الإفراط . وأمر بلزوم ذلك النمط ولزوم طريقة السواد الأعظم : أى أكثر المسلمين المتّفقين على رأى واحد ، و رغّب في لزوم طريقتهم بأنّ يد الله على الجماعة فتجوّز بلفظ اليد في قدرة الله وحراسته للجماعة . إذ كانوا أمنع و أبعد عن الانفعال للعدوّ ، وآمن من الغلط والخطاء لكثرة آرائهم واتّفاقها فلاتكاد تتّفق على أمر لامصلحة فيه مع كثرتها و اختلافها ، و حذّر من الفرقة والشذوذ عن الجماعة بأنّ الشاذّ من الناس : أى المتفرّد المستبدّ برأيه للشيطان: أى محلّ تطرّق الشيطان لانفراده ، و شبّه ذلك بالشاذّ من الغنم ، و وجه الشبه كون انفراده محلاً لتطرّق الهلاك إليه باستغواء الشيطان له كما أنّ الشاة المنفردة في مظنّة الهلاك لانفرادها و وحدتها للذئب . ثمّ أمر بقتل من دعا إلى هذا الشعار

وهومفارقةالجماعة والاستبدادبالرأى .

وقوله : ولوكان تحت عما متى هذه .

مبالغة في الكلام كنّى بها عن أقصى القرب من عنايته : أى ولوكان ذلك الداعى إلى هذا الحدّ من عنايتى به ، وقيل : أراد و لو كان ذلك الداعى أنا .

وقوله : وإنّما حكّم الحكمان .

اعتذار عن شبهة التحكيم ، وأسند إليهما لفظى الإحياء والإماتة مجازاً باعتبار كونهما في الاجتماع عليه والعمل به مظهرين لمنفعته و فايدته كما يفعله موجد الحياة ، و كونهما في تركه والإعراض عنه سبباً لبطلان منفعته و عدم منفعته كما يفعله مميت الشيء و مبطل حياته .

فلم آت - لا أبالكم - بجراً : إلى آخر .

لمّا بيّن وجه عذره في التحكيم أنكر أن يكون فعله ذلك مشتملا على قصد شرّ أو خديعة لهم أوتلبيساً عليهم في التحكيم من غير اتّفاق منهم و مراجعة لهم بل إنّما كان ذلك عن اجتماع آراء قومهم على اختيار حكمين اُخذت عليهما الشرايط المعدودة في كتاب الصلح ، وفي نسبته اختيار الحكمين إلى ملائهم ، ونسبة أخذ العهد عليهما في اتّباع الكتاب إلى نفسه أوإلى جماعة هو أحدهم تنبيه على أنّ أخذ العهد عليهما كان منه أو بشركته دون تعيينهما للحكومة لما نقل إنّه كان غير راض بنصب أبى موسى نائباً عنه ، وإنّما اُكره على ذلك وكان ميله واختياره في ذلك لابن عبّاس. وتلخيص الكلام: أنّا إنّمارضينا بالحكمين بشرط أن يعملا بكتاب الله ، والمشروط بشرط عدمٌ عند عدم ذلك الشرط. فحيث خالفا الشرط عمداً بعدأن سبق استثناؤنا عليهما سوء رأيهما وجبت مخالفتهم . وانتصب سوء رأيهما لأنّه مفعول به عن سبق . وبالله التوفيق والعصمة .

١٢٦ — ومن كلام له عليه السلام

فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة

يَا أَحْنَفُ ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلَا

لَجَبٌ، وَلَا قَعْقَعَةُ لُجُمٍ، وَلَا حَمْحَمَةُ خَيْلٍ يُثِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ.

يومىء بذلك إلى صاحب الزنج. ثم قال عليه السلام: وَيْلٌ لِسِكَكِكُمُ الْعَامِرَةِ، وَالدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ الَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ وَخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الْفِيَلَةِ. مِنْ أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْتَقَدُ غَائِبُهُمْ؛ أَنَا كَابُّ الدُّنْيَا لِوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا.

أقول: الملحمة: الوقعة العظيمة.

وهذا الفصل من خطبة له عليه السلام بالبصرة بعد وقعة الجمل ذكرنا منها فصولا فيما سبق، والخطاب مع الأحنف بن قيس لأنّه كان رئيساً ذا عقل وسابقة في قومه، وكان اسمه صخر بن قيس بن معاوية بن حصن بن عباد بن مرّة بن عبيد بن تميم، وقيل: اسمه الضحّاك، وكنيته أبو بحر. وبسببه كان إسلام بني تميم حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يجيبوا. فقال لهم الأحنف: إنّه يدعوكم إلى مكارم الأخلاق وينهاكم عن ملاعبها فأسلموا. وأسلم الأحنف وشهد مع عليّ عليه السلام صفّين ولم يشهد الجمل مع أحد الفريقين، والضمير في قوله: كأنّي به. لصاحب الزنج واسمه عليّ بن محمّد علويّ النسب، والجيش المشار إليهم الزنج، وواقعتهم بالبصرة مشهورة وأخبارهم وبيان أحوالهم وتفصيل واقعتهم يشتمل عليها كتاب منفرد في نحو من عشرين كرّاسة فليطلب علمها من هناك، وأمّا وصف ذلك الجيش بالأوصاف المذكورة فلأنّ الزنج لم يكونوا أهل خيل ولا جند من قبل حتّى يكون بالأوصاف المشار إليها، وإثارتهم التراب بأقدامهم كناية عن كونهم حفاة في الأغلب سائرين بالأقدام فهي [من اعتياد الحفاة - خ -] باعتبار الحفاء ومباشرة الأرض بالخشب ونحوه فكانت مظنّة إثارة التراب عوضاً من حوافر الخيل، ووجه شبهها بأقدام النعام أنّ أقدامهم في الأغلب قصار

عراض منتشرة الصدور ومفرّقات الأصابع فهي من عرضها لايتبيّن لها طول فأشبهت أقدام النعام في بعض تلك الأوصاف ، ثمّ أخبر بالويل لمحالّ البصرة ودورها المزوّقة من اُولئك ، و استعار لدورها لفظ الأجنحة ، و أراد بها القطانيّات الّتي تعمل من الأخشاب والبواري بارزة عن السقوف كالوقاية للمشارف والحيطان عن آثار الأمطار وهي أشبه الاشياء في هيئتها وصورة وضعها بأجنحة كبار الطير كالنسور ، و كذلك استعار لفظ خراطيم الفيلة للميازيب الّتي تعمل من الخوص على شكل خرطوم الفيل وتطلى بالقار يكون نحوا من خمسة أزرع أو أزيد تدلى من السطوح حفظاً للحيطان من أذى السيل أيضاً ، وهي أشبه الأشياء في صورتها بخراطيم الفيلة ، وأمّا وصفه لهم بأنّه لايندب قتيلهم ولا يفتقد غايبهم. قال بعض الشارحين : ذلك وصف لهم بشدّة البأس والحرص على الحرب والقتال وأنّهم لايبالون بالموت ولايأسفون على من فقدمنهم .

و أقول : والأشبه أنّ ذلك لكونهم لا اُصول لهم ولا أهل لأكثرهم من اُمّ أو اُخت أو غيرذلك ممّن عادته أن ينوح ويندب قتيله و يفتقد غائبه لكون أكثرهم غرباء في البصرة فمن قتل منهم لايكون له من يندبه ومن غاب لايكون لهمن يفتقده .

و قوله : أنا كابّ الدنيا لوجهها .

إشارة إلى زهده فيها ، وتنبيه على فضيلته . يقال : كببت فلاناً لوجهه إذا تركته وما التفت إليه ، وقادرها بقدرها : أي معامل لها بمقدارها ، ولمّا كان مقدارها حقيراً عنده كان التفاته إليها التفاتاً حقيراً حسب ضرورة البقاء فيها ، و كذلك ناظرها بعينها : أي معتبرها بالعين الّتي ينبغي أن تعتبر بها الدنيا من كونها غرّارة غدّارة حائلة إلى غير ذلك من أوصافها ، وأنّها مزرعة الآخرة و طريق إليها غير مطلوبة لذاتها . و بالله التوفيق .

و من كلام له عليه السلام

يؤمى به إلى وصف الأتراك .

كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْماً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ ؛ يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالدِّيبَاجَ ، وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ ، وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ ، وَيَكُونَ الْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ .

فقال له بعض أصحابه : لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب ! فضحك عليه السلام ، وقال للرجل وكان كلبياً :

يَا أَخَا كَلْبٍ ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ ! وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَمَا عَدَّدَ اللهُ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) الآيَةَ فَيَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ : مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً ، فَهٰذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ ، وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي ، وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي .

أقول: المجانّ بالفتح : جمع مجنّ بكسر الميم وهو الترس. والمطرقة بفتح الراء والتخفيف : الّتي تطبق و تخصف كطبقات النعل . يقال : أطرقت بالجلد إذا ألبست . والسرق بفتح السين والراء : شقق الحرير واحدتها سرقة . قال أبوعبيدة: هي البيض منها ، و هو فارسي معرّب أصله سره : أي جيّد كالاستبرق الغليظ من الديباج . ويعتقبون الخيل : يحتبسونها و يرتبطونها . واستحرّ القتل وحرّ : أي اشتدّ .

و اعلم أنّه عليه السلام من عادته إذا أراد الإخبار عن أمر سيكون فإنّه يصدّره بقوله : كأنّي كما سبق من إخباره عليه السلام عن الكوفة كأنّي بك يا كوفه ، و كقوله:

كأنّي به و قد نعق بالشام . ووجه ذلك أنّ مشاهدته بعين بصيرته لمّا اُفيض على نفسه القدسيّة من أنوار الغيب على سبيل الإلهام بواسطة الاُستاد المرشد صلّى الله عليه وآله تشبّه المشاهدة بعين البصر في الجلاء والظهور الخالي عن الشكّ فلذلك حسن حرف التشبيه صدراً ، و ضماير الجمع في الفصل تعود إلى الأتراك ، و شبّه وجوههم بالتروس المطبقة ، ووجه الشبه في تشبيهها بالتروس الاستداره والعظم والانبساط ، و في كونها مطرقة الخشونة والغلظة و هو تشبيه للمحسوس بالمحسوس ، وأمّا وصفه لهم بمراعاة لبس السرق والديباج ، و اعتقاب الخيل فاعتبار أحوال الترك تشهد بصدقه ، و أمّا إخباره عن استحرار القتل إلى الغاية المذكورة حين ظهورهم فممّا يشهد بصدقه التواريخ بالوقايع المشهورة بينهم و بين العرب و غيرهم من المسلمين في أيّام عبدالله بن الزبير ، و في أيّام قتيبة بن مسلم ، و يكفي في صدق ذلك إلى الغاية المذكورة ما شهدناه من وقايع التتار مع المسلمين و قتلهم إيّاهم بالعراقين وخراسان وغيرهما من البلاد فأمّا جوابه عليه السلام للكلبيّ إنّ ذلك ليس بعلم غيب ، وإنّما هو تعلّم من ذي علم ، وتعديده للمعلومات بعلم الغيب الّذي لايعلمها إلّا الله سبحانه فحقّ و صدق ، و قد نبّهنا على الفرق بين علم الغيب والإخبار عن المغيبات في المقدّمات لكن ينبغي أن يعلم أنّ التعلّم الحاصل له من قبل الرسول صلّى الله عليه وآله ليس على سبيل أنّ كلّ ما اُلقى إليه صور جزئيّة و وقايع جزئيّة بل معناه هو إعداد نفسه القدسيّة على طول الصحبة من حيث كان طفلاً إلى أن توفّى الرسول صلّى الله عليه وآله لهذه العلوم بالرياضة التامّة ، وتعليم كيفيّة السلوك وأسباب تطويع النفس الأمّارة بالسوء للنفس المطمئنّة حتّى استعدّت نفسه الشريفة للانتقاش بالاُمور الغيبيّة ، وانتقشت فيها الصور الكلّيّة فأمكنه الإخبار عنها وبها ، ولذلك قال : ودعالي بأن يعيه صدري وتضطمّ عليه جوانحي : أي يضبطه قلبي و يشتمل عليه ، و كنّى بالجوانح عن القلب لاشتمالها عليه و لو كانت تلك العلوم صوراً جزئيّة لم يحتج إلى مثل هذا الدعاء فإنّ فهم الصور الجزئيّة و ضبطها والإخبار عنها ممكن لكلّ الصحابة من العوامّ وغيرهم ، وإنّما الصعب المحتاج إلى الدعاء بأن يعيه الصدر ويستعدّ الأذهان لقبوله

هو القوانين الكلّيّة ، و كيفيّة انشعابها وتفصيلها وأسباب تلك الأمور المعدّة لا دار كها حتّى إذا استعدّت النفس بها أمكن أن ينتقش بالصور الجزئيّة من مفيضها كما سبقت الإشارة إليه .

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

في ذكر المكائيل والموازين .

عِبَادَ اللهِ ، إِنَّكُمْ وَمَا تَأْمُلُونَ فِى هٰذِهِ الدُّنْيَا أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ ، أَجَلٌ مَنْقُوصٌ ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ ، فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيَّعٌ ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٌ . وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِى زَمَنٍ لَا يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إِلَّا إِدْبَاراً ، وَالشَّرُّ فِيهِ إِلَّا إِقْبَالاً ، وَالشَّيْطَانُ فِى هَلَاكِ النَّاسِ إِلَّا طَمَعاً . فَهٰذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ ، وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ . اضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ : هَلْ تُبْصِرُ إِلَّا فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً ، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً ، أَوْ بَخِيلاً اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللهِ وَفْراً ، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً ؟ أَيْنَ خِيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ ؟ وَأَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ ؟ وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِى مَكَاسِبِهِمْ ؟ وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِى مَذَاهِبِهِمْ ؟ أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هٰذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ وَالْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ ؟ وَهَلْ خُلِقْتُمْ إِلَّا فِى حُثَالَةٍ ، لَا تَلْتَقِى بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ اسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ ، فَإِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ : ظَهَرَ

الْفَسَادُ فَلَا مُنْكَرٌ مُتَغَيِّرٌ ، وَلَا زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ ! أَفَبِهٰذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللّٰهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ ؟ وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ ؟ ! هَيْهَاتَ ! لَا يُخْدَعُ اللّٰهُ عَنْ جَنَّتِهِ وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ . لَعَنَ اللّٰهُ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ .

أقول: أثوياء : جمع ثوى على فعيل وهو الضيف . والدائب : المجدّ في العمل . والكدح: العمل . والوقر: الصمم . والحثالة : الثفل ، وكأنّه الرديّ من كلّ شيء .

وقد نفّر عليه السلام عن الدنيا بذكر عدّة من معايبها :

أحدها : كونهم فيها ضيفانا ، واستعار لهم لفظ الضيف وكذلك لما يأملون منها ووجه الاستعارة مشابهتهم للضيف في تأجيل الإقامة وانقطاع وقته وقرب رحيله ، و مؤجّلون ترشيح للاستعارة .

الثانية : كونهم مدينون فيها ، و استعار لفظ المدين باعتبار وجوب الفرائض المطلوبة منهم وعهد الله المأخوذ عليهم أن يرجعوا اليه طاهرين عن نجس الملحدين ، ورشّح بذكر المقتضين لما أنّ شأن المدين أن يقتضى فيه الدين. ثمّ لمّا ذكر كونهم مؤجّلين ومدينين كرّر ذكر الأجل بوصف النقصان ، ولاشكّ في نقصان مالايبقى ، وذكر العمل الّذي خالصه و صالحه هو الدين المقتضى منهم بوصف كونهم محفوظاً عليهم ليجذب بنقصان الأجل إلى العمل ، وبحفظ العمل إلى إصلاحه والإخلاص فيه .

وأجل وعمل : خبران حذف مبتدائهما : أى أجلكم أجل منقوص ، وعملكم عمل محفوظ .

ونبّه بقوله : فربّ دائب مضيّع ، وربّ كادح خاسر: أنّ العمل وإن قصد فيه الصلاح أيضاً إلّا أنّه قد يقع على وجه الغلط فيحصل بذلك انحراف عن الدين و ضلال عن الحقّ فيضيّع العمل ويخسر الكدح كدأب الخوارج ونحوهم فربما دخل الكادح في قوله تعالى « هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالا الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم

يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً » (١) و ذلك ككدح أهل الكتاب ونحوهم .

و قوله : « قد أصبحتم : إلى قوله : إقبالا .

شكاية للزمان و ذمّ له ، وهو كقوله : إنّا قدأ صبحنا في زمن كنود ، ودهر عنود . وذلك لأخذ الزمان في البعد عن وقت ظهور الشريعة و طراوتها وجرأةالناس على هتك الدين و ارتكاب مناهى الله ، و كذلك طمع الشيطان في هلاكهم : أى في هلاك دينهم الّذي يكون غايته هلاكهم في الآخرة ، وأشار إلى أنّ ذلك الوقت هو أوان قوّة عدّته و عموم مكيدته و إمكان عمله فما ظنّك بزماننا هذا وما بعده ، و استعار لفظ الفريسة لمطاوعى الشيطان والمنفعلين عنه ، ووجهالاستعارة بلوغه منهم مراده وتصريفه لهم لغاية هلاكهم كالأسدمع فريسته .

و قوله : اضرب بطرفك . إلى قوله : وقراً .

شرح لما أجمله أوّلامن ازدياد إقبال الشرّ وإدبار الخير ، و كفر الغنىّ تركه وإعراضه عن شكر نعمالله سبحانه عليه .

و قوله : بحقّ الله متعلّق بالبخل .

أى : أنّ البخيل يقصد ببخله بحقّ الله على مستحقّه توفيرا لمال والزيادةفيه .

وقوله : أين خياركم : إلى قوله : مذاهبهم .

سؤال من باب تجاهل العارف تنبيهاً لهم على ماصار واإليه من الفناء وفراق الدنيا ، و على أنّه لم يبق فيهم من اُولى الأعمال الصالحة أحد لعلّهم يرجعون إلى لزوم الأعمال الصالحة ، و أراد بالأحرار الكرماء ، والمتورّعون في مكاسبهم الملازمون للأعمال الجميلة فيها من التقوى و المسالمة و إخراج حقوق الله تعالى ، والمتنزّهون في مذاهبهم المتنعون عن ولوج أبواب المحارم و الشبهات في مسالكهم و حركاتهم .

و قوله : أليس . إلى قوله : المنغّصة .

سؤال على سبيل التقرير لما نبّههم عليه من فراق الدنيا و دناءتها بالنسبة

---

(١) ١٨ - ١٠٤ .

إلى عظيم ثواب الآخرة و تنغيصها بالآلام و نحوها حتّى قال بعض الحكماء : إنّ كلّ لذّة في الدنيا فإنّما هي خلاص من ألم .

وقوله : وهل خلقتم . إلى قوله : عن ذكرهم .

سؤال على سبيل التقرير لما ذكر أيضاً ، و استعار لفظ الحثالة لرعاع الناس و همجهم .

وقوله : لاتلتقى بذمّهم الشفتان .

أى إنّهم أحقر من أن يشتغل الإنسان بذمّهم . وانتصب استصغاراً وذهاباً على المفعول له ، و حسن اقتباس القرآن هيهنا لما أنّ هذه الحال الّتى الناس عليها من فقد خيارهم و بقاء شرارهم مصيبة لحقتهم ، ومن آداب الله للصابرين على نزول المصائب أن يسلّموا أنفسهم وأحوالهم إليه فيقولوا عندها : إنّا لله وإنّا إليه راجعون كما قال سبحانه « وبشّر الصابرين » الآية . ثمّ حكم على سبيل التوجّع والأسف بظهور الفساد وبنفى المنكر المغيّر للفساد المزدجر عنه تنبيها لهم على أنّهم وإن كان فيهم من ينكر ويزجر إلّا أنّه لايغيّر ما ينكره ولا يزدجر عن مثله ، و ذلك من قبايح الأعمال والرياء فيها .

و قوله : أفبهذا .

أى بأعمالكم هذه المدخولة وبتقصيركم . ومجاورة الله : الوصول إليه و المقام معه في جنّته الّتى هى مقام الطهارة عن نجاسات الهيئات البدنيّة ومقام تنزيه ذات الله تعالى وطهارتها عن اتّخاذ الشركاء والأنداد ، وهو استفهام على سبيل الإنكار و لذلك عقّبه بقوله : هيهات . إلى آخره ، ولمّا كان ذلك يجرى مجرى الزهد الظاهر مع النفاق في الباطن أعنى أعمالهم المدخولة من إنكار المنكر و ارتكابهم نبّههم على أنّ فعلهم كخداع الله عن جنّته ، وصرّح بأنّ الله لايخدع لعلمه بالسرائر وأنّه لاتنال مرضاته إلّا بطاعته : أى الطاعة الحقيقيّة الخالصة دون الظاهرة . ثمّ ختم بلعن الآمرين بالمعروف مع تركهم للعمل به ، والناهين عن المنكر المرتكبين له لأنّهم منافقون مغرون بذلك لمن يقتدى بهم والنفاق مستلزم اللعن و البعد عن رحمة الله . وبالله التوفيق .

١٢٩ — ومن كلام له عليه السلام

لأبي ذر رحمه الله لمّا اُخرج إلى الربذة

يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلّٰهِ فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ. إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرُبْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً، وَالْأَكْثَرُ حُسَّداً؟؟! وَلَوْ أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتْقاً ثُمَّ اتَّقَى اللّٰهَ لَجَعَلَ اللّٰهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً، لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلَّا الْحَقُّ وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا الْبَاطِلُ، فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لَأَحَبُّوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لَأَمَّنُوكَ.

أقول: أبوذرّ: اسمه جندب بن جنادة، و هو من بني غفار قبيلة من كنانه، وأسلم بمكّة ولم يشهد بدراً ولا الخندق لأنّه حين أسلم رجع إلى بلاد قومه فأقام حتّى مضت [قامت خ] هذه المشاهد. ثمّ قدم المدينة على رسول الله صلّى الله عليه وآله و كان يتولّى عليّاً وأهل بيته، وهو الّذي قال الرسول صلّى الله عليه وآله في حقّه: ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ، و روى ابن المعمّر عنه قال: رأيت أباذرّ آخذاً بحلقة باب الكعبة و هو يقول: أنا أبوذرّ الغفاريّ فمن لم يعرفني فأنا جندب صاحب رسول الله صلّى الله عليه وآله سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجي ومن تخلّف عنها غرق. وكان قد أخرجه عثمان إلى الربذة، وهي موضع قريب إلى المدينة. واختلف في سبب إخراجه فروى عن زيد بن وهب أنّه قال: قلت لأبي ذرّ ـ رحمة الله عليه ـ وهو بالربذة: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: اُخبرك أنّي كنت بالشام في أيّام معاوية فذكرت قوله تعالى «والّذين يكنزون الذهب و الفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله» الاية [1] فقال معاوية هذه نزلت في أهل

(١) ٩ ـ ٣٤.

الكتاب . قلت : بل فينا وفيهم . فكتب معاوية إلى عثمان يشكوننى في ذلك فكتب إلىّ أن أقدم علىّ فقدمت عليه فانثال الناس علىّ كأنّهم لم يعرفونى فشكوت ذلك إلى عثمان فخيّرنى فقال : أنزل حيث شئت فنزلت الربذة . وهذا قول من نزّه عثمان عن ظلم أبى ذرّ ونفيه . إذ كان خروجه إلى الربذة باختياره ، و قيل : بل كان يغلّظ القول في إنكار ما يراه منكراً وفي حقّ عثمان ، ويقول : لم تبق أصحاب محمّد على ما عهد . وينفّر بهذا القول وأمثاله عنه . فأخرجه لذلك ، و خطابه عليه السلام لأبى ذرّ أليق بالقول الثانى .

فقوله : إنّك غضبت لله .

شهادة له أنّ إنكاره لما ينكره إنّما يقصد به وجه الله تعالى .

و قوله : إنّ القوم خافوك على دنياهم .

أى على أمر الخلافة بالتنفير عنهم ، و خفتهم على دينك باجتناب موافقتهم و أخذ عطائهم على غير السنّة .

و قوله : فاترك . إلى قوله : منعوك .

أى اترك لهم دنياهم و انج بدينك فما أحوجهم إلى دينك و أغناك عن دنياهم .

وقوله : ستعلم من الرابح غداً والأكثر حسّداً .

أشار به إلى يوم القيامة ، وظاهر كون تارك الدنيا أربح من المقبل عليها . و أكثريّة الحسّد من لواحق أكثريّة الربح .

و قوله : ولو أنّ السماوات . إلى قوله : مخرجاً .

بشارة له بخلاصه ممّا هو فيه من ضيق الحال بسبب الإخراج ، وشرط في ذلك تقوى الله إشارة إلى قوله تعالى « ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً » (١) قال ابن عبّاس قرء رسول الله صلى الله عليه وآله و من يتّق الله يجعل له مخرجاً ، قال : من شبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت و شدائد يوم القيامة . وظاهر كون التقوى عند استشعارها سبباً قاطعاً لطمع المتّقى من الدنيا و قيناتها ، وهو مستلزم لراجيه من مجاذبة النفس الأمّارة

---

(١) ٦٥ - ٢ .

بالسوء عن الوقوع في شبهات الدنيا ، و هي في استلزام الخلاص من غمرات الموت و شدائد يوم القيامة أظهر ، وكنّى عليه السلام بالغاية المذكورة و هي رتق السماوات والأرض على العبد عن غاية الشدّة مبالغة ليتبيّن فضل التقوى ، ثمّ أمره بالاستيناس بالحقّ وحده ، والاستيحاش من الباطل وحده . و أكّد الحصر في الموضعين بقوله : وحده . تنفيراً عن أن يستوحش من حقٍّ ما فيترك وينفر عنه و إن صعب و شقّ على النفس ، أو يستأنس بباطلٍ ما فيفعل أو يسكت عليه و إن لذّ لها . و نبّه على علّة بغضهم و إخافتهم له و هو عدم مشاركتهم في دنياهم و الانفراد بالإنكار وغلظة القول عليهم ، و كنّى بالقرض من الدنيا عن الأخذ . وبالله التوفيق .

١٣٠ — وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ ! أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ الْأَسَدِ ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سِرَارَ الْعَدْلِ ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ .

اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ ، وَلَا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ ، وَلٰكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ ، وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ وَسَمِعَ وَأَجَابَ : لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، بِالصَّلَاةِ .

وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ ، وَالدِّمَاءِ ، وَالْمَغَانِمِ

وَالْأَحْكَامِ، وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ: فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلَا الْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا الْخَائِفُ لِلدُّوَلِ، فَيَتَّخِذَ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ، وَلَا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ، وَلَا الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ.

أقول: أظأركم: أعطفكم. و وعوعة الأسد: صوته. وسرار العدل: ماخفى منه، والنهمة: الحرص على الدنيا.

و قدأيّه بالنفوس بصفة الاختلاف: أي اختلاف الأهواء والقلوب المتشتّتة: أى المتفرّقة عن مصالحها وماخلقت لأجله. وأراد بغيبة عقولهم ذهولها عن رشدها، و إصابة وجه الحقّ بانصرافها عن دعائه إلى ما ينبغى، وشبّه نفارهم بنفور المعزى من صوت الأسد، و وجه التشبيه شدّة نفارهم عن الحقّ، ثمّ استبعد إظهاره للعدل و إقامة الدين بمثلهم على ماهم عليهم من قلّة طاعته. ثمّ عقّب ذلك باستشهاد الله سبحانه على أنّ قصده بمنافسته في أمر الخلافة لم يكن في سلطان ولا لفضل حطام دنيويّ، ولكن للغاية الّتى ذكرها من ردّ معالم الدين وهى الآثار الّتى يهتدى بها و كذا سائرماعدّده من المصالح. ثمّ تلا ذلك الاستشهاد باستشهاده على أنّه أوّل من أناب. أي رجع إلى الله تعالى عمّا لعلّه كان يعدّ في حقّه ذنباً، و سمع: أى أطاع الله وأجاب: أي داعى الله. ثمّ استثنى سبق الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى الدين بالصلاة وذلك أمرمعلوم منحاله، و إنّما يقول خصمه: إنّه حين تبع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم كان طفلاً لا اعتداد بإسلامه. وسنذكر ذلك في موضعه من الخطبة المسمّاة بالقاصعة، وغرضه منهذا الاستشهاد مع ما بعده من الإشارة إلى الرذائل الّتىينبغى أنيكون الإمام منزّهاً عنها تقرير فضيلته، و نبّه على أنّ فيه من الفضائل ما يقابل تلك الرذائل بتعديدها ونفيها عن الإمام الوالى لأمور المسلمين، و الإشارة إلى وجوه المقاصداللازمة عنها، وتذكيرهم بما علموه منذلك بقوله. وقد علمتم. إلى آخره:

أمّا البخيل فلشدّة حرصه على ما في أيدى الناس من الرعيّة وقد عرفت مايستلزمه من نفارهم عنه وعدم انتظام الأحوال به ، و أمّا الجاهل فلأنّه لجهله بقوانين الدين وتدبير اُمور العالم ضالّ وضلاله يستلزم ضلال من اقتدى به و ذلك ضدّ مقصود الشارع ، و أمّا الجافي فلأنّ جفاءه يستلزم النفرة و الانقطاع عنه و ذلك ضدّ الاُلفة و الاجتماع المطلوب للشارع ، وأمّا الخائف من الدول فيخصّص بعنايته من يخافه دون غيره وذ لك ظلم لاينتظم معه نظام العالم ، وأمّا المرتشى في الحكم فلظلمه و ذهابه بالحقوق و الوقوف فيها على الحيف دون المقاطع الحقّة . فترى أحد هؤلاء إذا أراد فصل قضيّة دافع بها طويلا وصعّب الحقّ وعرّض بغموضه وأشار بالصلح بين الخصمين مع ظهور الحقّ لأحدهما وكانت غايته من ذلك تخويف صاحب الحقّ من فواته ليجنح إلى الاصلاح [الصلح . خ] والرضى ببعض حقّه مع أنّه قد يأخذ منه رشوة أيضاً ، و ربّما كانت في المقدار كرشوة المبطل منهما . ولهم في ذلك حيل يعرفها من عاناهم . و الله المستعان على ما يصفون ، و أمّا المعطّل للسنّة فلتضييعه قوانين الشريعة و إهمالها المستلزم لفساد النظام في الدنيا و الهلاك الدائم في الاُخرى . وبالله التوفيق .

١٣١ — وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى ، وَعَلَى مَا أَبْلَى وَابْتَلَى ، الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ ، وَالْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ ، الْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ ، وَمَا تَخُونُ الْعُيُونُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ غَيْرُهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيبُهُ وَبَعِيثُهُ ، شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِعْلَانَ وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ .

أقول : الضمير في قوله : نحمده . يعود إلى اسم الله في كلام سابق لم يذكر ، و قد علّم شكر الله تعالى على أخذه و إعطائه و على إبلائه بالخير وابتلائه بالشرّ ،

ونبّه بذلك على وجوب شكر الله تعالى في طوارى السرّاء والضرّاء وحالتى الشدّة والرخاء ، فأمّا وصفه له بالباطن والحاضر والعالم فقد سبق شرحه غير مرّة ومصداق الوصفين الأوّلين قوله تعالى « يعلم السرّ و أخفى »[1] ، و مصداق الأخيرين قوله تعالى «يعلم خائنة الأعين و ما تخفى الصدور »[2] و كذلك سبقت الإشارة إلى سرّ الشهادتين . ونجيبه وبعيثه : منتخبه ومبعوثه . فعيل بمعنى مفعول .

و قوله : شهادة يوافق فيها . إلى آخره .

أى شهادة خالصة من النفاق والرياء . وبالله التوفيق .

منه : فَإِنَّهُ وَاللهِ الْجِدُّ لَا اللَّعِبُ ، وَالْحَقُّ لَا الْكَذِبُ ، وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ قَدْ أَسْمَعَ دَاعِيهِ ، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ ، فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ فَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ ، وَحَذِرَ الْإِقْلَالَ ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ ؛ طُولَ أَمَلٍ ، وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ وَمَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا ، يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ حَمْلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ ، وَإِمْسَاكًا بِالْأَنَامِلِ ، أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُؤَمِّلُونَ بَعِيدًا ، وَيَبْنُونَ مَشِيدًا ، وَيَجْمَعُونَ كَثِيرًا ، كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُورًا ، وَمَا جَمَعُوا بُورًا ، وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ، لَا فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ ، وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ ؟! فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَزَ مَهَلُهُ ، وَفَازَ عَمَلُهُ ،

---

(١) ٢٠ - ٦ (٢) ٤٠ - ٢٠ .

فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا، فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ، فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ، وَقَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ.

أقول: المشيد: المعلّى. والاهتبال في الأمر: السعي في إحكامه، وهبلها مصدر مضاف إلى ضمير التقوى مؤكّد للفعل: أى احكموها إحكاما. و الأوفاز: جمع وفزة وهى العجلة، والضمير في قوله: فإنّه. إمّا أن يرجع إلى مذكور سابق أو إلى معنى كلامه وهو التحذير و الإنذار، و كذلك الّذى في قوله: وماهو إلّا الموت. يحتمل أن يعود إلى ملفوظ به سابق و يحتمل أن يعود إلى المعنىّ بالتحذير منه والإنذار به: أى و ما الّذى اُحذّركم هجومه عليكم إلّا الموت، و أسمع و أعجل محلّهما النصب على الحال من معنى الإشارة.

و قوله: فلا يغرّنّك إلى قوله: وأمن العواقب.

أى فلا يغرّنّك من نفسك الأمّارة بالسوء و سوستها واستغفا لها لك عن ملاحظة الموت برؤية سواد الناس: أى كثرتهم. إذ كثيراً ما يرى الإنسان الميّت محمولا فيتداركه من ذلك رقّة وروعة. ثمّ يعاوده الوسواس الخنّاس ويأمره باعتبار كثرة المشيّعين له من الناس و أن يجعل نفسه من الأحياء الكثيرين بملاحظة شبابه و صحّته و يأمره باعتبار أسباب موت ذلك الميّت من القتل و سائر الأمراض و باعتبار زوال تلك الأسباب في حقّ نفسه، و بالجملة فيبعّد في اعتباره الموت بكلّ حيلة. فنهى السامعين عن الانخداع للنفس بهذه الخديعة، وأسند الغرور إلى سواد الناس لأنّه مادّته. ثمّ نبّههم بقوله: و قد رأيت. إلى قوله: يستعتبون. على كذب تلك الخديعة مشاهدة، والواو في قوله: وقد. واو الحال، ومن في قوله: من جمع. بدل البعض من الكلّ من قوله: من كان قبلك. والمعنى أنّه كما نزل باُولئك الموت وأزعجهم عن أوطانهم فكذلك أنتم.

و قوله : طول أمل. نصب على المفعول له .

أى فعلوا ذلك لأجل طول الأمل ، و يحتمل أن يكون مصدراً سدّ مسدّ الحال ، ويحتمل أن يكون ظرفاً والعامل أمن ، وقيل : هو بدل من قوله : من كان قبلك : أى رأيت طول أمل من كان قبلك ، و يروى بطول أمل . و أعواد المنايا: النعوش، ويتعاطى به الرجال الرجال :أى يسلّمه الحاملون له بعضهم إلى بعض، والخطاب بالكاف لنوع المخاطب أو لشخص على طريقة قولهم : إيّاك أعنى واسمعى يا جارة .

و قوله : أما رأيتم ؟ .

استفهام على سبيل التقرير ، وإنّما كانوا لايستطيعون زيادة في حسنة و لااستعتاباً من سيّئة لأنّ محلّ الأعمال هى الدنيا دون ما بعدها .

وقوله: فمن أشعر التقوى قلبه .

أى من اتّقى تقوى حقيقة برزت تؤدته : أى ظهرت عليه آثار الرحمة الإلهيّة في السكينة و الوقار والحلم والأناة عن التسرّع إلى مطالب الدنيا ، وعلمت راحته في الآخرة ، وفاز عمله فيها بالجزاء الأوفى . ثمّ أمرهم بإحكام التقوى : أى أن تتّقوا الله تقوى حقيقيّة فإنّها الّتى يستحقّ بها الثواب الدائم ، و أن يعملوا للجنّة عملها الّتى تستحقّ به . ثمّ نبّههم على وجوب العمل للجنّة بالتصريح بما لأجله خلقت الدنيا ، وأنّها لم تخلق دار إقامة بل طريقاً يعبر بها إلى الآخرة كما يعبر المسافرون، ويتزوّد منها الأعمال الصالحة الموصلة إلى الجنّة ، وأمرهم أن يكونوا فيها على سرعة في قطع عقباتها و عجل في الارتحال عنها لأنّ التأنّي فيها يستلزم الالتفات إلى لذّاتها و الغفلة عن المقصد الحقّ ، و استعار لفظ الظهور وهى الركوب لمطايا الآخرة و هي الأعمال الصالحة ، و تقريبها للزيال هو العناية الإلهيّة بالأعمال المقرّبة إلى الآخرة المستلزمة للبعد عن الدنيا والإعراض عنها و مفارقتها .

١٣٢ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَانْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا ، وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُونَ

مَقَالِيدَهَا ، وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ الْأَشْجَارُ النَّاضِرَةُ ، وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النِّيرَانَ الْمُضِيئَةَ ، وَآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الثِّمَارُ الْيَانِعَةُ .

أقول : المقاليد : المفاتيح جمع مقلد بكسر الميم . واليانع من الثمار : المدرك.

و هذا الفصل يشتمل على تمجيد الله سبحانه و إظهار عظمة سلطانه. فانقياد الدنيا و الآخرة له بأزمّتها: دخولها ذلّ الإمكان و الحاجة إليه .

و قوله : وقذفت إليه السماوات والأرضون مقاليدها .

كقوله تعالى « له مقاليد السماوات والأرض » (١) قال ابن عبّاس ومقاتل: المراد بمفاتيح السماوات و الأرض الرزق و الرحمة ، و قال الليث : القلاد : الخزانة . و مقاليد السماوات و الأرض خزائنهما ، و أقول : لفظ القذف مجاز في تسليمها و انقيادها بزمام الحاجة و الإمكان إلى قدرته مع جميع ما هى سبب في وجوده في هذا العالم ممّا هو رزق و رحمة للخلق ، و كذلك لفظ المفاتيح على رأى ابن عبّاس استعارة للأسباب المعدّة للأرزاق و الرحمة ، وتلك الأسباب كحركات السماوات واتّصالات بعض الكواكب ببعض و كاستعدادات الأرض للنبات وغيره ، و وجه الاستعارة أنّ هذه الأسباب بإعدادها الموادّ الأرضيّة تفتح بها خزائن الجود الإلهى كما تفتح الأبواب المحسوسة بمفاتيحها ، و كلّها مسلّمة إلى حكمه وجريانها بمشيئته ، و على قول الليث فلفظ الخزائن استعارة في موادّها و استعداداتها ، ووجه الاستعارة أنّ تلك الموادّ و الاستعدادات تكون فيها بالقوّة و الفعل جميع المحدثات من الأرزاق وغيرها كما يكون في الخزائن مايحتاج إليه . وسجود الأشجار الناضرة له بالغدوّ والآصال: خضوعها و ذلّها تحت قدرته وحاجتها إلى جوده ، و نسب قدح النيران إليها لما أنّها السبب المادّى و إن كان القدح حقيقة في فعال السبب الفاعلي القريب ، وجعل ذلك له تعالى لأنّه الفاعل الأوّل .

و قوله : وآتت . إلى آخره .

(١) ٣٩ - ٦٣ .

فأراد بكلماته أو امره و أحكام قدرته المعبّر عنها بقوله : كن ، و إطلاق الكلمات عليها استعارة وجهها نفوذ تلك الأحكام في المحكومات كنفوذ الأوامر القوليّة في المأمورات ، وأراد بإتيان الثمار دخولها طوعاً في الوجود المعبّر عنه بقوله تعالى « فيكون » . وبالله التوفيق والعصمة .

منها : وَكِتَابُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لَا يَعْيَى لِسَانُهُ ، وَبَيْتٌ لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ ، وَعِزٌّ لَا تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ .

أقول : هذا الفصل كأنّه في معرض التوبيخ على ترك أوامر الله ومخالفة أحكامه ، ويشبه أن يكون الواو للحال كأنّه يقول : تفعلون كذا و كتاب الله بين أظهر كم ناطق ، و كونه بين أظهرهم كناية عن وجوده بينهم مع أنّ من شأنه أن يستند إليه ، و استعار لفظ الناطق للكتاب باعتبار أن المكتوب يعبّر عن المقصود كما أنّ الناطق كذلك ، ولفظ اللسان وأنّه لايعيا ترشيح للاستعارة كنّى بها عن بيان الكتاب على مرور الأوقات ، و يحتمل أن يريد باللسان نفسه عليه السلام مجازاً . إذ كان هو لسان الكتاب الّذي لايفتر ولا يقصر عن بيان مقاصده ، و كذلك استعار لفظ البيت باعتبار كونه حافظاً لحافظيه والعاملين به كما يحفظ البيت أهله ، وأركانه : قواعده الكلّيّة الّتي يبنى عليها نظام العالم من الأوامر والنواهي والمواعظ والحكم ، وتلك القواعد لاتكاد تنهدم في وقت من الأوقات . إذ الحكم الكلّيّة صالحة لجميع الأوقات ، و كونه عزّاً مجاز إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه . إذ كان حفظه و العمل به مستلزماً للعزّ الدائم الّذي لا يعرض له ذلّ ، و أعوانه هم الله و ملائكته و رسله و أولياؤه. و اُولئك أعوان لاخوف عليهم ولا انهزام لجمعيّتهم من أمر . وبالله التوفيق .

منها : أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَتَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ ، فَقَفَّى بِهِ الرُّسُلَ ، وَخَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ ، فَجَاهَدَ فِي اللهِ الْمُدْبِرِينَ عَنْهُ ، وَالْعَادِلِينَ بِهِ .

أقول : قفّى به : اتّبع به من قبله .

و غرض الفصل الثناء على الرسول ﷺ .

فقوله : أرسله . إلى قوله : الألسن .

بيان لبعض أمارات النبوّة فإنّ منها الزمان المتطاول الّذى تندرس فيه الشريعة السابقة والقوانين الّتي بها نظام العالم ويحتاج الخلق إلى قوانين مجدّدة لنظام أحوالهم . وحينئذ تجب بعثة رسول . و كان الفترة بين عيسى ومحمّد عليهما السلام ستّة مأة و عشرين سنة ، ومنها تنازع الألسن و اختلاف الخلق في الآراء والمذاهب وقلّة الاتّفاق على قانون شرعىّ جامع لهم .

فقوله : فقفّى به الرسل .

كقوله تعالى « وقفّينا من بعده الرسل »[1].

وقوله : وختم به الوحى .

كقوله « و خاتم النبيّين » و هذا الختام مستفاد من الشريعة و ليس للعقل في الحكم بانقطاع الرسل فيما بعد مجال بل ذلك من الأمور الممكنة عنده . والمدبرون عن الله: المعرضون عن اتّباع أوامره ونواهيه. والعادلون به: الجاعلون له عديلا و هو النّدّ والمثل كالمشركين - تعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً - و نسبة المجاهدة إلى الله تعالى استعارة ، و وجهها أنّه تعالى رمى بمحمّد ﷺ المشركين كما يرمى المجاهد بنفسه وأعوانه مجاهديه . وبالله التوفيق .

منها : وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الْأَعْمَى ، لَا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً ، وَالْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا ، فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ ، وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ . وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ .

أقول : الشاخص : الذاهل و المسافر ، و الشاخص أيضاً الّذي يرفع بصره إلى الشيء و يمدّه إليه .

(١) ٢ - ٨١ .

و هذا الفصل مع قلّة ألفاظه يشتمل على لطائف :

فالأولى : أنّ الدنيا منتهى بصر الأعمى شيئاً . واستعار لفظ الأعمى للجاهل كقوله تعالى « فإنّها لاتعمى الأبصار لكن تعمى القلوب الّتي في الصدور »(١) و وجه الاستعارة أنّ الجاهل لا يدرك بعين بصيرته الحقّ كما لا يدرك الأعمى من المبصرات ، و أشار بقوله : لايبصر من ورائها شيئاً إلى جهله بأحوال الموت وما بعده من سعادة الآخرة وشقاوتها .

فإن قلت : إنّه أثبت للأعمى العمى ، وأثبت أنّه يبصر الدنيا وذلك نوع مناقضة .

قلت : إنّه لمّا أراد بالأعمى أعمى البصيرة و هو الجاهل استعارة لم يكن في إثبات البصر الحسّي له و نظر الدنيا به مناقضة ، و يحتمل أن يريد ببصره أيضاً بصر بصيرته استعارة ، وظاهر أن منتهى بصر بصيرة الجاهل التصرّف في أحوال الدنيا و كيفيّة تحصيلها و التمتّع بها دون أن يفيده عبرة لماورائها من أحوال الآخرة .

الثانية : قوله : و البصير ينفذها بصره . استعار لفظ البصير للعالم ، و نفوذ بصره كناية عن إدراكه ما وراء الدنيا من أحوال الآخرة وعلمه أنّها دار القرار .

الثالثة : قوله : فالبصير منها شاخص : أي راحل مسافر قد جعلها طريقاً له إلى الآخرة ، و الأعمى إليها شاخص : أي متطلّع إليها بعين بصيرته و وهمه وإن كان أعمى عن مصالحه الحقيقيّة و عن آفاتها و طرقها المخوفة ، و في هذه الكلمة مع الّتي قبلها من أقسام البديع التجنيس التامّ و المطابقة بين الأعمى و البصير .

الرابعة : قوله : والبصير منها متزوّد : أي بالتقوى والأعمال الصالحة في سفره إلى الله تعالى ،و الأعمى لها متزوّد : أي متّخذ للذّاتها و قيناتها زاداً له في قطعها مدّة عمره قد جعل ذلك هو الزاد الحقيقيّ والكمال الّذي ينبغي له وهي في البديع كالّتي قبلها . وبالله التوفيق .

---

(١) ٢٢ - ٤٥ .

منها : وَاعْلَمُوا أَنْ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ أَنْ يَشْبَعَ مِنْهُ وَيَمَلَّهُ، إِلَّا الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ لَهُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَّاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ، وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلَامَةُ : كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللهِ ، وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ .

قَدِ اصْطَلَحْتُمْ عَلَى الْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَنَبَتَ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِكُمْ ، وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الْآمَالِ ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ ، لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكُمُ الْخَبِيثُ وَتَاهَ بِكُمُ الْغُرُورُ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ .

أقول : الدمن : ما تلبّد من آثار الناس و ما اسوّد وهوجمع دمنة : و الغلّ : الغشّ والحقد .

و قد استثنى الحياة ممّا يشبع منه و يملّ ثمّ علّل عدم ملال الحياة بفقدان الراحة في الموت . قال بعض الشارحين : إنّ فقدان الراحة في الموت مخصوص بأهل الشقاوة في الآخرة فأمّا أولياء الله و عباده الصالحون فلهم في الموت الراحة الكبرى كما أشار إليه سيّدالمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم: ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله . وقال بعضهم : بل يحمل على العموم مراعاة لظاهر الكلام وذلك من وجهين :

أحدهما : أنّ بالموت يفوت متجر الآخرة و ينقطع الاستعداد لكمال أشرف ممّا حصل عليه الميّت و إن كان وليّاً فلا جرم لا يجد الراحة الّتى تلحقه بمايفوته من ذلك الكمال .

الثانى : أنّ النفوس البشريّة لمّا لم يكن معارفها ضروريّة ولم يتمكّن مادامت في هذه الأبدان من الاطّلاع على ما بعد الموت من سعادة أو شقاوة فبالحريّ أن لا تجد لها راحة تتصوّرها في الموت . قال : وذلك لاينا في الخبر: ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله : أمّا على الوجه الأوّل فلأنّ الراحة الحاصلة من الكمال الفائت بالموت لاتحصل له و إن حصل على راحة ما بحسب طاعته السابقة ، وأمّا على الثانى فلأنّ المؤمن لايجد له ما دام في الدنيا راحة في الموت وذلك لا ينا في أن تحصل له الراحة عند لقاء الله كما نقل أنّ الحسن عليه السلام لمّا آن سفره إلى الآخرة بكى فقال له أخوه الحسين عليه السلام : مالي أراك تكاد تجزع مع يقينك بأنّك تقدم حيث تقدم على جدّك وأبيك . فقال : نعم يا أخي لاشكّ في ذلك إلّا أنّني سالك مسلكاً لاأسلكه من قبل . وأقول : إن كان مراده عليه السلام بقوله : لايجد في الموت راحة : أى في نفس الموت مع قطع النظر عن غيره من أحوال الآخرة فالحقّ قول من عمّم فقدان الراحة في حق الجميع . إذ الموت من حيث هو موت لاراحة فيه لأحد من الناس كافّة ، وإن كان مراده فقدان الراحة في الموت ومابعده فالحقّ التخصيص بأهل الشقاوة الدائمة . فإنّ شدّة محبّة الحياة و نقصانها متفاوتة بحسب تصوّر زيادة الراحة في الآخرة و نقصانها ، و ذلك ظاهر عند اعتبار أهل الدنيا المقبلين عليها بالكلّيّة ، وأهل الآخرة المقبلين عليها بالكلّيّة ، ومن بينهم من طبقات السالكين .

و قوله : وإنّما ذلك .

أى الأمر الّذى هو أحقّ بأن لايملّ ولا يشبع منه بمنزلة الحكمة : أي ما كان بمنزلة الحكمة ، و الحكمة في لسان الشريعة هى العلم النافع في الآخرة ، وقد يطلق على ما هو أعمّ من ذلك . ثمّ ذكر لها أوصافاً :

الأوّل : أنّها حياة للقلب الميّت ، و قد مرّ أنّ القلب في عرف العارفين هى النفس الإنسانيّة ، واستعار للحكمة لفظ الحياة ، و وجه المشابهة كون الحياة بها وجود القلب وبقائه كما أنّ الحكمة بها بقاء الإنسان وسعادته في الدارين ، و كذلك استعار لفظ الميّت للقلب الجاهل باعتبار أنّه غير مطّلع على وجوه مصالحه ومفاسده

في الدارين غير مهتد لانتفاع أو دفع تضرّر كالميّت .

الثاني : استعار لفظ البصر للحكمة ، و وصف العمياء لعين الجاهل . ثمّ يجوز أن يكون لفظ العين أيضاً استعارة في بصيرة الجاهل ، ويجوز أن يكون المراد حقيقته، ووجه الاستعارة الاُولى : أنّ بالحكمة يبصر الإنسان مقاصده ويهتدى وجوه مصالحه الدنيويّة و الاُخرويّة كما يهتدى البصير بعينه وجوه مسالكه ومقاصده ، و وجه الثانية : أنّ بصيرة الجاهل لاتهتدى لتلك الوجوه كما لاتهتدى العين العمياء إلى شيء ، ووجه الثالثة : أنّ بصر الجاهل تابع لبصيرته في إقدامه و إحجامه وتصرّفاته المنسوبة إلى حسّ البصر وغيره تابعة لما يتصوّره ، و لمّا كانت تلك التصرّفات غير نافعة في الأكثر بل قد يكون ضارّة لا جرم أشبهت عينه الباصرة الّتي وقع بها سوء ذلك التصرّف العين العمياء فاستعير لها لفظها ، و كذلك استعار لفظ السمع ولفظ الصمّاء للاُذن ، و وجه الاستعارات ما سبق فإنّ المراد بالسمع إدراك البصيرة . والأذن يحتمل أن يراد بها البصيرة استعارة ، أو الاُذن المحسوسة ، و كذلك استعار لفظ الرّى للحكمة ، و لفظ الظمآن للجاهل ، و وجه الاُولى : أنّ الحكمة تملأ النفس و تجدها شفاء لها من داء الجهل كما يملأ الماء جوف الظمآن وينقع غلّته ويشفى من ألم الظماء ، ووجه الثانية : أنّ الجاهل يلحقه ألم الجهل ويكون سبباً لموته في الآخرة كما يلحق الظمآن ألم الظمأ .

الثالث : أنّ فيها الغنى كلّه و السلامة ، و أراد بالغنى غنى النفس عن كلّ شيء و كمالها بها فإنّ غاية الحكمة الوصول إلى الحقّ سبحانه و الغرق في بحار معرفته و في ذلك غنى العارفين عن كلّ شيء ، و أراد بالسلامة سلامة النفوس من عذاب الجهل . إذ ثبت في اُصول الحكمة أنّه السبب الأكبر في الهلاك الاُخروى .

قوله : كتاب الله .

خبر مبتدء : إمّا خبر ثان لذلك ، و ما كان بمنزلة الحكمة خبر أوّل ، أو لمبتدء محذوف تقديره وهو كتاب الله ، ويحتمل أن يكون عطف بيان لما كان بمنزلة الحكمة. وذكر له أوصافا :

الأوّل : قوله : تبصرون به . إشارة إلى اشتمال الكتاب على الحكمة ، ووجه شبهه بها أنّ به إبصار الجاهلين لمقاصدهم الدنيويّة و الاُخرويّة لما فيه من الحكمة .

الثاني : و كذلك ينطقون به .

الثالث : ويسمعون به .

الرابع : قوله : ينطق بعضه ببعض . أى يفسّر بعضه ببعض كالمبيّن المفسّر للمجمل ، والمقيّد المبيّن للمطلق ، والمخصّص المبيّن للعامّ .

الخامس : و يشهد بعضه على بعض : أى يستشهد ببعضه على أنّ المراد بعض آخر وهو قريب ممّا قبله .

السادس : قوله : ولايختلف في الله . أي لمّا كان مدار الكتاب على بيان القواعد الكلّيّة الّتي بها يكون صلاح حال نوع الإنسان في معاشه ومعاده و كانت غاية ذلك الجذب إلى الله سبحانه و الوصول إلى جواره لم يكن فيه لفظ يختلف في الدلالة على هذه المقاصد بل كلّه متطابق الألفاظ على مقصود واحد و هو الوصول إلى الحقّ - سبحانه - بصفة الطهارة عن نجاسات هذه الدار و إن تعدّدت الأسباب الموصلة إلى ذلك المقصود .

السابع : قوله : ولا يخالف بصاحبه عن الله . أي لايجوز بالمهتدين بأنواره في سلوك سبيل الله عن الغاية الحقيقيّة و هو الله - سبحانه - .

وقوله : قد اصطلحتم . إلى آخره .

توبيخ للسامعين على ارتكاب رذائل الأخلاق ، واستعار لفظ الاصطلاح لسكوتهم عن إنكار بعضهم على بعض ما يصدر عنه من المنكر كالغشّ والحقد والحسد ، واشتراكهم في تلك الرذائل .

و قوله : ونبت المرعى على دمنكم .

يضرب مثلاً للمتصالحين في الظاهر مع غلّ القلوب فيما بينهم ، و وجه مطابقة المثل أنّ ذلك الصلح سريع الزوال لا أصل له كما يسرع جفاف النبات في الدمن .

و قوله : تصافيتم على حب الآمال .

إشارة إلى وجه الصلح الّذي ذكره ولذلك اُسقط حرف العطف هنا .

و قوله : وتعاديتم في كسب الأموال .

إشارة إلى وجه الغلّ الّذى أشار إليه : أمّا الأوّل : فلأنّ الجامع للناس في الظاهر هو ما يؤمّل كلّ من صاحبه من الانتفاع به أو دفع شرّه فيما هو بصدده من المأمولات الدنيويّة و إن انطوى له على غلّ كما هو المتعارف في زماننا ، و أمّا الثاني : فلأنّ الأحقاد و العداوات أغلب ما تكون على مجاذبة أموال الدنيا و قيناتها .

و قوله : لقد استهام بكم الخبيث .

أى اشتدّ عشقه لكم ولازمكم ، و أراد بالخبيث إبليس ، وذلك تنبيه على ما يظهر منهم من آثار وسوسته و ملازمتهم لما ينهون عنه ، و كذلك قوله : و تاه بكم الغرور : أى استغفلكم فتهتم في استغفاله لكم عن سواء سبيل الله ، و الغرور هو الشيطان كما قال تعالى « ولا يغرّنّكم بالله الغرور »(1). ثمّ ختم باستعانة الله تعالى له ولهم على النفوس الأمّارة بالسوء : أمّا في حقّه عليه‌السلام ففي دوامها مقهورة لعقله ، و أمّا في حقّهم قهرها وقمعها . وبالله التوفيق .

١٣٣ - وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

وقد شاوره عمر بن الخطاب
فى الخروج إلى غزو الروم بنفسه

وَقَدْ تَوَكَّلَ اللهُ لِأَهْلِ هٰذَا الدِّينِ بِإعْزَازِ الْحَوْزَةِ ، وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ ، وَالَّذى نَصَرَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَنْتَصِرُونَ ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَمْتَنِعُونَ ؛ حَيٌّ لَا يَمُوتُ إنَّكَ مَتَى تَسِرْ إلَى هٰذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ

(1) ٣١ - ٣٤ .

كَانِفَةٌ دُونَ أَقْصَى بِلَادِهِمْ ، لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِحْرَبًا ، وَاحْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلَاءِ وَالنَّصِيحَةِ ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى كُنْتَ رِدْءًا لِلنَّاسِ ، وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ .

أقول : ذلك حين خرج قيصر الروم في جماهير أهلها إلى المسلمين ، وانزوى خالد بن الوليد فلازم بيته وصعب الأمر على أبي عبيدة بن الجرّاح . وشرحبيل بن حسنة وغيرهما من أُمراء سرايا الإسلام .

وحوزة كلّ شيء : بيضته وجمعيّته . و كنفه : حفظه وآواه . و المحرب بكسر الميم : الرجل صاحب حروب . و حفز كذا : أي دفعه . و حفزه ضمّه إلى غيره . و أظهر الله على فلان : نصر عليه . و الردء : العون . والمثابة : المرجع .

و قوله : و قد توكّل الله . إلى قوله : لايموت .

صدر لهذه النصيحة و الرأي ، نبّه فيه على وجوه التوكّل على الله والاستناد إليه في هذا الأمر ، و خلاصتها أنّه ضمن إقامة هذا الدين و إعزاز حوزة أهله ، و كنّى بالعورة عن هتك الستر في النساء ، ويحتمل أن يكون استعارة لما يظهر عليهم من الذلّ و القهر لو اُصيبوا فضمن سبحانه ستر ذلك بإفاضة النصر عليهم ، و هذا الحكم من قوله تعالى « وعد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكّنن لهم دينهم الّذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً » (١) .

و قوله : والّذي نصرهم . إلى آخر الصدر .

احتجاج في هذه الخطابة يشبه أن يكون تمثيلاً ، و تلخيصه أنّ الّذي نصرهم حال قلّتهم حيّ لا يموت فهو ينصرهم حال كثرتهم . فأصل التمثيل هو حال قلّتهم و فرعه حال كثرتهم ، و حكمه النصر و علّة ذلك الحكم هو حياته الباقية الّتي لايعاقبها موت .

(١) ٢٤ – ٥٤ .

و قوله : إنّك متى تسر. إلى آخره .

نفس الرأى وخلاصة المشورة بعدم خروجه بنفسه ، و وجه هذا الرأى تجويز النكبة و انقهاره عند ملاقات العدوّ مع أنّه يؤمئذ ظهر المسلمين الّذين يلجؤن إليه . فلو انكسر لم تبق لهم كانفة قوام يحوطهم ، ولاجمع يستندون إليه . ثمّ با خراج من يقوم مقامه من أهل النجدة ممّن عرف بكثرة الوقايع والحروب فيكون على بصيرة في أمر الحرب ، و أن يضمّ إليه أهل البلاء : أى المختبرون في النصيحة والمجرّبون في الوقائع . ثمّ استنتج من هذا الرأى أنّه إن نصر الله المسلمين فذاك الّذى تحبّ ، و إن تكن الاُخرى : أى الانكسار و عدم الانتصار كان للمسلمين ظهر يستندون إليه و مأمن يأوون إليه .

٤٣١ - ومن كلام له عليه السلام

قد وقعت مشاجرة بينه و بين عثمان فقال المغيرة ابن أخنس لعثمان : أنا أكفيكه . فقال أمير المؤمنين عليه السلام :

يَاابْنَ اللَّعِينِ الْأَبْتَرِ ، وَالشَّجَرَةِ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا ، وَلَا فَرْعَ ، أَنْتَ تَكْفِينِي ! وَاللهِ مَاأَعَزَّ اللهُ مَن أَنْتَ نَاصِرُهُ ، وَلَاقَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ ؛ أُخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللهُ نَوَاكَ ، ثُمَّ أَبْلُغْ جَهْدَكَ فَلَا أَبْقَى اللهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ .

أقول : هذه المشاجرة كانت في زمن ثوران الفتنة على عثمان في خلافته ، وكان الناس يستسفرونه عليه السلام إليه .

و الأبتر : كلّ أمر انقطع من الخير أثره . و النوى : المقصد الّذى ينويه المسافر من قرب أو بعد . والنوى : لغة في النأى : وهو البعد .

و قد ذمّ المغيرة بسقوط الأصل، ولعنه . واستعار لبيته لفظ الشجرة ، و كنّى بنفى أصلها و فرعها عن سقوط بيته و دناءته و حقارته في الناس . ثمّ استفهمه عمّا

ادّعى من الكفاية له استفهاماً على سبيل الإنكار و الاستحقار له ، و أقسم أنّ الله لا يعزّ من هو ناصره ، و إنّما يعزّ الله من نصره أولياء الله و أهل عنايته ، و من لم يعزّ الله لم يقم من نهضته كقوله تعالى «إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الّذي ينصركم من بعده»(١) . ثمّ دعا عليه بإبعاد الله مقصده .

و قوله : أبلغ جهدك .

أي في الأذى فلا أبقى الله عليك إن أبقيت ؛ أي لا رعاك ولا رحمك إن راعيتني . يقال : أبقيت على فلان إذا راعيته ورحميته .

١٣٥ — ومن كلام له عليه السلام

لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً ؛ وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً : إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلّٰهِ ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ ! أَيُّهَا النَّاسُ ، أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَايْمُ اللّٰهِ لَأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ ، وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ ، حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً .

أقول : الفلتة : الأمر يقع بغير تدبّر و لا رويّة . و الحزامة : الحلقة من الشعر يجعل في أنف البعير .

ومفهوم قوله : لم تكن بيعتكم إيّاي فلتة . أنّها لمّا كانت عن تدبّر واجتماع رأي منكم لم يكن لأحدكم بعدها أن يخالف أو يندم عليها ، و فيه تعريض ببيعة أبي بكر حيث قال عمر فيها : كانت بيعة أبي بكر فلتةً وقى الله شرّها .

وقوله : وليس أمري و أمركم واحداً .

إشارة إلى الاختلاف بين حركاته ومقاصدهم . ثمّ بيّن الفرق بقوله : إنّي اُريدكم لله : أي إنّما اُريد طاعتكم لإقامة دين الله ، وإقامة حدوده ، وأنتم تريدونني

(١) ٣ - ١٥٤ .

لأنفسكم : أى لحظوظ أنفسكم من العطاء و التقريب وساير منافع الدنيا . ثمّ لمّا وبّخهم بذلك أيّـه بهم ، و طلب منهم الإعانة على أنفسهم : أى بالطاعة له و امتثال أوامره . فأقسم لينصفنّ المظلوم وليقودنّ الظالم بخزامته ، و استعار وصف القود في تذليل الظالم و إذعانه للحقّ ، و رشّح بذكر الخزامة ، و كذلك استعار لفظ المنهل للحقّ . و وجه الاستعار كونه مورداً يشفى به ألم المظلوم كما يشفى به ألم العطشان . وبالله التوفيق .

١٣٦ – وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

في معنى طلحة والزبير

وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَرًا ، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصَفًا ، وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ ؛ فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ ؛ وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إِلَّا قِبَلَهُمْ ، وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي : مَا لَبَسْتُ وَلَا لُبِّسَ عَلَيَّ ، وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحُمَةُ ، وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ ، وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ وَقَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ ، وَايْمُ اللهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضًا أَنَا مَاتِحُهُ : لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ ، وَلَا يَعُبُّونَ بَعْدَهُ فِي حَسْيٍ .

أقول : النصف : النصفة . و الطلبة بكسر اللام : المطلوب . و الحمأ : الطين الأسود المنتن كما قال تعالى « من حمأ مسنون »[١] و يروى الحما بألف مقصورة . و الحمه بضمّ الحاء و تخفيف الميم و فتحها : اسم العقرب . والمغدفة بالدال والفاء :

(١) ١٥ – ٢٦ .

المظلمة . يقال : أغدف الليل إذا اشتدّ ظلامه ، وروى : المغدفة بفتح الدال: الخفيّة . وأصله أنّ المرءة تغدف وجهها بالقناع . و زاح الباطل : انحرف . ونصابه : أصله و مقرّه . ولا اُفرطن : لأملأن . و الشغب بالتسكين : المشاغبة و تهييج الشرّ . والماتح بنقطتين من فوق : المستقى ، وبنقطتين من تحت : الّذى يملأ الدلو في البئر . و العبّ : الشرب . و الحسى بكسر الحاء و سكون السين : الماء الّذى يشربه الرمل فينتهى إلى أرض صلبة تحفظه ثمّ يحفر عنه فيستخرج .

و اعلم أنّ قوله : والله . إلى قوله : ولا لبس علىّ . قد تقدّم تفسيره في قوله : ألا وإنّ الشيطان قد ذمّر حزبه . و في فصل قبله برواية اُخرى فلا حاجة إلى إعادته . و أمّا قوله : وإنّها للفئة الباغية فيها الحمأ والحمة . فقال بعض الشارحين : في تعريف الفئة بالألف و اللام تنبيه على أنّه كان عنده علم من الرسول صلى الله عليه وآله أنّه ستبغى عليه فئة من غير تعين لها . فلمّا خرجت هذه الفئة علمها بأماراتها ، وقد سبق أيضاً تفسير الحمأ و الحمة على بعض الروايات ، و أمّا على هذه الرواية فاستعارة للغلّ و الفساد الّذى كان في صدور هذه الفئة ، و وجه الاستعارة استلزامه لتكدير الإسلام وإثارة الفتنة بين المسلمين كما تكدّر الحمأ الماء وتخبثه ، واستلزامه للأذى والقتل كما يستلزم ذلك سمّ العقرب ، و أشار بالشبهة المغدفة إلى شبهتهم في الطلب بدم عثمان ، واستعار لها وصف الظلمة لعدم اهتداء أكثر الخلق فيها حتّى قتلوا بسببها كما لا يهتدى في الليل المظلم

و قوله : وإنّ الأمر لواضح . إلى قوله : شغبه .

نفى لتلك الشبهة عن نفسه و ولايته ، و أنّ الحقّ واضح في حاله لا أصل للباطل فيه ولا لسان يشغب به ، ولفظة اللسان استعارة ، والشغب ترشيح لها . وباقى الفصل قد تقدّم تفسيره أيضاً في الفصل المذكور .

منه : فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلَادِهَا ، تَقُولُونَ : الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ ! ! قَبَضْتُ يَدِي فَبَسَطْتُمُوهَا ، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَذَبْتُمُوهَا ، اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا

قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ، فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلَا وَعَمِلَا. وَلَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ، وَرَدَّا الْعَافِيَةَ.

أقول: العوذ: جمع عوذة وهي الناقة المسنّة. والمطافيل: جمع مطفل بضم الميم وهي قريبة العهد بالنتاج. و التأليب: التحريض. و أبرمت الأمر: أحكمته. واستثبتهما بالثاء المعجمة بثلاث نقط: طلبت رجوعهما، و يروى بالتاء من التوبة. واستأنيت: انتظرت.

وهذا الفصل احتجاج على طلحة والزبير و من تابعهما على نكث بيعته.

فقوله: فأقبلتم. إلى قوله: فجاذ بتموها.

يجري مجرى صغرى قياس ضمير من الشكل الأوّل، و تلخيصها أنكم اجتهدتم عليّ في طلب البيعة حتّى بايعتكم و أخذت عهودكم. و تقدير الكبرى و كلّ من اجتهد اجتهادكم إلى تلك الغاية فيجب عليه الوفاء بعهده. والصغرى مسلّمة منهم. و برهان الكبرى الكتاب «يا أيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود» (١) و «أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم» (٢) الآية، وقد شبّه إقبالهم عليه طالبين للبيعة بإقبال مسنّات النوق على أطفالها، و وجه التشبيه شدّة الإقبال والحرص على مبايعته، و خصّ المسنّات لأنّها أقوى حنّة على أولادها، و نصب البيعة على الإغراء، و فائدة التكرير في الإغراء تأكيد الأمر الدالّ على شدّة الاهتمام بالمأمور به. وقال بعض الشارحين: فايدة التكرار دلالة المنصوب الأوّل على تخصيص الأمر الأوّل بالحال، ودلالة الثاني على تخصيص الأمر الثاني بالمستقبل: أي خذ البيعة في الحال وخذها للاستقبال. قال: و كذلك قوله: الله الله: أي اتّقوا الله في الحال و اتّقوه في الاستقبال.

و أقول: إنّ ذلك غير مستفاد من اللفظ بإحدى الدلالات.

(١) ٥ - ١. (٢) ١٦ - ٩٣.

و قوله : اللّهم . إلى قوله : عليّ .

شكاية إلى الله منهم في اُمور ثلاثة : قطع رحمه و ظلمهما له بمطالبتهما له بغير حقّ لهما عنده . ثمّ نكث بيعته . ثمّ جمع الناس على قتاله .

وقوله : فاحلل .

دعاء عليهما باُمور ثلاثة: أن يحلّ ماعقدا من العزوم الفاسدة الّتي فيها هلاك المسلمين ، وأن لايحكم ماأبرماه من الإغراء في حربه ، وأن يريهما المسئاة في آمالهما و أعمالهما : أي عكس أغراضهما فيهما . واستجابة دعاءه ظاهرة بقتلهما .

و قوله : ولقد استثبتّهما . إلى قوله : الوقاع .

إظهار لعذره مع الناس في حقّهما قبل وقاع الحرب بتأنّيه فيه في حقّهما ، واستعطافه لهما في الرجوع إلى الحقّ و استتابته لهما من ذنبهما في نكث البيعة .

وقوله : فغمطا . إلى آخره .

بيان لجوابهم عن إعذاره إليهم وهو مقابلتهم نعمةالله : أي قسمهما من الفيء بالاحتقار لها والنظر عليها . إذكان أحدالأسباب الباعثة لهما على منافرته هوالتسوية بينهم وبين غيرهم في العطاء ، و كذلك مقابلتهم للسلامة والعافية من بلاء الحرب والشقاق وهلاك الدين والنفس في عاقبة فعلهما بردّهما لهما والإصرار على الحرب والمنابذة من غير نظر في عاقبة أمرها . و بالله التوفيق .

١٣٧ — ومن خطبة له عليه السلام
في ذكر الملاحم

يَعْطِفُ الْهَوَى عَلَى الْهُدَى إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى ، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ .

أقول : الإشارة في هذا الفصل إلى وصف الإمام المنتظر في آخر الزمان الموعود به في الخبر والأثر .

فقوله : يعطف الهوى على الهدى .

أى يردّ النفوس الحايرة عن سبيل الله المتّبعة لظلمات أهوائها عن طرقها الفاسدة و مذاهبها المختلفة إلى سلوك سبيله واتّباع أنوار هداه ، و ذلك إذا ارتدّت تلك النفوس عن اتّباع أنوار هدى الله في سبيله الواضح إلى اتّباع أهوائها في آخر الزمان ، وحين ضعفت الشريعة و زعمت أنّ الحقّ والهدى هو ذلك .

و كذلك قوله : ويعطف الرأى على القرآن إذاعطفوا القرآن على الرأى : أى يردّ على كلّ رأى رآه غيره إلى القرآن فيحملهم على ماوافقه منها دون ماخالفه ، وذلك إذا تأوّل الناس القرآن و حملوه على آرائهم و ردّوه إلى أهوائهم كما عليه أهل المذاهب المتفرّقة من فرق الإسلام كلّ على ماخيل إليه ، و كلّ يزعم أنّ الحقّ الّذى يشهد به القرآن هو مارآه و أنّه لاحقّ وراه سواه . وبالله التوفيق .

منها : حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ بَادِياً نَوَاجِذُهَا ، مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا ، حُلْواً رَضَاعُهَا ، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا . أَلَا وَفِى غَدٍ - وَسَيَأْتِى غَدٌ بِمَا لَاتَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ الْوَالِى مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِئ أَعْمَالِهَا ، وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ مِنْ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا ، وَتُلْقِى إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا ، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ ، وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .

أقول : أخلاف الناقة . حلمات ضرعها . وأفاليذ : جمع الجمع لفلذة ، و هى القطعة من الكبد و جمعها فلذ .

فقوله : حتّى تقوم الحرب بكم على ساق . إلى قوله : عاقبتها .

كأنّه غاية لتخاذلهم عن طاعته في أمر الحرب و لقاء العدوّ . كأنّه يقول : إنّكم لا تزالون متخاذلين متقاعدين حتّى يشتدّ العدوّ و يقوم بكم الحرب على ساق . و قيامها على الساق كناية عن بلوغها الغاية في الشدّة ، و بدوّ نواجدها

كناية عمّا يستلزمه من الشدّة والأذى ، و هو من أوصاف الأسد عند غضبه . لأنّه حاول أن يستعير لها لفظ الأسد فأتى بوصفه .

و قال بعض الشارحين : بدوّ النواجد في الضحك : أى تبلغ بكم الحرب الغاية كما أنّ غاية الضحك أن تبد والنواجد . فهي أقصى الأضراس . فكنّى بذلك عن إقبالها .

قلت : هذا و إن كان محتملاً إلّا أنّ الحرب مظنّة إقبال الغضب لاإقبال الضحك . فكان الأوّل أنسب .

و كذلك قوله : مملوّة أخلافها . استعارة لوصف الناقة لحال استعداد الحرب واستكمالها عدّتها و رجالها كاستكمال ضرع الناقة اللبن .

و قوله : حلواً رضاعها .

استعارة لوصف المرضع لها ، و كنّى بحلاوة رضاعها عن إقبال أهل النجدة في أوّل الحرب عليها . فكلّ منهم يحبّ أن يناجز قرنه ويستحلى مغالبته كما يستحلى الراضع لبن أُمّه ، و كذلك استعار لفظ العلقم لعاقبتها ، و وجه الاستعارة المشابهة بين المرارتين الحسّية و العقليّة ، والمنصوبات الأربعة : بادياً ، و مملوّة ، و حلواً ، وعلقما . أحوال . والمرفوعات بعد كلّ منها فاعله ، وإنّما ارتفع عاقبتها عن علقما مع أنّه اسم صريح لقيامه مقام اسم الفاعل كأنّه قال : مريرة عاقبتها .

و قوله : ألاوفي غدٍ . إخبار عن بعض الأُمور الّتي ستكون .

و قوله : وسيأتى غد بما لا تعرفون .

المراد به تعظيم شأن الموعود بمجيئه . و بيان لفضيلته عليه السلام بعلمما جهلوه . وهو جملة اعتراضيّة كقوله تعالى « فلا أُقسم بمواقع النجوم وإنّه لقسم لوتعلمون عظيم إنّه لقرآن كريم»(١) فقوله : وإنّه لقسم . اعتراض .

و قوله : يأخذ الوالى من غيرها عمّا لها .

يشبه أن يكون قد سبقه ذكر طائفة من الناس ذات ملك و إمرة فأخبر عليه السلام

(١) ٥٦ _ ٧٥ .

أنّ الوالى من غير تلك الطائفة ـ يؤمى به إلى الإمام المنتظر ـ يأخذ عمّالها على مساوى أعمالها : أى يؤاخذهم بذنوبهم .

و قوله : و تخرج الأرض أفاليذ كبدها .

استعار لفظ الكبد لما في الأرض من الكنوز والخزائن ، و وجهها مشابهة الكنوز للكبد في العزّة و الخفاء ، و رشّح بذكر الأفاليذ . و قد ورد ذلك في الخبر المرفوع ، و من لفظه : وقادت له الأرض أفلاذ كبدها . و فسّر بعضهم قوله تعالى « وأخرجت الأرض أثقالها» بذلك . فأمّا كيفيّة ذلك الإخراج :فقال بعض المحقّقين: هو إشارة إلى أنّ جميع ملوك الأرض تسلّم إليه مقاليد ممالكها طوعاً و كرهاً وتحمل إليه الكنوز والذخائر ، وأسند الإخراج إلى الأرض مجازاً لأنّ المخرج أهلها . و استبعد أن يكون الأرض بنفسها هي المخرجة لكنوزها . و لأهل الظاهر أن يقولوا إنّ المخرج يكون هو الله تعالى ، و يكون ذلك من معجزات الإمام ولا مانع .

و قوله : و تلقى إليه سلما مقاليدها .

أسند أيضاً لفظ الإلقاء إلى الأرض مجازاً لأنّ الملقى للمقاليد مسالماً هو أهل الأرض ، و كنّى بذلك عن طاعتهم وانقيادهم أجمعين لأوامره و تحت حكمه ، و سلماً مصدر سدّ مسدّ الحال . ثمّ أخبر أنّه سيريهم عدل سيرته ، و أنّه يحيى ميّت الكتاب والسنّة . و لفظ الميّت استعارة لما ترك منهما فانقطع أثره والانتفاع به كما ينقطع أثر الميّت .

فإن قلت : قوله : ويريكم .يدلّ على أنّ المخاطبين يدركون المخبر عنه ويرون عدله مع أنّكم قلتم أنّه يكون في آخر الزمان فكيف وجه ذلك .

قلت : خطاب الحاضرين من الأمّة كالعامّ لكلّ الأمّة ، و ذلك كسائر خطابات القرآن الكريم مع الموجودين في عصر الرسول صلّى الله عليه و آله فإنّه يتناول الموجودين إلى يوم القيامة ثمّ يخرج المخاطبون بدليل العادة. إذ من عادتهم أن لا تمتدّ أعمارهم إلى وقت ظهوره فبقى الموجودون في زمانه . وبالله التوفيق .

مِنْهـا: كَأَنِّى بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِى ضَوَاحِى كُوفَانَ، فَعَطَفَ إِلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ، قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ وَثَقُلَتْ فِى الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ، بَعِيدَ الْجَوْلَةِ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ. وَاللّٰهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِى أَطْرَافِ الْأَرْضِ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِى الْعَيْنِ؛ فَلَا تَزَالُونَ كَذٰلِكَ حَتَّى تَؤُوبَ إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا، فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ، وَالْآثَارَ الْبَيِّنَةَ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِى عَلَيْهِ بَاقِى النُّبُوَّةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّى لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ.

أقول: نعق الغراب و نعق الراعى بغنمه بالعين والغين: صاح. وفحص المطر التراب: قلّبه، والفحص: البحث. و كوفان: اسم للكوفة. و ضواحيها: نواحيها البارزة. والضروس: الناقة السيّئة الخلق تعضّ حالبها. وفغرت فاغرته: انفتح فوه. و أكّد الفعل بذكر الفاعل من لفظه. و يسنّى: يسهّل. والعقب بكسر القاف: مؤخّر القدم.

وقد أخبر في هذا الفصل أنّه سيظهر رجل بهذه الصفات. قال بعض الشارحين: هو عبدالملك بن مروان، وذلك لأنّه ظهر بالشام حين جعله أبوه الخليفة من بعده و سار لقتال مصعب بن الزبير إلى الكوفة بعد أن قتل مصعب المختار بن أبى عبيدة الثقفى فالتقوا بأرض مسكن - بكسر الكاف - من نواحي الكوفة. ثمّ قتل مصعباً ودخل الكوفة فبايعه أهلها و بعث الحجّاج بن يوسف إلى عبدالله بن الزبير بمكّة فقتله و هدم الكعبة، و ذلك سنة ثلاث وسبعين من الهجرة، وقتل خلقاً عظيماً من العرب في وقايع عبدالرحمن بن الأشعث، ورمى الناس بالحجّاج بن يوسف، و في الفصل لطايف:

الاُولى : أطلق لفظ النعيق لظهور أوامره و دعوته بالشام مجازاً ، و كذلك استعار لفظ الفحص لقلبه أهل الكوفة بعضهم على بعض و نقصه لحالاتهم الّتى كانوا عليها . ثمّ شبّه عطفه و حمله عليها بعطف الناقة الضروس ، ووجه التشبيه شدّة الغضب والحنق والأذى الحاصل منها .

الثانية : فرشه الأرض بالرءوس كناية عن كثرة قتلة فيها ، و ذلك ممّا يشهد به التواريخ . وفغر : فيه استعارة ببعض أوصاف السبع الضارى كنّى به عن شدّة إقدامه على القتل و إقباله على الناس بشدّة الغضب والأذى ، و كذلك ثقل و طأته في الأرض كناية عن شدّة بأسه و تمكّنه في الأرض .

الثالثة : بعد جولته كناية عن اتّساع ملكه و جولان خيله و رجله في البلاد البيعدة ، و بعيد وعظيم حالان ، و من روى بالرفع فهما خبرا مبتدء محذوف .

الرابعة : لمّا فرغ من صفاته العامّة بيّن لهم ما سيفعله معهم من التشريد والطرد في أطراف البلاد ، و أكّد ذلك بالقسم البارّ ، و ذلك إشارة إلى ما فعله عبدالملك و من ولى الأمر من ولده في باقى الصحابة و التابعين ، و أحوالهم معهم في الانتقاض والاحتقار والطرد والقتل ظاهرة ، و شبّه البقيّة منهم بالغبار الّذي يكون في العين من الكحل ، و وجه التشبيه الاشتراك في القلّة .

الخامسة : أخبر أنّهم لايزالون كذلك : أى بالحال الموصوفة مع عبدالملك و من بعده من أولاده حتّى تعود إلى العرب عوازب أحلامها : أى ما كان ذهب من عقولها العمليّة في نظام أحوالهم ، و العرب هم بنوالعبّاس و من معهم من العرب أيّام ظهور الدولة كقحطبة بن شبيب الطائىّ وابنيه حميد والحسن ، و كبنى زريق أبى طاهر بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم المصعبىّ ومن في عدادهم من خزاعة وغيرهم من العرب من شيعة بنى العبّاس . وقيل : إنّ أبامسلم أصله عربىّ . و كلّ هؤلاء كانوا مستضعفين مقهورين مقمورين في دولة بنى اُميّة لم ينهض منهم ناهض إلى أن أفاء الله تعالى عليهم ما كان عزب عنهم من حميّاتهم فغاروا للدين و للمسلمين من جور بنى مروان وأقاموا الأمر وأزالوا تلك الدولة .

فان قلت : إنّ قوله : تؤوب . يدلّ على أنّ انقطاع تلك الدولة بظهور العرب وعود عوازب أحلامها ، و عبدالملك مات و قامت بنوه بعده بالدولة ، ولم يزل الملك عنه بظهور العرب فأين فايدة الغاية ؟

قلت : إنّ تلك الغاية ليست غاية لدولة عبدالملك بل غاية من كونهم لايزالون مشرّدين في البلاد ، و ذلك الانقهار وإن كان أصله من عبدالملك إلّا أنّه استمرّ في زمن أولاده إلى حين انقضاء دولتهم فكانت غايته ما ذكر ، و قال بعض الشارحين في الجواب : إنّ ملك أولاده ملكه و ما زال الملك عن بني مروان حتّى آبت إلى العرب عوازب أحلامها . و هذا جواب من لم يتدبّر كلامه عليه السلام ، ولم يتتبّع ألفاظ الفصل حتّى يعلم أنّ هذه الغاية لأيّ شيء منه فيلحقها به . ثمّ أمرهم بلزوم سنن الله و رسوله القائمة فيهم من بعده وآثاره البيّنة فيهم وعهده القريب بينهم و بينه . ووجّه عليهم ذلك الأمر في الحال و عند نزول تلك الشدائد بهم : أى إذا نزل بكم منه ما وصف فلتكن وظيفتكم لزوم ما ذكرت . ثمّ نبّههم على ما في سهولة المعاصى وفي تسهيل نفوسهم الأمّارة بالسوء عليهم طرق المحارم من المحذور وهو أن تتقادلها النفوس العاقلة فتضلّها عن سبيل الله ويقودها الضلال إلى الهلاك الاُخروىّ . وبالله التوفيق .

١٣٨ — وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

فى وقت الشورى

لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ ، وَصِلَةِ رَحِمٍ ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ ، فَاسْمَعُوا قَوْلِي ، وَعُوا مَنْطِقِي ، عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ .

أقول : هذا من جملة كلام قاله عليه السلام لأهل الشورى ، وقد ذكر ناظر فأمن أخبارها .

فقوله : لن يسرع أحد . إلى قوله : وعائدة كرم .

تقرير لفضيلته ليسمع قوله ، ولذلك قال بعده : فاسمعوا قولي وعوا منطقي ، و ذكر فضائل ثلاثاً : الدعوة إلى الحقّ الّذي لن يسارعه أحدٌ إليها إلّا سرعه . وهى ثمرة العدالة ، وصلة الرحم ، وعائدة الكرم . وهما فضيلتان تحت ملكة العفّة . والّذى أمرهم بسماعه هو التنبيه على عاقبة أمر الخلافة ، وما يقع فيها من الهرج والمرج بعدهم بناء على ما حضر من الخبط والاختلاط فيها فكأنّه يقول : إذا كان حال هذا الأمر هذه الحال من الخبط ومجاذبة من لا يستحقّه [لمن يستحقّه خ] والتغلّب فيه على أهله فعسى أن ترونه بعد هذا اليوم بحال يختصم الناس فيه بالسيوف و تخان فيه العهود ، وهو إشارة إلى ما علمه من حال البغاة والخوارج عليه والناكثين لعهد بيعته.

فقوله : حتّى يكون بعضهم أئمّة لأهل الضلالة و شيعة لأهل الجهالة . غاية للتغالب على هذا الأمر ، و أشار بالأئمّة إلى طلحة والزبير ، و بأهل الضلالة إلى أتباعهم ، وبأهل الجهالة إلى معاوية ورؤساء الخوارج وسائر اُمراء بنى اُميّة ، وبشيعة أهل الجهالة إلى أتباعهم . و بالله التوفيق .

١٣٩ — وَمِن كَلامٍ لَهُ عَلَيهِ السَّلامُ

فى النهى عن غيبة الناس

وَإِنَّمَا يَنْبَغِى لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ ، وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِى السَّلَامَةِ ، أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ فَكَيْفَ بِالْغَائِبِ الَّذِى غَابَ أَخَاهُ ، وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ ؟ ! أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِى غَابَهُ بِهِ !! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى

اللهَ فِيمَا سِوَاهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَأيْمُ اللهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِى الْكَبِيرِ وَعَصَاهُ فِى الصَّغِيرِ لَجَرَاءَتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ.

يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَعْجَلْ فِى عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ، فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ؛ وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ.

أقول : أهل العصمة هم الّذين أعانهم الله سبحانه على قهر نفوسهم الأمّارة بالسوء حتّى صارت أسيرة في أيدى نفوسهم العاقلة فحصلوا من ذلك على ملكة ترك الذنوب والانزجار عن ولوج أبواب المحارم ، و اُولئك هم الّذين اصطنع الله إليهم السلامة من الانحراف عن سبيله والوقوع في مهاوى الهلاك . فنبّههم أوّلاً على ما ينبغى لهم وهو أن يرحموا أهل الذنوب . وحصول تلك الرحمة منهم باعتبارهم حال العصاة ووقوعهم في مهاوى الهلاك . و من عادة عباد الله الرحمة لمن يرونه في مهلكة با نقاذه و إعانته على الخروج منها ، و أن يكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم ، و ذلك باعتبارهم عند مشاهدة أهل المعاصى لما أنعم الله به عليهم من إعانته لهم على قهر شياطينهم الّتى هى موادّ الذنوب .

و قوله : فكيف بالغايب .

شروع في تنبيه من هو دون أهل العصمة ممّن يرتكب كبيرة أو صغيرة على ما ينبغى له من ترك الغيبة فكأنّه قال : فهذا هو ما ينبغى لأهل العصمة فكيف يليق بغيرهم ممّن يعيب أخاه و يعيّره ببلواه بل ينبغى لمثله أن يترك الغيبة و يشكر الله بالطريق الأولى . و ذلك باعتبار ستر الله عليه من ذنوبه ما هو أعظم ممّا عيّر أخاه به . و تلك نعمة الله يجب شكره عليها ، و أشار بموضع ستر الله عليه إلى النعمة المصطنعة

عنده و هى تأهيله و إعداده له ، والاستفهام على سبيل الإنكار أخذ بالتعجّب من ذمّ العائب لأخيه على ذنب . و هو في صورة احتجاج عليه في ارتكابه لهذا الذنب ، وذلك قوله : و كيف يذمّه . إلى قوله : يا عبدالله. فكأنّه يقول : لا يجوز لأحد أن يعيب أخاه لأنّه إمّا أن يكون بذنب قد ركب العائب مثله أوأكبرمنه أوأصغر . فإن كان بذنب قد ركب مثله أو أكبر كان له في عيبه لنفسه شغل عن عيب غيره ، و إن كان ارتكب أصغر منه فهو ممنوع على تقدير جرأته على الغيبة و صدوره عنه لأنّها من الكباير ، و إنّما قال : هي أكبر ما عندالله. إمّا مبالغة أو لأنّ المفاسد الّتى يشتمل عليها ارتكاب ساير المنهيّات جزئيّة و مفسدة الغيبة كلّيّة لأنّه لمّا كان من المقاصد المهمّة للشارع اجتماع النفوس على همّ واحد و طريقة واحدة و هى سلوك سبيل الله بساير وجوه الأوامر والنواهي و لن يتمّ ذلك إلّا بتعاون هممهم وتصافي بواطنهم و اجتماعهم على الاُلفة والمحبّة حتّى يكونوا بمنزلة عبد واحد في طاعة مولاه ، و لن يتمّ ذلك إلّا بنفى الضغاين والأحقاد والحسد و نحوه، وكانت الغيبة من كلّ منهم لأخيه مشيرة لضغنه و مستدعية منه مثلها في حقّه لا جرم كانت ضدّ المقصود الكلّيّ للشارع فكانت مفسدة كلّيّة ، ولذلك أكثرالله تعالى و رسوله من النهى عنها كقوله تعالى « ولا يغتب بعضكم بعضاً » (١) حتّى استعار لما يقترضه الغائب من عرض أخيه لفظ اللحم و زاده تقبيحاً وتكريهاً بصفة الميّت فقال «أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : إيّاكم والغيبة فإنّ الغيبة أشدّ من الزنا إنّ الرجل يزنى فيتوب الله عليه و إنّ صاحب الغيبة لا يغفر له حتّى يغفر له صاحبه ، وعنه صلّى الله عليه وآله وسلّم مررت ليلة اُسرى بى فرأيت قوماً يخمشون وجوههم بأظافيرهم فسألت جبرئيل عنهم . فقال : هؤلاء الّذين يغتابون الناس ، و في حديث البراء بن عاذب : خطبنا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى أسمع العواتق في بيوتهنّ . فقال : ألا لا تغتابوا المسلمين ولا تتّبعوا عوراتهم فمن تتبّع عورة أخيه تتبّع الله عورته و من تتبّع الله عورته يفضحه في جوف بيته . ثمّ نهى عن الاستعجال والتسرّع إلى العيب ، ونبّه على

(١) ٤٩ ـ ١٢ .

وجوب ذلك الاحتمال [الانتهاء ـ خ ـ] باحتمال أن يكون الذنب الّذي يعيب أخاه به مغفوراً له وإن كان كبيراً ، وذلك لاحتمال أن يكون حالة لم تتمكّن من جوهر نفسه، ونهى عن أن يأمن على نفسه صغير معصية يرتكبها الاحتمال أن يعذّب عليها لصيرورتها ملكة متمكّنة من جوهر نفسه . ثمّ عاد إلى الأمر بالكفّ عن العيب باعتبار ما يعلم الإنسان من عيب نفسه ، وأن يكون الشكر لله دأبه على السلامة من التورّط في مورد الهلكة الّذي سلكه صاحب الذنب وابتلاه الله به .

واعلم أن تعريف الغيبة يعود إلى ذكر الإنسان بما يكره نسبته إليه ممّا يعدّ نقصاناً في العرف ذكراً على سبيل قصد الانتقاص والذمّ سواء كان ذلك النقصان عدم كمال بدنيّ كالعور والعمى، أو نفسانيّ كالجهل والشره والظلم ، أو عدم كمال من خارج كسقوط الأصل و دناءة الآباء . واحترزنا بالقيد الأخير في تعريفها وهو قصد الانتقاص عن ذكر العيب للطبيب مثلاً أو لاستدعاء الرحمة من السلطان في حقّ الزمن والأعمى بذكر نقصانهما . ثمّ الغيبة قد تكون باللسان وهي الحقيقيّة ، وقد تكون بالإشارة وغيرها من ساير ما يعلم به انتقاص أخيك والتنبيه على عيبه ، و تسمّى غيبة مجازاً لقيامها مقام الغيبة . ولها أسباب غائيّة :

أحدها : شفاء الغيظ. فإنّ الإنسان كثيراً ما يشفي غيظه بذكر مساوي من غاظه .

الثاني : المباهاة والتفاضل كما يقول من يتعاطى الإنشاء والشعر: كلام فلان ركيك و شعره بارد .

الثالث : اللعب والهزل وترجية الوقت فيذكر غيره بما يضحك الحاضرين .

الرابع : أن يستشعر من غيره أنّه سيذمّه عند السلطان مثلاً فيقصد سبقه بذكر مساويه ليسقط شهادته عنده عليه ، وقد تكون لها غايات اُخر .

و قد وردت الرخصة في غيبة الفاسق المتجاهر بفسقه كالخمّار والمخنّث والعشّار الّذي ربّما يفتخر بعيبه ولا يستحيي منه . قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له . لكن تركها إلى السكوت أولى . وبالله التوفيق .

١٤٠ – وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ ، وَسَدَادَ طَرِيقٍ ؛ فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ ، أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي وَتُخْطِئُ السِّهَامُ ، وَيَحِيلُ الْكَلَامُ وَبَاطِلُ ذٰلِكَ يَبُورُ ، وَاللهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ . أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْبَاطِلِ وَالْحَقِّ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ .

قال الشريف : فسئل عليه السلام عن معنى قوله هذا ، فجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه ، ثم قال : الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ .

أقول : أحاك الكلام يحيك: إذاعمل وأثّر وكذلك حاك ، وروى: يحيل: أى يبطل ولايصيب .

وهذا الفصل نهى عن التسرّع إلى التصديق بما يقال في حقّ مستور الظاهر المشهور بالصلاح والتديّن من العيب والقدح في دينه ، و هو نهى عن سماع الغيبة بعد نهيه عنها نفسها ، و إليها الاشارة بقوله تعالى « يا أيّها الّذين آمنوا إن جائكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (١) . ثمّ نبّه على جواز الخطأ على المتسرّعين إلى الغيبة بالمثل . فقال : أما إنّه قد يرمى الرامى و تخطىء السهام . و وجه مطابقة هذا المثل أنّ الّذي يرمى بعيب قد يكون بريئا منه فيكون الكلام في حقّه غير مطابق ولا صائب كما لا يصيب السهم الّذي يرمى به فيخطىء الغرض . وعلى الرواية بالكاف ، و يحيك الكلام : أى أنّ السهم قد يخطىء فلا يؤثّر ، والكلام يؤثّر على كلّ حال ، وإن لم يكن حقّاً فانّه يسوّد العرض و يلوّثه في نظر من لا يعرفه .

(١) ٤٩ – ٦ .

وقوله : وباطل ذلك يبور والله سميع و شهيد .

يجرى مجرى التهديد و تحقير ثمرة ذلك القول الكاذب الّذي لايبقى من مال أو جاه أو نحوهما بالنسبة إلى عظم عقوبة الله و غضبه الباقى فإنّ سمعه و شهادته مستلزمان لغضبه المستلزم لعقوبته .

و قوله : أما إنّه ليس بين الحقّ والباطل إلّا مقدار أربع أصابع .

فتفسيره الفعل المذكور، وتفسير ذلك الفعل هو قوله : الباطل أن تقول: سمعت، والحقّ أن تقول: رأيت . ثمّ هيهنا لطيفتان :

فالاُولى : أنّ قوله : الباطل أن تقول سمعت. لايستلزم الكلّيّة حتّى يكون كلّ ما سمعه باطلاً فإنّ الباطل والمسموع مهملان .

الثانية : أنّ الحقّ ليس هو قوله : رأيت. بل المرئىّ له ، والباطل هو قوله . سمعت. بل القول المسموع له ،وإنّما قوله : رأيت وسمعت. إخبار عن وصول المرئىّ والمسموع إلى بصره وسمعه فأقام هذين الخبرين مقام المخبر عنهما مجازاً . وبالله التوفيق.

١٤١ ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

وَلَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ ، مِنَ الْحَظِّ إِلَّا مَحْمَدَةُ اللِّئَامِ ، وَثَنَاءُ الْأَشْرَارِ ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ ـ مَادَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ ـ «مَاأَجْوَدَ يَدَهُ» وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللهِ بَخِيلٌ !! فَمَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِيَ وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ ؛ فَإِنَّ فَوْزاً بِهٰذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا ، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ .

أقول : لمّا كان لواضع المعروف سواء كان في أهله أو غير أهله ثناء من الناس

ومدحه بالكرم والبذل كان ممّا يتميّز به وضعه في غير أهله عن وضعه في أهله أنّ الأوّل إنّما يحصل به لواضعه الحمد من لئام الناس : أى ساقطى الأصول والسفهاء والأشرار والجهّال لعدم معرفتهم بوضع الأشياء في مواضعها الّتي هي مقتضى العقل الّذي به نظام أمور الدنيا و قوام نوع الإنسان في الوجود مع أنّه في الحقيقة وعند اُولى الألباب العارفين بمواقع المعروف بخيل في جنب الله تعالى ، وأمّا الثاني: فتحصل له المحمدة من الكلّ في الدنيا محمدةً مطابقةً للحقّ مع الثواب الجزيل في الأخرى فلاجرم أشار إلى الأوّل بقوله : فليس لواضع المعروف . إلى قوله : وهو عند الله بخيل .

و قوله : ما أجوديده .

متعلّق بمقالة : أى ذلك هو الأمر الّذي يقولونه مادام منعماً عليهم ، وإنّما قيّد بهذا القيد لأنّ الجاهل قد يعتقد أنّ ما يسدى إليه حقّ له فربّما دام حمده بدوام ذلك الإنعام لكن ينقطع بانقطاعه ، و أمّا الجاهل الشرير فكثيراً ما يعتقد أنّه إنّما يسدى إليه لشرّه وخوف أذاه فربّما يشكر المنعم مادام منعماً حتّى إذا انقطع إنعامه جعل شرّه عوض شكره استجلاباً لذلك الإنعام المنقطع و استعادة له ، و أمّا الثاني : فنبّه أوّلا على مواضع المعروف وأمر بوضعه فيها ، وذكر منها خمسة :

الأوّل : صلة الرحم .

الثاني : حسن الضيافة .

الثالث : فكّ الأسير و العانى . وإنّما اختلف اللفظ .

والرابع : إعطاء الفقير والغارم وهو من عليه دين .

الخامس : الحقوق الواجبة على أهلها كالزكاة ، والمستحبّة كالصدقات .

وأشار بالنوائب إلى ما يلحق الإنسان من المصادرات والغرامات الّتي يفكّ بها الإنسان من أيدى الظالمين وألسنتهم ، والإنفاق في ذلك من الحقوق الواجبة على الإنسان. والفضايل الخمس داخلة تحت فضيلة الكرم ، والإشارة إلى ذلك بقوله : فمن آتاه الله. إلى قوله : ابتغاء الثواب . و نبّه بهذه الغاية أعنى المفعول له على أنّ الإنفاق في هذه الوجوه إنّما يكون وضعاً للمعروف في موضعه إذا قصد به وجه الله تعالى فأمّا إذا

قصد به الرياء والسمعة فهو و إن عدّ في ظاهر الشريعة مجزياً إلّا أنّه غير مجز ولامقبول في باطنها. ثمّ أشار بقوله: فإنّ فوزاً بهذه الخصال. إلى آخره إلى مايتميّز به وضع المعروف في أهله و هو شرف مكارم الدنيا من الذكر الجميل بين الناس، والجاه العريض، ودرك فضايل الآخرة وهي درجات الثواب الجزيل الموعود لأُولى الفضايل النفسانيّة. و إنّما نكّر الفوز لأنّ تنكيره يفيدنوع الفوز فقط الّذي يحصل بأيّ شخص كان من أشخاصه، وهذا و إن كان حاصلاً مع الالف واللام لتعريف تلك الطبيعة إلّا أنّ ذلك التعريف مشترك بين تعريف الطبيعة والمعهود الشخصيّ فكان موهما لفوز شخصيّ و لذلك كان الإتيان به منكّراً أفصح و أبلغ. وبالله التوفيق.

١٤٢ - وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

في الاستسقاء

أَلَا وَإِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تَحْمِلُكُمْ، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظِلُّكُمْ، مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ، وَمَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلَا لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلٰكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا، وَأُقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَأَقَامَتَا.

إِنَّ اللهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ - عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ - بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلِعَ مُقْلِعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ! وَقَدْ جَعَلَ اللهُ الْاِسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ، فَقَالَ: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً؛ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً، وَيُمْدِدْكُمْ

بِأَموالٍ وبَنِينَ) فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً اسْتَقْبَلَ تَوبَتَهُ ، وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ ، وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ .

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الأَسْتَارِ وَالأَكْنَانِ ، وَبَعْدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ . وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ .

اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ ، وَلَا تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ ، نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ ، حِينَ أَلْجَأَتْنَا الْمَضَايِقُ الْوَعْرَةُ ، وَأَجَاءَتْنَا الْمَقَاحِطُ الْمُجْدِبَةُ ، وَأَعْيَتْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ ، وَتَلَاحَمَتْ عَلَيْنَا الْفِتَنُ الْمُسْتَصْعَبَةُ .

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ لَا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ ، وَلَا تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ ، وَلَا تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا ، وَلَا تُقَايِسَنَا بِأَعْمَالِنَا .

اللَّهُمَّ انْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ ، وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ ، وَاسْقِنَا سُقْيَا نَافِعَةً مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً : تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ ، نَافِعَةَ الْحَيَا كَثِيرَةَ الْمُجْتَنَى ، تُرْوِي بِهَا الْقِيعَانَ ، وَتُسِيلُ الْبُطْنَانَ ، وَتَسْتَوْرِقُ الأَشْجَارَ ، وَتُرْخِصُ الأَسْعَارَ ؛ إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ .

أقول : أقلع عن خطيئته : إذا رجع عنها و تاب . والمثاور : المواثب . والزلفة : القربى والمنزلة . والواجم : الّذي اشتدّ حزنه حتّى سكت من الكلام. والنافعة : المروية . والقيعان : جمع قاع : وهوالمستوىمن الأرض . والبطنان: جمع البطن: وهو ماانخفض من الأرض .

واعلم أنّا بيّنا فيما سبق أنّ الجود الإلهيّ لا بخل فيه ولا منع من جهته ، و إنّما يكون منع الكمالات في هذه الحياة بعدم الاستعدادات لها فكلّ مستعدّ لأمر ملاق له وفايض عليه . إذا عرفت ذلك فاعلم أنّه عليه السلام صدّر هذا الفصل بتنبيه العباد على وجوب الاستعداد لرحمة الله الّتي ارتفعت عنهم بحبس المطر ، و ذلك في قوله : ألا و إنّ الأرض . إلى قوله : و بادر منيّته . فنبّههم أوّلا في ذلك الصدر على أنّ الأرض الّتي هي كالأمّ للنبات والزرع ، والسماء الّتي هي كالأب مطيعتان لربّهم ، و أشار بالسماء إلى السحاب أو إلى السماوات لكونها بحركاتها أسباباً معدّة لكلّ ما في هذا العالم من الحوادث ، و أشار بطاعتهما إلى دخولهما تحت حكم القدرة الإلهيّة ، و أشار بقوله : وما أصبحنا . إلى قوله : ترجوأنّه منكم. إلى لطيفة: وهي أنّ الحوادث الحادثة في هذا العالم من العاليات ليست مقصودة بالذات لها فيكون ذلك منها لأجل توجّع للناس أو لأجل قرابة و منزلة بينهم وبينها، ولا لخير ترجوأنّه منهم كما هو المتعارف من منافع الناس بعضهم لبعض لأنّ السماوات والأرض غنيّة عنها لكن لمّا كانت السماوات متحرّكه دائماً طلباً لكمالاتها اللائقة بها من واهبها - جلّ وعلا - و مسخّرة بأمره عرض عن هذه الحركات و الاتّصالات إعداد الأرض لقبول النبات والزرع و وجود الحيوانات الّتي هي أرزاق لها وبها قوام وجودها فكانت مصالح هذه الحيوانات إذن منوطة بتلك الحركات و جارية على وفقها بإذن المدبّر العزيز الحكيم سبحانه ، و إلى ذلك أشار بقوله : و لكن . إلى قوله : فأقامتا ، وغرضه ممّا سبق إلى هيهنا أن يقرّر في النفوس عظمة الله سبحانه و أنّ الأرزاق و أسبابها منسوبة إليه و منه حتّى تتوجّه النفوس إليه بالإقلاع عن الذنوب الّتي هي حجب لها عن إفاضة الرحمة عليها منه . ثمّ بيّن بعده أنّ الله سبحانه إنّما

يفعل ما يفعل من نقص الثمرات و حبس البركات و إغلاق خزائن الخيرات عن الخلق عندأعمالهم السيّئة ابتلاءً لهم كقوله تعالى « ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع و نقص من الأموال و الأنفس والثمرات و بشّر الصابرين » (١) و قد علمت معنى ابتلائه لهم . ثمّ بيّن أنّ غاية العناية الإلهيّة من ذلك الابتلاء رفع حجب النفوس الّتي هي الذنوب والمعاصي واستعدادها بذلك لقبول رحمة الله بالتوبة والإقلاع منها والازدجار عنها والتذكّر للمبدء الأوّل - جلّت عظمته - وما أعدّ لأوليائه الأبرار في دار القرار ولأعدائه الأشرار في دار البوار . ثمّ بيّن لهم أنّ الله سبحانه جعل الاستغفار سبباً لدرور الرزق والرحمة ، و لمّا كان الاستغفار هو طلب غفر الذنوب وسترها على العبد أن يفتضح بها و ذلك إنّما يكون بمحوها من لوح نفسه لاجرم كان المستغفر المخلص ماحياً لخطيئته باستغفاره عن لوح نفسه وبذلك يكمل استعداده لإفاضة رحمة الله عليه في الدنيا بإنزال البركات و في الآخرة برفع الدرجات ، وإلى ذلك الإشارة بالشاهد العدل قوله تعالى « فقلت استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدرارا » (٢) الآيات ، و قوله تعالى « ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (٣) الآية ، وقوله « ولو أنّهم أقاموا التوراة والإنجيل وما اُنزل إليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » (٤) وقوله : « و أن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقا » (٥) ثمّ دعا لمن استقبل توبته و شرع في الاستعداد بها ، و لمن استقال خطيئته : أي طلب الإقالة من الإلزام بعاقبتها و ثمرتها و هو العقاب عليها والمؤاخذة بها، ولمن واثب منيّته و عاجلها قبل إدراكها له بالتوبة . كلّ ذلك تنبيه على الاستعداد و طلب له منهم . إذكان لايتمّ المطلوب بدونه ، ولفظ الإقالة استعارة، و وجهها أنّ المخطيء كالمعاهد والملتزم لعقاب اُخروىّ بلذّة عاجلة لما علم استلزام تلك اللذّة المنهيّ عنها للعقاب فهو يطلب للإقالة من هذه المعاهدة [المعاصي - خ -] كما يطلب المشترى الإقالة من البيع .

---

(١) ٢ - ١٥١ . (٢) ٧١ - ٩ . (٣) ٧ - ٩٤ .
(٤) ٥ - ٧١ . (٥) ٧٢ - ١٦ .

و قوله : اللّهم . إلى آخره .

لمّا قدّم الأمر بالاستعداد لرحمة الله رجع إليه في استنزالها عليهم فقدّم في الدعاء ما عادته أن يقدّم بين يدى الملوك من الكلام المرفق للطباع والموجب للعفو والرحمة . فذكر الخروج من تحت الأستار والأكنان الّتي ليس من شأنها أن يفارق إلّا لضرورة شديدة ، و كذلك عجيج البهائم والولدان وأصواتها المرتفعة بالبكاء ، و ذكر الغاية من ذلك و هي الرغبة في رحمته و الرجاء لفضل نعمته والخوف من عذابه ونقمته. و هذه جهات المساعى البشريّة . ثمّ سأل بعد ذلك المطالب: وهي السقيا وعدم الهلاك بالجدب، وأن لا يؤاخذهم بأفعال السفهاء من المعاصى المبعّدة عن رحمته كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام « أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا » (١) ثمّ عاد إلى تكرير شكوى الجدب بذكر أسبابها الحاملة عليها ليكون أقوم للعذر . والمقاحط : أما كن القحط أو سني القحط ، و ظاهر كون الجوع والعرى وساير المسبّبات عن القحط فتنة: أى صارفة للقلوب عمّا يراد بها . ثمّ عاد إلى طلب إجابة دعائه .

و قوله : ولا تخاطبنا بذنوبنا : أى لا تجعل جوابنا الاحتجاج علينا بذنوبنا ، و لا تقايسنا بأعمالنا : أى لا تجعل فعلك بنا مقايساً لأعمالنا السيّئة ومشابها لها وسيّئة مثلها . ثمّ عاد إلى طلب أنواع ما يطلب منه سبحانه بأتمّ ما ينبغى على الوجه الّذي ينبغى . إلى آخره . وهو ظاهر . و بالله التوفيق .

١٤٣ - ومن خطبة له عليه السلام

بَعَثَ اللهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ ؛ لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ . أَلَا إِنَّ اللهَ قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً ، لَا أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ ؛ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ؛ فَيَكُونَ

(١) ٧ - ١٠٤

الثَّوَابُ جَزَاءً ، وَالْعِقَابُ بَوَاءً ، أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا ؟ كَذِبًا وَبَغْيًا عَلَيْنَا أَنْ رَفَعَنَا اللّٰهُ وَوَضَعَهُمْ ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ ، بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى ، وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى ، إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هٰذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ : لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ .

أقول : هذا الفصل منافرة بينه و بين جمع من الصحابة الّذي كانوا ينازعونه الفضل . والبواء : الكفو .

فقوله : بعث رسله . إلى قوله : سبيل الحقّ .

كقوله تعالى « رسلاً مبشّرين و منذرين لئلّا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل » (١) ولسان الصدق هو لسان الشريعة الناطقة عن مصباح النبوّة المشتعل عن نور الحقّ سبحانه ، و سبيل الحقّ هو الطريق الموصلة إليه تعالى الّتي تطابقت على الهداية إليها ألسنة الرسل والأولياء . وصدّر الفصل بذلك لاشتماله على فضيلة الأنبياء ليبنى عليه فضيلة نبيّه .

وقوله : ألا إنّ الله . إلى قوله : بواءً .

كلام يجري مجرى التهديد لمن نافره باطّلاع الله على أسرارهم ، وأنّ ما كلّفهم به إنّما هو ابتلاء منه لهم أيّهم أحسن عملاً ، و قد عرفت معنى ابتلاء الله لخلقه مراراً ، و أراد بالكشفة الاختبار والابتلاء أيضاً . ثمّ عقّب ذلك بالاستفهام عن الّذين زعموا أنّهم أفضل منه ، و ذلك أنّ قوماً من الصحابة كان منهم من يدّعى الأفضليّة في فنّ من العلم . فمنهم من كان يدّعى أنّه أفرض ، و منهم من كان يدّعى أنّه أقرء ، و منهم من كان يدّعى أنّه أعلم بالحلال والحرام . و رووا أفرضكم زيد بن ثابت

(١) ٢ — ١٧٩ .

و أقرئكم اُبيّ ، و رووا معذلك أقضاكم عليّ . و ذلك الاستفهام على سبيل الإنكار عليهم ولذلك أردفه بالتكذيب لهم فيما ادّعوه من الأفضليّة . ثمّ إن كان ما رووه حقّاً مع أنّ القضاء يحتاج إلى جميع ما ادّعوه فضيلة لهم ثبت أنّه عليه السلام أفضلهم لاستجماعه ماتفرّق فيهم من الفضايل فيهم، وإن لم يكن حقّاً مع أنّ أنوار فضايله مستطيرة في آفاق الصدور فقد ظهر فضله عليهم ، و ذلك وجه التكذيب لهم . ثمّ أشار إلى العلّة الحاملة لهم على الكذب فيما ادّعوه ، و هو قوله : أن رفعنا الله : أي رفع درجاتنا في الدنيا والآخرة على الكافّة ووضعهم دوننا ، وأن و ما بعدها نصب على المفعول له، وأعطانا : أي الملك والنبوّة وحرّمهم ذلك ، و كذلك أدخلنا بعنايته الخاصّة بنا فيما أعطانا و أخرجهم من ذلك .

قوله : بنا يستطعى الهدى ، و يستجلى العمى .

فاستعار لفظ العمى للجهل ، و رشّح بذكر الاستجلاء ، و لمّا كانوا عليهم السلام المعدّين لأذهان الخلق لقبول أنوار الله والمرشدين لنفوسهم إلى سبيل الله لاجرم كان بهم يستعطى الهدى من الله . إذ بواسطة استعدادهم يفاض على النفوس هداها ، و بواسطة إعطائهم القوانين الشرعيّة الكلّيّة والجزئيّة يستجلى الجهل من واهب ذلك الجلاء . و هو كناية عن الاستعداد أيضاً .

و قوله : إنّ الأئمّة من قريش . إلى آخره .

لفظ النصّ المشهور عن الرسول صلّى الله عليه وآله الأئمّة من قريش و تخصيصه ذلك بهذا البطن من هاشم : أمّا على مذهب الشيعة فهو نصّ يجب اتّباعه كما يجب اتّباع نصّ الرسول صلّى الله عليه وآله لاعتقادهم عصمته ، وأمّا على مذهب الباقين من المسلمين فواجب الاتّباع أيضاً لقوله عليه الصلاة والسلام : إنّه لمع الحقّ وأنّ الحقّ معه يدور حيث دار . و مراده بذلك البطن : أمّا على مذهب الإثنى عشريّة فنفسه مع الأحد عشر من ولده بنصّ كلّ منهم على من بعدهم من كونهم معصومين ، و أمّا على مذهب الباقين من الإماميّة فكلّ منهم يحمل هذا الكلام على من اعتقد إمامته . لايصلح على سواهم : أي لايكون لها صلاح على يد غيرهم، ولايصلح الولاة غيرهم .

منها : آثَرُوا عَاجِلاً ، وَأَخَّرُوا آجِلاً ؛ وَتَرَكُوا صَافِياً ، وَشَرِبُوا آجِناً كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَى فَاسِقِهِم وَقَدْ صَحِبَ الْمُنكَرَ فَأَلِفَهُ وَبَسِئَ بِهِ وَوَافَقَهُ ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ ! ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً كَالتَّيَّارِ لَا يُبَالِي مَا غَرَّقَ ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ لَا يَحْفِلُ مَا حَرَّقَ !! أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى ؟ وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ إِلَى مَنَارِ التَّقْوَى ؟ أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وُهِبَتْ لِلَّهِ وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ؟ ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ ، وَتَشَاحُّوا عَلَى الْحَرَامِ ، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَوَلَّوْا ، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا .

أقول : بسىء به : آلفه واستانس به.

واعلم أنّ ضمير الجمع في آثروا و أخّروا و ما بعدهما ضمائر مهملة يصدق إطلاقها على الجماعة وإن كان المعنىّ بها بعضهم، وهذا الكلام يصدق على من تخلّف من الناس إلى زمانه ممّن هو غير مرضىّ الطريقة وإن كان معدوداً من الصحابة بالظاهر كالمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ومروان بن الحكم ومعاوية و نحوهم من اُمراء بني اُميّة ممّن آثر عاجل الدنيا و ثاور إليه وأخّر آجل ثواب الاُخرى فنبذه وراء ظهره و ترك ما وعد به من تلك اللذّات الصافية عن كدورات الدنيا والعلايق البدنيّة إلى اللذّات الوهميّة الآجنة بشوب الأعراض والأمراض والتغيّر والزوال ، واستعار لفظ الآجن للذّات الدنيا ملاحظة لتشبيهها بالماء الّذى لا يسوغ شربه لتغيّر طعمه ، ورشّح بذكر الشوب .

و قوله : كأنّى أنظر إلى فاسقهم .

يحتمل أن يريد فاسقاً معيّناً كعبد الملك بن مروان و يكون الضمير عائداً

إلى بني اُميـّة و من تابعهم ، و يحتمل أن يريد مطلق الفاسق : أى من يفسق من هؤلاء فيما بعده و يكون بالصفات الّتي ذكرها من صحبة المنكر واُلفة له وموافقته لطبعه إلى غاية عمره ، و كنّى عن تلك الغاية بشيب المفارق. و صبغت به خلائقه : أى صار المنكر ملكة له و خلقا ، واستعار لفظ الازدياد تشبيهاً له بالبحر الطامى ، و وجه التشبيه كونه عند غضبه لا يحفل بما يفعله في الناس من المنكرات كمالاحفلة للبحر بمن غرق فيه ، و كذلك شبّه حركته في المنكرات والظلامات بوقع النار في الحطب ، و وجه الشبـه كونه لايبالى بتلك الحركات كما لايبالى النار بما أحرقت. ثمّ أخذ يسئل عن العقول المستكملة بأنوار الله ، و استعار لفظ مصابيح الهدى : إمّا لأئمّة الدين أو لقوانينه الكلّيـّة . والاستصباح بها : الاقتداء بها .و الأبصار اللامحة إلى منار التقوى: أى الناظرة إلى أعلام التقوى، واستعارة لفظ المنار كاستعارة لفظ المصابيح. ثمّ عن القلوب الّتي وهبها لله أهلها : أى جعلوا هممهم مطالعة أنوار كبرياءه والتوجّه إلى كعبة وجوب وجوده. وعوقدت على طاعة الله : أى اُخذ خلفاء الله عليهم العهد بطاعته والمواظبة عليها . ثمّ عاد إلى ذمّ السابقين و توبيخهم بازدحامهم على حطام الدنيا ، واستعار لفظ الحطام لمقتنيات الدنيا ، ووجه الاستعارة سرعة فنائها و فسادها كما يسرع فساد النبت اليابس وتكسيره، وبتشاحّهم على الحرام : أى كلّ واحد يشاحّ صاحبه على الحرام و يبخل به عليه ، و أشار بعلم الجنّة إلى قانون الشريعة القايد إلى الجنّة و بعلم النار إلى الوساوس المزيّنة لقينات الدنيا . والعلم الأوّل بيد الدعاة إلى الله وهم الرسول صلّى الله عليه وآله و من بعده من أولياء الله من أهل بيته والتابعين لهم باحسان ، والعلم الثانى بيد إبليس و جنوده من شياطين الجنّ والانس الداعين إلى النار . ثمّ ذمّهم بصرفهم وجوههم عن الجنّة وإقبالهم بأعمالهم على النار حين رفع العلمين من قبل الدعاة : وإنّما قال : وأقبلوا بأعمالهم. ولم يقل بوجوههم. كما قال: فصرفوا وجوههم. لأنّ إقبالهم بوجوه نفوسهم على لذّات الدنيا و اقتنائها يستلزم صرفها عن الأعمال الموصلة إلى الجنّة و ذلك يستلزم إعراضها عن الجنّة . ثمّ لمّا كانت الغاية الّتي يطلبها الانسان من الدنيا هو الحصول على لذّاتها وكانت النار لازمة

للأعمال الموصلة إلى تلك الغاية لزوماً عرضياً لم تكن النار غاية ذاتيّة قد أقبلوا بوجوههم عليها بل كان إقبالهم عليها بأعمالهم . إذ كانت هي المستلزمة لها . ثمّ أخبر في معرض الذمّ لهم عن مقابلتهم لدعاء ربّهم لهم بالنفارعنه ، و لدعاء الشيطان لهم باستجابتهم لدعوته و إقبالهم إليه. و في قوله :ودعاهم . إلى آخره تنبيه أنّ الرافع لعلم الجنّة هوالله بأيدى خلفائه ، والرافع لعلم النار هو الشيطان بأيدى أوليائه .
و بالله التوفيق .

١٤٤ — و من خطبة له عليه السلام

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا ، مَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ ؛ وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ لَا تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى ، وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ ، وَلَا تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أُكْلِهِ إِلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ ، وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ ، وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ ، وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ . وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا ، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ ؟!!

أقول : الغرض : الهدف .

و غرض هذا الفصل ذمّ الدنيا و تقبيحها بذكر معائبها لتخفّ الرغبات فيها و تنصرف إلى ما ورائها من الاُمور الباقية . فاستعار لهم لفظ الغرض ، ووجه الاستعارة كونهم مقصودين بسهام المنيّة من سائر الأمراض والأغراض كما يقصد الغرض بالسهام ، و أسند الانتضال إلى المنايا مجازاً لأنّ القاصد لهم بالأمراض هو فاعلها بهم. فكان المجاز هيهنا في الإفراد والتركيب . ثمّ كنّى بالجرعة والأكلة عن لذّات

الدنيا ، وبالشرق والغصص عمّا في كلّ منها من شوب الكدورات اللازمة لها طبعاً من الأمراض والمخاوف وسائر المنغّصات لها .

و قوله : لا تنالون نعمة إلّا بفراق اُخرى .

فيه لطف : و هو إشارة إلى أنّ كلّ نوع من نعمة فإنّما يتجدّد شخص منها و يلتذّ به بعد مفارقة مثله كلذّة اللقمة مثلاً فإنّها تستدعى فوت اللذّة بأُختها السابقة ، و كذلك لذّة ملبوس شخصىّ أو مركوب شخصىّ ، و سائر ما يعدّ نعماً دنيويّة ملتذّاً بها فإنّها إنّما تحصل بعد مفارقة ما سبق من أمثالها بل وأعمّ من ذلك فإنّ الإنسان لايتهيّأ له الجمع بين الملاذّ الجسمانيّة في وقت واحد بل ولا اثنين منها فإنّه حال ما يكون آكلاً لا يكون مجامعاً أو حال ما هو في لذّة الأكل لا يكون يلتذّ بمشروب ، و حال مايكون جالساً على فراشه الوثير لايكون راكباً المنزهة . و نحو ذلك . و بالجملة لا يكون مشغولاً بنوع من الملاذّ الجسمانيّة إلّا وهو تارك لغيره ، و ما استلزم مفارقة نعمة اُخرى لا يعدّ في الحقيقة نعمة ملتذّاً بها ، و كذلك قوله : ولا يعمّر معمّر منكم . إلى قوله : أجله . لأنّ السرور بالبقاء إلى يوم معيّن لا يصل إليه إلّا بعد انقضاء ما قبله من الأيّام المحسوسة من عمره. فإذا هدم من عمره يوماً فيكون لذّته في الحقيقة ببقائه مستلزماً لقربه من الموت و ما استلزم القرب من الموت فلا لذّة فيه عند الاعتبار ، و كذلك قوله : ولا تجدّد له زيادة في أكله إلّا بنفاد ما قبلها من رزقه : أى من رزقه المعلوم أنّه رزقه و هو ما وصل إلى جوفه مثلاً فإنّ مالم يصل جاز أن يكون رزقاً لغيره . و قد علمت أنّ الإنسان لا يأكل لقمة حتّى يفنى ما قبلها فهو إذن لا يتجدّد له زيادة في أكله إلّا بنفاد رزقه السابق ، و ما استلزم نفاد الرزق لم يكن لذيذاً في الحقيقة ، وروى: اُكلة. و يحتمل أن يريد أنّه إذا تجدّدت له جهة رزق فتوجّه فيها طالباً له كان ذلك التوجّه مستلزماً لا نصرافه عمّا قبلها من الجهات وانقطاع رزقه من جهتها ، واللفظ مهمل يصدق ولو في بعض الناس فلا تجب الكلّيّة ، و كذلك قوله : و لا يحيى له أثر إلّا مات له أثر . و أراد بالأثر الذكر أو الفعل فإنّ ماكان يعرف به الإنسان في وقت

ما من فعل محمود أو مذموم أو ذكر حسن أو قبيح و يحيى له بين الناس يموت منه ماكان معروفاً به قبله من الآثار و ينسى ، و كذلك لا يتجدّد له جديد من زيادات بدنه و نقصانه و أوقاته إلّا بعد أن يخلق له جديد بتحلّل بدنه و معاقبة شيخوخته بشبابه و مستقبل أوقاته لسالفها ، و كذلك لا تقوم له نابتة إلّا بعد أن تسقط منه محصودة ، واستعار لفظ النابتة لمن ينشأ من أولاده و أقربائه ، و لفظ المحصودة لمن يموت من آبائه وأهله. ولذلك قال : و قدمضت اُصول يعنى الآباء ونحن فروعها. ثمّ استفهم على سبيل التعجّب عن بقاء الفرع بعد ذهاب أصله . وقدصرّح أبو العتاهيّة بهذا المعنى حيث قال :

كلّ حياة إلى ممات وكلّ ذى جدّة يحول
كيف بقاء الفروع يوماً و ذوّب قبلها الاُصول

منها : وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إِلَّا تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ ؛ فَاتَّقُوا الْبِدَعَ ، وَالْزَمُوا الْمَهْيَعَ ، إِنَّ عَوَازِمَ الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا ، وَإِنَّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا .

أقول : المهيع . الطريق الواسع . والعوازم : جمع عوزم وهي العجوز المسنّة. والمراد بالبدعة كلّ ما اُحدث ممّا لم يكن على عهد الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم .

و قد اشتمل هذا الفصل على وجه ترك البدعة ، و برهان استلزام إحداث البدعة لترك السنّة أنّ عدم إحداث البدع سنّته لقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : كلّ بدعة حرام. فكان إحداثها مستلزماً لترك تلك السنّة . ثمّ على أمرهم بتقوى البدع : أى خشية عواقبها. ثمّ بلزوم الطريق الواضح ، وهي سبيل الله وشريعته ، وأراد بعوازم الاُمور : إمّا قديمها وهو ماكان عليه عهد النبوّة . وإمّا جوازمها وهي المقطوع بها دون المحدثات منها الّتي هي محلّ الشبهة والشكّ . و يرجّح الأوّل المقابلة بمحدثاتها. وجهة وصفها بكونها شراراً كونها محلّ الشبهة وخارجة عن قانون الشريعة فكانت مستلزمة للهرج والمرج و أنواع الشرور . وبالله التوفيق .

١٤٥ - ومن كلام له عليه السلام

لعمر بن الخطاب، وقد استشاره في غزو الفرس بنفسه

إِنَّ هٰذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا قِلَّةٍ، وَهُوَ دِينُ اللّٰهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ وَطَلَعَ حَيْثُمَا طَلَعَ، وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللّٰهِ، وَاللّٰهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ. وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ: يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ، فَإِذَا انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَذَهَبَ ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَدًا. وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالِاجْتِمَاعِ، فَكُنْ قُطْبًا، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ؛ فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هٰذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَدًا يَقُولُوا: هٰذَا أَصْلُ الْعَرَبِ فَإِذَا قَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ. فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ؛ وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ.

أقول : اختلف الناقلون لهذا الكلام في الوقت الّذى قاله لعمر فيه . فقيل : إنّه قاله في غزاة القادسيّة . و هو المنقول عن المدائنى في كتاب الفتوح . و قيل : في غزاة نهاوند. و هو نقل محمّد بن جرير الطبرى. فأمّا وقعة القادسيّة فكانت سنة أربع عشرة للهجرة استشار عمر المسلمين في خروجه فيها بنفسه فأشار عليه علىّ عليه السلام بالرأى المسطور فأخذ عمر به و رجع عن عزم المسير بنفسه ، و أمّر سعد بن أبى وقّاص على المسلمين . ويروى في تلك الواقعة أنّ رستم أمير العسكر من قبل يزدجرد أقام بريداً من الرجال الواحد منهم إلى جانب الآخر من القادسيّة إلى المدائن كلّما تكلّم رستم بكلمة أدّاها بعضهم إلى بعض حتّى يصل إلى سمع يزدجرد ، و قصص الواقعة مشهورة في التواريخ ، و أمّا وقعة نهاوند فإنّه لمّا أراد عمر أن يغزو العجم ، و جيوش كسرى قد اجتمعت بنهاوند استشار أصحابه فأشار عثمان عليه بأن يخرج بنفسه بعد أن يكتب إلى جميع المسلمين من أهل الشام واليمن والحرمين والكوفة والبصرة ويأمرهم بالخروج ، و أشار علىّ عليه السلام بالرأى المذكور : و قال : أمّا بعد وإنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه . الفصل . فقال : عمر أجل هذا الرأى ، و قد كنت اُحبّ أن اُتابع عليه فأشيروا علىّ برجل اُولّيه ذلك الثغر . فقالوا : أنت أفضل رأياً. فقال : أشيروا علىّ به واجعلوه عراقيّاً . فقالوا : له أنت أعلم بأهل العراق وقد وفدوا عليك فرأيتهم و كلّمتهم . فقال : أما والله لاُولينّ أمرهم رجلاً يكون غداً لأوّل الأسنّة . قيل: ومن هو؟ فقال : النعمان بن مقرن. قالوا : هولها. وكان نعمان يومئذٍ بالبصرة فكتب إليه عمر فولّاه أمر الجيش .

ولنرجع إلى المتن . فقوله : بحذافيره : أى بأسره .

وقوله : إنّ هذا الأمر . إلى قوله : بالاجتماع :

صدر الكلام أورده ليبتنى عليه الرأى فقرّر فيه أوّلا أنّ هذا الأمر : أى أمر الإسلام ليس نصره بكثرة ولا خذلانه بقلّة ، و نبّه على صدق هذه الدعوى بأنّه دين الله الّذى أظهره وجنوده ، وهي جنده الّذى أعدّه وأمدّه بالملائكة والناس حتّى بلغ هذا

المبلغ ، وطلع في آفاق البلاد حيث طلع . ثمّ وعدنا بموعود و هو النصر والغلبة والاستخلاف في الأرض كما قال « وعد الله الّذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم »(١) الآية ، و كلّ وعدمن الله فهو منجّز لعدم الخلف في خبره .

و قوله : و ناصر جنده .

يجرى مجرى النتيجة. إذمن جملة وعده نصر جنده، وجنده هم المؤمنون. فالمؤمنون منصورون على كلّ حال سواء كانوا قليلين أو كثيرين . ثمّ شبّه مكان القيّم بالأمر بمكان الخيط من العقد ، ووجه التشبيه هو قوله : يجمعه و يضمّه . إلى قوله: أبداً.

و قوله : لم يجتمع بحذافيره أبداً .

و ذلك أنّهم عند فساد نظامهم بقتل الإمام مثلاً يقع بهم طمع العدوّ وظفره فيكون ذلك سبب استيصالهم . ثمّ رفع عنه الشبهة في عدم الحاجة إلى اجتماع كلّ العرب في هذه الواقعة ، و ذلك لكثرتهم بالإسلام واستقبال الدولة وعزّتهم باجتماع الرأى واتّفاق القلوب الّذى هو خير من كثرة الأشخاص ، و أراد بالكثرة القوّة والغلبة مجازاً إطلاقاً لاسم مظنّة الشيء على الشيء .

و قوله : فكن قطباً .

شروع في الرأى الخاصّ بعمر. فأشار عليه أن يجعل نفسه مرجعاً للعرب تؤل إليه ، وتدور عليه ، واستعار له لفظ القطب و لهم لفظ الرحا ، و رشّح بالاستدارة ، و كنّى بذلك عن جعل العرب دربة دونه و حيطة له ، و لذلك قال : و أصلهم دونك نار الحرب. لأنّهم إن سلموا وغنموا فذلك الّذى ينبغى ، وإن انقهروا كان هو مرجعاً لهم و سنداً يقوى ظهورهم به بخلاف شخوصه معهم فإنّهم إن ظفروا فذلك و إن انقهروا لم يكن لهم ظهر يلجأون إليه كما سبق بيانه .

و قوله : فإنّك إن شخصت . إلى قوله : فيك .

بيان للمفسدة في خروجه بنفسه من وجهين :

---

(١) ٢٤ - ٥٤ .

أحدهما : أنّ الإسلام كان في ذلك الوقت غضّاً ، و قلوب كثير من العرب ممّن أسلم غير مستقرّة بعد فإذا انضاف إلى من لم يسلم منهم وعلموا خروجه و تركه للبلاد كثر طمعهم وهاجت فتنتهم على الحرمين و بلاد الإسلام فيكون ما تركه ورائه أهمّ عنده بما يستقبله و يطلبه ويلتقي عليه الفريقان من الأعداء .

الثاني : أنّ الأعاجم إذا خرج إليهم بنفسه طمعوا فيه و قالوا المقالة . فكان خروجه محرّضاً لهم على القتال و هم أشدّ عليه كلباً و أقوى فيه طمعا .

و قوله : فأمّا ما ذكرت من مسير القوم . إلى آخره .

فهو أنّه قال له : إنّ هؤلاء الفرس قد قصدوا المسير إلى المسلمين وقصدهم إيّاهم دليل قوّتهم ، وأنا أكره أن يغزونا قبل أن نغزوهم . فأجابه بأنّك إن كرهت ذلك فإنّ الله تعالى أشدّ كراهيّة، وأقدر منك على التغيّر والإزالة . وهذا الجواب يدور على حرف و هو أنّ مسيرهم إلى المسلمين و إن كان مفسدة إلاّ أنّ لقائه لهم بنفسه فيه مفسدة أكبر ، و إذا كان كذلك فينبغي أن يدفع العظمى ، و يكل دفع المفسدة الاُخرى إلى الله تعالى فإنّه كاره لها ومع كراهيّته لها فهو أقدر على إزالتها .

وقوله : وأمّا ما ذكرت من عددهم . إلى آخره .

فهو أنّ عمر ذكر كثرة القوم وعددهم فأجابه عليه السلام بتذكير قتال المسلمين في صدر الإسلام فإنّه كان من غير كثرة ، و إنّما كان بنصر الله و معونته فينبغي أن يكون الحال الآن كذلك . وهو يجري مجرى التمثيل كما أشرنا إليه في المشورة الاُولى، و بوعد الله تعالى المسلمين بالاستخلاف في الأرض وتمكين دينهم الّذى ارتضى لهم وتبديلهم بخوفهم أمناً كما هو مقتضى الآية .

١٤٦ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فَبَعَثَ مُحَمَّداً ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَسَلَّمَ ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ

وَأَحْكَمَهُ ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ إِذْ جَحَدُوهُ ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ . فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِى كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ : بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ ، وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلَاتِ ، وَاحْتَصَدَ مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ ،

وَإِنَّهُ سَيَأْتِى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِى زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَىْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللّٰهِ وَرَسُولِهِ ! ! وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذٰلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِىَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَلَا فِى الْبِلَادِ شَىْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ ، فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ . فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ فِى طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَا يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ ! ! فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِى ذٰلِكَ الزَّمَانِ فِى النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ وَمَعَهُمْ : لِأَنَّ الضَّلَالَةَ لَا تُوَافِقُ الْهُدَى ، وَإِنِ اجْتَمَعَا فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ وَافْتَرَقُوا عَنِ الْجَمَاعَةِ ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ ! فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ ! ! وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللّٰهِ فِرْيَةً ، وَجَعَلُوا فِى الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ .

وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ ، وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ ، الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنِّقْمَةُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ مَنِ اسْتَنْصَحَ اللهَ وُفِّقَ ، وَمَنِ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً هُدِيَ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ؛ فَإِنَّ جَارَ اللهِ آمِنٌ ، وَعَدُوَّ اللهِ خَائِفٌ ، وَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ ؛ فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ ، وَسَلَامَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ . فَلَا تَنْفِرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرَبِ ، وَالْبَارِئِ مِنْ ذِي السَّقَمِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ ، فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ : هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ : لَا يُخَالِفُونَ الدِّينَ ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ .

أقول: الأوثان: الأصنام. وزبره : كتبه. ومثّلوا: بفتح الميم والثاء : أى نكّلوا. والاسم المثلة بضمّ الميم وسكون الثاء . والقارعة : الشديدة من شدائد الدهر .

و مدار هذا الفصل على بيان بعثة الرسول ﷺ، وبيان غاية البعثة ، والسبب المعدّ للوصول إلى تلك الغاية ، ثمّ بيان غاية تلك الغاية . والإشارة إلى البعثة بقوله:

فبعث . إلى قوله : بالحقّ ، و أشار إلى غايتها بقوله : ليخرج إلى قوله : طاعته . و قد علمت أنّ طاعته بسلوك الصراط المستقيم في الدنيا وهو اتّباع الدين القيّم ، والعدول عن طاعة الشيطان الّتي هي بالخروج إلي أحد طرفي الإفراط والتفريط. فأشار إلى سبب تلك الغاية بقوله : بقرآن قد بيّنه و أحكمه . و قد علمت اشتمال القرآن الكريم على الجواذب الإلهيّة إلى طاعة الله ، و سلوك صراطه المستقيم ، و أشار إلى غاية تلك الغاية أعني غاية طاعة الله بقوله : ليعلم العباد . إلى قوله :أنكروه. وهي مسئلتان من اُمّهات العلم الإلهيّ :

فالاُولى : معرفتهم له بعد جهلهم به .

والثانية : الإقرار به بعد جحدهم له و إثباتهم له بعد إنكارهم إيّاه . والمعنى واحد وإن اختلفت العبارتان وهو التصديق بوده إلّا أن يحمل الإقرار على الإقرار باللسان والجحد به ، و يحمل الإثبات و الإنكار على إثباته بالقلب بعد الإنكار به وحينئذ يتغاير المعنيان ، وأشار بتجلّيه -سبحانه- في كتابه إلى ظهوره لهم في تذكيرهم فيه بما أراهم من عجائب مصنوعاته ، وبما خوّفهم به من وعيده ، و بتذكيرهم أنّه كيف محق من محق من القرون الماضية بالعقوبات واحتصد من احتصد منهم بالنقمات. كلّ ذلك الظهور والجلاء من غير رؤية له . إذ تعالى عن إدراك الحواسّ . وقال بعض الفضلاء : يحتمل أن يريد بتجلّيه في كتابه ظهوره في عجائب مصنوعاته و مكنوناته ، و يكون لفظ الكتاب استعارة في العلم ، ووجه المشابهة كونه محلّاً قابلاً لآثار الصنع المختلفة وعجائب الصور المنقوشة فيه كما أنّ الكتاب محلّ لنقش الحروف كلّ ذلك من غير رؤية بحاسّة البصر له لتعاليه و تقدّسه عن ذلك .

وقوله : سيأتي . إلى قوله : المنكر .

إخبار عن زمان يأتي بعده بالصفات المذكورة ، وقد رأيناه ورأته قرون قبلنا فإنّ خفاء الحقّ وظهور الباطل عليه أمر ظاهر ، و كون الحقّ لاشيء أخفى منه والباطل لاشيء أظهر على سبيل المبالغة ، و كذلك لأكثر من الكذب على الله و على رسوله . روى عن شعبة وكان إمام المحدّثين أنّه قال : تسعة أعشار الحديث كذب .

و عن الدار قطني. ما الحديث الصحيح إلّا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود .

وقوله : وليس عند أهل . إلى آخره .

قدمر تفسيره في الفصل الّذى يذمّ من يتصدّى للحكم بين الأمّة وليس له بأهل ، و نبذ حملة الكتاب له : إعراض قرّائه عن تدبّر ما فيه و العمل به ، وتناسى حفظته أيضاً : تعاميهم عن أمره ونواهيه و تغافلهم عن اتّباعها .

و قوله : فالكتاب . إلى قوله : وإن اجتمعا .

فأهل الكتاب الملازمون للعمل به . وحيث كان أهل ذلك الزمان المشار إليه غير ملتفتين إلى الكتاب كانوا أيضاً غير ملتفتين إلى أهله ومن يعمل به بل مؤذون لهم فيما يخالفونهم فيه ممّا يقتضيه أحكام الكتاب ويوجبه اتّباعه فكان إعراضهم عنهم إبعاداً لهم و نفياً و طرداً ، و الطريق الّذى اصطحب فيه الكتاب و أهله هو طريق الله الواحد. وصدق إذن أنّه لا يؤويهما مؤو من أهل ذلك الزمان. اللّهم إلّا إذا وافقتا غرضه لكن ذلك ليس للكتاب و للعامل به بل لموافقتهما الغرض . و كونهما في الناس : أى بوجودهما ، و كونهما ليسا فيهم لعدم اتّباعهما و إلغاء فائدتهما فأشبها ما ليس بموجود، ولأنّ فايدة الموجود أن ينتفع به. و كذلك معهم بالمصاحبة الاتّفاقيّة في الوجود ، وليسا معهم لأنّ ضلالتهم لا تجامع هدى الكتاب و أهله فكانا مضادّين لهم و إن اجتمعا في الوجود .

و قوله : فاجتمع القوم على الفرقة .

أى اتّفقوا على مفارقة الاجتماع وما عليه الجماعة أمّا في وقته عليه السلام فكالخوارج والبغاة ، وأمّا فيما يستقبل من الزمان بعده فكالآخذين بالآراء والمذاهب المتفرّقة المحدثة في الدين. والاجتماع على الفرقة يلازم الافتراق عن الجماعة .

و قوله : كأنّهم أئمّة الكتاب .

تشبيه لهم بالأئمّة له في الجرأة على مخالفة ظواهره و الاختلاف فيه و تفريعه على حسب أغراضهم . إذ شأن الإمام مع المأموم ذلك مع أنّه إمامهم الّذى يجب أن يتّبعوه ويقتفوا أثره ، وإذ خالفوه ونبذوه وراء ظهورهم فلم يبق معهم من تمسّكهم

به إلّا اسمه وعلم خطّه وزبره دون اتّباع مقاصده.

و قوله: ومن قبل ما مثّلوا بالصالحين.

إشارة إلى زمن بني اُميّة الكائن قبل زمن من يخبر عنهم. وتمثيل بني اُميّة بالصالحين من الصحابة والتابعين، وحملهم لهم على المكروه، ونسبتهم لهم إلى الكذب على الله، وجعلهم لهم في الحسنة عقوبة السيّئة ظاهر منهم. و وصفه لمن سيأتي في ذلك الزمان بالأوصاف المذكورة لاينافي وصف من قبلهم من بني أميّة بمثل تلك الأوصاف. و ـ ما ـ مع الفعل في حكم المصدر و محلّها الرفع بالابتداء وخبرها ـ من قبل ـ.

و قوله: وإنّما هلك. إلى آخره.

تنبيه على وجوب تقصير الآمال في الدنيا لاستلزام طلبها الهلاك الاُخرويّ، وأشار إلى القرون الماضية من قبل، و أراد الهلاك الاُخرويّ، وجعل سبب هلاكهم طول آمالهم في الدنيا الموجب للاستغراق في لذّاتها المبعّدة عن الله تعالى مع تغيّب آجالهم عنهم: أي غفلتهم عنها، وقلّة فكرهم فيها وعدم علمهم بتعيينها فإنّ استشعار الأجل موجب للإقلاع عن الانهماك في اللذّات الحاضرة، ومنغّص لها.

و قوله: حتّى نزل بهم الموعود. إلى آخره.

ذكر غاية طول آمالهم. والموعود هو الموت، وتردّ عنه المعذرة: أي لاتقبل فيه معذرة معتذر، و ترفع عنه التوبة: أي ينسدّ بابها حين نزوله كقوله تعالى «وليست التوبة للّذين يعملون السيّئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّي تبت الآن ولا الّذين» (١) الآية، وتحلّ معه القارعة: أي تنزل بمن نزل به الشدائد والأهوال و تتبعها العقوبات الاُخرويّة. ثمّ عاد إلى الرأى الصالح للسامعين فأيّه بهم ونبّههم على وجوب استنصاحه: أي اتّخاذه ناصحاً في قبول أوامره و نواهيه واتّخاذ قوله دليلاً إلى المطالب المهمّة فإنّ استنصاحه يستلزم التوفيق، واتّخاذه دليلاً يستلزم الهدى للّتي هي أقوم: أي للطريق الّتي هي أقوم الطرق. ثم نبّه على حسن جوار الله بالأمن الّذي هو غاية الجوار، وعلى قبح عداوته بذكر الخوف الّذي

---

(١) ٤ - ٢٢.

هو غاية عداوة الملوك خصوصاً جبّار الجبابرة وملك الدنيا و الآخرة ، وأراد بجواره القرب منه بالطاعة، و بعداوته البعد عنه بالمعصية و مخالفة أوامره . ولا شكّ في كون الأوّل أمناً من أهوال الآخرة وفي كون الثاني في محلّ الخوف والخطر .

وقوله : وإنّه لاينبغي لمن عرف . إلى آخره .

إرشاد لهم إلى التواضع لله ولمن اُرشد إلى طريقه ، ونهى عن التكبّر عليهم ، والنفار عن قبول الحقّ منهم . وخاطب من يعرف عظمة الله لاحتقاره نفسه عند ملاحظته لنفسه ونسبته لها إلى جلال الله فهو أسرع انفعالاً وأحقر في نفسه أن يتكبّر على الله، ونبّه على حسن التواضع له بذكر عظمته ورفعه للعالمين بعظمته. فإنّه لمّا كان هو العظيم المطلق و كلّ عظمة و رفعة لعظيم فمستفادة من جوده و القرب منه ، و كانت العادة جارية من الملوك في حقّ من يتواضع لهم ويوفّيهم حقّهم من الإجلال والإكرام وحسن الانقياد أن يرفعوه و يعظّموه فبالحرّى أن يكون رفعة المتواضع للملك المطلق والعظيم المطلق لازمة عن التواضع له ، و كذلك العادة جارية منهم بسلامة من استسلم لهم عن معرفته باقتدارهم فبالحرّى أن يكون سلامة المستسلم لله عن العلم بغلبة قدرته و استيلاء سلطانه لازمة من استسلامه له . وإذ أدّبهم بالتواضع لله ولأوليائه ندبهم إلى قبول الحقّ منهم و عدم النفار منه الشبيه بنفار الصحيح من الأجرب ، والبارىء من السقيم ، و وجه الشبه هو شدّة النفار . ثمّ عاد إلى تنفيرهم عن أئمّة الضلال ، وذلك بتنبيههم على أنّهم ليسوا عارفين بالرشد والمعرفة الصحيحة ، ولا آخذين بميثاق الكتاب ، ولا متمسّكين به الأخذ والتمسّك التامّ مالم يعرفوا اُولئك الضالّين. وإنّما شرط معرفتهم للرشد بمعرفتهم لتاركه لأنّ المعرفة التامّة للرشد بل لكلّ شيء تستدعى معرفة ما عليها من الشكوك و الشبهات الّتى هى سبب التشكيك فيها وترك العمل على وفقها ، ولمّا كان الرشد وهو الحقّ الّذى هو عليه وتابعوه ، وكان التارك لذلك هم مخالفوه و خصومه في الأمر من أئمّة الضلال لاجرم كان من تمام معرفة الحقّ الّذى في يده و الرشد الّذى يدعو إليه معرفة خصومه و أنّهم على شبهة إذا عرفها طالب الحقّ تمّت معرفته بطريق الرشد فسلكها و نفر عمّن نكب ،

و كذلك شرطه لأخذهم بميثاق الكتاب و العمل بما فيه بمعرفتهم لمن نقضه من خصومه: أى إنّ أخذهم بما يعمل به عليه السلام منه لايتمّ منهم إلّا أن يعرفوا شبهة ناقضه و هو العامل بخلاف حكمه عليه السلام على وفق الكتاب لشبهة حتّى إذا اطّلعوا على كيفيّة فسادها وضلاله بها أخذوا بميثاق الكتاب على بصيرة ، وعلموا أنّه ناقض له فنفروا عنه ، و كذلك شرطه لتمسّكهم بالكتاب و لزومهم بميثاقه بمعرفة نابذه وأنّه ضالّ لتحصل النفرة عنه فيتمّ التمسّك به ويتأكّد لزوم ميثاقه. و غاية كلّ ذلك التنفير عن أئمّة الضلال بمعرفتهم و معرفة ما هم عليه من الشبه والتبرّى منهم. ثمّ بعد أن نبّه على تلك المعرفة أمر بالتماسها من عند أهلها ، والإشارة بهم إلى نفسه و أهل بيته عليهم السلام ، واستعار لهم وصفى عيش العلم : أى حياته ، وموت الجهل .ووجه الاستعارة الاُولى: أنّ بهم يكون وجود العلم والانتفاع به كما يكون بحياة الشيء الانتفاع به ، ووجه الثانية: أنّ بهم يكون عدم الجهل و عدم التضرّر به كما يكون بموت الشرير عدمه وعدم مضرّته .

و قوله : هم الّذين يخبر كم حكمهم عن علمهم .

أى يدلّكم منطقهم بالحكمة ، و سيرتهم على وفقها على كمال نفوسهم بالعلوم ، وصمتهم عن منطقهم فإنّ لصمت المنطيق اللسن ذى الحكمة العزيزة وقتاً و هيئة وحالة تكون قرائن دالّة على حسن منطقه وعلمه بما يقول ، و كذلك ظاهرهم عن باطنهم .

و قوله : لايخالفون الدين .

إشارة إلى لزومهم لأوامر الله و طريق شريعته. ولا يختلفون فيه . إشارة إلى اتّفاق آرائهم على أحكامه عن كمال علومهم به. فإنّه لمّا كان طريقاً واحداًواتّفقوا على معرفته وجب أن لا يختلفوا فيه ولا يضلّ أحدهم عن حكم من أحكامه حتّى يخالف صاحبه فيه .

وقوله : فهو بينهم شاهد صادق .

أى شاهد يستدلّون به على الأحكام والوقايع النازلة بهم و بغيرهم . لا يكذب

من حيث هو شاهد ، و صامت ناطق لكونه حروفاً وأصواتاً . و إنّما ينطق بألسنتهم فهو بمنزلة الناطق . واللفظان استعارة، وجهها الإفادة مع النطق به وعدمها مع السكوت عنه كإفادة الناطق وعدم إفادة الصامت .

١٤٧ — ومن كلام له عليه السلام

فى ذكر أهل البصرة

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ : لَا يَمُتَّانِ إِلَى اللهِ بِحَبْلٍ ، وَلَا يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ !! كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ . وَاللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هٰذَا نَفْسَ هٰذَا وَلَيَأْتِيَنَّ هٰذَا عَلَى هٰذَا ؛ قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ ، فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ ، وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ ، وَاللهِ لَا أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ وَيَحْضُرُ الْبَاكِيَ .

أقول : متّ إليه بكذا : أى تقرّب إليه به . والضبّ : الحقد والغلّ . والمحتسبون : طالبون الأجر والثواب . واللدم : ضرب الصدر باليد فعل الحزين ، والضمير في منهما راجع إلى طلحة والزبير ، والأمر : أمر الخلافة ، و ذلك حين خرجا إلى البصرة مع عائشة ، و يعطفه إليه : يجذ به إلى نفسه و يزعم أنّه أحقّ به من صاحبه .

وقوله : لايمتّان. إلى قوله : بسبب .

أى لاحجّة يعتذران إلى الله تعالى بها في قتالهما له عليه السلام و هلاك المسلمين فيما بينهم .

و قوله : كلّ واحد منهما حامل ضبّ لصاحبه .

أى في صدره غلّ عليه و عمّا قليل يظهر و ينكشف ، واستعار لفظ القناع لظاهره الساتر لباطنه ، و ذلك مثل يضرب لمن ينافق صاحبه و يظهر له الصداقة مع حسده و عقوقه له في الباطن . والعرب تضرب بالضبّ المثل في العقوق . فيقال : أعقّ من ضبّ . و ذلك أنّه ربّما يأكل حسوله . ثمّ أقسم لئن أصابوا بغيتهم لينزعنّ هذا و ليأتينّ عليه : أى يسعى كلّ منهم في قتل صاحبه ، و هذا ممّا لاشكّ فيه فإنّ العادة جارية بعدم قيام الأمر برئيسين معاً ، و سرّه أنّ الطباع البشريّة متشاحّة على الكمال و يتفاوت ذلك التشاحّ بحسب تفاوت ذلك الكمال في تصوّر قوّته وضعفه ولا شيء في نفوس طالبى الدنيا أعظم من الملك خصوصاً في نفس من يعتقد أنّه يقدر على تحصيل الآخرة فيه أيضاً فإنّ تحصيل الدنيا والآخرة هي أكمل الكمالات المطلوبة للإنسان. ولاشيء يقاوم هذا المطلوب في النفوس. فهي تسعى في تحصيله بكلّ ممكن من قتل الواد والوالد والأخ. و لذلك قيل : الملك عقيم .و قد نقل عن هذين الرجلين الاختلاف قبل إصابتهما و قبل وقوع الحرب فاختلفا في الأحقّ بالتقديم في الصلاة فأقامت عايشة محمّد بن طلحة و عبدالله بن الزبير يصلّي هذا يوماً وهذا يوماً إلى أن ينقضي الحرب. ثمّ إنّ عبدالله بن الزبير ادّعى أنّ عثمان نصّ عليه بالخلافة يوم الدار واحتجّ على ذلك باستخلافه له في الصلاة، واحتجّ تارة بنصّ صريح ادّعاه . و طلب طلحة أن يسلّم الناس عليه بالإمرة و أدلى إليها بالسميّة ، و أدلى الزبير بأُختها أسماء . فأمرت الناس أن يسلّموا عليهما بالإمرة، واختلفا في تولّى القتال فطلبه كلّ واحد منهما أوّلاً ثمّ نكل عنه . و أحوالهم في ذلك ظاهرة .

فقوله : قد قامت الفئة الباغية .

إشارة إليهم وهم الناكثون الّذين نقل فيما سبق فيهم الخبر : اُمرت أن اُقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين .

وقوله : فأين المحتسبون و قد سنّت لهم السنن .

أى أين طالبو الثواب من الله بعد وضوح الطريق ، و روى: فأين المحسنون .

و قوله : و قدّم لهم الخبر .

أى أخبرهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن خروج فئة باغية ونا كثة ومارقة . فبالحريّ أن يحذر هؤلاء أن يكونوا ممّن أخبر عنهم .

و قوله : ولكلّ ضلّة علّة .

أى لكلّ خروج عن سبيل الله علّة . و أشار إلى خروج هذه الفرقة عن الدين . و تلك العلّة هي البغى والحسد ، و كذلك لكلّ نا كث شبهة تغطّى عين بصيرته عن النظر إلى وجه الحقّ كطلبهم بدم عثمان .

و قوله : والله لا أكون . إلى آخره .

أقسم أنّه لا يكون كذلك : أى إنّه بعد سماعه لغلبة هؤلاء و جلبهم عليه و تهديدهم إيّاه لا ينام عنهم و يصبر لهم حتّى يوافوه فيكون في الغرور كمن يسمع الضرب والبكاء الّذى هو مظنّة الخطر ثمّ لا يصدّق حتّى يجيىء لمشاهدة الحال و يحضر الباكي و قد كان الأولى به أن يكتفى بذلك السماع لظهور دلالته ويأخذ في الاستعداد للعدوّ والحرب منه.

١٤٨ — وَمِن كَلامٍ لَهُ عَلَيهِ السَّلامُ

قبل موته

أَيُّهَا النَّاسُ ، كُلُّ امْرِىءٍ لَاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِى فِرَارِهِ ، وَالْأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ . كَمْ أَطْرَدْتُ الْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هٰذَا الْأَمْرِ فَأَبَى اللهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ . هَيْهَاتَ ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ ، أَمَّا وَصِيَّتِى فَاللهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ؛ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ . أَقِيمُوا هٰذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ ،

وَأَوْقِدُوا هٰذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ ، وَخَلاَكُمْ ذَمٌّ مَالَمْ تَشْرُدُوا . حَمَلَ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ ، وَخَفَّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ رَبٌّ رَحِيمٌ ، وَدِينٌ قَوِيمٌ ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ . أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ ، غَفَرَ اللهُ لِي وَلَكُمْ .

إِنْ ثَبَتَتِ الْوَطْأَةُ فِي هٰذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ ، وَإِنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ ، فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ وَمَهَبِّ رِيَاحٍ وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفَّقُهَا وَعَفَا فِي الْأَرْضِ مَخَطُّهَا ، وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلاَءً ، سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ ، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطُوقٍ . لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي وَخُفُوتُ أَطْرَافِي ، وَسُكُونُ أَطْرَافِي؛ فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ . وَدَاعِيكُمْ وَدَاعُ امْرِىءٍ مُرْصِدٍ لِلتَّلاَقِي ، غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي ، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي ، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي .

أقول : أطردت الأيّام : صيّرتها طريدة لي . و شرد الجمل : ذهب لوجهه . ودحضت القدم : زلفت . واضمحلّ : فني . والمخطّ : الأثر .

وهذا الفصل محلّ الوعظ والاعتبار . فأيّه بالناس ونبّههم على لحوق ضرورة الموت المنفور منه طبعاً . وأحسن بقوله: في فراره. فإنّه لمّا كان الإنسان دائماً فارّاً من الموت و متوقّياً له ، وكان لابدّ منه . لاجرم كان ضروريّ اللقاء له في فراره. والأجل قديراد بهغاية الحياة الدنيا كماقال تعالى «فإذا جاء أجلهم لايستأخرون»(١) و قديراد به المدّة المضروبة للإنسان وهى مدّة عمره ، و إيّاه عنى هيهنا بقوله :

(١) ٧ - ٣٢ .

والأجل مساق النفس فإنّ مدّة بقائها في هذا البدن هو مساقها إلى غايتها لا محلّ قرارها .

و قوله : والهرب منه موافاته .

في غاية اللطف ، و ذلك أنّ الفارّ من الموت مثلاً بالحركات والعلاجات ونحوها يستلزم حركاته في ذلك فناء الأوقات و تصرّمها وقطع تلك الأوقات مستلزم لملاقاته و موافاته فأطلق لفظ الموافاة على الهرب مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه .

وقوله : كم أطردت الأيّام .

أى صيّرتها طريدة لي أتّبع بعضها بعضاً بالبحث و تعرّف مكنون هذا الأمر : أى الّذى وقع له من القتل ، و ذلك المكنون هو وقته المعيّن بالتفصيل و مكانه فإنّ ذلك ممّا استأثر الله تعالى بعلمه كقوله تعالى « إن الله عنده علم الساعة » و قوله « وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت » (١) وإن كان قد أخبره الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بكيفيّة قتله مجملاً كما روى عنه أنّه قال : ستضرب على هذه ـ وأشار إلى هامّته ـ فيخضب منها هذه ـ وأشار إلى لحيته ـ . وعنه أنّه قال : أتعلم من أشقى الأوّلين ؟ قال : نعم عاقر الناقة . فقال له : أتعلم من أشقى الآخرين ؟ قال : لا . قال : من يضربك هيهنا فيخضب هذه . وأمّا بحثه هو فعن تفصيل الوقت و المكان و نحو هما من القرائن المشخّصه ، وذلك البحث إمّا بالسؤال من الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم مدّة حياته و كتمانه إيّاه أو بالفحص والتفرّس من قرائن أحواله في سائر أوقاته مع الناس . فأبى الله إلّا أن تخفى عنه تلك الحال . هيهات : أى بعد ذلك العلم فهو علم مخزون . ثمّ شرع في الوصيّة فبدء بالأهمّ فالأهمّ فالأوّل : هو الإخلاص لله بالإعراض عن كلّ ماسواه ، وفي ذلك لزوم أوامره ونواهيه و سائر ما نطق به كتابه العزيز . الثاني : لزوم سنّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم وعدم إهمالها . وإنّما قدّم اسم الله على محمّد لما بيّنا أنّ الواجب في علم البيان تقديم الأهمّ . ثمّ أكّد القول في الأمر باتّباع التوحيد المطلق و السنّة النبويّة ، واستعار لهما لفظ العمودين و رشّح بذكر الإقامة ، و لفظ المصباحين ورشّح بذكر

(١) ٣١ ـ ٣٤ .

الإيقاد ، ووجه الاستعارة الاُولى أنّ مدار الإسلام و نظام اُمور المسلمين في معاشهم و معادهم على توحيدالله ولزوم ماجاء به رسوله كما أنّ مدار الخيمة وقيامها بالعمد، و وجه الثانية : أنّ توحيدالله والاقتداء بما جاء به رسوله مستلزمان للهداية في طريقه من ظلمات الجهل قايدان إلى جواره في جنّات النعيم وهو المطلوب الحقيقيّ كما يهدى المصباح في الظلام على الطريق إلى المطلوب .

و قوله :وخلاكم ذمّ .

أي عداكم ، وهى كلمة تجري مجرى المثل : أي عند لزومكم لتوحيد الله وسنّة رسوله لاذمّ عليكم ، وأوّل من قالها قصير مولى جذيمة حين حثّ عمرو بن عديّ ابن اُخت جذيمة على ثاره من الزباء . فقال له عمرو : كيف لي بذلك والزباء أمنع من عقاب الجوّ . فقال له قصير : اطلب الأمر وخلاك ذمّ .

وقوله : مالم تشردوا .

استثناء من نفى لحوق الذمّ لهم : أي أوقدوا هذين المصباحين فمادمتم كذلك فلا ذمّ يلحقلكم إلّا أن تشردوا : أي تتفرّقوا عمّا أنتم عليه . ثمّ لمّا كان قد أمرهم بلزوم هذين الأمرين اللذين يدور عليهما التكليف بيّن لهم بقوله : حمل كلّ امريء منكم . إلى قوله : الجهلة. أنّ التكليف بذلك يتفاوت فكلّ امرء من العلماء وأهل النباهة و من هو بصدد العلم يحمل مجهوده وطاقته منه بالتنبيه على الأدلّة وتعليمها، و أمّا الجهّال كالنساء و أهل البادية والزنج و نحوهم من أهل الغباوة فتكليفهم دون ذلك و هو بالمحسوس من العبادات دون الأمر بالتفكّر في مقاصدها . ثمّ ذكر وصف الرحمة للربّ لمناسبة ما سبق من ذكر التخفيف عن الجهلة في التكليف. و دين قويم: لاعوج فيه ولازيغ عن القصد الحقيقيّ. وإمام عليم: إشارة إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العالم بكيفيّة سلوك طريق الله ومراحلها و منازلها ، والهادى فيها بما يقتضيه حكمته من القول والعمل، أوإلى نفسه لكونه وارث علمه و سالك مسالكه . و ربّ: خبر مبتدء محذوف و تقديره وذلك المكلّف ربّ رحيم ، و يجوز أن يكون فاعلاً لفعل يفسّره قوله : حمل وخفّف : أي يحملكم ربّ كقوله تعالى « يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال

رجال »[1] ثمّ ختم الوصيّة بالدعاء لهم وله و بطلب المغفرة . ثمّ تمّم بالتنبيه لهم على وجه الاعتبار به ، و هو تصرّف حالاته بحسب الأزمان فقد كان بالأمس صاحبهم في الحرب و منازعة الأقران و صاحب الأمر والنهي فيهم ، واليوم عبرة لهم بحال مصرعه و ضعفه عن الحراك ، و غداً مفارقهم بالموت . و كلّ هذه التغييرات محلّ الاعتبار يجب التنبيه لها . و أراد بغد إمّا حقيقة إن كان قد غلب على ظنّه موته في تلك الواقعة، أو ما يستقبل من الزمان وإن بعد ، وهذا أرجح لقوله : إن ثبتت الوطأة في هذه المزلّة :أي إن يكن لي ثبات في الدنيا وبقاء في هذه المزلّة : أي محلّ الزوال عن الحياة فذاك المرجوّ ، و كنّى بثبات الوطأة عمّا ذكرناه ، وبدحض القدم عن عدم ذلك بالموت .

و قوله في جواب الشرط : فإنّا كنّا في أفياء أغصان. إلى قوله : مخطّها.

أي وإن نمت فإنّا كنّا في كذا. و كنّى بالأمور المذكورة عن أحوال الدنيا و ملذّاتها و بقائه فيها و متاعه بها ، وقيل : استعار لفظ الأغصان للأركان الأربعة من العناصر ، و لفظ الأفياء لما تستريح فيه النفوس من تركيبها في هذا العالم ، و وجه الاستعارة الأولى : أنّ الأركان في مادّتها كالأغصان للشجرة ، و وجه الثانية: أنّ الأفياء محلّ الاستراحة واللذّة كما أنّ الكون في هذا البدن حين صحّة التركيب و اعتدال المزاج من هذه الأركان كذلك . و كذلك استعار لفظ مهابّ الرياح للأبدان ، و لفظ الرياح للأرواح والنفحات الإلهيّة عليها في هذه الأبدان ، ووجه الأولى : قبول الأبدان لنفحات الجود كقبول مهابّ الرياح لها استعارةً لفظ المحسوس للمعقول ، و وجه الثانية : أظهر من أن يذكر . و كذلك لفظ الغمام للأسباب العلويّة من الحركات السماويّة والاتّصالات الكوكبيّة والأرزاق المفاضة على الإنسان في هذا العالم الّتي هي سبب بقائها ، ووجهها الاشتراك في الإفاضة والسببيّته ، و كنّى بظلّها عمّا يستراح إليه منها كما يقال : فلان يعيش في ظلّ فلان : أي في عيشه و عنايته ، و كنّى باضمحلال متلفّقها في الجوّ عن تفرّق الأسباب العلويّة للبقاء و

(1) ٢٤ - ٣٦ .

فنائها، و بعفاء مخطّها في الأرض عن فناء آثارها في الأبدان ، والضمير في متلفّقها يعود إلى الغمام ، وفي مخطّها يعود إلى مهابّ الرياح .

وقوله : فإنّما كنت جاراً جاوركم بدني أيّاماً .

فيه تنبيه على أنّ نفسه القدسيّة كانت متّصلة بالملأ الأعلى ، ولم يكن لها ميل إلى البقاء في الدنيا ومجاورة أهلها فيها فكانت مجاورته لهم ببدنه فقط ، وأيضاً فإنّ المجاورة من عوارض الجسميّة فيحتمل أن يكون ذلك تنبيهاً منه على وجود أمر آخر غير البدن وهوالنفس ، و كنّى بالأيّام عن مدّة حياته الدنيا .

و قوله : و ستعقبون .

أي توجدون في عاقبة أمركم منّي جثّة خالية لا روح بها ولا حراك قد افقرت من تلك المعاني المعهودة لكم من العقل والنطق والقوّة فهي متبدّلة بالحراك السكون ، وبالنطق السكوت . ثمّ عاد إلى أمرهم بالاتّعاظ بذلك الهدوء و خفوت الأطراق وسكون الأطراف بالموت .

و قوله : فإنّه أوعظ للمعتبرين من المنطيق البليغ .صاحب اللسن والفصاحة .

كلام حقّ فإنّ الطباع أكثر انفعالا واعتباراً عن مشاهدة ما فيه العبرة من الوصف له بالقول المسموع ، ولو بأبلغ عبارة . ثمّ أخذ عليه السلام في توديعهم .

فقوله : وداعيكم. إنشاء لاخبر .

وقوله : وداع امرء مرصد للتلاقي .

أى معدّ و مهيّأ للقاء الله .

و قوله : غداً ترون أيّامي . إلى آخره .

تذكير لهم بفضيلته و تنبيه عليها ليثبت متّبعوه على اتّباعه ، والغافلون عن فضله و محلّه بينهم إذا فارقهم و ولّى أمرهم الظالمون بعده فلابدّ أن ينكشف لهم ما كان مغطّى عن أعين بصائرهم من لزومه للقصد في سبيل الله ، و يعرفون منزلته و فضله حين مشاهدة المنكرات ممّن يقوم مقامه خلفاً في الناس . و إنّ وقائعه وحروبه

و حرصه على هذا الأمر لم يكن لنيل دنيا بل لإقامة سنن العدل ورضا الله تعالى .

١٤٩ — ومن خطبة له عليه السلام

فى الملاحم

وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمَالاً : طَعْناً فى مَسَالِكِ الْغَيِّ ، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ ، فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ ، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِىءُ بِهِ الْغَدُ فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ ، وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ يَاقَوْمِ ، هٰذَا إِبَّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ ، وَدُنُوٌّ مِنْ طَلْعَةِ مَالَا تَعْرِفُونَ ، أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِى فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ ، وَيَحْذُو فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ ؛ لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً ، وَيُعْتِقَ رِقّاً ، وَيَصْدَعَ شَعْباً ، وَيَشْعَبَ صَدْعاً ، فِى سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ ، لَا يُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ ، وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ ، ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ ، تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ ، وَيُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِى مَسَامِعِهِمْ ، وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ .

أقول : إبّان الشيء بكسر الهمزة وتشديد الباء : وقته . والربق بكسر الراء وتسكين الباء : حبل فيه عدّة عرى يشدّ به البهم . والصدع : الشقّ . والشعب : إصلاحه . والشحذ : التحديد . والقين : الحدّاد . والغبوق : الشرب بالعشىّ . والصبوح : الشرب بالغداة .

فقوله : و أخذوا يميناً و شمالا . إلى قوله : الرشد .

إشارة إلى من ضلّ من فرق الإسلام عن طريق الهدى الّتى عليها الكتاب

والسنّة و سلكوا طرفى الإفراط و التفريط منها كما قال عليه السلام فيما قبل : اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسطى هى الجادّة . و قد سبق تفسير ذلك مستوفي . و مسالك الغىّ : أطراف الرذائل من الفضايل الّتى عدّدناها كالحكمة والعفّة والشجاعة والعدالة وما تحتها ، و مذاهب الرشد : هى تلك الفضايل ، وظعناً وتركاً مصدران قاما مقام الحال .

وقوله : فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصد .

ذلك الاستعجال إشارة إلى ما كانوا يتوقّعونه من الفتن الّتى أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن وقوعها في المستقبل، وكانوا في أكثر الوقت يسألونه عليه السلام عنها فقال : لا تستعجلوا ما هو كائن : أى لابدّ من وقوعه و هو مرصد معدّ . ولا تستبطئوا ما يجىء به الغد : أى من الفتن والوقايع .

و قوله : فكم من مستعجل . إلى قوله : لم يدركه .

ذمّ للاستعجال والاستبطاء لهذا الموعود كقوله « وعسى أن تحبّوا شيئاً و هو شرّ لكم » (١) وما أقرب اليوم من تباشير غد : أى من البشرى بغد. كقوله : غد ما غدما أقرب اليوم من غد ، و كقوله : وإن غداً للناظرين قريب . ثمّ أخذ في تقريب ذلك الموعود من الفتن فقال: هذا إبّان ورود كلّ موعود به أو وقت دنوّ ظهور ما لا تعرفون من تلك الأمور بالتفصيل .

و قوله : ألا وإنّ من أدركها منّا .

أى من أدرك تلك الفتن من أهل بيته الأئمّة الأطهار يسرى فيها بسراج المنير . واستعار لفظ السراج لكمالات نفسه الّتى استضائت بها في طريق الله من العلوم والأخلاق الفاضلة ، و لفظ المنير ترشيح. و هو إخبار عن معرفته للحقّ و تمييزه من الباطل ، و أنّ تلك الفتن لا توقع له شبهة ولا تأثير لها في عقيدته الصادقة الصافية بل يتصرّف فيها منقاداً لأنوار الله على صراطه المستقيم لا يلويه عنه ملوء بل يقتفى فيه أثر آبائه الصالحين و يلتزم مكارم الأخلاق فيحلّ ما

(١) ٢ - ٢١٣

انعقد فيها و أشكل على الناس من الشبه ، و يفكّ ربق الشكّ من أعناق نفوسهم أو يفتدى فيها الأسرى فيفكّ ربق أسرهم و يعتقهم ، و يصدع ما انشعب والتأم من ضلال يمكنه صدعه ، و يشعب ممّا انصدع من أمر الدين ما أمكنه شعبه في ستره عن الناس لا يبصر القائف أثره و لو تابع إليه نظره ، و ما زالت أئمّة أهل البيت عليهم السلام مغمورين في الناس لا يعرفهم إلّا من عرّفوه أنفسهم حتّى لو تعرّفهم من لا يريدون معرفته لهم لم يعرّفهم ، ولست أقول لم يعرف أشخاصهم بل لا يعرف أنّهم أهل الحقّ والأحقّون بالأمر .

و قوله : ثمّ ليشحذنّ فيها قوم .

أى في أثناء ما يأتى من الفتن تشحذ أذهان قوم . وتعدّ لقبول العلوم والحكمة كما يشحذ الحدّاد النصل ، ولفظ الشحذ مستعار لإعداد الأذهان ، ووجه الاستعارة الاشتراك في الإعداد التامّ النافع فهو يمضى في مسائل الحكمة والعلوم كمضىّ النصل فيما يقطع به ، وهو وجه التشبيه المذكور . ثمّ أخذ في تفسير ذلك الشحذة والإعداد، فقال : تجلّى بالتنزيل أبصارهم : أى تعدّ بالقرآن الكريم و دراسته و تدبّره أبصار بصائرهم لإدراك الحكمة و أسرار العلوم و ذلك لاشتمال التنزيل الإلهىّ عليها ، و يرمى التفسير في مسامعهم : أى يلقى إليهم تفسيره على وجهه من إمام الوقت . ثمّ عبّر عن أخذهم الحكمة و مواظبتهم على تلقّفها بعد استعدادهم لها بالغبوق والصبوح، ولفظ الصبوح والغبوق مستعاران لكونهما حقيقتين في الشرب المخصوص المحسوس. و هؤلاء المشار إليهم بالاستعداد للحكمة و أخذها هم علماء الاُمّة ممن جاء منهم قبلنا ومن في آخر الزمان من المستجمعين لكمالات النفوس السالكين لسبيل الله المرتضين في نظره ونظر الأئمّة من ولده بعده .

منها : وَطَالَ الْأَمَدُ بِهِمْ ، لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْيَ ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغِيَرَ ، حَتَّى إِذَا اخْلَوْلَقَ الْأَجَلُ ، وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ ، وَأَشَالُوا عَنْ لَقَاحِ

حَرْبِهِمْ ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللهِ بِالصَّبْرِ ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلَاءِ حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ

حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ ، وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَائِجِ ، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ ، وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ : مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ ، قَدْ مَارُوا فِي الْحَيْرَةِ ، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ .

أقول : الأمد : الوقت. والاشتيال : الرفع. والوليجة : البطانة ، وهي خاصّة الرجل من أهله وعشيرته . ورصّ الأساس : إحكامه . و ماروا : تحرّكوا .

وهذا الفصل يستدعي كلاماً منقطعاً قبله لم يذكره الرضيّ - رضوان الله عليه - قد وصف فيه فئة ضالّة قد استولت و ملكت وأملى لها الله سبحانه .

و قوله : وطال الأمد بهم ليستكملوا الخزي .

كقوله تعالى « إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً » (١) وقوله تعالى « و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميراً » (٢).

وقوله : حتّى إذا اخلولق الأجل .

أي صار خلقاً ، وهو كناية عن بلوغهم غاية مدّتهم المكتوبة بقلم القضاء الإلهيّ في اللوح المحفوظ .

---

(١) ٣ - ١٧٢ .   (٢) ١٧ - ١٧ .

وقوله : واستراح قوم إلى الفتن .

إشارة إلى من يعتزل الوقائع الّتي ستقع في آخر الزمان من شيعة الحقّ و أنصاره. ويستريح إليها : أى يجد في اشتغال القوم بعضهم ببعض راحة له في الانقطاع والعزلة والخمول ، واشتيالهم عن لقاح حربهم: رفعهم لأنفسهم عن تهييجها ، واستعار لفظ اللقاح بفتح اللام لإثارة الحرب ملاحظة لشبهها بالناقة .

و قوله : لم يمنّوا .

جواب قوله : حتّى إذا اخلولق . والضمير في يمنّوا قال بعض الشارحين : إنّه عائد إلى العارفين الّذين تقدّم ذكرهم في الفصل السابق يقول : حتّى إذا ألقى هؤلاء السلم إلى هذه الفئة الضالّة وعجزوا واستراحوا من منابذتهم إلى فتنتهم تقيّة منهم أنهض الله اُولئك الّذين خصّهم بحكمته و اطّلعهم على أسرار العلوم فنهضوا و لم يمنّوا على الله تعالى بالصبر في طاعته . وفي رواية بالنصر :أى بنصرهم له. ولم يستعظموا ما بذلوه من نفوسهم في طلب الحقّ حتّى إذا وافق القدر الّذي هو وارد القضاء و تفصيله انقطاعَ مدّة هذه الفئة وارتفاع ماكان شمل الخلق من بلائهم حمل هؤلاء العارفون بصائرهم على أسيافهم ، و فيه معنى لطيف يريد أنّهم أظهروا عقايد قلوبهم للناس و كشفوها و جرّدوها مع تجريد سيوفهم فكأنّهم حملوها على سيوفهم فترى في غاية الجلاء والظهور كما ترى السيوف المجرّدة ، و منهم من قال : أراد بالبصائر جمع بصيرة و هي الدم فكأنّه أراد طلبوا ثارهم والدماء الّتي سفكتها تلك الفئة فكانت تلك الدماء المطلوب ثارها محمولة على أسيافهم المجرّدة للحرب ، وأشار بواعظهم إلى الإمام القائم . و أقول : يحتمل أن يريد بالضمير في يمنّوا ومابعده القوم الّذين استراحوا إلى الفتنة واشتالوا عن لقاح الحرب ، و ذلك أنّهم لم يفعلوا ذلك إلّا لأنّه لم يؤذن لهم في القيام حين استراحتهم و إلقائهم السلم لهذه الفئة ، ولم يتمكّنوا من مقاومتهم لعدم قيام القائم بالأمر فكانوا حين مسالمتهم صابرين على مضض من ألم المنكر الّذي يشاهدونه غير مستعظمين لبذل أنفسهم في نصرة الحقّ لوظهر من يكون لهم ظهر يلجأون إليه حتّى إذا ورد القضاء الإلهيّ بانقطاع مدّة بلاء هذه

الفئة و ظهور من يقوم بنصر الحقّ ودعا إليه حمل هؤلاء بصائرهم على أسيافهم و قاموا لربّهم بأمر من يقوم فيهم واعظاً ومخوّفاً وداعياً ، و هذا الحمل يرجّحه عود الضمير إلى الأقرب وهم القوم .

وقوله : حتّى إذا قبض الله و رسوله . إلى آخره .

هذا الفصل منقطع عمّا قبله لأنّ صريحه ذكر غاية الاقتصاص حال حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و حال الناس قبله و بعده و معه ، و ليس في الكلام المتقدّم شيء من ذلك. اللّهم إلّا أن يحمل من طال الأمد بهم في الكلام المتقدّم على من كان أهل الضلال قبل الإسلام حتّى إذا اخلولق أجلهم واستراح قوم منهم إلى الفتن والوقائع بالنهب والغارة واشتالوا عن لقاح حربهم : أى أعدّوا أنفسهم لها كما تعدّ الناقة نفسها بشول ذنبها للقاحها : أى برفعه ، وتسمّى شائلا ، ويكون الضمير في قوله : لم يمنّوا راجعاً إلى ذكر سبق للصحابة في هذه الخطبة حين قام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيهم و بهم للحرب فلم يمنّوا على الله بصبرهم معه وفي نصرة الحقّ ، ولم يستعظموا بذل أنفسهم له حتّى إذا وافق و ارد القضاء انقطاع مدّة البلاء بدولة الجاهليّة والكفر حمل هؤلاء الّذين لم يمنّوا على الله بنصرهم بصائرهم : أى ما كانوا يخفونه من الإسلام في أوّله على سيوفهم : أى كشفوا عقائدهم كما سبق القول فيه أو دمائهم و ثاراتهم من الكفّار ، و دانوا لربّهم بأمر واعظهم و هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و حينئذ يصلح قوله : حتّى إذا قبض الله رسوله. غاية لذلك الكلام على هذا التأويل .

و قوله : رجع قوم على الأعقاب . إلى آخره .

أمّا على المذاهب الإماميّة فإشارة إلى عدول الصحابة بالخلافة عنه وعن أهل بيته عليهم السلام إلى الخلفاء الثلاثة ، و أمّا على مذهب من صحّح إمامة الخلفاء الثلاثة فيحتمل أن يريد بالقوم الراجعين على الأعقاب من خرج عليه في زمن خلافته من الصحابة كمعاوية وطلحة والزبير وغيرهم ، وزعموا أنّ غيره أحقّ بهامنه ومن أولاده. والرجوع على الأعقاب كناية عن الرجوع عمّا كانوا عليه من الانقياد للشريعة و أوامر الله و رسوله و وصيّته بأهل بيته ، وغيلة السبل لهم كناية عن اشتباه طرق الباطل

بالحقّ واستراق طرق الباطل لهم وإهلاكها إيّاهم ، وهي الشبه المستلزمة للآراء الفاسدة كما يقال في العرف : أخذته الطريق إلى مضيق ، و هي مجاز في المفرد والمركّب : أمّا في المفرد فلأنّ سلوكهم لسبل الباطل لمّا كان عن غير علم منهم بكونه باطلاً ناسب الغيلة فأطلق عليه لفظها ، وأمّا في المركّب فلأنّ إسناد الغيلة إلى السبل ليس حقيقة. إذ الغيلة من فعل العقلاء . واتّكالهم على الولائح اعتماد كلّ من رأى منهم رأياً فاسداً على أهله و خواصّه في نصرة ذلك الرأى . و وصلوا غير الرحم : أى غير الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم و ترك المضاف إليه للعلم به . و كذلك هجروا السبب الّذي اُمروا بمودّته ولزومه يريد أهل البيت أيضاً ، وظاهر كونهم سبباً لمن اهتدى بهم في الوصول إلى الله سبحانه كما قال الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : خلّفت فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى أهل بيتى حبلان ممدودان من السماء إلى الأرض لم يفترقا حتّى يردا علىّ الحوض. فاستعار لهم لفظ الحبل ، والسبب في اللغة الحبل وأمرهم بمودّته كما في قوله تعالى « قل لا أسئلكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى » (١).

و قوله : ونقلوا البناء عن رصّ أساسه فبنوه في غير موضعه .

إشارة إلى العدول بأمر الخلافة عنه و عن أهل بيته إلى غيرهم ، و صلة غير الرحم خروج عن فضيلة العدالة إلى رذيلة الظلم ، و عدم مودّة اُولى القربى رذيلة التفريط من تلك الفضيلة الداخلة تحت العفّة ، و كذلك نقل البناء عن موضعه دخول في رذيلة الظلم . ثمّ وصفهم وصفاً إجماليّاً بكونهم معادن كلّ خطيئة : أى إنّهم مستعدّون لفعل كلّ خطيئة ، ومهيّئون لها. فهم مظانّها ، و لفظ المعادن استعارة ، و كذلك أبواب كلّ ضارب في غمرة ، واستعار لفظ الأبواب لهم باعتبار أنّ كلّ من دخل في غمرة جهالة أوشبهة يثير بها فتنة ، واستعان بهم فتحوا له ذلك الباب و ساعدوه وحسّنوا له رأيه فكأنّهم بذلك أبواب له إلى مراده الباطل يدخل منها .

و قوله : قد ماروا في الحيرة .

أى تردّدوا في أمرهم فهم حائرون لايعرفون جهة الحقّ فيقصدونه ، وذهلوا:

---

(١) ٤٢ — ٢٢ .

أي غابت أذهانهم في سكرة الجهل فهم على سنّة من آل فرعون و طريقته ، و إنّما نكّر السنّة لأنّه يريد بها مشابهتهم في بعض طرائقهم، وآل فرعون أتباعه .

و قوله : من منقطع إلى الدنيا . إلى آخره .

تفصيل لهم باعتبار كونهم على سنّة من آل فرعون فمنهم المنقطع إلى الدنيا المهنمك في لذّاتها المكبّ على تحصيلها ، و منهم المفارق للدين المباين له وإن لم يكن له دنيا ، والمنفصلة مانعة الخلوّ بالنسبة إلى المشار إليهم ، و يحتمل أن يريد مانعة الجمع ، و يشير بمفارق الدين إلى من ليس براكن إلى الدنيا ككثير ممّن يدعى الزهد مع كونه جاهلاً بالطريق فتراه ينفر من الدنيا و يحسب أنّه على شيء مع أنّ جهله بكيفيّة سلوك سبيل الله يقوده يميناً و شمالاً عنها . و بالله التوفيق .

١٥٠ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ ، وَالْاعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَنَجِيبُهُ وَصَفْوَتُهُ ، لَا يُوَازَى فَضْلُهُ ، وَلَا يُجْبَرُ فَقْدُهُ ، أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ ، وَالْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ ، وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ ، وَيَسْتَذِلُّونَ الْحَكِيمَ ، يَحْيَوْنَ عَلَى فَتْرَةٍ ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلَايَا قَدِ اقْتَرَبَتْ فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ ، وَتَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ الْعَشْوَةِ ، وَاعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ ، عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا ، وَظُهُورِ كَمِينِهَا ، وَانْتِصَابِ قُطْبِهَا ، وَمَدَارِ رَحَاهَا : تَبْدُو فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ ، وَتَؤُولُ إِلَى فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ ،

شَبَابُهَا كَشَبَابِ الْغُلَامِ ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السَّلَامِ . تَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ ، أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ . يَتَنَافَسُونَ فِى دُنْيَا دَنِيَّةٍ ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ ، وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، ثُمَّ يَأْتِى بَعْدَ ذٰلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ ، الْقَاصِمَةِ الزَّحُوفِ ، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ اسْتِقَامَةٍ ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلَامَةٍ ، وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا ، وَتَلْتَبِسُ الْآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ ، يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ الْحُمُرِ فِى الْعَانَةِ ، قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ ، وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ ، تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةُ ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا ، وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا ، يَضِيعُ فِى غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ ، وَيَهْلِكُ فِى طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ ، تَرِدُ بِمُرِّ الْقَضَاءِ ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ ، وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ ، تَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ ، وَتُدَبِّرُهَا الْأَرْجَاسُ ، مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ ، كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ ، تُقْطَعُ فِيهَا الْأَرْحَامُ ، وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ ، بَرِيُّهَا سَقِيمٌ ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ .

أقول : المداحر : جمع مدحر . وهي الاُمور الّتي بها يدحر : أى يطرد . و مخاتلها : محالّ غروره الّتي يخيّل إلى الناس بها ويوهمهم أنّها نافعة . والبوائق:

جمع بائقة ، وهي الداهية . والقتام بفتح القاف : الغبار . والعشوة بكسر العين : الأمر على غير بيان و وضوح . والفظاعة : تجاوز الأمر الشديد الحدّ والمقدار . والسلام بالكسر : الحجارة الصمّ واحدها سلمة بكسر السين . والمريحة : المنتنة . و يتزايلون : يتفارقون . و نجومها : طلوعها . و أشرف لها : أى انتصب لدفعها . والتكادم : التعاضّ بأدنى الفم . والعانة : القطيع من حمر الوحش. والمسحل : المبرد، والمسحل: حلقة تكون في طرف شكيمة اللجام مدخلة في مثلها . والوحدان : جمع واحد . والعبيط : الخالص الطرىّ .

و صدّر هذا الفصل باستعانة الله تعالى على ما يدحر الشيطان و يزجر به . و ذلك هو العبادات والأعمال الصالحة المستلزمة لطرده و زجره وتطويعه ، وعلى الاعتصام من حبائله و مخاتله. و هي الشهوات واللذّات الدنيويّة ، واستعار لها لفظ الحبايل و هي أشراك الصايد لمشابهتها إيّاها في استلزام الحصول فيهما للبعد عن السلامة والحصول في العذاب ، و من ممادح الرسول صلى الله عليه وآله كونه نجيباً لله : أى مختاراً ، و روى نجيّه . و صفوة له من خلقه لا يوازى فضله : أى لا يحصل مثله في أحد . إذ كان كماله في قوّتيه النظريّة والعمليّة غير مدرك لأحد من الخلق ، و من كان كذلك لم يجبر فقده إلّا بقيام مثله من الناس ، وإذلا مثل له فيهم فلا جبران لفقده.

وقوله : أضاءت به البلاد بعد الضلالة .

أى ضلالة الكفر ، ووصفها بالظلمة لعدم الاهتداء فيها للحقّ .والوصف مستعار، و كذلك وصف الإضائة به مستعار لاهتداء الخلق به في معاشهم و معادهم ، و إسناد الإضائة إلى البلاد مجاز. أوالجهالة الغالبة على أكثر الخلق ، وأراد الجهل بالطريق إلى الله تعالى و بكيفيّة نظام المعاش ممّا بيّنه هو و كشفه بشريعته . والجفوة الجافية يريد غلظة العرب و ماكانوا عليه من قساوة القلوب و سفك الدماء ، ووصفها بما اشتقّ منها مبالغة و تأكيداً لها ، وأراد الجفوة القويّة. والناس يستحلّون الحريم الواو للحال والعامل أضاءت و يستذلّون الحكيم ، وظاهر من عادة العرب إلى الآن استذلال من عقل منهم و حلم عن الغارة والنهب و إثارة الفتن ، و استنهاضه بنسبته

إلى الجبن والضعف. و يحيون على فترة : أى على حالة انقطاع الوحى والرسل ، وتلك حال انقطاع الخير و موت النفوس بداء الجهل . و يموتون على كفرة و هي الفعلة من الكفر لأهل كلّ قرن حيث لاهادى لهم . ثمّ أخذ عليه السلام في إنذار السامعين باقتراب حوادث الوقايع المستقبلة الّتي يرمون بها كما يرمى الغرض بالسهام ، و استعار لفظ الغرض لهم ، ولمّا كانت الفتن الحادثة كتدمير قوم وإهلاكهم مثلاً بحسب استعدادهم لذلك وكان أكبر الأسباب المعدّة له هي الغفلة عن ذكر الله بالانهماك في نعم الدنيا ولذّاتها استعار للغفلات لفظ السكرات . ثمّ أمر باتّقائها ، وحذّر من دواهي النقمات بسبب كفران النعم . ثمّ أمر بالتثبّت أو التبيّن على الروايتين عند اشتباه الاُمور عليهم و ظهور الشبهة المثيرة للفتن كشبهة قتل عثمان الّتي نشأت منها وقايع الجمل و صفّين والخوارج ، واستعار لفظ القتام لذلك الأمر المشتبه ، ووجه المشابهة كون ذاك الأمر ممّا لايهتدى فيه خائضوه كما لا يهتدى القائم في القتام عند ظهوره و خوضه ، و اعوجاج الفتنة إتيانها على غير وجهها ، و لفظ الجنين يحتمل أن يكون حقيقة : أى عند طلوع ما اجتنّ منها وخفى عليكم ، و كذلك كمينها : أى ما كمن منها واستتر ، و يحتمل أن يكون استعارة ، وعنى بقطبها من تدور عليه من البغاة المنافرين استعارة. وانتصابه: قيامه لذلك الأمر ، و كذلك استعار لفظ مدار الرحى لدورانها على من تدور عليه من أنصار ذلك القطب وعسكره الّذين تدور عليهم الفتنة . ثمّ أخبر أنّها تبدء في مدارج خفيّة ، وأراد بالمدارج صدو رمن ينوى القيام فيها و يقصد [يعقد على خ] إثارتها ، وكان هذا إشارة إلى فتنة بني اُميّة ، وقد كان مبدأها شبهة قتل عثمان ، ولم يكن أحد من الصحابة يتوهّم خصوصيّة هذه الفتنة و إنّما كانوا علموا من الرسول صلّى الله عليه وآله حدوث وقايع وفتن غير معيّنة الأزمان ، ولامن يثيرها ويكون قطباً لها. فخفاء مدارجها كتمان معاوية وطلحة والزبير وغيرهم لاُمورهم و ما عزموا عليه من إقامة الفتنة والطمع في الملك والدولة حتّى آل ذلك الطمع إلى الاُمور القطعيّة الواضحة بعد الخفاء ، واستعار لفظ الشباب لقيامها و ظهورها في الناس ، ووجه المشابهة السرعة في الظهور و لذلك أكّدها بتشبيه ذلك الظهور بشباب

الغلام : أي في السرعة، ومع سرعتها لها آثار في هدم الإسلام كآثار الحجارة الصلب في الجلد ، ووجه الشبه إفسادها للبين و لنظام المسلمين كإفساد الحجر ما يقع عليه بالرضّ والكسر ، وأشار بالظلمة الّتي يتوارثونها إلى بني اُميّة بعهد الأب لابنه إلى آخرهم ، وذكر قود أوّلهم لآخرهم إلى النار والدخول في الظلم والضلالة و إثارة تلك الفتن ، واستعار لفظ القود لتهيئة الأوّل منهم أسباب الملك لمن بعده واقتداء آخرهم بأوّلهم في ذلك ، وضمير المفعول في يتوارثونها يرجع إلى تلك الفتنة. ثمّ أشار إلى صفة حالهم في إثارة تلك الفتن وتوارثها وهي المنافسة في الدنيا الدنيّة في نظر العقلاء ، واستعار لفظ التكالب لمجاذبة بعضهم لبعض عليها كالمجاذبة بين الكلاب على الميتة . واستعار لها لفظ الجيفة ، ورشّح بذكر المريحة للتنفير عنها ، و وجهها كونها مستلزمة لأذى طالبها مهروباً منها العقلاء كالهرب من الجيفة المنتنة والانزواء عنها . ثمّ أخبر بانقضائها عن قليل ، و كنّى عن ذلك بتبرّء التابع من المتبوع والقايد من المقود : أي يتبرّء كلّ من الفريقين من الآخر كما قال تعالى « إذ تبرّء الّذين اتّبعوا من الّذين اتّبعوا »[1] . و قوله « قالوا ضلّوا عنّا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً »[2] و ذلك التبرّء قيل عند ظهور الدولة العباسيّة فإنّ العادة جارية بتبرّء الناس من الولاة المعزولين خصوصاً عند الخوف ممّن تولّى عزل اولئك أو قتلهم فيتبا ينون بالبغضاء إذ لم تكن اُلفتهم ومحبّتهم إلّا لغرض دنياويّ زال ، ويتلاعنون عند اللقاء . وقيل ذلك يوم القيامة .

قوله : وعن قليل . إلى قوله : عند اللقاء .

جملة اعتراضيّة مؤكّدبها معنى تعجبّه منهم فكأنّه قال : إنهمّ على تكالبهم عليها عن قليل يتبرّء بعضهم من بعض ، و ذلك أدعى لهم إلى ترك التكالب عليها .

و قوله : ثمّ يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف ، وكان هذه الفتنة هي فتنة التتار إذ الدائره فيها على العرب . وقال بعض الشارحين : بل ذلك إشارة إلى الملحمة الكائنة في آخر الزّمان كفتنة الدّجال ، و كنّى عن أهوا لها واضطراب أمر الإسلام

(١) ٢ - ١٦١ . (٢) ٤٠- ٧٤ .

فيها بكونها رجوفاً : أى كثيرة الرجف ، و طالعها مقدّماتها و أوائلها ، و كنّى بقصمها عن إهلاك الخلق فيها ، واستعار لها لفظ الزحوف ملاحظة لشبهها بالرجل الشجاع كثيرالزحف في الحرب إلى أقرانه : أي يمشي إليهم قدماً . ثمّ شرع في بيان أفعال تلك الفتنة بالناس من إزاغة قلوب قوم عن سبيل الله تعالى بعد استقامتهاعليه، وضلال رجال : أي هلاكهم في الآخرة بالمعاصي بعد سلامة منها ، واختلاف الأهواء عن إرادةالله بهجومها ، والتباس الآراء الصحيحة بالفاسدة عند ظهورها على الناس فلايعرفون وجهالمصلحةمن غيره ، ومن يطلع إلى مقاومتها وسعى في دفعهاهلك ، واستعار لفظ التكادم إمّاالمغالبة مشيرى هذهالفتنة بعضهم لبعض أومغالبتهم لغيرهم ، وشبّه ذلك بتكادم الحمر في العانة ، و وجه التشبيه المغالبة مع الايماء : أى خلعهم ربق التكليف من أعناقهم و كثرة غفلتهم عمّا يراد بهم في الآخرة ، واستعار معقود الحبل لما كان انبرم من دولة الإسلام و استعار لفظ الحبل للدين ، و كنّى باضطرابه عن عدم استقرار قواعد الدين عند ظهور أوّل هذه الفتنة ، وعمى وجه هذا الأمر : أى عدم الاهتداء إلى وجه المصلحة ، وأشار بالحكمة الّتى تغيض فيها إلى الحكمة الخلقيّة الّتى عليها مدارالشريعة و تعليمها ، واستعار لفظ الغيض لعدم ظهورها والانتفاع بها وينطق فيها الظلمة بالأمروالنهى ، ومايقتضيه آراؤهم الخارجة عن العدل ، واستعار لفظ المسحل لماتؤذى به العرب و أهل البادية ، و وجه المشابهة اشتراك المبرد أو شكيمة اللجام و ماتؤذى به العرب منهذه الفتنة في الايذاء فكأنّها شجاع ساق عليهم فدقّهم بشكيمة فرسه أو نحو ذلك ، و كذلك استعار لفظ الكلكل لما يدهم البدو منها ملاحظة لشبهها بالناقة التي برك على الشيء فتستحقه .

و قوله : يضيع في غبارها الوحدان و يهلك فيطريقها الركبان .

كناية عن عظمتها : أيلايقاومها أحدولايخلص منها الوحدان و الركبان ، ولفظ الغبار مستعار للقليل اليسير من حركة أهلها : أى أنّ القليل من الناس إذا أرادوادفعها هلكوا فيغبارها مندون أن يدخلوا فيغمارها ، و أمّا الركبان و كنّى بهم عن الكثير من الناس فإنّهم يهلكون في طريقها و عند خوضها ، و قيل : أراد

بالوحدان فضلاء الوقت . إذيقال : فلان واحد وقته ، و بالغبار الشبه الّتى تغطى الحقّ عن أعينهم ، و يكون الركبان كناية عن الجماعة أهل القوّة ، وإذا كان هؤلاء يهلكون في طريقها : أى عندالخوض لغمراتها فكيف بغيرهم ، و كنّى بمرّ القضاء عن القتل والأسر و نحوهما ، و ظاهر كون الواردات المؤذية أو النافعة واردة عن القضاء الإلهىّ معلومة الكون ، و كذلك استعار وصف الحلب لها ملاحظة لشبهها بالناقة ، و كنّى بذلك عن سفك الدماء فيها ، ومنارالدين أعلامه وهم علماؤه ويحتمل أن يريد قوانينه الكلّيّة ، وثلمها عبارة عن قتل العلماء وهدم قواعد الدين و ترك العمل به ، وعقداليقين هوالاعتقاد الموصل إلى علم اليقين أو إلى عين اليقين و هو اعتقاد الشريعة و إيصال ذلك إلى جوارالله تعالى والقرب منه ونقضه هوتركالعمل على وفقه من تغيّره و تبدّله ، والأكياس الهاربون منها هم العلماء وأهل العقول السليمة و كلّ هذه الإشارات معلومة من فتنة من ذكرنا ، وظاهر كونهم أرجاس النفوس يرجس الشيطان أنجاسها بالهيئات البدنيّة ، و الملكات الرديئة أنجاس الأبدان بحكم الشريعة ، و كنّى عن شدّتها و كونها محلّ المخاوف بوصفى المرعاد والمبراق المستعارين ملاحظة لشبهها بالسحابة كثيرة البروق والرعود بوصف كشفها عن ساق عن إقبالها مجرّدة كالمشمّر للحرب أولأمر مهمّ ، وظاهر كونها تقطع فيها الأرحام و يفارق عليها الإسلام ، و أشار بريّها إلى من يعتقد فيهذه الدولة أنّه ذوصلاح برىء من المعاصى والآثام مع كونه ليس كذلك . إذمن الظاهر أنّ السالم فيهذه الفتنة من معصية الله قليل بل أقلّ من القليل ، و لعلّه عند الاستقراء لا يوجد ، و أشار بظاعنها إلى من يعتقد أنّه متخلّف عنها و غير داخل فيها و ظاهر كونه غير منحرف عنها ، ويحتمل أن يريد أنّ من ارتحل عنها خوفاً لاينجو منها ، وبالله التوفيق .

منها : بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ ، يَخْتِلُونَ بِعَقْدِ الْأَيْمَانِ ، وَبِغُرُورِ الْإِيمَانِ ، فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ ، وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ ، وَالْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ ، وَاقْدِمُوا عَلَى اللهِ مَظْلُومِينَ

وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ ، وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ ، وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ ، وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ الْحَرَامِ ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةَ ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ

أقول : يقال : طلّ دم فلان فهومطلول : إذا هدر ولم يطلب به . و يختلون : يخدعون ، واللعق : جمع لعقة ، وهي اسم لما تتناوله الملعقة مرّة .

فقوله : بين قتيل . إلى قوله : مستجير .

يشبه أن يكون صفة حال المتمسّكين بالدين في زمان الفتنة الأولى .

و قوله : يختلون . إلى قوله : و بغرورالايمان .

صفة حال استجلاب هؤلاء المقتولين : أي أنّهم يخدعون بإعطاء الأقسام و العهود الكاذبة و ذلك كخداع الحسين عليه السلام عن نفسه و أصحابه ، روي يختلون بالبناء للفاعل فيكون وصف حال أهل الفتنة و أتباعهم . ثمّ أخذ في نهى السامعين أن يكونوا أنصاراً للفتن الّتي يدركونها ، وأعلاماً للبدع : أي رؤساء يشار إليهم فيها ، ويقتدي بهم كما يشار إلى الأعلام البيّنة و يقتدي بها ، و في الخبر كن في الفتنة كابن لبون لاظهر فيركب ولا ضرع فيحلب .

و قوله : وأقدموا على الله مظلومين .

ليس المراد منه الأمر بالانظلام فإنّ ذلك طرف التفريط من فضيلة العدالة ، و هي رذيلة بل المراد إنّكم إذا كانت لكم مكنة من الظلم فلا تظلموا ولواستلزم ترك الظلم انظلامكم وهو كسر للنفوس عن رذيلة الظلم خصوصاً نفوس العرب فإنّها أكثر تطاولاً إلى الظلم و أمنع عن قبول الانظلام و الانفعال عنه و إن استلزم الظلم كما أشار إليه العربيّ .

و من لم يذد عن حوضه بسهامه يهدم و من لايظلم القوم يظلم

و مدارج الشيطان : طرقه ، و هي الرذائل الّتي يحسّنها ويقود إليه ، و كذلك مهابط العدوان محالّه الّتي يهبط فيها . و هي من طرق الشيطان أيضاً ، ولعق الحرام

كناية عمّا يكتسبه الإنسان من الدنيا و متاعها على غير الوجه الشرعي ، و نبّه ، باللعق على قلّتها و حقارتها بالنسبة إلى متاع الآخرة ، و نبّه على وجوب الانتهاء عمّا نهى عنه بقوله : فإنّكم بعين من حرّم عليكم . إلى آخره يقال : فلان من فلان بمرآ و مسمع وبعين منه إذا كان مطّلعاً على أمره : أي فإنّ الّذي حرّم عليكم المعصية و أوجب عليكم طاعته مطّلع عليكم و عالم بما تفعلون ، و ذلك أردع لهم من النهي المجرّد ، ولفظ العين مجاز في العلم .

١٥١ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

أَلْحَمْدُ للهِ الدَّالِ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ ، لَا تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ ؛ لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ ، الْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلِ عَدَدٍ ، وَالْخَالِقِ لَا بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ ، وَالسَّمِيعِ لَا بِأَدَاةٍ ، وَالْبَصِيرِ بِلَا تَفْرِيقِ آلَةٍ ، وَالشَّاهِدِ لَا بِمُمَاسَّةٍ ، وَالْبَائِنِ لَا بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ ، وَالظَّاهِرِ لَا بِرُؤْيَةٍ ، وَالْبَاطِنِ لَا بِلَطَافَةٍ ، بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا ، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ ، وَمَنْ قَالَ « كَيْفَ ؟ » فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ ، وَمَنْ قَالَ « أَيْنَ ؟ » فَقَدْ حَيَّزَهُ ، عَالِمٌ إِذْ لَا مَعْلُومٌ ، وَرَبٌّ إِذْ لَا مَرْبُوبٌ ، وَقَادِرٌ إِذْ لَا مَقْدُورٌ .

أقول : المشاعر : الحواس . إذ هي محلّ الشعور .

وقد حمد الله تعالى باعتبارات من أوصافه ، و في الفصل أبحاث من العلم الإلهيّ :

الأوّل : الإشارة إلى وجوده تعالى الواجب ، وللناس في إثباته طريقان :

إحديهما : إثبات وجوده بالنظر في نفس الوجود ، وقسمته إلى أقسام حاصرة ، وتقرير هذه الطريقة أن يقال : لا شكّ في وجود موجود فذلك الموجود إن كان واجب الوجود فهو المطلوب و إن كان ممكناً افتقر إلى مؤثّر بناء على أنّ العلّة المحوجة إلى المؤثّر هي الإمكان ، و ذلك الموجود إن كان ممكناً افتقر إلى غيره ولزم الدور أو التسلسل و كلاهما باطلان : أمّا الأوّل : فلأنّه لو افتقر كلّ واحد من الأمرين إلى الآخر باعتبار واحد لزم تقدّم كلّ منهما على المتقدّم على نفسه فيلزم تقدّمه على نفسه بمراتب ، وأمّا الثاني : فلأنّه ولو كانت سلسلة من علل ومعلولات لانهاية لها في الوجود لكان مجموعها ممكناً لافتقاره إلى الأجزاء الّتي هي غيره و بمجموعها علّة تامّة فهي إمّا نفسه و هو محال بالبديهة أو أمر داخل فيه و هو باطل لأنّ العلّة التامّة للمركّب علّة أوّلاً لأجزائه و إلّا لتوقّف على علّة أجزائه فلم تكن علّة تامّة له بل هي مع علّة أجزائه هذا خلف ، و إذا كانت علّة المركّب علّة أوّلاً لأجزائه لزم كون ذلك الجزء المؤثّر في المجموع مؤثّراً في نفسه أوّلا ، و في علله السابقة فيلزم تقدّمه على نفسه بمراتب غير متناهية و ذلك باطل بالبديهة فبقي أن يكون المؤثّر في ذلك المجموع إمّا أمراً خارجاً عنه أو ما يتركّب من الداخل والخارج عنه لكنّ القسم الثاني أيضاً باطل لأنّ الداخل لمّا كان جزءاً من العلّة المركّبة فله تقدّم عليها ، و هي متقدّمة على مجموع الممكنات فلها تقدّم عليه ، و على أجزائه فجزئها كذلك فله تقدّم على نفسه وعلى علله وهو باطل فبقي الأوّل لكن الموجود الخارج عن كلّ الممكنات لايكون ممكناً بل واجب الوجود ، و هو المطلوب ، و هذه طريق العلّيّين الّذين يستدلّون به على مخلوقاته و يسمّونه برهان اللمّ .

و أمّا الطريق الثانية : فهي الاستدلال بالنظر في المخلوقات وطبائعها و إمكانها وتكثّرها و قبولها للتغيّر و التركيب على مباديها . ثمّ على المبدء الأوّل ـ جلّت

عظمته ـ وهى طريق الطبيعيّين وهي الّتي أشار إليها عليه السلام بقوله : الدالّ على وجوده بخلقه ، والمتكلّمون فرّعوا هذه الطريق إلى أربع طرق :

أحدها : أنّهم استدلّوا بحدوث هذه الذوات على إمكانها و بإمكانها على حاجتها إلى موجد و مؤثّر ، وهي طريق الأشعريّ وأبي الحسين البصرى و المتأخّرين من المتكلّمين .

الثانية : استدلّوا بحدوث هذه الذوات فقط على وجود محدث لها من غير نظر إلى الإمكان فقالوا : الأجسام محدثة و كلّ محدث فله محدث ، و المقدّمة الاُولى استدلاليّة ، والثانية عندهم بديهيّة .

الثالثة : استدلالهم بإمكان الصفات ، وذلك أن بيّنوا أنّ الأجسام الفلكيّة و العنصريّة متماثلة ، ثمّ قالوا : رأينا بعضها قد اختصّ بصفات ليست للآخر فذلك التخصيص ليس للجسميّة ولا للوازمها ، وإلّا لوجب في كلّ جسم كذلك ، ولا العارض من عوارضها لأنّ الكلام في تخصيص ذلك العارض كالكلام في الأوّل و يلزم التسلسل ، ولا للطبيعة كما يقول بعض الناس لأنّها لا تفعل في المادّة البسيطة كالنقطة مثلا فعلاً مختلفاً فبقى أن يكون ذلك التخصيص لمدبّر حكيم و هو مرادنا بالصانع .

الرابعة : الاستدلال بحدوث الصفات وهو ظاهر ، وتقرير هذه الطرق و ما لها وعليها في الكتب الكلاميّة ، و ينبغي أن يخصّص المتكلّم قوله عليه السلام : الدالّ على وجوده بخلقه الطريقة الاُولى لهم ، و الثالثة فإنّه عليه السلام جعل الحدوث دليلاً على الأزليّة .

البحث الثاني : في أزليّته ، وبيانه ما ذكره عليه السلام بقوله : وبمحدث خلقه على أزليّته ، وتقرير هذه الدلالة أنّه قد ثبت في موضعه أنّ جميع المحدثات صادرة عن قدرته تعالى ومنتهية عندها فلو كان هو محدثاً لكان محدثاً لنفسه و هو باطل بالضرورة .

البحث الثالث : أنّه لا مثل له ولا شبيه ، و إليه الإشارة بقوله : و باشتباههم على أنّه لا شبيه له ، وأراد اشتباههم في الحاجة إلى المؤثّر و المدبّر ، وتقرير هذه الطريق أن نقول : إن كان تعالى غنيّاً عن المؤثّر فلا شبيه له في الحاجة إليه لكن

المقدّم حقّ فالتالي مثله ، و قيل : أراد اشتباههم في الجسميّة و الجنس و النوع و الأشكال و المقادير و الألوان و نحو ذلك ، و إذ ليس داخلا تحت جنس لبراءته عن التركيب المستلزم للإمكان ، ولا تحت النوع لافتقاره في التخصيص بالعوارض إلى غيره ، و لابذى مادّة لاستلزامها التركيب أيضاً فليس بذى شبيه في شيء من الأمور المذكورة ، والأوّل أعمّ في نفى الشبيه .

البحث الرابع : أنّ المشاعر لا تستلمه ، و بيانه أنّ استلام المشاعر مستلزم للجسميّة والأعراض القائمة بها ، وإذقد تنزّه قدسه تعالى عن الجسميّة و لواحقها فقد تنزّه عن إدراك المشاعر ولمسها .

البحث الخامس: أنّ السواتر لاتحجبه، وبيانه أنّ الحجاب والستر من لواحق ذى الجهة و الجسميّة ، و إذتنزّه قدسه عنهافقد تنزّه عن الحجب و الستر المحسوسين.

و قوله : لافتراق الصانع و المصنوع . إلى قوله : والمربوب .

التعايل راجع إلى الجمل المتقدّمة كلّها . إذ كان لكلّ من الصانع والمصنوع صفات تخصّه و يتميّز بها و هي أليق به ، و بها يفارق الآخر فالمخلوقيّة والحدوث و الاشتباه و الملموسيّة بالمشاعر و الحجب بالسواتر من لواحق الأمور الممكنة المصنوعة ، وممّا ينبغي لها و يليق بها ، و الوجود الأزليّ الّذى لا شبيه له المنزّه عن المشاعر و حجب السواتر من اواحق الصانع الأوّل الواجب وهو الّذى ينبغى له ويليق به ، ويضادّ ما سبق من أوصاف الممكنات ، و أراد بالحادّ خالق الحدود و النهايات و هو الصانع ، و اعتبار الصانع غير اعتبار الربّ لدخول المالكيّة في مفهوم الربوبيّة دون الصنع .

البحث السادس : في وحدانيّته وقد سبق برهانها ، و أراد بقوله : ليس بمعنى العدد أنّ وحدانيّته ليس بمعنى كونه مبدء لكثرة تعدّ به كما يقال في أوّل العدد واحد ، و قد علمت فيما سبق أنّ الواحد يقال بالاشتراك اللفظي على معان عديدة عرفتها و عرفت إطلاق الواحد عليه تعالى بأىّ معنىهو ، وأنّه لايجوز أن يكون مبدء للعدد بل هوتعالى واحد بمعنى أنّه لا ثانى له في الوجود بمعنى أنّه لا كثرة

في ذاته بوجه لاذهناً ولا خارجاً ، وبمعنى أنّه لم يفته من كماله شيء بل كلّ ماينبغى أن يكون له فهو بالذات والفعل .

البحث السابع : في كونه تعالى في خالقيّته منزّهاً عن الحركات و المتاعب ، و قد عرفت لميّة ذلك في الخطبة الاُولى ، وهو كونهما من لواحق الأجسام المنزّه قدسه عنها .

البحث الثامن : كونه سميعاً لا بأداة : أى لابسمع ، و قد سبق بيانه في الخطبة الاُولى .

البحث التاسع : كونه بصيراً لا بتفريق الآلة ، و تفريقها إمّا عبارة عن بعث القوّة الباصرة و توزيعها على المبصرات ، وهذا المعنى على قول من جعل الإبصار بآلة الشعاع الخارج من العين المتّصل بسطح المرئى أظهر فإنّ توزيعه أوضح من توزيع الآلة على قول من يقول : إنّ الإدراك يحصل بانطباع صورة المرئى في العين ، ومعنى التفريق على القول الثانى هو تقليب الحدقة و توجيهها مرّة إلى هذا المبصر ومرّة إلى ذاك كما يقال : فلان مفرّق الهمّة و الخاطر إذا وزع فكره على حفظ أشياء متباينة و مراعاتها كالعلم و تحصيل المال ، وظاهر تنزيهه تعالى عن الإبصار بآلة الحسّ لكونها من توابع الجسميّة و لواحقها .

البحث العاشر : كونه تعالى شاهداً : أى حاضراً لابمماسّة شيء ، والمرادتنزية حضوره عن مماثلة حضور الجسمانيّات المستلزم للقرب المستلزم لمماسّة الأجسام و تقارب أين من أين فهو تعالى الحاضر بعلمه عند كلّ شيء و الشاهد لكلّ شيء من غير قرب ولا مماسّة ولا أين مطلقا لتنزّهه عن الجسميّة ولواحقها .

البحث الحادى عشر : أنّه تعالى مباين للأشياء لا بتراخى مسافة : أى أنّ مباينته للأشياء لا تستدعى التمييز بالوضع و الأين بل بذاته فقط ، و قد سبق تقرير ذلك في الخطبة الاُولى أيضاً .

البحث الثانى عشر : أنّه الظاهر لا برؤية ، و الباطن لا بلطافة ، و ذلك أنّ الظاهر من الأجسام ماكان منها مرئيّاً بحاسّة البصر والباطن منها ماكان لطيفاً إمّا

لصغر حجمه أو لطافة قوامه كالهواء ، وظهوره تعالى وبطونه منزّه من هاتين الكيفيّتين ، وقد شرحنا هذين الوصفين غير مرّة .

البحث الثالث عشر : كونه بان من الأشياء بالقهر لها و القدرة عليها . إلى قوله : إليه . ذكر في بينونته تعالى من مخلوقاته ما ينبغي له من الصفات ، وفي بينونتها منه ما ينبغي لها فالّذى ينبغي له كونه قاهراً لها غالباً عليها و مستولياً ، و كونه قادراً على إيجادها و إعدامها ، و الّذى ينبغي لها كونها خاضعة في ذلّ الإمكان و الحاجة لعزّته و قهره وراجعة في وجودها و كمالاتها إلى وجوده ، وبذلك حصل التباين بينها و بينه .

البحث الرابع عشر : تنزيهه عن الصفات الزايدة بالقياس الّذى ذكره بقوله : من وصفه فقد حدّه ، و من حدّه فقد عدّه ، و قد مرّ هذا القياس بعينه في الخطبة الأولى بأتمّ تقرير وأبلغ تحقيق غير أنّه قال هناك : ومن أشار إليه فقد حدّه ، وقال هيهنا : ومن وصفه فقد حدّه لكن المراد بوصفه هنا هو إشارة الوهم إليه و استثباته بكيفيّات و صفات فيكون معنى العبارتين واحد .

و قوله : ومن عدّه فقد أبطل أزله .

لمّا كان عدّه عبارة عن جعله مبدءاً لكثرة معدودة أو عن كونه ذا أجزاء معدودة ، وكان ذلك من لواحق الممكنات والمحدثات الغير المستحقّة للأزليّة بالذات لاجرم كان من عدّه بأحد الاعتبارين مبطلاً أزله الّذى يستحقّه لذاته .

البحث الخامس عشر : تنزيهه أن يسأل عنه بكيف لأنّها سؤال عن الكيفيّة و الصفة و هو معنى قوله : قد استوصفه ، و قد بيّنا تنزيهه تعالى عن الكيفيّات و الصفات .

البحث السادس عشر : تنزيهه عن السؤال عنه بأين ، و ذلك لأنّها سؤال عن الحيّز والجهة اللّذين هما من لواحق الأجسام ، وقد بيّنا تنزيهه تعالى عن الجسميّة و ما ينبغي لها فليس هو سبحانه في مكان وهو في كلّ مكان بعلمه وإحاطته .

البحث السابع عشر : كونه تعالى عالماً . إذ لا معلوم . إلى قوله : مقدور .

وقد علمت معنى علمه و ربوبيّته و قدرته ، وعلمت أنّ الإشارة بإذ إلى اعتبار تقدّمه بذاته على معلوماته و معلولاته ، و ظاهر عند ذلك الاعتبار أنّه لا معلوم في الوجود سوى ذاته لذاته ولا مربوب و لا مقدور موجود هناك بل هي واجبة التأخّر عن ذلك الاعتبار سواء كانت بعد ذلك محدثة كلّها كما عليه المتكلّمون أو بعضها كما عليه الأوائل ، وبالله التوفيق والعصمة .

منها : قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ ، وَلَمَعَ لَامِعٌ ، وَلَاحَ لَائِحٌ ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ ، وَاسْتَبْدَلَ اللهُ بِقَوْمٍ قَوْمًا ، وَبِيَوْمٍ يَوْمًا ، وَانْتَظَرْنَا الْغِيَرَ انْتِظَارَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرَ ، وَإِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَعُرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ ، لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ .

إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمُ سَلَامَةٍ وَجِمَاعُ كَرَامَةٍ ، اصْطَفَى اللهُ تَعَالَى مَنْهَجَهُ ، وَبَيَّنَ حُجَجَهُ ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ ، وَبَاطِنِ حِكَمٍ ، لَا تَفْنَى غَرَائِبُهُ ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ، فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ ، لَا تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ ، وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ ، قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ ، فِيهِ شِفَاءُ الْمُشْتَفِي ، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفِي .

أقول : العرفاء : جمع عريف وهو النقيب ، وهو دون الرئيس .

وأشار بطلوع الطالع إلى ظهور الإمرة والخلافة عليه ، وانتقالها إليه ، وبلموع اللامع إلى ظهورها من حيث هي حقّ له ، وسطوع أنوار العدل بصيرورتها إليه ،

وبلوح اللائح إلى ما يلحق انتقالها إليه من الفتن و الحروب الموعودة الّتي لاحت أماراتها يومئذٍ ، وقال بعض الشارحين : المراد بالثلاثة معنى واحد ؛ و هو انتقال الخلافة إليه .

فقوله : و اعتدل مائل .

فالمائل الخلافة فيمن كان قبله في نظره . إذ كان اعتقاده أنّه أولى بها وأنّ العدل أن يكون فيه ، و اعتدل ذلك المائل بانتقالها إليه ، واستبدل الله بقوم : أي من سبق عليه قوماً : أي وهو وتا بعوه ، وبيوم يوماً كناية عن زمانهم بزمانهم .

و قوله : وانتظرنا الغير انتظار المجدب المطر .

إشارة إلى ما كان يتوقّعه من انتقال هذا الأمر إليه ، وأراد بالغير تغيّرات الدهر و تقلبات الأحوال .

فإن قلت : أليس هو المطلّق للدنيا فأين هذا القول من طلاقها ثلاثاً ؟

قلت : إنّه يطلّقها من حيث هي دنيا ، ولم يردها لذاتها ، ولم يطلّقها من حيث يعمر بها الآخرة بإنكار المنكرات ، وإظهار العدل وإقامة عمود الدين و حراسته فإنّ طلبه لها إنّما كان لذلك كما سبق في قوله لابن عبّاس بذي قار وهو يخصف نعله ، و شبّه انتظاره للغير بانتظار المجدب للمطر ، ووجه الشبه شدّة التوقّع و انتظاره ، و يمكن أن يلاحظ في وجه الشبه لواحق الأمرين المنتظرين . إذ من لواحق ما انتظره هو عن الغير و انتقال الأمر إليه شمول العدل وظهور الحقّ في موارده المشبّه لوقع المطر في الأرض المجدبة ، واستلزامه للخير و البركة . ثمّ شرع في تعريف حال الأئمّة وما نصبوا له .

و قوله : لا يدخل الجنّة إلّا من عرفهم وعرفوه .

معناه أنّ أهل كلّ عصر لا يدخلون الجنّة إلّا بمعرفة إمامهم و معرفته لهم ، وأراد الأئمّة من ولده عليه السلام و معرفتهم معرفة حقّ ولايتهم وصدق إمامتهم ، وبيان الحصر من وجهين :

أحدهما : أنّ دخول الجنّة لا يمكن لأحد من هذه الأمّة إلّا باتّباع الشريعة

و لزوم العمل بها و لا يمكن ذلك إلّا بمعرفتها و معرفة كيفيّة العمل بها، ولايمكن ذلك إلّا ببيان صاحب الشريعة والقائم بها، و إرشاده و تعليمه، و ذلك لايمكن إلّا بمعرفة المأموم للإمام و حقيّة إمامته و صدق ولائه له ليقتدي به، ومعرفةالإمام للماموم ليهديه فإذن دخول الجنّة مستلزم لمعرفة الإمام للمأمومين و معرفتهم له.

الثاني: أنّ معرفة هؤلاء الأئمّة على رأيه عليه السلام كما هو المشهور المنقول عنه، و معرفة حقيّة إمامتهم وصدق ولايتهم ركن من أركان الدين فلايدخل الجنّةإلّا من أقامه، ومن عرفهم كذلك وجبت معرفتهم له بذلك.

فإن قلت: فنحن نرى كثيراً من شيعة هؤلاء الأئمّة و محبّيهم لاتعرفهم الأئمّة ولايرون أشخاصهم.

قلت: لا يشترط في معرفتهم لمحبّيهم ومعرفة محبّيهم لهم المعرفة الشخصيّة العينيّة بل الشرط المعرفة على وجه كلّي، وهو أن يعلموا أنّ كلّ من اعتقد حقّ إمامتهم واهتدى بما انتشر من هديهم فهو وليّ لهم، ومقيم لهذا الركن من الدين فيكونون عارفين بمن يتولاّهم على هذا الوجه و من يتولّاهم عارفاً بهم لمعرفته بحقيّة ولايتهم، واعتقاد ما يقولون وإن لم يشترط المشاهدة والمعرفة الشخصيّة، وأمّا أنّه لايدخل النار إلّا من أنكرهم و أنكروه فهو أيضاً حقّ و ذلك أنّ دخول الجنّة مستلزم لمعرفتهم على الوجه الّذي قرّرناه و منحصر فيه فكلّ واحد واحد ممّن يدخل الجنّة عارف بهم، وذلك يستلزم أنّه لا واحد ممّن يدخل الجنّة بمنكر لهم لأنّ معرفتهم و إنكارهم ممّا لايجتمعان في ملزوم واحد.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ من أنكرهم فأنكروه لايجوز أن يكون أعمّ ممّن يدخل النار: أمّاأوّلاً فللخبر المشهور من مات ولم يعرف إمام وقته مات ميتة جاهليّة دلّ الخبر على أنّ إنكارهم مستلزم للميتة الجاهليّة المستلزمة لدخول النار، وأمّا ثانياً فلأنّه لو كان أعمّ لصدق على بعض من يدخل الجنّة فبعض المنكر لهم يدخل الجنّة فينعكس بعض من يدخل الجنّة منكر لهم، وقدبيّنّا أنّه لاواحد

ممّن يدخل الجنّة بمنكر لهم هذا خلف ، و كذلك لايجوز أن يكون أخصّ وإلّا لصدق على بعض من يتولّاهم و يعترف بصدق إمامتهم أنّه يدخل النار لكن ذلك باطل لقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : يحشر المرء مع من أحبّ ، و لقوله : لو أحبّ رجل حجراً لحشر معه دلّ الخبر على أنّ محبّة الإنسان لغيره مستلزمة لحشره معه ، وقد ثبت أنّهم عليهم السلام إلى الجنّة يحشرون فكذلك من أحبّهم واعترف بحقيّة إمامتهم ، ودخول الجنّة مع دخول النار ممّا لايجتمعان فثبت أنّه لاواحد ممّن يحبّهم ويعترف بحقّهم يدخل النار فقد ظهر إذن صدق هذه الكلّيّة أيضاً ، ووجه الحصر فيها . ثمّ أخذ في إظهار منّة الله تعالى عليهم بالقرآن الكريم وتخصيصهم به من سائر الكتب و استخلاصهم له ، وإعدادهم لقبوله من سائر الاُمم . ثمّ نبّه على بعض أسباب إكرامه تعالى لهم به أمّا من جهة اسمه فلأنّه مشتقّ من السلامة بالدخول في الطاعة ، وأمّا من معناه فمن وجوه :

أحدها : أنّه مجموع كرامة من الله لخلقه لأنّ مدار جميع آياته على هداية الخلق إلى سبيل الله القائدة إلى جنّته .

الثاني : أنّ الله تعالى اصطفى منهجه ؛ وهو طريقته الواضحة المؤدّية للسالكين بأيسر سعي إلى رضوان الله .

الثالث : أنّه تعالى بيّن حججه ، و هي الأدلّة والأمارات ، ومن للتمييز والتقسيم هنا تقسيم الحجج إلى ظاهر علم ، وأشار إلى ظواهر الشريعة و أحكامها الفقهيّة وأدلّة تلك الأحكام ، و باطن حكم و أشار به إلى ما يشتمل عليه الكتاب العزيز من الحكمة الإلهيّة و أسرار التوحيد و علم الأخلاق والسياسات وغيرها .

الرابع: أنّه لاتفنى عزائمه [غرائبه خ] وأراد بالعزايم هنا آياته المحكمة وبراهينه العازمة : أي القاطعه ، وعدم فنائها إشارة إمّا إلى ثباتها واستقرارها و طول المدّة وتغيّر الأعصار ، و إمّا إلى كثرتها عند البحث والتفتيش عنها .

الخامس : ولاتنقضي عجائبه ؛ وذلك أنّه كلّما تأمله الإنسان استخرج منه بفكره لطائف معجبة من أنواع العلوم لم يكن عنده من قبل .

السادس : فيه مرابيع النعم ، واستعار لفظ المرابيع ؛ وهي الأمطار تأتي زمن الربيع فتحيي الأرض و تنبت الكلاء لما يحصل عليه الإنسان من النعم ببركة القرآن ، و لزوم أوامره و نواهيه و حكمه وآدابه : أمّا في الدنيا فالنعم الّتي تحصل ببركته لحامليه من القرّاء والمفسّرين وغيرهم ظاهرة الكثرة ، وأمّا بالنسبة إلى الآخرة فما يحصل عليه مقتبسوا أنواره من الكمالات المسعدة في الآخرة من العلوم و الأخلاق الفاضلة أعظم نعمة وأتمّ فضل ، ووجه الاستعارة ظاهر .

السابع : أنّ فيه مصابيح الظلم ؛ و استعار لفظ المصابيح لقوانينه و قواعده الهادية إلى الله في سبيله كما يهدي المصباح في الطريق المظلمة .

الثامن : أنّه لاتفتح الخيرات إلّا بمفاتيحه ، وأراد الخيرات الحقيقيّة الباقية، واستعار لفظ المفاتيح لمناهجه و طرقه الموصلة إلى تلك الخيرات ، ووجه الاستعارة كونها أسباباً موصلة إليها كما أنّ المفاتيح أسباب موصلة إلى خيرات الخزائن مثلا

التاسع: ولاينكشف الظلمات إلّا بمصابيحه ، وأراد ظلمات الجهل ، وبالمصابيح قوانينه كما سبق استعارة .

العاشر : كونه قد أحمى حماه : أي هيّأه وعرّضه لأن يحمى كما يقال : أقتلت فلاناً وأضربته إذا هيّأته للقتل و عرّضته للضرب ، واستعار لفظ الحمى لحفظه وتدبّره والعمل بقوانينه ، ووجه الاستعارة أنّ بذلك يكون حفظ الشخص وحراسته: أمّا في الدنيا فمن أيدى كثير من الظالمين لاحترامهم حملة القرآن و مفسّريه ، ومن يتعلّق به ، وأمّا في الآخرة فلحمايته حفظته و متدبّريه والعامل به من عذاب الله كما يحمي الحمى من يلوذ به ، ونسبة الإحماء إليه مجاز إذ المعرض له أن يتدبّر ويعمل به هو الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله و حملته ، وقيل : أراد بحماه محارمه ، وأحماه : أي منع بنواهيه وزواجره أن يستباح محارمه ، وهو أخصّ ممّا قلناه أوّلاً .

الحادي عشر : و كذلك أرعى مرعاه : أي هيّأه لأن يرعى ، واستعار لفظ المرعى للعلوم والحكم و الآداب الّتى يشتمل عليها القرآن ، ووجه المشابهة أنّ هذه مراعي النفوس الإنسانيّة و غذاؤها الّذى به يكون نشوها العقلىّ و نمائها

الفعليّ كما أنّ المراعي المحسوسة من النبات والعشب غذاء للأبدان الحيوانيّة الّتي بها يقوم وجودها .

الثاني عشر : فيه شفاء المشتفي : أي طالب الشفاء منه : أمّا في الأبدان فبالتعوّذ به مع صدق النية فيه وسلامة الصدور ، وأمّا في النفوس فلشفائها به من أمراض الجهل .

الثالث عشر : و كفاية المكتفي ، و أراد بالمكتفي طالب الكفاية : أمّا من الدنيا فلأنّ حملة القرآن الطالبين به المطالب الدنيويّة هم أقدر أكثر الناس على الاحتيال به في تحصيل مطالبهم و كفايتهم بها ، وأمّا في الآخرة فلأنّ طالب الكفاية منها يكفيه تدبّر القرآن و لزوم مقاصده في تحصيل مطلوبه منها ، وبالله التوفيق .

١٥٢ ـ ومن خطبة له عليه السّلام

وَهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ اللهِ يَهْوِي مَعَ الْغَافِلِينَ ، وَيَغْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ :

أقول : هذا الفصل يشتمل على صفة مطلق الضالّ ، و أشار بالمهلة إلى مدّة عمره المضروبة له من الله تعالى ، ويهويه مع الغافلين إلى سقوطه وانخراطه في سلكهم بسبب جهله وغفلته عمّا يراد به ، واستعار لفظ الهوى لذلك الانخراط وتلك المتابعة، ووجه المشابهة أنّ المنهمك في مجارى الغفلة ومسالك الجهل ينحطّ بها عن درجة أهل السلامة ، ويهوى في مهابط الهلاك وهى الرذايل المبعّدة عن الله تعالى كما أنّ الهاوى من علوّ كذلك ، ويغدو مع المذنبين موافقته لهم فيماهم فيه ، ومسارعته إلى المعاصى من غير أن يسلك سبيلاً قاصداً للحقّ ويتّبع إماماً يقوده إليه من اُستاد مرشد أو كتاب أو سنّة ، وبالله التوفيق .

مِنْهَا : حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ غَفْلَتِهِمْ ، اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً ، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا

مِنْ طَلِبَتِهِمْ ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ ! وَإِنِّي أُحَذِّرُكُمْ وَنَفْسِي هٰذِهِ الْمَنْزِلَةَ ، فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ ؛ فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَدًا وَاضِحًا يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي ، وَالضَّلَالَ فِي الْمَغَاوِي ، وَلَا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغُوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ . فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ ، وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ ! وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ ، وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ ، وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذٰلِكَ إِلَى غَيْرِهِ ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ ، وَضَعْ فَخْرَكَ ، وَاحْطُطْ كِبْرَكَ ، وَاذْكُرْ قَدْرَكَ ؛ فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ ؛ وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ ، وَكَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَدًا ، فَامْهَدْ لِقَدَمِكَ ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ . فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ ، وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ ، وَلَهَا يَرْضَى

أقول : الجلباب : الملحفة . والوطر : الحاجة . والجدد : الطريق الواضح . واستنجح الحاجة : استقضائها .

وصدر هذا الفصل صفة غاية الغافلين عن أحوال الآخرة المشمّرين في طلب الدنيا ، وفاعل كشف ضمير يعود إلى اسم الله تعالى فيما سبق من الكلام ، وقد علمت أنّ النفس ذاجهتين : جهة تدبير أحوالها البدنيّة بمالها من القوّة العمليّة ، وجهة

استكمالها بقوّتهما النظريّة الّتي تتلقّى بها من العاليات كمالها ، وعلمت أنّ بقدر خروجها عن حدّ العدل في استكمال قوّتها العمليّة تنقطع عن الجهة الاُخرى ، و تكشفها الهيئات البدنيّة فتكون في أغطية منها و جلابيب من الغفلة عن الجهة الاُخرى بالانصباب إلى ما يقتنيه ممّا يعدّ خيراً في الدنيا ، وبحسب انصبابها في هذه الجهة ، وتمكّن تلك الهيئات البدنيّة منها يكون بعدها عن بارئها ونزولها في دركات الجحيم عن درجات النعيم ، وبالعكس كما قال صلّى الله عليه وآله : الدنيا و الآخرة ضرّتان بقدر ما تقرب من إحديهما تبعد من الاُخرى ، وظاهر أنّ بالموت تنقطع تلك الغفلة وتنكشف تلك الحجب فيومئذٍ يتذكّر الإنسان وأنّى له الذكرى ، ويكون ما اثيبه يومئذٍ من تعلّق تلك الهيئات بنفسه و حطّها له عن درجات الكمال و ما شاهده من السلاسل و الأغلال هو جزاء معصيتهم المنكشف لهم ، و لفظ الجلابيب استعارة لفظ المحسوس للمعقول ، و وجه المشابهة حجب الغفلة لا غير بصائرهم عن التنوّر بأنوار الله كحجب الوجه بالجلباب ، والمدبر الّذي استقبلوه هو العذاب الاُخرويّ ، و الأهوال الّتي كانت غائبة عنهم ، و المقبل الّذي استدبروه هو ما كانوا فيه من مأمولاتهم وأحوالهم الدنيويّة ، وظاهر أنّهم لم ينفعوا إذن بما أدركوا من طلباتهم الدنيويّة ، ولا بماقضوا من أوطارهم وحاجاتهم الحاضرة فيها . ثمّ عاد إلى التحذير من هذه المنزلة : أي الحالة الّتي هؤلاء الموصوفون عليها من الغفلة فإنّها مقام صعب و مزلّة قدم ، وشرك نفسه في التحذير لأنّه أدخل في جذب نفوس السامعين إلى طاعته .

ثمّ أمر كلاًّ بالانتفاع بنفسه ، وشرح كيفيّة الانتفاع بشرح حال البصير لأنّه لا ينتفع بنفسه إلّا البصير ، وذكر اُموراً :

فالأوّل ؛ أن يتفكّر فيما يسمعه من كلام الله ورسوله و المواعظ البالغة فإنّه لاينتفع بها بدون الفكر كما علمته .

الثاني : أن ينظر بعين حسّه ، و بصيرته فيتوخّى المقاصد النافعة فيبصرها و يدرك بعقله منها العبر .

الثالث: أن ينتفع بمايدركه من العبر وذلك بالعمل على وفق ما علم و أدرك .

الرابع : أن يسلك الصراط المستقيم الّذي وردت به الشريعة و هو الجدد الواضح ، ويتجنّب فيه العدول والانحراف بأنّه من انحرف عنه ولو باليسير انصرع في مهراة وضلّ في مغواة ، وقد نبّهناك فيما سلف على ذلك بالمثل الّذي ضربه النبيّ صلى الله عليه وآله حيث قال : ضرب الله مثلاً مستقيماً ، و على جنبتي الصراط أبواب مفتّحة ، و عليها ستور مرخاة ، وعلى رأس الصراط داع يقول : جوزوا و لا تعرّجوا . قال : فالصراط هو الدين ، و هو الجدد الواضح هنا ، و الداعي هو القرآن ، والأبواب المفتّحة محارم الله ، وهي المهاوي و المغاوي هنا ، و الستور المرخاة هي حدود الله ونواهيه . ثمّ نهى أن يعين الإنسان على نفسه الغواة بأحد اُمور : أن يتعسّف في حق : أي لايحملهم على مرّ الحقّ وصعبه فإنّ الحقّ له درجات بعضها أسهل من بعض فالاستقصاء فيه على غير أهله يوجب لهم النفرة عمّن يقوله و يأمره به ، والعداوة له و القول فيه ، ويحتمل أن يريد بالتعسّف في الحقّ التكلّف في العمل به مع نوع من التقصير فيه فإنّ الغواة هم تاركوا الحقّ فإذا وجدوا ركيكاً فيه أو متكلّفاً للعمل به مقصّراً طمعوا في الأبنة للباطل فكان قد أعانهم على نفسه بذلك ، و كذلك إذا آنسوا منه الكذب و التحريف في القول أو التخوّف من الصدق كأن ادعى لهم من الطمع في انفعاله لباطلهم و إدخاله فيه فكان معيناً لهم على إغواء نفسه بذلك . ثمّ عاد إلى أمر السامع بأوامر :

أحدها : الإفاقة من سكرة الجهل و التيقّظ من الغفلة في الدنيا ، و لفظ السكرة مستعار ، و وجه المشابهة كون الغفلة مستلزمة لترك إعمال العقل كما أنّ السكر كذلك .

الثاني : بالاختصار من العجلة ، وأراد بالعجلة سرعة الحركة في طلب الدنيا والاهتمام بها ، وباختصارها تخفيف تلك الحركة وتقليلها .

الثالث : بإنعام الفكر فيما دار على لسان الرسول صلى الله عليه وآله و كثر من ذكر الموت وعرض النفوس على ديّانها ، وإنعام الفكر في ذلك تدقيق النظر في حال الموت و ما بعده ، والاعتبار بما لابدّ منه ولا محيص عنه من ذلك .

الرابع : بمخالفة من خالف ذلك ونظر في غيره مما عنه بدّ من أحوال الدنيا وزينتها ، وأن يدع ذلك المخالف ، وما رضى لنفسه من التعوّض بالأُمور الفانية عن الأُمور الباقية ، و ما يستلزم ذلك من الشقاوة الأُخرويّة .

الخامس : أن يضع الفخر و يحطّ الكبر ، و قد سبق بيان ما في الكبر من الآفات ، و الفخر مستلزم للكبر . إذ كلّ مفتخر متكبّر أومتلازمان .

السادس : أن يذكر قبره لأنّ في ذكره عبرة تامّة .

وقوله : فإنّ عليه ممرّك .

تنبيه له على وجوب الذكر له فإنّ السالك لطريق لا بدّ من سلوكها إذا كان فيها منزل موحش مظلم وجب الاستعداد له بحمل الضوء للاستنارة فيه ، و الإنسان في سلوكه لطريق الآخرة لابدّ له من المرور بالقبر وأحكام الشارع أكثرية، ثمّ نبّهه بالمثلين المشهورين : كما تدين تدان على وجوب حسن المعاملة مع الله سبحانه . إذ كان حسن جزائه بقدر حسن معاملة العبد ، و قبحه بقبحها ، و كذلك قوله : كما تزرع تحصد ، ولفظ الزرع مستعار لما يفعله الإنسان فيكسب نفسه ملكة خيريّة أو شرّيّة ، و كذلك لفظ الحصد للحصول على ما تثمره تلك الآثار ، وتستلزمه من ثواب أوعقاب ، و وجه الاستعارتين ظاهر .

و قوله : و كما قدّمت اليوم تقدم عليه غداً .

ظاهر فإنّ الهيئات النفسانيّة الّتي هي ثمرات الأفعال المستلزمة للسعادة أو الشقاوة و إن كانت مستصحبة للنفس مدّة بقائها في الدنيا أيضاً إلّا أنّها لاتنكشف لها إلّا بعد المفارقة كما سبق بيانه فتكون حينئذٍ حالة الانكشاف بمنزلة من قدم على أمر لم يكن معه ، وإذا كان كذلك فينبغي للإنسان أن يمهّد لقدمه : أي يوطىء موضع قدمه في الآخرة بطيب الأعمال ، و يقدّم صالحها ليوم قيامته . ثمّ عاد إلى تحذيره من حيث هو مستمع للموعظة ، وإلى أمره بالجدّ في العمل لما بعد الموت و اليقظة من الغفلة ، ونبّهه باقتباس الآية على أنّ الواعظ له خبير بأحوال طريق الآخرة وأهوالها ولا يخبر بحقائق الأُمور كالعارف بها . ثمّ عاد إلى التحذير من

بعض الكبائر الّتي نصّ القرآن المجيد أنّها مستلزمة للعقاب لا محالة ، و الذكر الحكيم هو القرآن ، وقد سبق بيان معنى العزائم منه ، وقيل : هو اللوح المحفوظ ،

وَيَسْخَطُ ، أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْداً - وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ - أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا لَاقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هٰذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا : أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ ، أَوْ يَعُرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ ؛ اعْقِلْ ذٰلِكَ فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ .

إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا ، وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا ، وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ .

اسم إنّ أنّه لاينفع ، و الضمير في أنّه ضمير الشأن ، و فاعل ينفع أن يخرج ، ولاقياً نصب على الحال ، وأراد أنّ من جملة نصوص الله سبحانه الّتي هي في محكم كتابه العزيز الّتي باعتقادها والعمل على وفقها يثيب و يرضى ، و بتركها يعاقب و يسخط أنّه لاينفع عبداً خروجه من الدنيا لاقياً ربّه بأحد الخصال المذكورة وإن أجهد نفسه في العمل وأخلص فيه :

أحدها : الشرك بالله تعالى ، و قد سبق منّا بيان درجات الشرك ، وبقدرقوّته و ضعفه يكون قوّة العقاب وضعفه ، و النصّ الدالّ على مضرّته المستلزم لعدم نفعه قوله تعالى « إنّ الله لا يغفر أن يشرك به » (١) وقوله : فيما افترض عليه من عبادته

(١) ٤ - ٥١ .

يفهم منه أنّه أراد الشرك بالرياء في العبادة لا اتّخاذ إله ثان ، و هذه الآية تلحق النفس تارة من غلبة الجهل عليها واستيلاء الغفلة و ترك النظر في المعرفة و التوحيد و تارة من غلبة الشهوة كما تلحق نفس المرائي بعبادته لطلب الدنيا .

الثانية : أن يشفي غيظه بهلاك نفس ، وفي نسخة نفسه ، ونفس أعمّ وذلك الهلاك تارة في الدنيا كما يستلزمه السعي بالنميمة إلى الملوك ونحوه ، وتارةً في الآخرة باكتساب الآثام المستلزم لشفاء الغيظ ، و النصّ فيه قوله تعالى « و من يقتل مؤمناً متعمّداً فجزائه جهنّم خالداً فيها » (١) الآية ، و هذه الآفة تلحقها بواسطة القوّة الغضبيّة .

الثالثة : أن يقرّ بأمر فعله غيره : أي يتمّ على غيره بأمر فعله ذلك الغير فيستلزمه إهلاكه وأذاه فيدخل فيمن يسعى في الأرض فساداً ، و النصّ عليه قوله « إنّما جزاء الّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا » (٢) الآية ، و روى الشارحين يعرّ بالعين المهملة . قال : ومعناه أن يقذف غيره بأمر قد فعله هو فيكون غيره منصوباً مفعولاً به ، و العامل يعرّ يقال عرّه يعرّه عرّا : أي غابه ولحظه (لطخه خ) فعلى هذا يكون داخلاً في جملة الفاسقين والكاذبين و الموذين للمؤمنين بغير ما اكتسبوا ، و هذه الآفة تلحق النفس بشركة من الشهوة والغضب.

الرابعة : أن يستنجح حاجة إلى الناس باظهار بدعة في دينه كشاهد الزور لغاية يصل إليها ، والمرتشي في الحكم والقضاء .

الخامسة: أن يلقى الناس بوجهين أو يمشي فيهم بلسانين : أي يلقى كلاً من الصديقين مثلاً بغير ما يلقى به الآخر ليفرّق بينهما أو بين العدوّين ليضرى بينهما ، و بالجملة أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه فيدخل في زمرة المنافقين ، و وعيد المنافقين في القرآن « إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار » (٣) و مطابقة ذلك من العقل أنّ من انتقش لوح نفسه بهيئات السوء و لم يمحها بالتوبة ألحقه فهو من أصحاب النار .

وقوله : اعقل ذلك .

---

(١) ٤ - ٩٤ . (٢) ٥ - ٣٧ (٣) ٤ - ١٤٤ .

أي اعقل ما أضرب لك من المثل ، واحمل عليه ما يشبهه فإنّ المثل دليل على شبهه و ذلك المثل قوله : إنّ البهائم . إلى قوله : والفساد فيها .

فقوله : إنّ البهائم همّها بطونها .

إشارة إلى أنّ الإنسان المتّبع لشهوته بمنزلة البهيمة في اتّباع قوّته الشهويّة ، والاهتمام بالطعام والشراب دون المطالب الحقيقيّة .

و قوله : إنّ السباع همّها العدوان على غيرها .

إشارة إلى أنّ متّبع القوّة الغضبيّة بمنزلة السبع في اتّباعها و محبّة الانتقام و الغلبة على الغير .

وقوله : وإنّ النساء همّهنّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها .

إشارة إلى أنّ النساء متّبعة للقوّتين : الشهويّة ولها كان همّهنّ زينة الحياة الدنيا ، والغضبيّة ولها كان همّهنّ الفساد في الدنيا فالتابع لشهوته وغضبه لاحق بالنساء في ذلك . ثمّ لمّا حصر متابع الشرّ في قوّتي الشهوة و الغضب ذكر المؤمنين بصفات ثلاث كلّ منها يستلزم كسر تينك القوّتين ؛ وهي الاستكانة لله و الخضوع له . ثمّ الاشفاق من غضبه . ثمّ الخوف من عقابه ، وظاهر كون كلّ واحد من هذه الصفات جاذباً لهم عن طرف الافراط في القوّتين و الخروج عن حدّ العدل فيهما ، وغاية هذا المثل التنفير عن طاعة الشهوة والغضب بالتنبيه على أنّ الخارج فيهما عن حدّ العدل إلى ما لا ينبغي إمّا أن يشبه البهيمة أو السبع أو المرأة ، و كلّ منها ممّا يرغب العاقل عنه ، و هو الّذي أمر بعقليّته فانظر إلى ما اشتمل عليه هذا الكلام من الإشارة اللطيفة الّتي يشهد عليه عليه السلام بمشاهدة الحقّ كما هو ، و إذا اعتبرت ذلك وأمثاله من الحكم البالغة ونظرت إلى أنّه عليه السلام لم يرجع فيه إلى مطالعة كتاب أو استفادة بحث علمت أنّه فيض ربّاني بواسطة إعداد سيّد البشر والأستاد المرشد صلى الله عليه وآله قال الشارح الفاضل عبد الحميد بن أبي الحديد ـ رحمه الله ـ إنّما رمز بباطن هذا الكلام إلى الرؤساء يوم الجمل لأنّهم حاولوا أن يشفوا غيظهم بإهلاكه و إهلاك غيره من المسلمين وعيّروه عليه السلام بأمرهم فعلوه ، وهو التأليب على عثمان وحصره واستنجحوا

حوائجهم إلى أهل البصرة بإظهار البدعة و الفتنة و لقوا الناس بوجهين و لسانين لأنّهم بايعوه و أظهروا الرضا به . ثمّ نكثوا من وجه آخر فجعل ذنوبهم هذه بمنزلة الشرك في أنّها لاتغفر إلّا بالتوبة . قال : وهذا معنى قوله : اعقل ذلك فإنّ المثل دليل على شبهه . وبالله التوفيق .

١٥٣ – وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَنَاظِرُ قَلْبِ اللَّبِيبِ : بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ ، دَاعٍ دَعَا وَرَاعٍ رَعَا ، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي ، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِيَ

قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ ، وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . نَحْنُ الشِّعَارُ ، وَالْأَصْحَابُ ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا ، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً .

أقول : الأمد : الغاية . وغوره ونجده : منخفضه ومرتفعه . وأرز بفتح الراء : أي انقبض وانجمع .

وناظر قلب اللبيب : عين بصيرته . وظاهر أنّه يبصر بها طريقه وغايته الّتي هي متوجّه إليها ومطلوبه منها ، وغوره ونجده طريقاه للخير والشرّ وهما النجدان في قوله تعالى « وهديناه النجدين »[1] وعبارة القرآن المجيد أخصر ، وهذه العبارة أنسب إلى المعنى فإنّ الغور هو المنخفض والمستفل أنسب إلى أن يعبّر به عن رتبة النازلين في دركات الجحيم من النجد ، وأشار بالداعي إلى الرسول صلى الله عليه وآله وما جاء به القرآن الكريم والسنّة ، وبالراعي إلى نفسه ، والأمر بالاستجابة للأوّل والاتّباع للثاني ، و ظاهر وجوب الاستجابة لله و رسوله لقوله تعالى « يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم »[2] فيجب اتّباع من أوجبا اتّباعه .

(١) ٢٠ - ١٠ (٢) ٨ - ٢٤ .

و قوله : قد خاضوا بحار الفتن .

يحتمل أن يكون التفاتاً إلى صفة قوم معهودين للسامعين كمعاوية و أصحاب الجمل والخوارج ، ويحتمل أن يكون منقطعاً عمّا قبله متّصلاً بكلام لم يحكه الرضيّ ـ رضوان الله عليه ـ و إليه ذهب بعض الشارحين . قال : و هو ذكر قوم من أهل الضلال قد كان أخذ في ذمّهم وعيبهم ، ولفظ البحار مستعار لما عظم من الفتن والحروب ، وقدعرفت وجه الاستعارة قبل ، ورشّح بذكر الخوض ، والبدعة قديراد بها ترك السنّة ، و قد يرادبها أمر آخر يفعل مع ترك السنّة ، و هو الأظهر في العرف . ثمّ التفت إلى ذكر فضيلته فاستعار لفظ الشعار لنفسه وأهل بيته ، و وجه المشابهة ملازمتهم للرسول صلى الله عليه وآله وسلم واختصاصهم به كما يلزم الشعار الجسد . ثمّ ذكر كونهم أصحاباً له . ثمّ كونهم خزنة علمه كما نقل عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو خازن علمي ، وفي رواية عيبة علمي ، وقيل : خزنة الجنّة على معنى أنّ من جاء يوم القيامة بولايتهم دخل الجنّة و إلّا فلا ، و لفظ الخزن على التقديرين مستعار ، و وجه المشابهة تصرّفهم بمنع العلم و إعطائه أو بمنع الجنّة بسببهم ، و إعطائها كما أنّ الخازن للشيء كذلك . ثمّ كونهم الأبواب : أي أبواب العلم كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : أنا مدينة العلم و عليّ بابها وأبواب الجنّة على الاستعارة السابقة.

و قوله : لا تؤتى البيوت إلّا من أبوابها ، وذلك لوجوه :

أحدها : العادة الجارية على وفق الحكمة .

الثاني : النصّ «و اتوا البيوت من أبوابها و اتّقوا الله» .

الثالث : العرف وهوأنّه من أتاها من غير أبوابها سمّي سارقاً ، والتقبيح العرفيّ يستلزم الترك ، و مراده أنّ من طلب العلم و الحكمة و أسرار الشريعة فليرجع إلينا ، وبالله التوفيق .

منها : فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمنِ ، إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا ، فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ ، وَلْيَكُنْ مِنْ

أَبْنَاءِ الآخِرَةِ فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ ، فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ يَكُونُ مُبْتَدَأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ : أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ ؛ فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَسَائِرٍ فِي غَيْرِ طَرِيقٍ ، فَلَا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ إِلَّا بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ ، وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَسَائِرٍ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ ، فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ

وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَى مِثَالِهِ ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ ، وَمَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ » . وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً ، وَكُلُّ نَبَاتٍ لَا غِنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ : فَمَا طَابَ سَقْيُهُ طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ .

أقول : الإشارة إلى فضائل أهل البيت عليهم السلام فالأولى : فيهم كرائم الإيمان : أي نفائسه المستلزمة لأشدية القرب من الله تعالى كالأخلاق الفاضلة و الاعتقادات الحقة المطابقة لما عليه الأمر نفسه .

الثانية : و هو كنوز الرحمن : أي خزائن علمه و ساير ما أمر به من مكارم الأخلاق .

الثالثة : ملازمة منطقهم للصدق .

الرابعة : اختصاصهم بالحكمة التي لا يتمكن غيرهم من النطق بها و السبق إليها حال سكوتهم فهم إن نطقوا فبحكمة و إن صمتوا فحكمة و وضع للصمت في

موضعه ، وإنّما ذكر هذه الفضائل لنفسه وأهل بيته جذباً إلى سماع قوله ودعوته إلى الله و لذلك عقّب بالمثل فليصدق رائد أهله ، و أشار به إلى من يحضرنا طلباً لاختيارنا فليصدق من يعينه أمر، إنّنا أهل الحقّ وينابيع العلوم والحكمة والأدلاء إلى الله كما يصدق الرائد لطلب الكلاء والماء أهله مبشّراً بهما ، و ليحضر عقله لما يقوله ليعرف صحّة ماادّعيناه . ثمّ شرع فيما ينبغي أن يقوله أمثاله ، وهو التنبيه على أحوال الآخرة ، وأن يكون العاقل من أبنائها ، و وجه استعارة البنوّة هيهنا .

قوله : فإنّه منها قدم وإليها ينقلب .

أى كما أنّ الابن ينقلب عن الاُمّ وإليها وله ورجوعه كذلك الإنسان مبدؤه الحضرة الإلهيّة فعنها ينقلب وإليها يعود فينبغي أن يكون من أبنائها بالرغبة فيها و الوله إليها و العمل لها . ثمّ نبّه العاقل ذا الفكر السليم الناظر بعين بصيرته على ما ينبغي له أن يبدأ به في حركاته وسكناته و هو أن يتفقّد أحوال نفسه فيما يهمّ به وينبعث في طلبه أوتركه ، ويعلم أذلك الخاطر أوتلك الحركة مقرّبة له من الله تعالى فيكون له فينبغي أن يمضى فيها أومبعّده له عن رضاه و مستلزمة لسخطه فيكون عليه فيقف عنها . ثمّ شبّه الجاهل في حركاته و سكناته بالسائر على غير طريق و أشار إلى وجه التشبيه بقوله : فلا يزيده بعده عن الطريق إلّا بعداً عن حاجته . إذ كان بعده عن مطلوبه بقدر بعده عن طريق ذلك المطلوب ، وبضدّه العامل بالعلم في سلوكه و قربه من مطلوبه ، ونفر بذلك التشبيه عن الجهل و زاد في التنفير بقوله : فلينظر ناظر أساير هوأم راجع فإنّه إذا علم أنّه سائر وجب أن يعلم كيف يسير و يشعل مصباح العلم ليسلم من الضلال والصرعة في مهاوي الهلاك .

و قوله : واعلم أنّ لكلّ ظاهر باطناً . إلى قوله : ويبغض بدنه .

فاعلم أنّ هذه القضيّة الكلّيّة صادقة و ذلك أنّه لمّا صدر عن الجود الإلهيّ عالما الغيب و الشهادة و إن شئت عالم الخلق و الأمر و إن شئت العالم الروحانيّ والجسمانيّ اقتضت الحكمة الإلهيّة كون عالم الشهادة طريقاً للنفوس البشريّة إلى عالم الغيب ولولاها لتعذّر السفر إلى الحضرة الإلهيّة و انسدّ طريق الترقّي إلى

الله فكان جميع ما ظهر في عالم الشهادة مثالاً مناسباً لأمر باطن من عالم الغيب هو الطريق إليه ، والدليل عليه غير أنّ المفهوم من كلامه ﷺ هنا تخصيص تلك الكلّيّة بأحد أمرين فإنّه إمّا أن يشير بالظاهر إلى أشخاص الناس أو إلى أفعالهم الظاهرة، و الباطن إشارة إلى الأخلاق و أعمال القلوب و ما في الأمزجة المختلفة من الخير والشرّ، وقيل : إشارة إلى مايخفى من الثواب والعقاب في الآخرة ، وقد دلّ الاستقراء و القياس على أنّ حسن الصورة أو حسن الأعمال الظاهرة الّتي تبدو من الإنسان حسن الأخلاق طيّب العشرة مستقيم السيرة ، وعلى أنّ قبيحها سيّء الأخلاق شرير أمّا الاستقراء فظاهر ، وأمّا القياس فلأنّ حسن الأخلاق وقرب النفس من الاستقامة على طلب الحقّ مقتضى قرب المزاج من الاعتدال ، و كذلك حسن الصورة فيترتّب قياس هكذا : حسن الصورة معتدل المزاج و كلّ معتدل المزاج حسن الأخلاق فحسن الصورة حسن الأخلاق، وإن شئت هكذا : معتدل المزاج حسن الصورة ومعتدل المزاج حسن الأخلاق والقضيّتان أكثريّتان فإنّ بعض حسن الصورة قبيح الباطن ، وبعض خبيث الظاهر حسن الباطل ، و لذلك استشهد بما رواه عن الرسول ﷺ فإنّ الله يحبّ العبد من حيث صورته الحسنة لكونها مقتضى الحكمة الإلهيّة وأنسب إلى الوجود من القبيحة الّتي هي أنسب إلى العدم الّذي هو الشرّ المحض ويبغض عمله من جهة ما هو شرّ ، و كذلك يحبّ العمل الحسن الباطن الطيب ، ويبغض بدنه القبيح لنسبته إلى العدم الّذي هو شرّ ، و أمّا النصّ في دلالة الظاهر على الباطن فما نطق به القرآن الكريم «والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربّه و الّذي خبث لا يخرج إلّا نكداً» (١) أي عسراً مشوماً . قال ابن عبّاس و مجاهد و الحسن و قتادة و السدى : هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن و الكافر بالأرض العذبة التربة و بالأرض السبخة المالحة ، و شبّه فيه المؤمن الّذي إذا سمع القرآن وعاه و عقله و انتفع به فبان أثره عليه بحسن الأعمال وطيّبها بالبلد الطيّب . إذ كان البلد الطيّب يمرع و يخصب و يحسن أثر المطر عليه ، و شبّه الكافر الّذي يسمع القرآن فلا يؤثّر فيه أثراً محموداً بالبلد

(١) ٧ - ٥٦ .

الخبيث . إذكان لايمرع ولا يخصب ولا يتبيّن أثر المطر فيه ، وأمّا البغض والمحبة فقد علمت أنّهما يعودان في الله سبحانه إلى إرادته وكراهيته فما كان خيراً محضاً أو الخير غالب عليه فهو مراد له بالذات ، و ما كان شرّاً محضاً أو غالباً فهو مراد له بالعرض مكروه له بالذات .

و قوله : وأعلم أنّ لكلّ عمل نباتاً .

استعار لفظ النبات لزيادة الأعمال ونموّها ، ورشّح تلك الاستعارة بذكر الماء . و كنّى بهعن المادّة القلبيّة للأعمال ، و وجه المشابهة أنّ الحركات في العبادة إنّما تكون بالميول القلبيّة والنيّات كما أنّ حركة النموّ للنبات إنّما تكون بالماء ، وظاهر أنّ اختلاف المياه في الحلاوة و الملوحة سبب لاختلاف استعداد النبات لطيب المغارس و الثمار فما طاب سقيه : أي نصيبه من الماء طابت ثمرته و ماخبثت ثمرته فكذلك ما يشبه النباتات و هي الأعمال يكون طيب ثمارها و هي ثمار الجنّة و أنواع لذّاتها بحسب طيب مادّتها من الإخلاص لله ، وخبثها بحسب خبث مادّتها من الرياء و حبّ الشهرة و تكون ثمرتها أمرّ الثمار . إذ لا أمرّ مذاقاً من عذاب النار . وبالله التوفيق .

١٥٤ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يذكر فيها بديع خلقة الخفاش

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى انْحَسَرَتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ ، هُوَ اللّٰهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَاهُ الْعُيُونُ ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً ، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً ، خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ ، وَلَا مَشُورَةِ مُشِيرٍ ،

ولا معونة معين، فتم خلقه بأمره، وأذعن لطاعته فأجاب ولم يدفع وانقاد ولم ينازع.

ومن لطائف صنعته، وعجائب حكمته؛ ما أرانا من غوامض الحكمة فى هذه الخفافيش التى يقبضها الضياء الباسط لكل شىء، ويبسطها الظلام القابض لكل حى، وكيف عشيت أعينها، عن أن تستمد من الشمس المضيئة نورا تهتدى به فى مذاهبها، وتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها، وردعها تلألؤ ضيائها عن المضى فى سبحات إشراقها، وأكنها فى مكامنها عن الذهاب فى بلج ائتلاقها، فهى مسدلة الجفون بالنهار على أحداقها، وجاعلة الليل سراجا تستدل به فى التماس أرزاقها، فلا يرد أبصارها إسداف ظلمته، ولا تمتنع من المضى فيه لغسق دجنته، فإذا ألقت الشمس قناعها، وبدت أوضاح نهارها، ودخل من إشراق نورها على الضباب فى وجارها أطبقت الأجفان على مآقيها، وتبلغت بما اكتسبت من فىء ظلم لياليها. فسبحان من جعل الليل لها نهارا ومعاشا، والنهار سكنا وقرارا، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران، كأنها شظايا الآذان غير ذوات ريش ولا قصب، إلا أنك ترى مواضع العروق بينة أعلاما،

لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا ، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا ، تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لَاصِقٌ بِهَا ، لَاجِئٌ إِلَيْهَا : يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ ، لَا يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ ، فَسُبْحَانَ الْبَارِئِ لِكُلِّ شَيْءٍ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ .

أقول : الخفاش : مفرد جمعه خفافيش ، وهو من الخفش و هو ضعف البصر خلقةً . وانحسرت : كلت . وردعت : كفّت . والمساغ : المسلك . وسبحات إشراقها : جلالته وبهاؤه . والبلج : جمع بلجة وهو أوّل ضوء الصبح ، و قد يكون مصدراً . و الائتلاق : اللمعان . والاسداف : مصدر أسدف الليل ظلم . و غسق الدجّنة : ظلام الليل . و وضح النهار : ضوءه . و وجار الضبّ : بيته . والشظايا : القطع .

و قد حمد الله تعالى باعتبارات :

الأوّل : انحسار الأوصاف عن كنه معرفته ، و لمّا كانت ذاته تعالى بريئةً من أنحاء التراكيب لم يمكن العقول إدراكها بشيء من الأوصاف بالكنه ، و قد سبق ذلك مراراً .

الثاني : ردع عظمته العقول عن بلوغ غاية ملكوته ، و ذلك ظاهر لأنّ الادراك للاشياء بحقائقها إنّما يتمّ بادراك حقائق عللها ، وإذا استلزمت عظمته وارتفاعه عن إدراك العقول ردعها عن معرفة كنهه فظاهر أنّها لا تجد مسلكاً إلى غاية ملكوته ، و ما عليه نظام الوجود الأعلى و الأسفل كما هو .

الثالث : قوله : هو فهو الهوية المطلق ، و هو الّذي لا يكون هويّته موقوفة على غيره و مستفادة منه فانّ كلّ ماكان مستفاداً من الغير فما لم يعتبر غيره لم يكن هو فلم يكن هو هو المطلق ، و كلّ ما كان هو هو لذاته فسواء اعتبر غيره أولم يعتبر فهو هو لكن كلّ ممكن فوجوده من غيره فكلّ ما كان وجوده من غير فخصوصيّة

وجوده وتعيّنه من غيره و هو الهويّة فإذن كلّ ممكن فهويّته من غيره فلا يكون هو هو لذاته لكنّ المبدء الأوّل هو هو لذاته فلا يكون من غيره فلايكون ممكناً فهو واجب لذاته فإذن واجب الوجود هو الّذي لذاته هو هو بل ذاته أنّه هو البرائة عن التركيب المستلزم للإمكان.

الرابع: تعقيبه لذكر الهويّة باسم الله، و ذلك لأنّه لمّا كانت تلك الهويّة و الخصوصيّة عديمة الاسم لا يمكن شرحها إلّا بلوازمها، و اللوازم منها إضافيّة و منهاسلبيّة، واللوازم الإضافيّة أشدّ تعريفاً والأكمل في التعريف هو اللازم الجامع لنوعي الإضافة و السلب، و ذلك هو كون تلك الهويّة إلها فإنّ الإله هو الّذي ينسب إليه غيره ولا ينسب هو إلى غيره فانتساب غيره إليه إضافيّ، و عدم انتسابه إلى غيره سلبيّ فلا جرم عقّب ذكر الهويّة بما يدلّ على ذلك اللازم لأكمليّته في التعريف من غيره ليكون كالكاشف لما دلّ عليه لفظ هو، وفيه سرّ آخر، و هو أنّه لمّا عرّف تلك الهويّة بلازمها، و هو الإلهيّة نبّه على أنّه لا جزء لتلك الهويّة و إلّا لكان العدول عنه إلى التعريف باللازم قصور.

الخامس: ذكر الحقّ، و هو الثابت الموجود فإنّه لمّا أشار إلى الهويّة و شرح اسمها عقّب ذلك بالإشارة إلى كونها حقّاً موجوداً وجودها عند العقول أحقّ وأبين ممّا[عمّا خ] ترى العيون، وذلك ظاهر فإنّ العلم بوجود الصانع - جلّت عظمته - فطرىّ للعقول و إن احتاج إلى بيّنة ما. و العلوم الّتي مستندها الحس قد يقع الخلل فيها بسبب مايقع للوهم من اشتباه المحسوسات وعدم ضبطها أو بسبب تقصير الحسّ في كيفيّة الأداء لصورة المحسوس فكانت المعقولات الصرفة أحقّ لإدراك العقل لها بذاته.

السادس: أنّ العقول لم تبلغه تجديد فيكون مشبّهاً، وفيه إشارة لطيفة تدل على كمال علمه عليه السلام، و ذلك أنّك علمت في المقدّمات أنّ العقول إذا قويت على الاتّصال بالأمور المجرّدة، و كانت القوّة المتخيّلة بحيث تقوى على استخلاص الحسّ المشترك وضبطه عن الحواسّ الظاهرة فإنّ النفس والحال هذه إذا توجّهت

لاقتناص أمر معقول وانجذبت القوى النفسانيّة أثرها انتقشت بذلك المعقول . ثمّ إنّها تستعين في ضبط ذلك الأمر بالقوّة المتخيّلة فتحاكيه بما يشبهه من الاُمور المحسوسة . ثمّ تحطّه إلى خزانة الخيال فيصير مشاهداً ممثّلاً .

إذا عرفت ذلك فنقول : لو كان الباري تعالى ممّا تدركه العقول و تشتبه بحدّ وصفة لكان استثباتها له على النحو المذكور فيلزم أن يكون مشبّهاً بغيره من الأجسام ، والجسمانيّات ليثبت صورته عند الذهن ، و قد تنزّه قدس الله عن التشبيه بشيء منها .

السابع : و كذلك لم تقع الأوهام عليه بتقدير فيكون ممثّلاً . إذ الوهم لا يدرك إلّا المعاني الجزئيّة المتعلّقة بالمحسوسات ، ولابدّ له في إدراك ذلك المدرك من بعث المتخيّلة على تشبيهه بمثال من الصور الجسمانيّة فلو وقع عليه و هم لمثّله في صورة حسّية حتّى أنّ الوهم إنّما يدرك نفسه في مثال من صورة و حجم ومقدار .

الثامن : خلقه [خلق خ] الخلق على غير مثال . إلى قوله : معين ، و قد سبق أيضاً بيانه في الخطبة الاُولى وغيرها ، و تمام خلقه بأمره بلوغه إلى غايته في الكمال الممكن له إذ [إذا خ] نطقت البراهين العقليّة أنّ كلّ ما أمكن لشيء وصل إليه من الجود الإلهي المنزّه عن البخل و المنع من جهته ، و إذعانه لطاعته دخوله تحت القدرة الإلهيّة ، و كذلك إجابته من غير مدافعة وانقياده من غير منازعة .

ثمّ شرع في مقصود الخطبة ، وهو حمد الله تعالى باعتبار بعض لطائف صنعه و عجائب خلقه ، والتنبيه على غوامض حكمته في خلقة هذا الحيوان المخصوص ، وبدأ بالتعجّب من مخالفتها لساير الحيوان في قبض الضياء لإبصارها مع بسطها لسائر إبصار الحيوانات وإعداده لانبساط النبات ونموّه و غيره . ثمّ من بسط الظلام لإبصارها مع قبضه لساير الإبصار . ثمّ نبّه على العلّة الطبيعيّة لذلك وهوعشاء أعينها وضعفها أن تستمدّ من نورالشمس المضيئة نوراً تهتدي به ، و الّذي ذكر في علّة ذلك الضعف هو إفراط التحلّل في الروح الحامل للقوّة الباصرة من هذا الحيوان إذا لقى حرّ النهار فيصيبه لذلل التحلّل ضعف يحتاج معه إلى التعوّض عمّا يتحلّل فيرجع عن

يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا هٰذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللهُ بِهَا ؟ فَقَالَ : « يَا عَلِيُّ ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ ، فَشَقَّ ذٰلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتَ لِي « أَبْشِرْ ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ » ؟ فَقَالَ لِي « إِنَّ ذٰلِكَ لَكَذٰلِكَ ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذًا ؟ » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ لَيْسَ هٰذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ ، وَلٰكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ ، وَقَالَ « يَا عَلِيُّ ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي بِأَمْوَالِهِمْ ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ بِأَيِّ الْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذٰلِكَ ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ ؟ فَقَالَ : « بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ »

أقول : صدر هذا الفصل صفة حال أهل القبور في القيامة . ومصائر الغايات : الجنّة والنار ، وظاهر أنّ لكلّ دار منهما أهل لا يستبدلون بها ، و يجب أن يعنى بأهل النار الكفّار ليتمّ قوله : لا يستبدلون بها ولا ينقلون عنها فإنّ العصاة من أهل القبلة و إن صحّ أنّهم يعذّبون لكن ثبت أنّهم ينتقلون عنها .

وقوله : وإنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . إلى قوله : من رزق . حثّ عليهما ، يذكر كونهما خلقين من خلق الله . و اعلم أنّ إطلاق لفظ الخلق على الله استعارة لأنّ حقيقة الخلق أنّه ملكة نفسانيّة تصدر عن الإنسان

بها أفعال خيريّة أو شرّيّة . وإذ قد تنزّه قدسه تعالى عن الكيفيّات و الهيئات لم يصدق هذا اللفظ عليه حقيقة لكن لمّا كان الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من الأخلاق الفاضلة أشبه ما نعتبره له تعالى من صفات الكمال و نعوت الجلال الّتي ينسب إليها ما يصدر عنه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والأفعال الخيريّة الّتي بها نظام العالم وبقاؤه كحكمته و قدرته وجوده و عنايته وعدم حاجته ما يتعارف من الأخلاق الفاضلة الّتي تصدر عنها الأفعال الخيريّة و الشرّيّة فاستعير لها لفظ الأخلاق ، واُطلق عليه. فأمّا كونهما لا يقرّبان الأجل ولا ينقصان الرزق فلأنّ كثيراً من ضعفاء الاعتبار العقليّ يمنعهم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر توهّم أحد الأمرين ، وخصوصاً ترك نهى الملوك من المنكرات . ثمّ شرع في الحثّ على لزوم كتاب الله بأوصاف نبّه بها على فضيلته :

الأوّل : كونه الحبل المتين ، ولفظ الحبل مستعار له ، و وجه المشابهة كونه سبباً لنجاة المتمسّك به من الهوى في دركات الجحيم كالحبل في نجاة المتمسّك به ، ورشّح بذكر المتانة .

الثاني : كونه نوراً مبيناً ، ولفظ النور أيضاً استعارة له باعتبار الاهتداء به إلى المقاصد الحقيقيّة في سلوك سبيل الله .

الثالث : كونه الشفاء النافع : أي من ألم الجهل، و كذلك الريّ الناقع : أى للعطشان من ماء الحياة الأبديّة كالعلوم والكمالات الباقية .

الرابع : كونه عصمة للمتمسّك و نجاة للمتعلّق ، و معناه كالّذي سبق في كونه حبلا .

الخامس : لا يعوجّ فيقام . إذ ليس هو كسائر الآلات المحسوسة .

السادس : ولا يزيغ فيستعتب : أى يطلب منه العتبى والرجوع إلى الحقّ كما يفعله سائر الحكام من الناس .

السابع : كونه ولا تخلقه كثرة الردّ: أي الترديد في الألسنة وولوج الأسماع و هو من خصائص القرآن الكريم فإنّ كلّ كلام نثر أو نظم إذا كثرت تلاوته مجّته

الايمان بالتفسير المذكور إذا اعضده البرهان كان علماً و هو روح العلوم ، و يطلق اسم الايمان عليه مع ثمراته ، وهي الأعمال الصالحة لأنّها من كمالاته و لا تمام له ولا منفعة بدونها فإنّ العلم إذا لم يعضد بالعمل فهو قليل الفائدة في الآخرة بل لا ثمرة له فهو كالخراب الغير الصالح للاقتناء فكمالا يصلح الخراب للسكنى فكذلك العلم الخالى عن الأعمال الصالحة فلذلك قال عليه السلام في موضع آخر : العلم مقرون بالعمل ، والعلم يهتف بالعمل فإن جاء به وإلّا ارتحل ، و أمّا قوله : و بالعلم يرهب الموت . فلأنّ العلم بالله تعالى و غاية خلقه للإنسان و ملاحظة نسبة الدنيا إلى الآخرة و العلم بأحوال المعاد يستلزم ذكر الموت ودوام ملاحظته و ذلك مستلزم لرهبته والعمل له ولما بعده .

وقوله : وبالموت يختم الدنيا .

ظاهر إذالدنيا عبارة عمّافيه الإنسان قبل الموت من التصرّفات البدنيّة .

و قوله : وبالدنيا تحرز الآخرة .

إشارة إلى أنّ الدنيا محلّ الاستعداد لتحصيل الزاد ليوم المعاد ، وفيهايحصل كمال النفوس الّذي تحرز به سعادة الآخرة . وقد سبق بيانه .

و قوله :[بالقيامة تزلف الجنّة للمتّقين وتبرز الجحيم للغاوين خ].

إشارة لطيفة ذكرناها غير مرّة . و هو أنّ بالموت وطرح جلباب البدن يتبيّن ما للإنسان و ما عليه ممّا قدّم من خير أو شرّ و إن كانت ثمرة ذلك أثراً حاصلاً للنفس في الدنيا لأنّ التألّم به و الالتذاذ إنّما يحصل لها بعد طرح البدن . و إليه الإشارة بقوله تعالى « يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وماعملت من سوء تودّ لو أنّ بينها و بينه أمداً بعيداً » (١) و لفظ الإزلاف والبروز يشهدبذلك لأنّ فيه معنى الظهور : أى ظهور الإدراك إذن .

و قوله : و إنّ الخلق لا مقصر لهم عن القيامة . إلى آخره .

كلام في غاية الحسن مع غزارة الفائدة ، و هو إشارة إلى أنّه لا بدّ لهم من

---

(١) ٣ - ٢٨ .

ورود القيامة . و مضمارها : مدّة الحياة الدنيا . و هو لفظ مستعار ، و وجه المشابهة كون تلك المدّة محلّ استعداد النفوس للسباق إلى حضرة الله كما أنّ المضمار محلّ استعداد الخيل للسباق ، و قدسبق بيان ذلك في قوله : ألا وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق ، ومرقلين: حال. و إرقالهم كناية عن سيرهم المتوهّم في مدّة أعمارهم إلى الآخرة وسرعة حثيث الزمان بهم في إعداد أبدانهم للخراب، و الغاية القصوى هي السعادة و الشقاوة الاُخرويّة .

منها : قَدْ شَخَصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ ، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ ، لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا : لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا ، وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَإِنَّهُمَا لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ ، وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ ، وَالرِّيُّ النَّاقِعُ . وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ لَا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ ، وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ وَوُلُوجُ السَّمْعِ . مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ ،

وقام إليه رجل وقال : أخبرنا عن الفتنة ، وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال عليه السلام : لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ : (الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَنْزِلُ بِنَا وَرَسُولُ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، فَقُلْتُ :

مقامها ، و من المعلوم المعتاد ما يقع بين المرأة و ابنة زوجها من غيرها من الكدر ، و كان سبب البغض من المرأة لبنت الزوج حركة المتخيّلة با قامة البنت مقام الاُمّ الّتي هي ضرّة لها و تشبيهها بها فتقيمها مقام الضرّة ، وتتوهّم فيها العداوة والبغضاء ثمّ ينشأ ذلك الخيال ويقوى بأسباب اُخرى فيتأكّد البغض خصوصاً إن كان الزوج أكرم لبنته كما هو المنقول من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حقّ فاطمة عليها السلام ، و أمّا من جهة البنت فلتخيّلها أنّها ضرّة اُمّها وتوهّمها بسبب ذلك بغضها لها ، و الباغض للاُمّ باغض للبنت لا محالة، ويتأكّد ذلك بالميل المنقول عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حقّ عايشة و إيثارها على سائر نسائه ، و النفوس البشريّة خصوصاً نفوس النساء تغيظ على ما دون ذلك فكيف بذلك منه صلى الله عليه وآله وسلم ، و لا شكّ في تعدّى ذلك إلى نفس بعلها عليه السلام فا نّ النساء كثيراً مايحصل بسببهنّ الأحقاد في قلوب الرجال ، و عن بعض الحكماء: إذا رأيت في الدنيا خصومة ليست بسبب امرأة فاحمد الله تعالى فا نّها أمر عجيب ، و كثيراً ما كانت فاطمة عليها السلام تشكو إلى بعلها من عايشة . ومنها ما كان من أمر قذف عايشة ، و نقل إنّ عليّاً عليه السلام كان من المشيرين بطلاقها تنزيهاً لعرض الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أقوال المنافقين ، وقال له لمّا استشاره : إن هي إلّا شسع نعلك ، و قال : اسئل الخادمةوخوّفها فا ن أقامت على الجحود فاضربها. و بلغها كلّ ذلك الكلام وسمعت أضعافه من الغير ممّا جرت عادة الناس أن يتداولنه في مثل هذه الواقعة ، و نقل إليها النساء : إنّ عليّاً عليه السلام وفاطمة سرّا بذلك. فتفاقم الأمر وغلظ . ثمّ لمّا نزلت براءتها و صالحها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ظهر منها ما جرت العادة بظهوره ممّن انتصر بعد ظلمه وينتصر بعد غلبه من بسط اللسان و التبجّح بالبراءة من العيب ، و فلتات القول في أثناء ذلك . و بلغ ذلك عليّاً و فاطمة عليهما السلام ، و منها كون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سدّ باب أبي بكر من المسجد و فتح باب صهره ، و منها بعثه إيّاها بسورة براءة ، ثمّ أخذها منه و دفعها إلى عليّ عليه السلام . إلى غير ذلك من الأسباب الجزئيّة الّتي تشهد بها قرائن الأحوال ولاتكاد تتبيّن بالأقوال. فا نّ كلّ ذلك ممّا يثير الأحقاد ويؤكّد الأضغان .

و قوله : ولو دعيت . إلى آخره .

كلام حقّ لمكان الباعث لها في حقّه دون غيره .

و قوله : ولها بعد حرمتها الاُولى .

وجه اعتذاره في الكفّ عن أذاها بعد استحقاقها للأذى في نظره، و حرمتها بنكاح رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و كونها زوجة له .

و قوله : و الحساب على الله .

تنبيه على أنّه و إن سامحها في الدنيا بما فعلت فإنّ الله تعالى هو المتولّى لحسابها في الآخرة ، ولعلّ هذا الكلام منه عليه السلام قبل إظهارها للتوبة و علمه بذلك لأنّه في معنى إظهار الوعيد لها من الله .

منها : سَبِيلٌ أَبْلَجُ الْمِنْهَاجِ . أَنْوَرُ السِّرَاجِ . فَبِالْإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَبِالْإِيمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا ، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الْآخِرَةُ ، وَإِنَّ الْخَلْقَ لَا مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ ، مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى .

أقول : [اُزلفت]: قدّمت و قربت . والإرقال: ضرب من الخبب . ولا مقصر له عن كذا : أي لا محبس .

و مبدء الفصل في وصف الإيمان ، والمراد بالإيمان التصديق القلبيّ بالتوحيد و بما جاء به الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ولا شكّ في كونه سبيلاً أبلج واضح المسلك إلى الجنّة أنور السراج في ظلمات الجهل ، و لفظ السراج مستعار ، و الصالحات هي الأعمال الصالحات من ساير العبادات ومكارم الأخلاق الّتي وردت بها الشريعة ، و ظاهرٌ كونها معلولات للإيمان و ثمرات له يستدلّ بوجوده في قلب العبد على ملازمته لها استدلالاً بالعلّة على المعلول ، و يستدلّ بصدورها من العبد على وجود الإيمان في قلبه استدلالاً بالمعلول على العلّة ، و أمّا قوله : و بالإيمان يعمر العلم . فلأنّ

العضو الباصر منها طلباً لبدل ما يتحلّل فيستكمل البدل بقرب الليل لمكان برده و ضعف حرارة النهار فيعود الإبصار ، و وصفه عليه السلام بهذه الخاصيّة منها و كيفيّة حالها فيها إلى قوله : ظلم لياليها . وصف لامزيد على فصاحته .

و قوله : وتتّصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها .

في غاية الفصاحة . ومعارفها ما تعرفه من مذاهبها ووجوه تصرّفاتها ، و تتّصل عطف على قوله : تستمدّ ، و أمّا إسدالها لجفونها على حداقها فلأنّ تحلّل الروح الحامل للقوّة الباصرة سبب للنوم أيضاً فيكون ذلك الإسدال ضرباً من النوم وكثيراً ما يلحق كثيراً من الحيوان و سببه ما ذكرناه ، و استعار لفظ القناع للشمس ملاحظة لشبهها بالمرأة ذات القناع ، و كنّى بإلقائه عن بروزها من حجاب الأرض . ثمّ ثنّى بتسبيح الله و تعظيمه باعتبار أمر آخر لها على سبيل التعجّب و هو خلق أجنحتها من لحم بلاريش و لا قصب كساير أجنحة الطير بل من عروق و رقّ تبسطه و تقبضه على مفاصل مخصوصة من غير رقّة توجب له الانشقاق عند الطيران ، ولاغلظ يوجب له الثقل . ثمّ ثلّث بعجيب حالها مع ولدها، وذلك أنّه يلصق بها فيرتضعها و لا يفارقها في حالتي وقوعها و طيرانها حتّى يشتدّ و يمكنه الطيران و التصرّف بنفسه ، وذلك أمر يخالف به أيضاً ساير الحيوان وهو محلّ التعجّب . ثمّ ختم الفصل بتسبيح الله تعالى باعتبار خلقه لكلّ شيء من غير مثال سبق من غيره، و من الأمثال العامّة :قيل للخفّاش : لما ذا لاجناح لك ؟ قالت : لأنّي تصوير مخلوق . قيل : فلما ذا لا تخرج نهاراً ؟ قال : حياء من الطيور. يريدون أنّ المسيح عليه السلام صوّره. وإنّ إليه الإشارة بقوله تعالى «وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني »[1] وفي الطير عجائب لاتهتدي لها العقول بل و في كلّ ذرّة من ذرّات مبدعاته و مكوّناته لطائف و أسرار كالنحل و البعوض و النمل تعجز عن إدراكها واستقصاء أوصافها ألباب الألبّاء وحكمة الحكماء فسبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه .

---

(١) ٥ ـ ١١٠ .

١٥٥ — ومن خطبة له عليه السلام

خاطب به أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم

فَمَنِ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللهِ فَلْيَفْعَلْ ! فَإِنْ أَطَعْتُمُونِى فَإِنِّى حَامِلُكُمْ - إِنْ شَاءَ اللهُ - عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ .

وَأَمَّا فُلَانَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْىُ النِّسَاءِ ، وَضِغْنٌ غَلَا فِى صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِى مَا أَتَتْ إِلَىَّ لَمْ تَفْعَلْ . وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى ، وَالْحِسَابُ عَلَى اللهِ .

أقول: اعتقل نفسه : أي ضبطها وحبسها . و الضغن : الحقد . والمرجل : القدر . و قوله : عند ذلك .

يقتضى أنّه سبق منه قبل هذا الفصل ذكر فتن و حروب يقع بين المسلمين وجب على من أدركها أن يحبس نفسه على طاعة الله دون مخالطتها و الدخول فيها، و سبيل الجنّة هو الدين القيّم ، و ظاهر شرط حمله لهم عليه بالطاعة . إذ لا رأى لمن لا يطاع ، و نبّه على أنّ من الدين الحقّ ما هو ذو مشقّة شديدة و مذاقة مريرة كالجهاد ، و كذلك سائر التكاليف لها مشقّة ، وفلانة كناية عن عايشة وإدراك رأي النساء لها في حربه بالبصرة ، وقد علمت أنّ رأى النساء يرجع إلى أفن وضعف. و في الخبر : لا يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة ، وجاء : إنّهنّ قليلات عقل و دين. كما سبق بيان أخلاقهنّ ، وأمّا الضغن فقد نقل له أسباب عدّة : منها ما كان بينها و بين فاطمة عليها السلام بسبب تزويج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لها عقيب موت خديجة أُمّ فاطمة ، وإقامتها

لأنّ الظعن هنا هو قطع درجات المعارف و الأعمال في سبيل الله و صراطه المستقيم و المسير فيها ، و يحتمل أن يريد بالحثّ على المسير حثّ الليل و النهار بتعاقبهما على الأعمار فهما سابقان حثيثان عنيفان فيجب التنبيه لسوقهما على اتّخاذ الزاد لما يسوقان إليه .

و قوله : وإنّما أنتم كر كب . إلى آخره .

فوجه التشبيه ظاهر فالإنسان هو النفس ، و المطايا هي الأبدان و القوى النفسانيّة، والطريق هي العالم الحسّيّ والعقليّ، والسير الّذي ذكره قبل الموت هو تصرّف النفس في العالمين لتحصيل الكمالات المسعدة وهي الزاد لغاية السعادة الباقية، و أمّا السير الثاني الّذي هو وقوف ينتظرون ولا يدرون متى يؤمرون به فهو الرحيل إلى الآخرة من دار الدنيا و طرح البدن و قطع عقبات الموت و القبر إذ الإنسان لا يعرف وقت ذلك . و حينئذٍ يتبيّن لك من سرّ هذا الكلام أنّ قوله : و اُمرتم بالظعن مع قوله : لا تدرون متى تؤمرون بالسير. غير متنافيين كما ظنّه بعضهم . ثمّ أخذ في تزهيد الدنيا و التنفير عنها بذكر أنّ الإنسان غير مخلوق لها بل لغيرها و مقتضى العقل أن يعمل الإنسان لما خلق له ، وفي تزهيد المال بتذكير سلبه عن قليل بالموت و بقاء الحساب عليه و تبعاته من عقارب الهيئات الحاصلة بسبب محبّته وجمعه والتصرّف الخارج عن العدل فيه لاسعة لمقتنيه . ثمّ عقّب بالترغيب في وعد الله بأنّه ليس منه مترك : اى ليس منه عوض وبدل في النفاسة بالتنفير عمّا نهى الله عنه بكونه لامرغب فيه : أى ليس فيه مصلحة ينبغي أن يجعلها العاقل غاية مقصوده له . إذهو تعالى أعلم بالمصالح فلا يليق بجوده أن ينهى العبد عمّا فيه مصلحة راجحة . ثمّ عقّب بالتحذير من يوم الوعيد و وصفه بالصفات الّتي باعتبارها يجب الخوف منه والعمل له و هي فحص الأعمال فيه ونقاش الحساب عليه كقوله تعالى « ولتسئلنّ عمّا كنتم تعملون»(١) و ظهور الزلزال كقوله تعالى « إذا زلزلت الأرض زلزالها» و شيب الأطفال كقوله تعالى «يوماً يجعل الولدان شيباً» (٢) . و أعلم أنّ هذه الصفات في يوم القيامة ظاهرة

(١) ١٦ - ٩٥ (٢) ٧٣ - ١٧ .

في الشريعة ، و قد سلّط التأويل عليها بعض من تحذلق فقال : أمّا الفحص عن الأعمال فيرجع إلى إحاطة اللوح المحفوظ بها وظهورها للنفس عند مفارقتها للبدن أو إلى انتقاش النفوس بها كما تقدّم شرحه كقوله تعالى « يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً » (١) الآية ، و أمّا ظهور الزلزال فيحتمل أن يريد التغيّر الّذي لابدّ منه و الاضطراب العارض للبدن عند مفارقة النفس والتشويش لها أيضاً على ما تقدّم من الإشارة إلى أنّ الدنيا هي مقبرة النفوس وأجداثها ، وأمّا مشيب الأطفال فكثيراً ما يكنّى بذلك عن غاية الشدّة يقال هذا أمر تشيب فيه النواصي و تهرم فيه الأطفال إذا كان صعباً . ولا أصعب على النفس من حال المفارقة و مابعدها. ثمّ عقّب بالتحذير من المعاصي بالتنبيه على الرصد القريب الملازم ، وأشار بالرصد إلى الجوارح كما قال تعالى « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» (٢) و قوله « و قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا » (٣) الآية ، و الشهادة هنا بلسان الحال و النطق به فإنّ كلّ عضولمّا كان مباشراً لفعل من الأفعال كان حضور ذلك العضو و ما صدر عنه في علم الله تعالى بمنزلة الشهادة القوليّة بين يديه وأكّد في الدلالة ، وأشار بحفّاظ الصدق إلى الكرام الكاتبين ، و قد سبقت الإشارة إلى ذلك في الخطبة الأولى ، و ظاهر كونهم لا يستر منهم ساتر . ثمّ بالتحذير بقرب غد ، و كنّى به عن وقت الموت . ثمّ ببلوغ منزل الوحدة ، و كنّى به عن القبر ، و وصفه بالأوصاف الموحشة المنفّرة المستلزمة للعمل لحلوله ولما بعده . ثمّ بالصيحة وهي الصيحة الثانية إن كانت إلّا صيحة واحدة فإذاهم جميع لدينا محضرون ، والنفخة الثانية و نفخ فيه أُخرى فإذاهم قيام ينظرون . ثمّ بالقيامة الكبرى و البروز لفصل القضاء وهو حال استحقاق كلّ نفس مالابدّ لها منه من دوام عذاب أو دوام نعيم بحكم القضاء الإلهيّ ، و ذلك بعد زوال الهيئات الباطلة الممكنة الزوال من النفوس الّتي لها استكمالٌ ما ولحوقها بعالمها واضمحلال العلل الباطلة للنفوس و استحقاق الحقائق بالخلق و رجوع كلّ امرىء إلى ثمرة ما قدّم . ثمّ عاد إلى الموعظة الجامعة

(١) ٣ - ٢٨ (٢) ٢٤ - ٢٤ (٣) ٤١ - ٢٠ .

وقوماً للضعة و قوماً للرفعة ، و قوماً للوجود و آخرين للعدم كذلك هو آخراً .

وقوله : متظاهرة أعلامه .

أى دلالاته على شيمته و طبيعته و أفعاله الّتي يعامل الناس بها قديماً وحديثاً متعاضدة يتبع بعضها بعضاً ، و نسبة هذه الأُمور إلى الدهر جرياً على ما في أوهام العرب وإن كان الفاعل هو الله تعالى و إنّما للدهر الإعداد كما سبق . ثمّ نبّه على قرب الساعة و شبّه حدوها : أى سوقها لهم بسوق الزاجر للنوق في حثّه لها ، و قد عرفت كيفيّة ذلك السوق و وجه الاستعارة فيه و في قوله : وإنّ الساعة من ورائكم تحدو كم، فأمّا وجه الشبه فهو السرعة و الحثّ، و إنّما خصّ الشول من النوق لخلوّها من العثار فيكون سوقها بعنف و أسرع ، و لمّا نبّههم على قربها و إنّها تحدوهم نبّههم على وجوب اشتغال كلّ بنفسه . إذ كلّ مشغل نفسه بغير نفسه غير محصّل لنور يهتدي به في ظلمات طريق الآخرة بل إنّما يحصل على أغطية وأغشية من الهيئات البدنيّة اكتسبها عمّا اشتغل به من متاع الدنيا و العمل بها ، و علمت أنّ تلك الأغطية مغشيّة لنور البصيرة فلا جرم يتحيّر في تلك الظلمات و يرتبك في مهالك تلك الطريق و مغاويها ، وتمدّ به شياطينه و نفسه الأمّارة في طغيانه ، و تزيّن له سيّء أعماله . ثمّ ذكر غاية وجود الإنسان فخصّ الجنّة بالسابقين ، و النّار بالمفرّطين ، وقد كان ذكر الجنّة كافياً في الجذب إليها ، والنار كافياً في الجذب عنها فقرن ذكر الجنّة بذكر فضيلة السبق ، وذكر النار برذيلة التفريط ليقوى الباعث على طلب أشرف الغايتين و الهرب من أخسّهما ، وأيضاً فلأنّ السبق و التفريط علّتان للوصول إلى غايتيهما المذكورتين فهدى إلى طلب إحديهما ، و الهرب من الأُخرى بذكر سببها . ثمّ عاد إلى التنبيه على فضيلة التقوى ، واستعار له لفظ الدار الحصينة الّتي تعزّ من تحصّن بها ، و وجه الاستعارة كونها تحصن النفس أمّا في الدنيا فمن الرذائل الموبقة المنقّصة الموجبة لكثير من الهلكات الدنيويّة ، و أمّا في الآخرة فمن ثمرات الرذائل ملكات السوء المستلزمة للعذاب الأليم . ثمّ على رذيلة الفجور ، وهو طرف الإفراط من فضيلة العفّة ، و استعار لفظ

الدار بقيد كونها حصناً ذليلاً ، ووجه الاستعارة كونه مستلزماً الضدّ ما استلزم التقوى ويجب أن يخصّص التقوى هنا بفضيلة القوّة البهيميّة و هي العفّة والزهد لمقابلة الفجور للعفّة . ثمّ نبّه على فضيلة اُخرى للتقوى وهي كونها قاطعاً لحمة الخطايا و لفظ الحمة مستعارلها باعتبار كونها أسباباً مستلزمة للأذى في الآخرة كمايستلزم إبرة العقرب أو سمّها للأذى ، و من روى حمّة مشدّدة أراد شدّة الخطايا و بأسها لأنّ حمةالحرّ معظمته ، وظاهر كون التقوى قاطعاً لبأس الخطايا و ما حيالآثارها، و لمّا أشار إلى كون التقوى حاسماً لمادّة الخطايا وكان بذلك إصلاح القوّة العمليّة أشار إلى أنّ اليقين الّذي به إصلاح القوّة النظريّة سبب لإدراك الغاية القصوى فإنّ الإنسان إذا حصل على كمال القوّة النظريّة باليقين و على كمال القوّة العمليّة بالتقوى بلغ الغاية القصوى من الكمال الإنسانيّ . ثمّ عقّب بتحذير السامعين من الله تعالى في أعزّ الأنفس عليهم و أحبّها إليهم ، و في الكلام إشارة إلى أنّ للإنسان نفوساً متعدّدة وهي باعتبار مطمئنّة ، و أمّارة بالسوء ، ولوّامة . وباعتبار عاقلة ، وشهويّة ، وغضبيّة . والإشارة إلى الثلاث الأخيرة . وأعزّها النفس العاقلة . إذ هي الباقية بعد الموت ، ولها الثواب و عليها العقاب ، و فيها الوصيّة ، و غاية هذا التحذير حفظ كلّ نفسه ممّا يوبقها في الآخرة ، و ذلك بالاستقامة على سبيل الله ، ولذلك قال : فقد أوضح لكم سبيل الحقّ و أبان طرقه ، و روى و أنار طرقه : أي بالآيات و النذر . ثمّ نبّه على غايتي سبيل الحقّ و سبيل الباطل بقوله : فشقوة لازمة أو سعادة دائمة . ثمّ عاد إلى الحثّ على اتّخاذ الزاد بعد أن ذكر التقوى تنبيهاً على أنّ الزاد هو التقوى كما قال تعالى « و تزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى » (١) وأيّام البقاء الحال الّتي بعد الموت، و دلالتهم على الزاد في الآية الّتي دلّهم الله تعالى بها عليه و أمرهم بالظعن كقوله تعالى « سارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة » (٢) الآية «وقوله ففرّوا إلى الله» وبالجملة فكلّ أمر بالإعراض عن الدنيا و التنفير عنها فهو مستلزم للحثّ على الظعن و الأمر بالمسير عن الدنيا بالقلوب

---

(١) ٢ - ١٩٣ (٢) ٣ - ٢٧

عبَادَ اللهِ ؛ اللهَ اللهَ فى أعزّ الأنفس عليكُمْ، وأحبّها إليكُمْ ، فإنّ اللهَ قد أوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الحَقِّ وَأنارَ طُرُقَه . فشِقْوةٌ لازمةٌ ، أوسعادةٌ دائمةٌ ، فتزوّدوا فى أيّام الفناء لأيّام البقاء ، قدْ دُللتم على الزّاد ، وأُمرتُمْ بالظّعْنِ ، وَحُثِثْتم على المسير ، فإنّما أنْتم كَركْب وُقُوف ،لاتدرُونَ متى تؤمرُونَ بالمسير .

ألا فما يصْنَعُ بالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ للآخرة ؟ ومَا يصْنَعُ بالمَال مَنْ عمّا قليل يُسْلبُه ، وتبْقى عليه تبِعتُه وحسابُه ؟!

عبَادَ اللهِ ، إنّه لَيْسَ لِمَا وعَدَ اللهُ مِنَ الخيْرِ مَتْرَكٌ ، وَلا فيمَا نَهى عنه مِنَ الشّر مرْغَبٌ ! عبَادَ اللهِ ؛ احْذَروا يوْماً تفحص فيه الأعْمَالُ ، ويَكْثُرُ فيه الزّلْزَالُ ، وتَشيبُ فيه الأطْفَالُ .

اعْلَمُوا ، عبَادَ اللهِ ، أنّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أنْفسكُمْ ، وَعيوناً مِنْ جَوارحِكُمْ ، وَحُفّاظَ صِدْقٍ يحفظون أعْمالَكُمْ وعَددَ أنفاسكُمْ ، لاتَسْتُرُكُمْ منْهمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ ، ولا يُكنّكُمْ منهم بَابٌ ذُو رِتَاجٍ ، وإنّ غداً مِنَ اليوْم قريبٌ .

يَذْهبُ اليومُ بِمَا فيه ، ويَجىءُ الغدُ لاحقاً به ، فكَأنّ كلّ امْرئٍ مِنكُمْ قدْ بَلَغَ مِنَ الأرْضِ مَنْزِلَ وحْدَتِه ، ومَخطّ حُفْرَتِه ، فَيالَه مِنْ بيْت وحْدة ،

وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَمَفْرَدِ غُرْبَةٍ! وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ وَبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، قَدْ زَاحَتْ عَنْكُمُ الْأَبَاطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْكُمُ الْعِلَلُ وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمُ الْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا، فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ.

أقول: الشول: النوق الّتي جفّ لبنها وارتفع ضرعها و أتى عليها من نتاجها سبعة أشهر. الواحدة شائلة على غير قياس. و الارتباك: الاختلاط. وحمة العقرب: إبرتها، وهي محلّ سمّها. والرتاج: الغلق.

و قد حمد الله تعالى باعتبارات:

أحدها: جعله الحمد مفتاحاً لذكره في عدّة سور.

الثاني: كونه سبباً للمزيد من فضله، و المراد بالحمد هنا الشكر لقوله تعالى «لئن شكرتم لأزيدنّكم» (١) و قد عرفت إعداده لزيادة النعم.

الثالث: و دليلاً على آلائه. لاختصاص الشكر بمولى النعم، و على عظمته. لاختصاصه باستحقاق ذاك لذاته. إذ هو مبدء لكلّ نعمة، ولأنّ الحمد لا ينبغي إلّا له، ثمّ أخذ في الموعظة فنبّه السامعين على فعل الدهر بالماضين ليتذكّروا أنّهم أمثالهم و لاحقون بهم فيتقهقروا عن غيّهم ويعملوا لما بعد الموت. ثمّ نبّه على حاله في تقضّيه بأنّ كلّ وقت مضى منه لا يعود، وأنّ كلّ وقت منه له أهل و متاع من الدنيا إنّما يكون في الوجود بوجود ذلك الوقت، و ظاهر أنّه تنقضي بتقضّيه ولا يبقى سرمداً ما فيه، و أنّ آثاره متشابهة آخرها كأوّلها: أى يوجد ما يكون باعداد وقت منه بوجود ذلك الوقت وينقضى بانقضائه فحاله دائماً على وتيرة واحدة، و كذلك قوله: متشابهة اُموره فإنّه كما كان أوّلا يعدّ قوماً للفقر و قوماً للغنى،

---

(١) ١٤ - ٧.

الأسماع و استهجن إلّا القرآن الكريم فإنّه لا يزال غضّاً طريّاً يزداد على طول التكرار في كرور الأعصار محبّة في القلوب و حسناً ، و الّذي يلوح من سرّ ذلك كثرة أسراره وغموضها الّتي لا يطّلع عليها إلّا الأفراد مع كونه في غاية من فصاحة الألفاظ وعذوبة المسمع. فأمّا ما حكاه من سؤاله الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم و جواب الرسول له فقد روى كثير من المحدّثين عنه عليه السلام عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: إنّ الله قد كتب عليك جهاد المفتونين كما كتب عليّ جهاد المشركين. قال: فقلت: يارسول الله و ما هذه الفتنة الّتي كتب عليّ فيها الجهاد؟ قال: فتنة قوم يشهدون أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله وهم مخالفون للسنّة. فقلت: يا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: فعلام اُقاتلهم و هم يشهدون كما أشهد؟. قال: على الإحداث في الدين و مخالفة الأمر. فقلت: يا رسول الله إنّك كنت وعدتني بالشهادة فاسأل الله أن يعجّلها لي بين يديك. قال: فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين؟ أما إنّي وعدتك الشهادة و ستشهد تضرب على هذا فتخضب هذه فكيف صبرك إذن؟. فقلت: يارسول الله ليس ذا [هذا خ] بموطن صبر هذا موطن شكر. قال: أجل أصبت فأعدّ للخصومة فإنّك مخاصم. فقلت: يارسول الله لو بيّنت لي قليلاً. فقال: إنّ اُمّتي ستفتن من بعدي فتتأوّل القرآن و تعمل بالرأي وتستحلّ الخمر بالنبيذ و السحت بالهدية والربا بالبيع وتحرّف الكتاب عن مواضعه وتغلب كلمة الضلال فكن حلس بيتك حتّى تقلّدها فإذا قلّدتها جاشت عليك الصدور وقلبت لك الاُمور فقاتل حينئذٍ على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله فليست حالهم الثانية دون حالهم الاُولى. فقلت: يا رسول الله فبأيّ المنازل هؤلاء المفتونين أبمنزلة فتنة أم بمنزلة ردّة؟. فقال: بمنزلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل. فقلت: يا رسول الله أيدركهم العدل منّا أم من غيرنا؟ قال: بل منّا فبنا فتح و بنا يختم و بنا ألّف الله بين القلوب بعد الشرك. فقلت: الحمد لله على ما وهب لنا من فضله. وليس في هذا الفصل غريب ينبّه عليه سوى قوله: ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن الشكر. فإنّك علمت فيما سلف أنّ الصبر والشكر من أبواب الجنّة و المقامات العالية للسالك إلى الله تعالى لكن علمت أنّ

مقام الشكر أرفع من مقام الصبر ، و لمّا كان هو عليه السلام سيّد العارفين بعد سيّد المرسلين صلّى الله عليه و آله و سلّم لاجرم كان أولى من صدرت عنه هذه الإشارة فأمّا إخبار الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم بأنّ الناس سيفتنون بأموالهم ويمنّون بدينهم على ربّهم ويتمنّون رحمته و يأمنون سطوته و سائر ما أخبر به . إلى قوله: بالبيع. فكلّ ذلك مشاهد في زماننا و قبله بقرون ، وأمّا كون ذلك منزلة فتنة لامنزلة ردّة: فلبقائهم على الإقرار بالشهادتين و إن ارتكبوا من المحارم ما ارتكبوا لشبه غطّت على أعين أبصارهم . وبالله التوفيق .

١٥٦ — ومن خطبة له عليه السلام

اَلْحَمْدُ للهِ الَّذِى جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ ، وَدَلِيلاً عَلَى آلاَئِهِ وَعَظَمَتِهِ .

عِبَادَ اللهِ ، إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِى بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ ، لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَداً مَا فِيهِ . آخِرُ فَعَالِهِ كَأَوَّلِهِ ، مُتَسَابِقَةٌ أُمُورُهُ ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ ، فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حَدْوَ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ ، فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِى الظُّلُمَاتِ ، وَارْتَبَكَ فِى الْهَلَكَاتِ ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِى طُغْيَانِهِ ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ ، فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ .

اِعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ ، أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ : لَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ ، وَلَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ . أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ الْخَطَايَا وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى .

الكليّة فأمر بالاتّعاظ بالعبر وكلّ ما يفيد تنبيهاً على أحوال الآخرة فهو عبرة، وبالاعتبار بالغير وهي جمع غيرة فعلة من التغيّر واعتبارها طريق الاتّعاظ والانزجار. ثمّ بالانتفاع بالنذر جمع نذير وهو أعمّ من الإنسان بل كلّ أمر أفاد تخويفاً بأحوال الآخرة فهو نذير والانتفاع به حصول الخوف عنه. وبالله التوفيق.

١٥٧ — ومن خطبة له عليه السلام

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَانْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ، فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ: ذٰلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلٰكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ، أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ.

أقول: الهجعة: النومة. والمبرم. الحبل المحكم الفتل.

وثمرة الفصل التنبيه على فضيلة الرسول صلّى الله عليه وآله والفترة الزمان بين الرسولين، وكنّى بالهجعة من الأمم عن رقدتهم في مراقد الطبيعة ونوم الغفلة عمّا خلقوا لأجله في مدّة زمان الفترة، وأشار بالمبرم إلى ما كان الخلق عليه من نظام الحال بالشرائع السابقة وانبرام أمورهم بوجودها، وانتقاضها فساد ذلك النظام بتغيّر الشرائع واضمحلالها، والّذي صدّقه بين يديه هو التوراة والإنجيل كما قال تعالى «مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب»[1] ولكلّ أمر منتظر أو قريب يقال إنّه جار بين اليدين، واستعار لفظ النور للقرآن، ووجه الاستعارة ظاهر. ثمّ أمر باستنطاقه وفسّر ذلك الاستنطاق باستماع العبارة عنه. إذ هو لسان الكتاب والسنّة، وكسّر أوهامهم الّتي عساها تستنكر أمره باستنطاقه بقوله: فلن ينطق، ونبّه على ما فيه من علم الأوّلين والحديث عن القرون الماضية وعلم ما يأتي من الفتن وأحوال القيامة وأنّ فيه

(١) ٥ - ٢٥.

دواء دائهم ، وذلك الداء هو الرذائل المنقّصة ، و دواء ذلك الداء هو لزوم الفضائل العلميّة والعمليّة الّتي اشتمل عليها القرآن الكريم و نظام ما بينهم إشارة إلى ما اشتمل عليه من القوانين الشرعيّة والحكمة السياسيّة الّتي بها نظام العالم واستقامة اُموره.

منها : فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ ، إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً ، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً ، فَيَوْمَئِذٍ لَا يَبْقَى لَكُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ ، أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ . وَسَيَنْتَقِمُ اللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ : مَأْكَلًا بِمَأْكَلٍ ، وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ : مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ ، وَمَشَارِبِ الصَّبِرِ وَالْمَقِرِ . وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ ، وَدِثَارِ السَّيْفِ ، وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ ، وَزَوَامِلُ الْآثَامِ ، فَأُقْسِمُ ثُمَّ أُقْسِمُ لَتَنْخَمَنَّهَا أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفَظُ النُّخَامَةُ ، ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَداً مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ .

أقول : الترحة : الحزن . و المقر : المرّ . و الزاملة : الجمل يستظهر به الإنسان في حمل متاعه . و تنخّمت النخامة : لفظتها .

و سياق الكلام الإخبار عن حال بني اُميّة وما يحدث في دولتهم من الظلم ، و كنّى ببيت المدر و الوبر عن البدو و الحضر ، و عن استحقاقهم عند فعلهم ذلك للتغيّر و زوال الدولة بعدم العاذر في السماء و الناصر في الأرض . ثمّ عقّب بتوبيخ السامعين على إصفائهم بأمر الخلافة غير أهله ، و الخطاب عامّ خصّه العقل بمن هو راض بدولة معاوية وذريّته ، و ربّما اُلحق من تقاعد عن القيام معه في قتاله لأنّ العقود عن ردع الظالم و قتاله مستلزم لقوّته ويجرى مجرى نصرته و إعانته على ظلمه و إن لم يقصد القاعد عنه ذلك . ثمّ أخبر أنّ الله سينتقم منهم. و مأكلاً ومشرباً

منصوبان بفعل مضمر والتقدير ويبدّلهم ما أكلا بما أكل ، واستعار لفظ العلقم والصبر والمقر لما يتجرّعونه من شدائد القتل و أهوال العدوّ ومرارات زوال الدولة، و كذلك لفظ الشعار للخوف ، و رشّح بذكر اللباس ولفظ الدثار للسيف ، و وجه الاستعارة الأُولى ظاهر ، ووجه الثانية ملازمة الخوف لهم كملازمة الشعار للجسد ، وأفاد بعض الشارحين أنّه إنّما خصّص الخوف بالشعار لأنّه باطن في القلوب ، والسيف بالدثار لأنّه ظاهر في البدن كما أنّ الشعار ما كان يلي الجسد و الدثار ما كان فوقه ، و استعار لهم لفظ المطايا والزوامل ، و وجه الاستعارة حملهم للآثام . وأتى بلفظ إنّما إشارة إلى أنّ جميع حركاتهم و تصرّفاتهم على غير قانون شرعيّ فيكون خطيئة وإثماً . ثمّ أقسم لتتنخمنّها اُميّة من بعده . فاستعار لفظ التنخّم لزوال الخلافة عنهم فكأنّهم قاءوها و قذفوها من صدورهم ملاحظة لشبهها بالنخامة ، و كنّى بعدم ذوقها و تطعّمها عن عدم رجوعها إليهم ، وما هنا بمعنى المدّة ، والجديدان الليل والنهار ، و كنّى بذلك عن الأمد . و هو إخبار منه عمّا سيكون ، و روى عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه أخبر أنّ بني اُميّة تملك الخلافة بعده مع ذمّ منه لهم نحو ما روى عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم في تفسير قوله « و ما جعلنا الرؤيا الّتي أريناك إلّا فتنة للناس و الشجرة الملعونة في القرآن ونخوّفهم »[1] قال المفسرون : تلك الرؤيا أنّه رأى بني اُميّة ينزون على منبره نزو القردة ، وبهذا اللفظ فسّر صلّى الله عليه وآله وسلّم الآية وساءه ذلك . ثمّ قال : الشجرة الملعونة بنو اُميّة وبنو المغيرة ، و روى عنه أنّه قال : إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتّخذوا مال الله دولا و عباده خولاً ، و كما روى عنه في تفسيره لقوله تعالى : « ليلة القدر خير من ألف شهر » قال : ألف شهر يملك فيها بنو اُميّة ، ونحو قوله : أبغض الأسماء إلى الله الحكم والهشام والوليد . إلى غير ذلك .

١٥٨ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ ، وَأَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ : وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ

(١) ١٧ - ٦٢ .

رِبَقِ الذُّلِّ ، وَحَلَقِ الضَّيْمِ ، شُكْرًا مِنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ ! وَإِطْرَاقًا عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصَرُ ، وَشَهِدَهُ الْبَدَنُ مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ .

أقول : إحاطته بجهده من ورائهم إشارة إلى حفظه و حراسته لهم ، و إعتاقهم من ربق الذلّ وحلق الضيم حمايتهم من عدوّهم واعتزازهم به . ثمّ نبّههم على شكره للقليل من برّهم : أى مقدار طاعتهم لله في طاعته ، و إطراقه عن كثير منكرهم ممّا شاهده منّا عليهم بالمسامحة والعفو .

فإن قلت : فكيف يجوز له أن يسكت عن إنكار المنكر مع مشاهدته له .

قلت : يحمل ذلك منه على عدم التمكّن من إزالته بالعنف و القهر لجواز أن يستلزم ذلك مفسدة أكبر ممّا هم عليه من المنكر ، وظاهر أنّهم غير معصومين ومحال أن تستقيم دولة أو يتمّ ملك بدون الإحسان إلى المحسنين من الرعيّة والتجاوز عن بعض المسيئين . وبالله التوفيق .

١٥٩ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ ، يَقْضِي بِعِلْمٍ ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ . اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي ، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي ، حَمْدًا يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ ، حَمْدًا يَمْلَأُ مَا خَلَقْتَ ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ ، حَمْدًا لَا يُحْجَبُ عَنْكَ ، وَلَا يُقْصَرُ دُونَكَ ، حَمْدًا لَا يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ ، وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ ، فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ ، إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ ، أَدْرَكْتَ الْأَبْصَارَ ،

وَأَحْصَيْتَ الْأَعْمَارَ ، وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ، وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ ، وَحَالَتْ سُتُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ : أَعْظَمُ . فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَوَاتِكَ ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ ؛ رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيرًا ، وَعَقْلُهُ مَبْهُورًا ، وَسَمْعُهُ وَالِهًا وَفِكْرُهُ حَائِرًا .

أقول : أمره هو حكم قدرته الإلهيّة، وكونه قضاء كونه حكماً لازماً لا يردّ ، وكونه حكمة كونه على وفق الحكمة الإلهيّة وانتظام الأكمل ، ورضاه يعود إلى علمه بطاعة العبد له على وفق أمره ونهيه .

و قوله : يقضي بعلم .

إعادة لمعنى قوله : أمره قضاء و حكمة . يجري مجرى التفسير له .

و قوله : ويعفو بحلم .

فالعفو يعود إلى الرضا بالطاعة بعد تقدّم الذنب ، و إنّما يتحقّق العفو مع تحقّق القدرة على العقاب. إذ العجز لا يسمّى عفواً فلذلك قال : يعفو بحلم . ثمّ عقّب بخطاب الله بالاعتراف بنعمته والحمد له باعتبار ضروب من السرّاء و الضرّاء إشارة إلى حمده على كلّ حال وهي الأخذ والإعطاء والعافية والابتلاء . ثمّ باعتبار كيفيّته وهو كونه أرضى الحمد لله وأحبّه إليه وأفضله عنده : أي أشدّه وقوعاً على الوجه اللائق المناسب لعظمته . ثمّ باعتبار كميّته وهو كونه يملأ ما خلق ويبلغ ما أراد كثرة . ثمّ باعتبار غايته و هو كونه لا يحجب عنه و لا يقصر دونه . ثمّ باعتبار

مادّته وهو كونه لاينقطع عدده ولا يفنى مدده ، و قد يكون التفصيل في القول في بعض المواضع أبلغ وقعاً في النفوس وألذّ ، وقد يكون الإجمال أو الاختصار أنفع و أبلغ . ثمّ شرع في الاعتراف بالعجز عن إدراك كنه عظمته ، و في بيان وجه معرفته الممكنة للخلق ، وهي إمّا بالصفات الحقيقيّة أوالاعتبارات السلبيّة أوالإضافيّة . و أشار إلى الاعتبارات الثلاثة فكونه حيّاً قيّوماً إشارة إلى الصفات الحقيقيّة . وقد عرفت أنّهما يستلزمان الوجود . إذ كلّ حيّ موجود و القيّوم هو القائم بذاته المقيم لغيره و كلّ قائم بذاته فهوموجود واجب الوجود ، و كونه لا تأخذه سنة ولانوم ولا ينتهي إليه نظر عقليّ أوبصريّ ولايدركه بصر اعتبارات سلبيّة ، و كونه مدركاً للأبصار محصياً للأعمال آخذاً بالنواصي والأقدام : أي محيط القدرة بها . اعتبارات إضافيّة . ثمّ عاد إلى استحقار ما عدّده ممّا أدركه بالنسبة إلى ما لم يدركه من عظيم ملكوته ، و ما في قوله : وماالّذي . استفهاميّة على سبيل الاستحقار لما استفهم عنه ، و ما الثانية في قوله : و ما يغيب عنّا منه . بمعنى الّذي محلّها الرفع بالابتداء وخبره أعظم ، و الواو فيها للحال . ثمّ عقّب بالحكم على من فرّغ قلبه وأعمل فكره ليصل إلى كنه معرفته و علم كيفيّة نظامه للعالم الأعلى و الأسفل برجوع كلّ من آلات إدراكه حسيراً مقهوراً عن إدراك ما كلّفه من ذلك . و قد سبقت الإشارة إلى براهين هذه الأحكام غير مرّة . وبالله التوفيق .

منها : يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللهَ ! كَذَبَ وَالْعَظِيمِ ! مَا بَالُهُ لَا يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ ؛ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ ، إِلَّا رَجَاءَ اللهِ فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ ، وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ ، إِلَّا خَوْفَ اللهِ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ : يَرْجُو اللهَ فِي الْكَبِيرِ ، وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ ، فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي الرَّبَّ ، فَمَا بَالُ اللهِ ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ لِعِبَادِهِ ؟ ! أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ

لَهُ كَاذِبًا ، أَوْ تَكُونَ لَا تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعًا ، وَكَذٰلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَالَا يُعْطِى رَبَّهُ ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْدًا ، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِمْ ضِمَارًا وَوَعْدًا ، وَكَذٰلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِى عَيْنِهِ وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا فِى قَلْبِهِ ، آثَرَهَا عَلَى اللهِ فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا وَصَارَ عَبْدًا لَهَا

وَلَقَدْ كَانَ فِى رَسُولِ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، كَافٍ لَكَ فِى الْأُسْوَةِ وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا ، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا : إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا ، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا ، وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا ، وَزُوِىَ عَنْ زَخَارِفِهَا ، وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، إِذْ يَقُولُ : (رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) وَاللهِ مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزًا يَأْكُلُهُ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ . وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ لِهُزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ ، وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ ، وَقَارِئِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؛ فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ : أَيُّكُمْ يَكْفِينِى بَيْعَهَا ؟ ! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ ، وَظِلَالُهُ

فى الشتاء مشارق الأرض ومغاربها ، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم ، ولم تكن له زوجة تفتنه ، ولا ولد يحزنه ، ولا مال يلفته ، ولا طمع يذله ، دابته رجلاه ، وخادمه يداه .

فتأس بنبيك الأطيب الأطهر ، صلى الله عليه وآله ؛ فإن فيه أسوة لمن تأسى ، وعزاء لمن تعزى ، وأحب العباد إلى الله المتأسى بنبيه ، والمقتص لأثره : قضم الدنيا قضما ، ولم يعرها طرفا ، أهضم أهل الدنيا كشحا ، وأخمصهم من الدنيا بطنا ، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها ، وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئا فأبغضه ، وحقر شيئا فحقره ، وصغر شيئا فصغره ، ولو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض الله ورسوله ، وتعظيمنا ما صغر الله ورسوله : لكفى به شقاقا لله ، ومحادة عن أمر الله ، ولقد كان ، صلى الله عليه وآله وسلم ، يأكل على الأرض ، ويجلس جلسة العبد ، ويخصف بيده نعله ، ويرقع بيده ثوبه ، ويركب الحمار العارى ، ويردف خلفه ، ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول : يافلانة - لإحدى أزواجه - غيبيه عنى ؛ فإنى إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها ، فأعرض عن الدنيا بقلبه ، وأمات ذكرها من نفسه ، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه ؛ لكيلا يتخذ منها رياشا ،

وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَارًا، وَلَا يَرْجُو فِيهَا مُقَامًا، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ، وَغَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ، وَكَذٰلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ.

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللّٰهِ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِي الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا؛ إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ. فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ أَكْرَمَ اللّٰهُ مُحَمَّدًا بِذٰلِكَ أَمْ أَهَانَهُ؟! فَإِنْ قَالَ: «أَهَانَهُ» فَقَدْ كَذَبَ وَأَتَى بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: «أَكْرَمَهُ» فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ، فَتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنِ الْهَلَكَةَ؛ فَإِنَّ اللّٰهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، عَلَمًا لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ، وَمُنْذِرًا بِالْعُقُوبَةِ: خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصًا، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيمًا، لَمْ يَضَعْ حَجَرًا عَلَى حَجَرٍ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ، فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللّٰهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفًا نَتَّبِعُهُ، وَقَائِدًا نَطَأُ عَقِبَهُ، وَاللّٰهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هٰذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْ عَنِّي «فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى».

أقول : المدخول : الّذي فيه شبهة و ريبة ، و كذلك المعلول: الغير الخالص . و الضمار : الّذي لا يرجى من الموعود . و المقتصّ للأثر : أى المتّبع له . و القضم: الأكل بأدنى الفم . و الهضيم : الخميص لقلّة الأكل . و المحادّة : المعاداة . و الرياش: الزينة . و المدرعة . الدرّاعة . وأغرب : أى تباعد .

و مساق الكلام يقتضي ذمّ من يدّعى رجاء الله ولا يعمل له و تنبيهه أنّ رجائه ليس بخالص بتكذيبه وبيان تقصيره في العمل .

فقوله : يدّعي بزعمه أنّه يرجو الله .

ذكر صورة الدعوى الحاليّة أو المقاليّة .

و قوله : كذب والعظيم .

ردّ لتلك الدعوى مؤكّداً بالقسم البارّ ، و إنّما قال : والعظيم دون الله لأنّ ذكر العظمة هنا أنسب للرجاء .

و قوله : مابااله . إلى قوله : عرف رجاءه في عمله .

قياس من الشكل الثاني بيّن فيه أنّه غير راج . و تلخيصه أنّ هذا المدّعي للرجاء غير راج ، و مراده الرجاء التامّ الّذي يجتهد في العمل له ولذلك قال : إلّا رجاء الله فإنّه مدخول فنبّه بأنّ فيه دخلاً على وجوده إلّا أنّه غير خالص ، و بيان الدليل أنّ كلّ من رجا أمراً من سلطان أوغيره فإنّه يخدمه بخدمته التامّة ويبالغ في طلب رضاه ويكون عمله له بقدر قوّة رجائه له وخلوصه ، و يرى هذا المدّعى للرجاء غير عامل فيستدلّ بتقصيره في الأعمال الدينيّة على عدم رجائه الخالص في الله ، و كذلك قوله : و كلّ خوف محقّق إلّا خوف الله فإنّه معلول. توبيخ للسامعين في رجاء الله تعالى مع تقصيرهم في الأعمال الدينيّة ، وتقدير الاستثناء الأوّل مع المستثنى منه : و كلّ رجاء لراج يعرف في عمله أى يعرف خلوص رجائه فيما يرجوه إلّا رجاء الراجي لله فإنّه غير خالص . و روى و كلّ رجاء إلّا رجاء الله فإنّه مدخول ، و التقدير و كلّ رجاء محقّق أوخالص. لتطابق الكلّيّتين على مساق واحد ، و ينبّه على الاضمار في الكلّيّة الاُولى قوله في الثانية : محقّق. فإنّه تفسير المضمر هناك .

و قوله : يرجو الله في الكبير . إلى قوله : يعطى الربّ .

في قوّة قياس ضمير صغراه قوله : يرجو . إلى قوله : الصغير ، وتقدير كبراه وكلّ من كان كذلك فينبغي أن يعطى الله الّذي هو ربّه من رجائه والعمل له مالا يعطى المخلوقين والّذين هم عباده ، والصغرى مسلّمة ، فإنّ الحسّ يشهد بأكثريّة أعمال الخلق لما يرجوه بعضهم من بعض بالنسبة إلى أعمالهم لما يرجونه من الله تعالى ، وأمّا الكبرى فبيانها أنّ المقرّر في الفطر أنّ المرجوّ الكبير يستدعي ما يناسبه ممّا هو وسيلة إليه كميّةً و كيفيّةً .

و قوله : فيعطى العبد ما لايعطى الربّ .

نقض للكبرى .

و قوله : فما بال الله . إلى قوله : لعباده .

توبيخ وتشنيع على من يخالف العمل بالنتيجة المذكورة .

و قوله : أتخاف . إلى قوله : موضعاً .

استفسار عن علّة التفسير المذكور في الرجاء لله و العمل له بالنسبة إلى رجاء العباد و العمل لهم استفساراً على سبيل الإنكار وتقريعاً على ما عساه يدّعى من إحدى العلّتين المذكورتين وهما خوف الكذب في رجاء الله أو ظنّه غير أهل للرجاء . و الأمر الأوّل خطاء عظيم لزم عن التقصير في معرفة الله ، والثاني كفر صراح ، و إنّما خصّص هاتين العلّتين بالذكر لأنّهما المشهورتان في عدم رجاء الخلق بعضهم لبعض أو ضعفه ، وانتفاؤهما في حقّ الله تعالى ظاهر فإنّه تعالى الغنيّ المطلق الّذي لايبخل فيه ولا منع من جهته فإنّ العبد إذا استعدّ بقوّة الرجاء له والعمل لما يرجوه منه وجبت إفاضة الجود عليه ما يرجوه فلايكذب رجاؤه وهو الله تعالى الموضع التامّ له .

و قوله : و كذلك إن هو خاف . إلى قوله : يعطي ربّه .

قياس ضمير استثنائيّ بيّن فيه قصور خوف الخائف من الله بالنسبة إلى خوفه من بعض عبيده ، و الضمير في عبيده لله ، و في خوفه للخائف . ويحتمل عوده إلى العبد . و الملازمة في الشرطيّة ظاهرة ، و كبرى القياس استثناء غير المقدّم لينتج

عين التالي .

و قوله : فجعل . إلى قوله : وعداً .

توبيخ و تشنيع على من لزمه ذلك الاحتجاج و أنّه من القبيح المشهور المذكور أن يجعل الإنسان خوفه من عبده مثله نقداً حاضراً و خوفه من خالقه وعداً غير حاضر .

و قوله : و كذلك من عظمت الدنيا . إلى آخره .

إشارة إلى علّة إيثار الناس للحياة الدنيا على ما عندالله ممّا وعد به وانقطاعهم إليها وصيرورتهم عبيداً لها ، وذكر جزء العلّة القريبة وهي عظمة الدنيا في أعينهم ، و تمام هذه العلّة حقارة ما تصوّروه من الوعد الاُخروى بالنسبة إلى الدنيا ، و علّة هذه العلّة ميلهم للذّات العاجلة كما هي ، وغيبوبة اللذّات الموعودة وتصوّرها الضعيف بحسب الوصف ، الّذي غايته أن يوجب في أذهانهم مشابهة ما وعدوا به لما حضر لهم الآن . فلذلك كانت العاجلة أعظم في نفوسهم و أكبر وقعاً في قلوبهم ، ولذلك آثروها و انقطعوا إليها فاستعبدتهم . وغاية هذا التوبيخ التنفير عن الدنيا و الجذب عنها إلى الرغبة فيما وعد الله ، ولذلك عقّب بالتنبيه على ترك الدنيا من الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وساير الأنبياء و المرسلين الّذين هم القدوة للخلق وإعراضهم عنها ، وعلى كونهم محلّ الاُسوة الكافية لهم في ذلك وهو كقوله تعالى «لقد كان لكم في رسول الله اُسوة حسنة»[1] الآية ، والدليل التامّ على ذمّها وعيبها و كثرة مساويها و مخازيها . وأشار بقوله : إذ قبضت عنه أطرافها . إلى مقدّمة من مقدّمات الدليل على حقارتها وخبثها وذلك إلى قوله : و خادمه يداه . و قبض أطرافها عنه كناية عن منعها عنه بالكلّيّة لعدم استعداده لها و قبوله إيّاها ، و توطية جوانبها لغيره كناية عن إعطائه إيّاها و تذليلها له كالملوك . و استعار لفظ الفطم لمنعه منها ، و كذلك لفظ الرضاع لها ملاحظة لمشابهتها للاُمّ وله بالابن ، ووجه المشابهة ظاهر . والّذي ذكره عليه السلام : والله ما سأله إلّا خبزاً . هو تفسير الآية كما نقله المفسّرون أيضاً ، و صفاق بطنه : هو

(١) ٣٣ - ٢١ .

الجلد الباطن . و شفيفه : ما رقّ منه فلم يحجب البصر عن إدراك ما رآه . وتشذّب لحمه: تفرّقه . واستعار لفظ المزامير لأصوات داود عليه السلام و لفظ الإدام للجوع ، و السراج للقمر ، والظلال لمشارق الأرض و مغاربها ، والفاكهة والريحان لما تنبت الأرض ، والدابّة للرجلين ، والخادم لليدين . و وجه الاُولى مشاركة صوته عليه السلام للمزمار و هي الآلة الّتي يزمّر بها في الحسّ روى أنّ الوحش والطير كانت تقع عليه حال القراءة في محرابه لاستغراقها في لذّة صوته و نغمته ، و وجه الثانية قيام بدنه عليه السلام بالجوع كقيامه بالإدام ، ووجه الثالثة مشاركة القمر للسراج في الضوء ، ووجه الرابعة استتاره عن البرد بالمشارق و المغارب كاستتاره بالظلال ، و وجه الخامسة التذاذ ذوقه و شمّه بما تنبت الأرض كما يلتذّ غيره بالفاكهة و الريحان ، و وجه السادسة و السابعة قيام انتفاعه برجليه ويديه كقيامه بالدابّة والخادم . و بالجملة فحال الأنبياء المذكورين - سلام الله عليهم أجمعين - في التقشّف وترك الدنيا والإعراض عنها ظاهر معلوم بالتواتر ، وأمّا كون داود قارى أهل الجنّة - كما ورد في الخبر - فلأنّ كلّ أمر حسن ينسب إلى الجنّة في العرف أو لأنّه مع حسنه جاذب إلى الجنّة وداع إلى الله تعالى . ولمّا وصف حالهم عاد إلى الأمر بالتأسّي بالرسول صلى الله عليه وآله لأنّهم المأمورون بوجوب الاقتداء به مطلقا وفيه الاُسوة الكافية لمن تأسّى به ولأنّه أقرب عهداً ممّن سبق ، وحثّ على التأسي به بكون المتأسّي به المقتصّ لأثره أحبّ العباد إلى الله ، وذلك من قوله تعالى « قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله »(١) ثمّ عاد إلى اقتصاص من حاله صلى الله عليه وآله في ترك الدنيا والاقتصار منها على قدر الضرورة ليتبيّن ما يكون فيه التأسي به ، و كنّى عن ذلك بقضمها . ثمّ كنّى عن عدم التفاته لها بعدم إعادتها طرفه ، وعن كونه أقلّ الناس شبعاً فيها والتفاتاً إلى مأكلها ومشربها بكونه أخمصهم خاصرة وبطناً . روى عنه صلى الله عليه وآله: أنّه كان إذا اشتدّ جوعه يربط حجراً على بطنه و يسمّيه المشبّع مع ملكه قطعة واسعة من الدنيا ، وروى : أنّه ما شبع آل محمّد من لحم قطّ ، وأنّ فاطمة و بعلها وبنيها كانوا يصومون على أقراص من الشعير

(١) ٣ - ٢٩ .

كانوا يعدّونها لإفطارهم وربّما آثروا بها السائلين وطووا. روى أنّهم فعلوا ذلك ثلاث ليال طووا في أيّامها حتّى كان ذلك سبب نزول سورة هل أتى في حقّهم كما هو المشهور في التفاسير، وأمّا قوله: وعرضت عليه فأبى أن يقبلها فكما روى [و ردخ] عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: عرضت علىّ كنوز الأرض ورفعت إلىّ مفاتيح خزائنها فكرهتها واخترت الدار الآخرة.

و قوله: وعلم أنّ الله أبغض شيئاً. إلى قوله: فصغّر.

فبغض الله لها عدم إرادتها لأوليائه دارا، أو إشارة إلى أنّها مقصود وجودها بالعرض و تحقيرها وتصغيرها بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة. ثمّ نفر عن محبّتها بعد أن أشار إلى بغض الله لها و تصغيره إيّاها بجملة اعتراضيّة يتلخّص منها قياس هكذا: أقلّ معايبنا محبّتنا لما أبغض الله و تعظيمنا لما صغّر و كلّ محبّة و تعظيم كذلك فكفى به شقاقاً له ومحادّة عن أمره. فينتج أنّ أقلّ مافينا من المعايب يكفينا في مشاقّة الله و محادّته. ثمّ أردف ذلك بتمام أوصافه في ترك الدنيا و التكلّف لها.

فقوله: و لقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يأكل على الأرض و يجلس جلسة العبد.

كما روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: إنّما أنا عبد آكل أكل العبيد، و أجلس جلسة العبيد. وغاية ذلك هو التواضع، و كذلك غاية خصف نعله بيده و ترقيع ثوبه بيده و ركوبه للحمار العارى و إردافه خلفه، وأمّا أمره بتغييب التصاوير فمحافظة من حركة الوسواس الخنّاس، و كما أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا كاسرين للنفس الأمّارة بالسوء و قاهرين لشياطينهم كانوا أيضاً محتاجين إلى مراعاتهم و مراقبتهم و تفقّد أحوال نفوسهم في كلّ لحظة و طرفة فإنّها كاللصوص المخادعين للنفوس المطمئنّة، مهما تركت و غفل عن قهرها و التحفّظ منها عادت إلى طباعها.

و قوله: فأعرض عن الدنيا بقلبه. إلى قوله: وأن يذكر عنده.

إشارة إلى الزهد الحقيقيّ وهو حذف الموانع الداخلة النفسيّة عن النفس. و ما قبله من الأوصاف إشارة إلى زهده الظاهرى وهو حذف الموانع الخارجيّة عنه. ثمّ عاد إلى التذكير بالمقدّمة السابقة للدليل على حقارة الدنيا و خبثها فأعاد ذكر

جوعه هو وخاصّة من أهل بيته مع عظيم زلفته ورفعة منزلته عند الله وإزوائها عنه ، ولمّا ذكر تلك المقدّمة شرع في الاستدلال بقوله : فلينظر ناظر . إلى قوله : أقرب الناس إليه وهو بقياس شرطيّ متّصل مقدّمه حمليّة و تاليه قضيّه شرطيّة منفصلة و تلخيصه: إذا كان محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم جاع في الدنيا مع خاصّته و زوى الله عنه زخارفها مع عظيم زلفته عنده فلا يخلو فعله بذلك إمّا أن يكون إكراماً له أو إهانة و القسم الثاني ظاهر البطلان إذ ثبت أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أخصّ خواصّ الله، و إذا كان أحقر ملك في الدنيا لايقصد بأحد من خاصّته إذا كان مطيعاً له الاهانة فكيف يصدر ذلك من جبّار الجبابرة و مالك الدنيا والآخرة حكيم الحكماء ورحيم الرحماء في حقّ أحقّ خواصّه وأشدّهم طاعة له ، و لأجل وضوح ذلك اقتصر على تكذيب من قال به و أكّده بالقسم البارّ ، و أمّا القسم الأوّل و هو أنّه أكرمه بذلك فمن المعلوم أنّ الشيء إذا كان عدمه إكراماً و كمالا كان وجوده نقصاً و إهانة فكان وجود الدنيا في حقّ غيره صلّى الله عليه وآله وسلّم و إزوائها عنه مع قرب منزلته إهانة لذلك الغير وذلك يستلزم حقارتها و يبعث العاقل على النفار عنها . ثمّ عاد إلى الأمر بالتأسّي به صلّى الله عليه وآله وسلّم في ترك الدنيا تأكيداً لماسبق بعدبيان وجوه التأسي وهوأمر فيصورة الخبر مع زيادة تنبيه على أنّ الميل إليها يحلّ الهلكة فمن لم يتأسّ بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في أحواله في الدنيا و خالفه في الميل إلى شيء منها لم يأمن الهلكة . إذ قد عرفت أنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة و هي الجاذبة عن درجات دار النعيم إلى دركات دارالجحيم .

و قوله : فإنّ الله جعل محمّداً . إلى قوله : داعي ربّه .

صورة احتجاج على قوله : و إلّا فلا يأمن الهلكة . و تقريره أنّ الله تعالى جعله علماً للساعة وأمارة على قربها ومبشّراً بالجنّة ومنذراً بالعقوبة واطّلعه على أحوال الآخرة ثمّ خرج من الدنيا بهذه الأحوال المعدودة المستلزمة للنفار عنها و البغض لها و الحذر منها فلولم يكن الركون إليها و ارتكاب أضداد هذه الأحوال منها مظنّة الهلكة لما نفر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عنها و يركن إليها لكنّه نفر عنهافكانت مظنّةالهلكة فوجب التأسّي به فينفاره عنها وإلّا لم يأمن غيرالمتأسّي به الهلكةفيها.

و روى علماً للساعة بكسر العين و هومجاز إطلاقاً لاسم المسبّب على السبب . إذ هو صلى الله عليه وآله وسلم سبب للعلم بالساعة ، و كنّى بوضع الحجر على الحجر عن البناء . ثمّ عقّب بتعظيم منّة الله تعالى على الناس حين أنعم عليهم بهسلفاً يتّبعونه وقائداً يقتفون أثره ، وأردف ذلك بذكر بعض أحواله الّتي تأسّى به عليه السلام فيها من ترك الدنيا والإعراض عن الاستمتاع بها إلى غاية ترقيع مدرعته حتّى استحيا من راقعها و قول من قال له : ألا تنبذها وتلقيها وجوابه الحسن .

وقوله : فعند الصباح يحمد القوم السرى .

مثل يضرب لمحتمل المشقّة ليصل إلى الراحة فأصله أنّ القوم يسيرون في الليل فيحمدون عاقبة ذلك بقرب المنزل إذا أصبحوا . و مطابقة الصباح لمفارقة النفس البدن أولاً عراضها عنه و اتّصالها بالملأ الأعلى بسبب تلك الرياضة الكاملة و إشراق أنوار العالم العلويّ عليها الّتي عنده تحمد عواقب الصبر على مكاره الدنيا وترك لذّاتها ومعاناة شدائدها مطابقة ظاهرة واقعة موقعها ، وروى أنّه سئل عليه السلام لم رقعت قميصك فقال : يخشع لها القلب و يقتدى بها المؤمنون . وممّا نقل في زهده عليه السلام مارواه أحمد في مسنده عن أبي النور الحوّام بالكوفة قال : جاءني عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى السوق و معه غلام له وهو خليفة فاشترى منّي قميصين و قال لغلامه : اختر أيّهما شئت فأخذ أحدهما و أخذ عليّ الآخر . ثمّ لبسه ومدّ يده فوجد كمّه فاضلة فقال : اقطع الفاضل فقطعه ، ثمّ كفّه وذهب ، و روى أحمد أيضاً قال : لما أرسل عثمان إلى عليّ وجدوه مؤتزراً بعباءة محتجراً بعقال وهو يهنأ بعيراً له : أى يمسحه بالقطران و هو الهناء ، والأخبار في ذلك كثيرة . وبالله التوفيق .

١٦٠ — ومن خطبة له عليه السلام

بَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي ، وَالْكِتَابِ الْهَادِي :

أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ : أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ

مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ ، عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ ، وَامْتَدَّ بِهَا صَوْتُهُ . أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَافِيَةٍ ، أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ ، وَبَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ ، فَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ ، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ ، وَيَكُنْ مَآبُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ ، وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ .

وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ تَوَكُّلَ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ، وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ ؛ الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ . أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ وَطَاعَتِهِ ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَدًا ، وَالْمَنْجَاةُ أَبَدًا ، رَهَّبَ فَأَبْلَغَ ، وَرَغَّبَ فَأَسْبَغَ ، وَوَصَفَ لَكُمُ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا ، فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا . أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللهِ ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللهِ ! فَغُضُّوا عَنْكُمْ عِبَادَ اللهِ غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا لِمَا أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَرُّفِ حَالِهَا ، فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ ، وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ ، وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ : قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ ، فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقْدَهَا . وَبِصُحْبَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا ، لَا يَتَفَاخَرُونَ ، وَلَا يَتَنَاسَلُونَ ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ ، وَلَا

يَتَحَاوَرُونَ . فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ ، الْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ ، وَالطَّرِيقَ جَدَدٌ ، وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ .

أقول : اُسرته : أهله . والمتهدّلة : المتدلّية . و طيبة : اسم للمدينة سمّاها به رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و قد كان اسمها يثرب ، وروى أنّ يزيد بن معاوية سمّاها خبيثة . و تلافيت الشيء : استدركته . و الكبوة : العثرة . و الوبيل : المهلك . و الكدح : السعي والعمل .

و خلاصة الفصل ذكر ممادح النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم . ثمّ الموعظة الحسنة و التنفير عن الدنيا . والنور المضيء نور النبوّة ، و البرهان الجليّ المعجزات والآيات الموضحة لنبوّته ، و المنهاج البادى هو شريعته و دينه الواضح ، و الكتاب الهادى القرآن لهديه إلى سبيل الجنّة ، و ظاهر كون اُسرته خير الاُسرة . و لفظ الشجرة مستعار لأصله ، وظاهر كون قريش أفضل العرب ، و لفظ الأغصان مستعار لأشخاص بيته عليه السلام كعليّ و أولاده وزوجته و أعمامه و إخوانه ، و اعتدال هذه الأغصان تقاربهم في الفضل و الشرف ، وثمارها مستعار لفضائلهم العلميّة و العمليّة ، و تهدّلها كناية عن ظهورها و كثرتها وسهولة الانتفاع بها ، وذكر مولده بمكّة و هجرته بالمدينة في معرض مدحته لشرف مكّة بالبيت العتيق و شرف المدينة بأهلها حيث آووه ونصروه حين هاجر إليها فعلا بها ذكره وانتشرت فيها صيته و امتدّت دعوته ، ولأنّه هاجر إليها و هي بلدة مجدب قليل الخصب ضعيف الأهل مع غلبة خصومه و قوّة المشركين عليه في ذلك الوقت . ثمّ إنّه مع ذلك علا بها ذكره وانتشرت فيها صيته فكان ذلك من آيات نبوّته أيضاً ، والحجّة الكافية ما جاء به من الآيات الّتي قهر بها أعداء الله ، و الموعظة الشافية ما اشتمل عليه القرآن العظيم و السنّة الكريمة من الوعد و الوعيد وضرب الأمثال و التذكير بالقرون الماضية و الآراء المحمودة الجاذبة للناس في أرشد الطرق إلى جناب ربّهم ، و كفى بها شفاء للقلوب من أدواء الجهل ، و الدعوة

المتلافية فإنّه استدرك بها ما فسد من نظام الخلق و تلافى بها ماهلك من قلوبهم وأسوّد من ألواح نفوسهم ، و الشرائع المجهولة طرايق دينه وقوانين شريعته الّتي لم يكن ليهتدى إليها إلّا بظهوره ، و البدع ما كانت عليه أهل الجاهليّة من الآثام و الفساد في الأرض ، والأحكام المفصولة ما فصّله وبيّنه لنا من أحكام دين الإسلام الّذي من ابتغى غيره ديناً ضلّ عن سواء طريق النجاة فتحقّقت شقوته في الآخرة وانفصمت عروته : أى انقطع متمسّك النجاة في يده فعظمت عثرته في سفره إلى الآخرة وكان مرجعه إلى الحزن الطويل على ما فرّط في جنب الله ومصيره إلى العذاب المهلك في دار البوار . ثمّ أنشأ يتوكّل على الله توكّل المنيب إليه : أى الملتفت بقلبه عن غيره المسلّم بجميع اُموره إليه ، ويسأله الإرشاد إلى سبيله القاصدة إلى جنّته الّتي هي محلّ الرغبة إليه . ثمّ عقّب بالموعظة فبدء بالوصيّة بتقوى الله وطاعته وأطلق عليها لفظ النجاة مجازاً إطلاقاً لاسم المسبّب على السبب المادّى لكونها معدّة لإفاضة النجاة من عذاب يوم القيامة . وقيل : النجاة الناقة الّتي ينجى عليها فاستعار لفظها للطاعة لأنّها كالمطيّة ينجو بها المطيع من العطب ، ولفظ المنجاة إذ هي محلّ النجاة دائماً ، والضمير في رهّب و رغّب لله : أى فأبلغ في وعيده و أسبغ الترغيب فأتمّه ، ووصف الدنيا بالأوصاف الموجبة للرغبة عنها . ثمّ أمر عليه السلام بالإعراض عن زينتها ، وعلّل حسن ذلك الإعراض بقلّة ما يستصحب الإنسان منها إلى الآخرة ، و أراد الإعراض بالقلب الّذي هو الزهد الحقيقيّ ، و إنّما قال : لقلّة ذلك ولم يقل لعدمه لأنّ السالكين لابدّ أن يستصحبوا منها شيئاً و هو ما يكتسبه أحدهم من الكمالات إلى الآخرة لكن القدر الّذي يكتسبه المترفون من الكمالات إذا قصدوا بأموالهم وسائر زينة الحياة الدنيا الوصول إلى الله تعالى قليل نور ، و مع ذلك فهم في غاية الخطر من مزلّة القدم في كلّ حركة وتصرّف بخلاف أهل القشف الّذين اقتصروا منها على مقدار الضرورة البدنيّة ، ويحتمل أن يريد بالقليل الّذي يصحبهم منها كالكفن ونحوه ، وإنّما كانت أقرب دار من سخط الله وأبعدها من إطاعة الله لأنّ الميل فيها إلى اللهو واللعب و الاستمتاع بزينتها المستلزم لسخط الله أغلب

من الانتفاع بها في سلوك سبيل الله .

وقوله : فغضّوا .

أى فكفّوا عن أنفسكم الغمّ لأجلها والاشتغال بها لما تيقّنتم من فراقها لأنّ الغمّ إنّما ينبغي أن يوجّه نحو ما يبقى . ثمّ حذّر منها حذر الشفيق على نفسه الناصح المجدّ الكادح لها . ثمّ أخذ في الأمر باعتبار ما هو مشاهد من مصارع القرون الماضية و أحوالها الخالية من تفرّق أوصالهم و زوال أسماعهم وأبصارهم إلى سائر ماعدّده من الأحوال الّتي نزلت بهم واستبدلوها من الأحوال الدنيويّة الّتي كانوا عليها . ثمّ حذّر منها حذر الغالب لنفسه الأمّارة بالسوء الناظر بعين عقله مقابح شهوته المانع لها عن العبور إلى حدّ الإفراط من فضيلة العفّة فإنّ أمر الدنيا والآخرة واضح لمن اعتبر حالهما ، وعلم الشريعة الهادي إلى الحقّ قائم ، والطريق إلى الله سهل مستقيم قاصد : أى فلا يكن أمركم عليكم غمّة .

١٦١ — وَمِن كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

لبعض أصحابه وقد سأله : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به ؟ فقال :

يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ ؛ إِنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِينِ ، تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ ! وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصِّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ ، وَقَدِ اسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ : أَمَّا الاِسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهٰذَا الْمَقَامِ ـ وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَباً ، وَالْأَشَدُّونَ بِرَسُولِ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، نَوْطاً ـ فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ ، وَالْحَكَمُ اللهُ وَالْمَعْوَدُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ ۝ وَهَلُمَّ الْخَطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ

فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِه، وَلَا غَرْوَ وَاللهِ فَيَالَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ وَيُكْثِرُ الْأَوَدَ، حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللهِ مِنْ مِصْبَاحِه، وَسَدَّ فَوَّارِه مِنْ يَنْبُوعِه. وَجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً. فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوَى أَحْمِلْهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ؛ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ).

أقول: الوضين: بطان القتب و حزام السرج. و الغلق: الاضطراب. و الذمامة بالكسر: الحرمة، و يروى ماتّة الصهر: أى وسيلته وهي المصاهرة، و النوط: التعلّق. و الأثرة بالتحريك: الاستبداد و الاستيثار. و الحجرة بفتح الحاء: الناحية، والجمع حجرات بفتح الجيم وسكونها. وهلّم: يستعمل بمعنى تعال كقوله تعالى «هلّم إلينا» وقد يستعمل بمعنى هات كما هي هنا فيتعدّى كما قال تعالى «هلّموا شهدائكم». ولا غرو: أى لا عجب. والأود: الاعوجاج. والجدح بالجيم بعدها الحاء: الخلط و التخويض و التكدير. و الشرب بالكسر: الحظّ من الماء. والوبيء: ذوالوباء الممرض.

فأمّا جوابه للأسديّ فإنّه يقال للرجل إذا لم يكن ذا ثبات في عقله واُموره بحيث يسأل عمّا لا يعنيه أويضع سؤاله في غير موضعه ويستعجل: إنّه قلق الوضين، وأصله أنّ الوضين إذا قلق اضطرب القتب فلم يثبت فطابق حال من لا يثبت في مقاله وحركاته فضرب مثلاً له، و كذلك قوله: وترسل في غير سدد: أى تتكلّم في غير موضع الكلام لا على استقامة. وهذا تأديب له.

و قوله: ولك بعد. إلى قوله: استعملت.

إبداء للعذر في حسن جوابه فإنّ للمصاهرة حقّ وللسائل على المسؤول حقّ الاسترشاد والسؤال. فأمّا كونه صهراً فلأنّ زينب بنت جحش زوجة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم

كانت أسديّة . وهي زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرّة بن كثير بن غنم ابن ذوذان بن أسد بن خزيمة و اُمّها أميمة بنت عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف فهي بنت عمّة رسول الله صلّى الله عليه وآله . قالوا : و المصاهرة المشار إليها هي هذه ، و نقل القطب الراوندي أنّ عليّاً عليه السلام كان متزوّجاً في بني أسد . وأنكره الشارح ابن أبي الحديد معتمداً على أنّه لم يبلغنا ذلك ، والإنكار لا معنى له . إذ ليس كلّ ما لم يبلغنا من حالهم لايكون حقّاً ويلزم أن لايصل إلى غيرنا .

و قوله : أمّا الاستبداد .

شروع في الجواب والضمير في إنّها يعود إلى معنى الأثرة في الاستبداد ، والقوم الّذين شحّوا عليها فعند الإماميّة من تقدّم عليه في الإمامة ، و عند غيرهم فربّما قالوا المراد بهم أهل الشورى بعد مقتل عمر .

و قوله : والحكم الله و المعود إليه .

أي المرجع في يوم القيامة في معنى التظلّم والتشكّي ، والمعود مبتداء خبره القيامة . فأمّا البيت فهو لامرء القيس ، وأصله أنّه تنقّل في أحياء العرب بعد قتل أبيه فنزل على رجل من خذيلة طيّ يقال له طريف فأحسن جواره . فمدحه وأقام معه . ثمّ إنّه خاف أن لا يكون له منعة فتحوّل عنه و نزل على خالد بن سدوس بن اسمع النبهاني فأغارت بنو خذيلة عليه وهو في جوار خالد فذهبوا بإبله فلمّا أتاه الخبر ذكر ذلك لخالد فقال له : أعطني رواحلك ألحق عليها فأردّ عليك إبلك ففعل فركب خالد في أثر القوم حتّى أدركهم فقال : يابني خذيلة أغرتم على إبل جاري . قالوا : ما هو لك بجار . قالوا : بلى والله وهذه رواحله . فرجعوا إليه فأنزلوه عنهنّ وذهبوا بهنّ وبالإبل . فقال امرء القيس القصيدة الّتي أوّلها البيت :

فدع عنك نهباً صيح في حجراته ✿ ولكن حديثٌ ماحديث الرواحل

والنهب هنا ماينهب وحجراته جوانبه ، وحديث الثاني مبتداء و الأوّل خبره وما للتنكير وهي الّتي إذا دخلت على اسم زادته إبهاماً كقوله : لأمر ما جدع قصير أنفه . و المعنى دع ذكر الإبل فإنّه مفهوم ، ولكن حديث الرواحل حديثٌ ما :

أى حديث مبهم لا يدرى كيف هو ، و ذلك أنّه قيل : إنّ خالداً هو الّذي ذهب بالرواحل . فكان عنده لبس في أمرها . فأمّا استشهاده عليه السلام به فالمرويّ في استشهاده النصف الأوّل من البيت ، ووجه مطابقته لما هو فيه أنّ السابقين من الأئمّة و إن كانوا قد استبدّوا بهذا الأمر فحديثهم مفهوم . إذ لهم الاحتجاج بالقدمة في الإسلام و الهجرة وقرب المنزلة من الرسول و كونهم من قريش . فدع ذكرهم وذكر نهبهم هذا المقام فيما سبق ، ولكن هات ما نحن فيه الآن من خطب معاوية بن أبي سفيان ، و الخطب هو الحادث الجليل ، وأرادهات ذكر خطبه فحذف المضاف للعلم به ، وأشار به إلى الأحوال الّتي أدّت إلى أن كان معاوية منازعاً له في هذا الأمر مع بعده عنه حتّى صار قائماً عند كثير من الناس مقامه .

و قوله : فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه .

إشارة إلى غبنه ممّن تقدّم عليه في هذا الأمر ، وضحكه بعد ذلك تعجّب ممّا حكمت به الأوقات و اعتبار . ثمّ قال ولا عجب : أى ذلك أمر يجلّ عن التعجّب . ثمّ أخذ في استعظامه فقال : ياله خطباً يستفرغ العجب : أى يفنيه حتّى صار كلا عجب و هو من باب الإغراق و المبالغة كقول ابن هانى :

قد سرت في الميدان يوم طرادهم فعجبت حتّى كدت لا أتعجّب

و يحتمل أن يكون قوله : ولا غرو والله : أى إذا نظر الإنسان إلى حقيقة الدنيا وتصرّف أحوالها. فيكون قوله بعد ذلك : فياله . استيناف لاستعظام هذا الأمر . و كونه يكثر الإعوجاج ظاهر فإنّ كلّ امرء بعد عن الشريعة ازداد الأمر به اعوجاجاً .

و قوله : حاول القوم . إلى قوله : ينبوعه .

فالقوم قريش ، و مصباح أنوار الله استعارة لخاصّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أهل بيته ، و كذلك ينبوعه استعارة لهم باعتبار كونهم معدناً لهذا الأمر ولوازمه ، ووجه الاستعارتين ظاهر . يريد أنّهم حاولوا إزالة هذا الأمر عن مستقرّه ومعدنه الأحقّ به و هو بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . ثمّ استعار لفظ الشرب الوبيىء لذلك الأمر ، ولفظ

الجدح للكدر الواقع بينهم و المجاذبة لهذا الأمر ، واستعار لفظالوبيء له باعتبار كونه سبباً للهلاك و القتل بينهم .

و قوله : فإن ترتفع . إلى آخره .

أي فإن يجتمعوا عليّ و يرتفع بيني و بينهم ما ابتلينا به من هذه المحن والإحن أسلك بهم محض الحقّ ، وإن أبوا إلّاالبقاء على ما هم عليه فلا أسف عليهم . و اقتبس الآية المشتملة على تأديب نفسه و توطينها على ترك الأسف عليهم إن لم يؤمنوا وعلى تهديدهم و وعيدهم باطّلاع الله على أعمالهم السيّئة .

١٦٢ - وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

اَلْحَمْدُ للهِ خَالِقِ الْعِبَادِ ، وَسَاطِحِ الْمِهَادِ ، وَمُسِيلِ الْوِهَادِ ، وَمُخْصِبِ النِّجَادِ لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ ، وَلَا لِأَزَلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ ، هُوَ الْأَوَّلُ لَمْ يَزَلْ ، وَالْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ ، حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا ، لَا تُقَدِّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَدَوَاتِ لَا يُقَالُ لَهُ : «مَتَى ؟» ، وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ بِحَتَّى ، الظَّاهِرُ لَا يُقَالُ «مِمَّا» ، وَالْبَاطِنُ لَا يُقَالُ «فِيمَا» ، لَا شَبَحٌ فَيَتَقَضَّى ، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى . لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْتِصَاقٍ ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ ، وَلَا كُرُورُ لَفْظَةٍ ، وَلَا ازْدِلَافُ رَبْوَةٍ ، وَلَا انْبِسَاطُ خُطْوَةٍ فِي لَيْلٍ دَاجٍ ، وَلَا غَسَقٍ سَاجٍ ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ

ذَاتُ النُّورِ ، فِي الْأُفُولِ وَالْكُرُورِ ، وَتَقَلُّبِ الْأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ ، قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ ، تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ ، وَنِهَايَاتِ الْأَقْطَارِ ، وَتَأَثُّلِ الْمَسَاكِنِ ، وَتَمَكُّنِ الْأَمَاكِنِ : فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ ، لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ ، مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ ، وَلَا مِنْ أَوَائِلَ أَبَدِيَّةٍ ؛ بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ ، فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ ، لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ . عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى .

أقول : الساطح : الباسط . و المهاد : الأرض ، و الوهاد : جمع و هدة و هي المكان المطمئنّ . والنجاد: جمع نجد ، وهو المكان المرتفع . وازدلاف الربوة : تقدّمها . و الساجي : الساكن . وتفيّؤ القمر : ذهابه و مجيئه حالتي أخذه في التبدّر وأخذه في النقصان إلى المحاق . ومجد مؤثّل و بيت مؤثّل : أصيل قديم .

و قد اشتملت الخطبة من علم التوحيد على مباحث قدّم الحمد لله تعالى باعتباراتها :

الأوّل : قوله : خالق العباد . إلى قوله : النجاد .

إشارة إلى كونه مبدءاً لجميع الموجودات ، وبيانه: أنّ لفظ العباد مشتمل على من في السماوات و من في الأرض لقوله تعالى « إن كلّ من في السماوات والأرض إلّا آتي الرحمن عبداً »[1] و تدخل في ذلك الأجسام الفلكيّة لكونها أجساماً للملائكة ، و سطح المهاد إشارة إلى خلق الأرض وجعلها مهاداً لما خلق من الحيوان ، و مسيل

---

(١) ١٩ - ٩٤ .

الوهاد و مخصب النجاد إشارة إلى إيجاده لسائر ما ينتفع به الخلق في الدنيا .

إذا عرفت ذلك فقد اشتملت هذه الألفاظ على إيجاده لجميع الموجودات الممكنة . وقد ثبت أنّ خالق جميع الموجودات الممكنة لا يكون ممكناً فاستلزم ذلك كونه تعالى واجب الوجود .

الثاني من الاعتبارات السلبيّة : كونه تعالى لا ابتداء لأوليّته : أي لا حدّ لكونه أوّلاً للأشياء تقف عنده أوّليّته وتنتهى به و إلّا لكان محدثا فكان ممكناً فلم يكن واجب الوجود . هذا خلف .

الثالث : ولا انقضاء لأزليّته : أى لا غاية ينتهي عندها وينقضي وإلّا لقابل العدم فلم يكن واجب الوجود . هذا خلف .

و قوله : هو الأوّل لم يزل والباقى بلا أجل .

تأكيد للاعتبارين الثانى والثالث بعبارة الإثبات .

الرابع : خرّت له الجباه ووحدّته الشفاه . و هو إشارة إلى كمال اُلوهيّته و استحقاقه للعبادة .

الخامس : أنّه لا يشبهه شيء . إذ كلّ شيء ما عداه محدود يقدّره العقل و الوهم و يشار إليه بحدود يحيطان به منها ، و لا شيء منه تعالى كذلك . إذ كلّ وهم قدّره بحدّ أو بحركة أو جارحة أو أداة كما هو مقتضى الوهم في إدراكه لمدركاته فقد ضلّ ضلالاً بعيداً عن تصوّره . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

السادس : أنّه منزّه عن لحوق الزمان فلا يسأل عنه بمتى ، وعن غاية الزمان فلا يضرب له أمد بحتّى .

السابع : كونه ظاهراً ومع غاية ظهوره لا مادّة له ولا أصل يستفاد منه فلا يقال ممّا هو موجود .

الثامن : كونه باطناً ومع غاية بطونه وخفائه لا حيّز له فيقال فيه بطن وخفى كسائر الخفيّات من الأجسام و الجسمانيّات . و قد سبق بيان كونه تعالى باطناً وظاهراً غير مرّة .

التاسع : كونه و ليس بشخص فيلحقه التغيّر والانقضاء .

العاشر : ولا محجوب فيحويه الحجاب . إذ الشخص للناظر و الحجاب من لواحق الأجسام الّتي تنزّه قدسه عنها .

الحادى عشر : من الاعتبارات الإضافيّة كونه تعالى قريباً من الأشياء لا بالالتصاق .

الثاني عشر : كونه بعيداً منها لا بالافتراق . وقد عرفت معنى قربه و بعده في الخطبة الأُولى ، و لمّا كان الالتصاق و الافتراق من لواحق الأجسام لاجرم تنزّه قربه و بعده من الأشياء عنها .

الثالث عشر : كونه لايخفى عليه من عباده شخوص لحظة. إلى قوله : وإدبار نهار مدبر. إشارة إلى إحاطة علمه بكلّ المعلومات ، و شخوص اللحظة مدّ البصر بلاحركة جفن ، و كرور اللفظة رجوعها ، و ازدلاف الربوة تقدّمها و أراد الربوة المتقدّمة : أى في النظر و البادية عند مدّ العين فإنّ الربى أوّل ما يقع في العين من الأرض، و الضمير في عليه المغسق .

و قوله : و تعقّبه الشمس : أى تتعقّبه فحذف إحدى التائين كقوله تعالى « توفّيهم الملائكة » وروى تعقبه ، والضمير المنصوب فيه للقمر .

و قوله : من إقبال ليل .

متعلّق بالتقليب ، والمعنى أنّ الشمس تعاقب القمر فتطلع عند اُفوله ، ويطلع عند اُفولها .

الرابع عشر: كونه قبل كلّ غاية و مدّة و إحصاء وعدّة لأنّه تعالى خالق الكلّ ومبدءه فوجب تقدّمه وقبليّته .

الخامس عشر : تنزّهه و تعاليه عمّا تصفه به المشبّهة و المتّبعون لحكم أوهامهم في جنابه المقدّس من صفات المقادير كالأقطار و النهايات و الجوانب وإصالة البيوت و قدمها والاستقرار في المساكن وسائر ما هي حدود ولواحق يتقيّد بها ذوات الأعيان. فإنّ كلّ تلك الحدود مضروبة منه لخلقه ومنسوبة إليهم دونه .

السادس عشر : كون مخلوقاته صادرة عنه من غير اُصول أزليّة و لا أوائل أبديّة : أي أوّليّة سابقة ومعنى هذا الكلام أنّه لم يخلق ماخلق على مثال سبق يكون أصلاً لا أوّل له حذا حذوه ، و قيل : معناه أنّه ليس لماخلق أصل أزليّ أبديّ خلق منه من مادّة وصورة كما زعمت الفلاسفة ، وروى : ولامن أوائل أبديّة .

و قوله : بل خلق ماخلق فأقام حدّه .

أى بل هو المخترع لإقامة حدوده ، وهي من المقادير والأشكال و النهايات والآجال والغايات على وفق الحكمة الإلهيّة، و كذلك صوّر ماصوّر فأحسن صورته : أى أتى به على وجه الإحكام والإتقان .

السابع عشر : كونه ليس لغيره منه امتناع ، إشارة إلى كمال قدرته و إحاطة علمه .

الثامن عشر : كونه لاانتفاع له بطاعة شيء لأنّ الانتفاع من لوازم الحاجة الممتنعة عليه ، وهو إشارة إلى وصف الغنى .

التاسع عشر : كون علمه تعالى بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين ، وعلمه بما في السماوات العلى كعلمه بما في الأرضين السفلى ، وهو إشارة إلى أنّ علمه غير مستفاد من غيره ولا يلحقه تغيّر و تجدّد فلا يتجدّد له علم لم يكن بل علمه تعالى أزليّ أبديّ تامّ لا يلحقه نقصان، نسبة جميع الممكنات إليه على سواء . وقد علمت تحقيقه في المباحث الإلهيّة في مظانها . وبالله التوفيق .

منها : أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ ، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ ؛ بُدِئْتَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، وَوُضِعْتَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ، وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ ، تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً : لَا تُحِيرُ دُعَاءً ، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً ، ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا ، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ

مَنَافِعِهَا ، فَمَنْ هَدَاكَ لاجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ ؛ وَعَرَّفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ ؟ هَيْهَاتَ ! إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ ؛ وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ .

أقول : السوىّ : المستوى . والمرعىّ : المعتنى بأمره .

و الخطاب للإنسان. ونبّه بكونه سويّا مرعيّاً على وجود خالقه الحكيم اللطيف . و قد عرفت كيفيّة تخليق الإنسان و تصويره شيئاً فشيئاً إلى حال كماله و وضعه ، و كذلك نبّه بتقلّبه في حالاته و أطوار خلقته و باستفهامه عمّن هداه لاجترار غذائه من ثدى امّه وعمّن عرّفه عند الحاجة مواضع طلبه و هي الأثداء على وجود خالق هداه إلى جميع حاجاته. فهذا القدر من العلم بالصانع أمر ضروريّ في النفوس وإن احتاج إلى أدنى تنبيه . و ما وراء ذلك بمعنى صفات الكمال ونعوت الجلال امور لا تطّلع عليها العقول البشريّة بالكنه و إنّما تطّلع منها على اعتبارات ومقايسات له إلى خلقه ، ويحتاج فيها إلى الدليل والبرهان . و قد أشرنا إلى ذلك من قبل . ونبّه على بعد إدراكها والعجز عنها بقوله : هيهات. إلى قوله : و الأدوات : أى من يعجز من صفات نفسه في حال تخليقه و الاطّلاع على منافع جزئيّات أعضائه مع كونها محسوسة مشاهدة له فهو عن صفات خالقه الّتي هي أبعد الأشياء عنه مناسبةً أعجز ، و من إدراكه بالمقايسة و التشبيه بحدود المخلوقين و صفاتهم أبعد. وبالله العصمة والتوفيق .

١٦٣ – ومن كلام له عليه السلام

لما اجتمع الناس عليه وشكوا مما نقموه على عثمان ، وسالوه مخاطبته عنهم واستعتابه لهم . فدخل عليه فقال : –

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي، وَقَدِ اسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ؟! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ لَا تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ، مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ، وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ كَمَا صَحِبْنَا، وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ أَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وآله وسلم، وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا، فَاللهَ اللهَ فِي نَفْسِكَ فَإِنَّكَ، وَاللهِ، مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمًى، وَلَا تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ. فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ هُدِيَ وَهَدَى، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً، وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ. وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وآله وسلم، يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، يُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى: ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا»، وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللهَ أَنْ لَا تَكُونَ إِمَامَ هٰذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولَ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هٰذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ

وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيُلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا ، وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا ، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ؛ يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً ، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً ، فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً ، يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السِّنِّ ، وَتَقَضِّي الْعُمُرِ ! !

فقال له عثمان رضى الله عنه : كلم الناس فى أن يؤجلونى حتى أخرج إليهم من مظالمهم ، فقال عليه السلام :

مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ .

أقول: استسفروني: اتّخذوني سفيراً: أى رسولاً . و الوشيجة: عروق الشجرة . والسيقة بتشديد الياء : ما يسوقه العدوّ في الغارة من الدوابّ . وجلال السنّ: علوّه.

و حاصل الكلام استعتابه باللّين من القول. فأثبت له منزلته من العلم : أى بأحكام الشريعة و السنن المتداولة بينهم في زمان الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و الظهور على كلّ ما ظهر عليه منها من مرئىّ و مسموع و الصحبة المماثلة لصحبته ، و ذكر أنّ الشيخين ليسا بأولى منه بعمل الحقّ . ثمّ فخّمه عليهما بقرب الوشيجة من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و الصهورة من دونهما ، ولفظ الوشيجة مستعار لما بينه و بينهم من القرابة. فأمّا كونه أقرب وشيجةً منهما فلكونه من ولد عبد مناف دونهما . ثمّ حذّره الله و عقّب التحذير بتنبيهه على أنّه غير محتاج إلى تعليم فيما يراد منه مع وضوح طريق الشريعة وقيام أعلام الدين . ثمّ تنبيهه على أفضليّة الإمام العادل بالصفات المذكورة ، و على قيام أعلام السنن ، وعلى قيام أعلام البدع ليقتدى بتلك و ينكب عن هذه . ثمّ على حال الإمام الجاير يوم القيامة بما نقل من الخبر عن سيّد البشر صلّى الله عليه و آله و سلّم . ثمّ ناشده الله تعالى محذّراً له أن يكون الإمام المقتول في هذه الاُمّة وقد كان الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أخبر بذلك بهذه العبارة الّتي نقلها بعد قوله : يقال . أو بما يناسبها . ثمّ نهاه أن يكون سيّقةً لمروان بن الحكم : أى بصرفه حسب مقاصده بعد بلوغه معظم

السنّ وتقضّى العمر . وقدكان مروان من أقوى الأسباب الباعثة على قتل عثمان ، و كان يعكس الآراء الّتي يشار على عثمان بها من على عليه السلام وغيره [يشاربها بين علىّ و غيره خ] مع كونه بغيظاً إلى المعتبرين من الصحابة و كونه طريد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

و قوله في جوابه : ما كان بالمدينة فلا أجل فيه . إلى آخره .

كلام جزل حاسم لما عساه يكون مماطلة من طلب التأجيل لأنّ الحاضر لامعنى لتأجيله ، والغائب لاعذر في تأخيره بعدبلوغ أمره إليك كالّذى أعطاه أقربائه من أموال بيت المال على غير وجهه . وقد سبق في الفصول المتقدّمة من أمر عثمان مع الصحابة و ما نقموه عليه ما فيه كفاية . وبالله التوفيق .

١٦٤ — ومن خطبة له عليه السلام

يذ كر فيها عجيب خلقة الطاووس

أَبْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ ، فَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلَائِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ، وَمَاذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الْأَطْيَارِ ، الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ الْأَرْضِ ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا وَرَوَاسِيَ أَعْلَامِهَا ، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ ، مُصَرَّفَةٍ فِي زِمَامِ التَّسْخِيرِ ، وَمُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ ، كَوَّنَهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ ، وَرَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ مَفَاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي السَّمَاءِ خُفُوفاً ، وَجَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً ، وَنَسَقَهَا

عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْأَصَابِيغِ ، بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ ، فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي قَالَبِ ، لَوْنٍ لَا يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ ؛ وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافِ مَا صُبِغَ بِهِ

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقًا الطَّاوُوسُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ ، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ ، إِذَا دَرَجَ إِلَى الْأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ ، وَسَمَا بِهِ مُطِلًّا عَلَى رَأْسِهِ ، كَأَنَّهُ قِلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ ، وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ ، يُفْضِي كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ ، وَيَؤُرُّ بِمَلَاقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ فِي الضِّرَابِ ! أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ ؛ وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ ، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَيْ جُفُونِهِ ، وَإِنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ ثُمَّ تَبِيضُ لَا مِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ تَخَالُ قَصَبَهُ مَدَارِيَ مِنْ فِضَّةٍ ، وَمَا أُنْبِتَ عَلَيْهِ مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ وَشُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْيَانِ وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ ؛ فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ : جَنًى جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ : وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلَابِسِ ، فَهُوَ كَمَوْشِيِّ الْحُلَلِ ، أَوْ مُونِقِ عَصْبِ الْيَمَنِ ؛ وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ قَدْ

نَطَقَتْ بِاللُّجَيْنِ المُكَلَّلِ ، يَمْشِي مَشْيَ المَرِحِ المُخْتَالِ ، وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَيْهِ فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ ، وَأَصَابِيغِ وِشَاحِهِ .

فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوِلاً بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ . وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ ؛ لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الخِلَاسِيَّةِ ، وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِيصِيَةٌ خَفِيَّةٌ ، وَلَهُ فِي مَوْضِعِ العُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ ، وَمَخْرَجُ عُنُقِهِ كَالْإِبْرِيقِ ؛ وَمَغْرِزُهَا إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ الوَسِمَةِ اليَمَانِيَّةِ ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ ، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ إِلَّا أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ أَنَّ الخُضْرَةَ النَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ . وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ القَلَمِ فِي لَوْنِ الأُقْحُوَانِ ، أَبْيَضُ يَقَقٌ ، فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ وَقَلَّ صِبْغٌ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ ، وَعَلَاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ وَبَصِيصِ دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ ، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ المَبْثُوثَةِ لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ ، وَلَا شُمُوسُ قَيْظٍ ، وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيشِهِ ، وَيَعْرَى مِنْ لِبَاسِهِ فَيَسْقُطُ تَتْرَى ، وَيَنْبُتُ تِبَاعاً ، فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الأَغْصَانِ ثُمَّ يَتَلَاحَقُ نَامِياً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ : لَا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ . وَإِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ أَرَتْكَ

حُمْرَةً وَرْدِيَّةً ، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً ، وَأَحْيَانًا صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً ، فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هٰذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ وَالْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ ؟! فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ ، عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلَّاهُ لِلْعُيُونِ فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُودًا مُكَوَّنًا وَمُؤَلَّفًا مُلَوَّنًا ؛ وَأَعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ . وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمَجَةِ إِلَى مَا فَوْقَهَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ وَالْفِيَلَةِ ؛ وَوَأَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يَضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ إِلَّا وَجَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ .

أقول : نعقت : صاحت . و الأخاديد : شقوق الأرض و شعابها . والفجاج : جمع فجّ . وهي الطريق بين الجبلين . والعبالة : امتلاء الجسد . ونسقها : نظمها . و يختال : يصيبه الخيلاء . وزيفانه : تمايله وتبختره . والأرّ : النكاح والحركة فيه . وملاقحه : آلات اللقاح وأعضاء التناسل . والاغتلام : شدّة الشبق . والقلع الداريّ : الشراع المنسوب إلى دارين ، و هي جزيرة من سواحل القطيف من بلاد البحرين يقال : إنّ الطيب كان يجلب إليها من الهند ، و هي الآن خراب لا عمارة بها و لاسكنى ، وفيها آثار قديمة . وعنجه : عطفه . و النوتيّ : ربّان السفينة . و ضفّتي جفونه : جانباها . والمنبجس : المنفجر . و المدارى : جمع مدرى ، و هي خشبة ذات أطراف كأصابع الكفّ محدّدة الرؤوس ينقى بها الطعام . و داراته : الخطوط المستديرة بقصبه . والعقيان : الذهب . وفلذ : جمع فلذة ، وهي القطعة . والزبرجد : قيل : هو الزمرّد ، وقيل : يطلق على البلخش . والجنيّ : فعيل بمعنى المجنيّ ، و هو الملتقط . و العصب : برود تعمل باليمن . و المضاهاة : المشابهة . و الحمش :

الدقاق . و نطّقت باللجين : أى شدّت فيه و رصّعت . و الوشاح : سير ينسج من أديم و يرصّع بالجواهر فتجعله المرأة على عاتقها إلى كشحيها . و زقا : صاح . و المعول : الصارخ . و الديكة الخلاسيّة : هى المتولّدة بين الدجاج الهنديّ و الفارسيّ . ونجمت : ظهرت . و الظنبوب : حرف الساق . و الصيصية : الهنة الّتي في مؤخّر رجل الديك . و القنزعة : الشعر المجتمع في موضع من الرأس . و الوسمة بكسر السين وسكونها : شجر العظلم يخضب به . والأسحم : الأسود. التلفّع : التلحّف . و اليقق : خالص البياض . و يأتلق : يلمع . و البصيص : البريق . و تترى : تسقط منها شيء عقيب شيء . و أدمجه : أحكمه . والذرّة : النملة الصغيرة . و الهمجة : ذبابة صغيرة كالبعوضة .

ومقصود الخطبة التنبيه على عجائب صنع الله لغاية الالتفات إليه والتفكّر في ملكوته ، وقدعرفت معنى الابتداع. وأرادبالموات مالا حياةله ، والساكن كالأرض ، و ذوالحركات كالأفلاك و شاهد [شواهد خ] البيّنات ما ظهر للعقول من لطائف المخلوقات فاستدلّت بها على لطف صنعته و كمال قدرته فانقادت لتلك الدلائل و الطرق الواضحة إلى معرفته والإقرار به والتسليم لأمره ، و استعار لفظ نعيق في الأسماع لظهور تلك الدلائل في صماخ العقل ، وما الاُولى مفعول لأقام ، والضمير في له يرجع إلى ما، وفي به وله الثانية إلى الله ، و في دلائله يحتمل العود إلى كلّ واحد منهما ، و ما الثانية محلّها الجرّ بالعطف على الضمير المضاف إليه في دلائله : أى نعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيّته ودلائل ما خلق ، و قد عرفت فيما سبق كيفيّة الاستدلال بكثرة ما خلق و اختلافه في وحدانيّته ، والأطيار الّتي أسكنها أخاديد الأرض كالقطاة و الصدى ، و الّتي أسكنها خروق فجاجها كالقبج ، والّتي أسكنها رؤوس الجبال كالعقبان والصقور . ثمّ أخذ يصف اختلافها بالأجنحة في هيئاتها و كيفيّات خلقها تحت تصريف قدرته و حكمته . ثمّ أشار إلى اعتبار تكوينها وإحداثها في عجائب صورها و ألوانها و تركيب خلقها في عبل الجثّة تمنع سمّوه في الهواء كالنعام . ثمّ نبّه على لطيف حكمته في تنسيقها مختلفة الألوان

والأصباغ فمنها مغموس في قالب لون واحدقد طوّق بخلاف ماصبغ به كالفواخت ، و شرع في التنبيه بحال الطاووس على لطف الصنع لاشتماله على جميع الألوان ، و كفى بوصفه عليه السلام شارحاً فإنّه لا أبلغ منه و لا أجمع لتفاصيل الحكمة الموجودة في هذا الموصوف غير أنّه قد يحتاج بعض ألفاظه عليه السلام إلى بيان . فأراد بقصبه قصب ريش ذنبه و جناحيه و إشراجها ضبط اُصولها بالأعصاب والعظام و شرج بعضها لبعض ، و وصفه عليه السلام لهيئة درجه إلى الاُنثى حال إرادة السفاد وصف من شاهد و استثبت الهيئة و أحسن بتشبيهه لذنبه عند إرادة السفاد بالقلع الدارىّ فإنّه في تلك الحالة يبسط ريشه و ينشره . ثمّ يرفعه و ينصبه فيصير كهيئة الشراع المرفوع ، و وجه التشبيه زيادة على ذلك أشار إليها بقوله : عنجه نوتيّه ، و ذلك أنّ الملاّحين يصرفون الشراع تارة بالجذب ، و تارة بالإرخاء ، وتارة بتحويله يميناً و شمالاً و ذلك بحسب انصرافهم من بعض الجهات إلى بعض فأشبههم هذا الطائر عند حركته لإرادة السفاد و زيفانه في تصريف ذنبه و تحويله ، وله في ذلك هيئة لا يستثبت وجه الشبه فيها كما هو إلّا من شاهدها مع مشاهدة المشبّه به ، ولذلك قال: اُحيلك من ذلك على معاينة لا كمن يحيلك على ضعيف إسناده. وإنّما خصّ دارين بالذكر لأنّها كانت المرسى القديم في زمانه عليه السلام حيث كانت معمورة .

و قوله : ولو كان كزعم من يزعم . إلى قوله : المنبجس .

أى لو كان حاله في النكاح كزعم من يزعم ، وهو إشارة إلى زعم قوم أنّ الذكر تدمع عينه فتقف الدمعة بين أجفانه فتأتى الاُنثى فتطعمها فتلقح من تلك الدمعة ، و روي تنجشها مدامعه : أى تغصّ بها وتحار فيها ، و هو عليه السلام لم يحل ذلك ، و إنّما قال : ليس ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب ، والعرب تزعم أنّ الغراب لا يسفد. ومن أمثالهم أخفى من سفاد الغراب ، و يزعمون أنّ اللقاح من مطاعمة الذكر والاُنثى و إيصال جزء من الماء الّذي فيه في قانصته إليها و هي أن يضع كلّ منهما منقاره في منقار صاحبه و يتزاقّا و ذلك مقدّمة للسفاد في كثير من الطير كالحمام و غيره ، و هذا و إن كان ممكناً في بعض الطير كالطاووس والغراب

غير أنّ ذلك بعيد . على أنّه قد نقل الشيخ في الشفاء أنّ القبجة تحبلها ريح تهبّ من ناحية الحجل ومن سماع صوته ، قال: والنوع المسمّى مالاقيا يتلاصق بأفواهها ثمّ يتشابك فذلك سفادها ، و نقل الجاحظ في كتاب الحيوان أنّ الطاووسة قد تبيض من الريح بأن تكون في سفالة الريح وفوقها الذكر فتحمل ريحه فتبيض منها . قال : و بيض الريح قلّ أن يفرخ . و أقول : قد يوجد في الدجاج ذلك إلّا أنّه قلّ ما يفرخ كما ذكره . ثمّ شبّه عليه السلام قصب ذنبه بالمدارى من الفضّة ، و من شاهد صورة قيام ذنبه مع بياض اُصول ريشه و تفرّقها عند نشره للسفاد عرف موضع التشبيه المذكور و وقوعه موقعه ، و كذلك شبّه الخطوط الصفرة المستديرة على رؤوس ريش الذنب بخالص العقيان في الصفرة الفاقعة مع ما يعلوها من البريق ، و ما في وسط تلك الدارات من الدوائر الخضر بقطع الزبرجد في الخضرة ، واستعار لها لفظ الشموس ملاحظة لمشابهتها لها في الاستدارة والاستنارة . ثمّ قال : وإن شبّهته بما أنبتت الأرض . إلى قوله : كلّ ربيع ، و وجه الشبه اجتماع الألوان مع نضارتها و بهجتها. و كذلك وجه الشبه في تشبيهه بموشّى الحلل أو المعجب من برود اليمن ، و كذلك إن شاكلته بالحليّ ، و وجه شبهه بالفصوص المختلفة الألوان المنطّقة في الفضّة: أى المرصّعة في صفائح الفضّة والمكلّل الّذي جعل كالأكليل بذلك الترصيع. ثمّ حكى صورة مشيته وصوته كالقهقهة عند نظره إلى حسن سرباله و إعجابه بجمال كسوته ، و لفظ الضحك والقهقهة والسربال مستعار و كذلك حاله في نظره إلى قوائمه فإنّه يصيح كالمتوجّع من قبح ساقيه و دقّتها و يخضع و ينقمع بعد تعظّمه و نفخه لنفسه ، ووجه تشبيه قوائمه بقوائم الديكة الخلاسيّة الدقّة والطول والتشظّي و نتوّ العرقوب . ثمّ أخذ في وصف صيصيته و قنزعته و هي رويشات يسيرة طوال في مؤخّر رأسه نحو الثلث بارزة عن ريش رأسه خضر موشّاة . ثمّ أخذ في وصف عنقه ، وشبّه مخرجه بالإبريق ووجه الشبه الهيئة المعلومة بالمشابهة و كذلك مغرزه من رأسه إلى حيث بطنه يشبه في لونه صبغ الوسمة في السواد المشرق أو الحريرة السوداء الملبسة مرآة ذات صقال في سرابها ومخالطة بصيص المرآة لها أو المعجر الأسود إلّا أنّ

ذلك السواد لكثرة مائه و شدّة بريقه يخيّل للناظر أنّه ممتزج بخضرة ناضرة . ثمّ وصف الخلط الأبيض عند محلّ سمعه ، وشبّهه في دقّته واستوائه بخطّ القلم الدقيق، و في بياضه بلون الاُقحوان . ثمّ أجمل في تعديد الألوان فقال : و قلّ صبغ إلّا وقد أخذ منه بقسط و علاه : أى و زاد على الصبغ بكثرة صقاله و بريقه و بصيص ديباجه، و لفظ الديباج مستعار لريشه . ثمّ رجع إلى تشبيهه بالأزاهير المبثوثة ، و نبّه على كمال قدرة صانعها بأنّها مع ذلك لم تربّها أمطار الربيع : أى لم تعدّها لتلك الألوان أمطار ربيع ولا شموس قيظ لأنّه لمّا تخيّل أنّها أزاهير و كان من شأن الأزاهير المختلفة أنّها لا تتكوّن إلّا في زمن الربيع بأمطاره و حرارة الشمس المعدّة لتنويره أراد أن يبيّن عظمة صانعها بأنّها مع كونها أزاهير خلقها بغير مطر ولا شمس . ثمّ أخبر عن حالة له اُخرى هي محلّ الاعتبار في حكمة الصانع وقدرته، و هو أنّه يتحسّر و يعرى من ذلك الريش الحسن شيئاً بعد شيء ، ثمّ ينبت جميعاً كلّ ريشة موضع ريشة بلونها الأوّل من غير زيادة أو نقصان حتّى كأنّها هي ، وشبّهه في سقوطه و نباته بتحاتّ أوراق الشجر من الأغصان و نباتها . ثمّ نبّه على وجود حكمة الصانع في الشعرة الواحدة من شعرات ريشه بأنّك إذا تأمّلتها أرتك من شفافيّتها و شدّة بصيصها تارة حمرة كحمرة الورد ، وتارة خضرة كخضرة الزبرجد. و تارة صفرة كصفرة الذهب . ثمّ عقّب ذلك الوصف البليغ باستبعاد وصول الفطن العميقة إلى صفة هذا ، و أراد العجز عن وصف علل هذه الألوان واختلافها و اختصاص كلّ من مواضعها بلون غير الآخر، وعلل هيئاتها و ساير ما عدّده فإنّ أقلّ جزء منه ممّا يتحيّر الأوهام في درك علّته و تقصر الألسن عن وصفه ، و يحتمل أن يريد العجز عن استثبات جزئيّات أوصافه الظاهرة و تشريحه فإنّ ما ذكره عليه السلام و إن كان في غاية البلاغة إلّا أنّ فيه وراء ذلك جزئيّات لم يستثبتها الوصف . و هو الأقرب ، و يؤيّده تنزيهه لله تعالى باعتبار قهره للعقول عن وصف هذا المخلوق الّذي جلّاه و أظهره للعيون فأدر كنه محدوداً ملوّناً ومؤلّفاً مكوّناً و أعجز الألسن عن تلخيص وصفه و تأدية نعته . ثم نزّهه باعتبار أمر آخر و هو إحكامه قوائم الذرّة والهمجة

و سائر ما فوقها كالحيتان و كبار حيوان البرّ كالفيلة . ثمّ باعتبار حكمه وتقديره على كلّ حيّ منها ضرورة الموت ، و فيه تنبيه على ذكر هادم اللذّات .

واعلم أنّه قد ذكرت للطاووس أحوال اُخرى تخصّه أكثرها قالوا : إنّه غاية مايعيش خمساً وعشرين سنة ، وتبيض في السنة الثالثة من عمره ، وتبيض في السنة مرّة واحدة اثنتي عشرة بيضة في ثلاثة أيّام، ويحضنها ثلاثين يوماً فتفرخ ، وتحتّ ريشه عند سقوط ورق الشجر و ينبت مع ابتداء نبات ورقه .

منها فى صفة الجنة :

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَايُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ مِنْ بَدَائِعِ مَاأُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا ، وَلَذَهِلَتْ بِالْفِكْرِ فِى اصْطِفَاقِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِى كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا ؛ وَفِى تَعْلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِى عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا ، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِى غُلُفِ أَكْمَامِهَا ، تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ ، فَتَأْتِى عَلَى مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا ، وَيُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِى أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ ، قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ الْأَسْفَارِ . فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَى مَايَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاظِرِ الْمُونِقَةِ ، لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا ، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِى هٰذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالاً بِهَا ، جَعَلَنَا اللّٰهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ سَعَى بِقَلْبِهِ

إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ .

أقول : عزفت : زهدت وانصرفت . والكبايس : جمع كباسة و هي العذق . والعساليج : الغصون واحدها عسلوج ، و كذلك الأفنان جمع فنن . والأكمام جمع كمامة بكسر الكاف : وهي غلاف الطلع . والعسل المصفّق : المصفّى .

و قوله : فلو رميت ببصر قلبك .

استعارة لطيفة : أى لو نظرت بعين بصيرتك وفكرت في معنى ما وصف لك من متاع الجنّة لم تجد لشيء من بدائع ما اُخرج إلى الدنيا من متاعها إلى شيء من متاع الجنّة إلّا نسبة وهميّة ، إذا لاحظتها نفسك عزفت و أعرضت عن متاع الدنيا و ما يعدّ فيها لذّة ، و غابت بفكرها في اصطفاق الأشجار الموصوفة فيها و تمايل أغصانها . ثمّ وصف أشجارها و أنهارها و ساير ما عدّده من متاع الجنّة وصفاً لامزيد عليه . فهذه هي الجنّة المحسوسة الموعودة ، و أنت بعد معرفتك بقواعد التأويل و حقايق ألفاظ العرب و مجازاتها واستعاراتها و تشبيهاتها وتمثيلاتها وساير ماعدّدناه لك في صدر الكتاب من قواعد علم البيان ، وكان لك مع ذلك ذوق طرف من العلم الالهی أمكنك أن تجعل هذه الجنّة المحسوسة سلّماً و مثالاً لتعقّل الجنّة المعقولة و متاعها كتأويلك مثلاً أشجار الجنّة استعارة للملائكة السماويّة والاصطفاق ترشيح تلك الاستعارة ، و كثبان المسك استعارة للمعارف والكمالات الّتي لهم من واهب الجود وهم مغمورون فيها و قد وجدوا لها و منها كما تنبت الأشجار في الكثبان ، و لفظ الأنهار استعارة للملائكة المجرّدين عن التعلّق بالأجرام الفلكيّة باعتبار كون هذه الملائكة اُصولاً و مبادى للملائكة السماويّة كما أنّ الأنهار مبادى ممدّة لحياة الأشجار و أسباب لوجودها ، واللؤلوء الرطب والثمار استعارة لما يفيض من تلك الأرواح من العلوم والكمالات على النفوس القابلة لها من غير بخل ولا منع . فهي ثمارها تأتى على منية مجتنيها بحسب استعداده لكلّ منها . والقوّة المتخيّلة تحكى تلك الإفاضات في هذه العبارات و الظواهر المحسوسة المعدودة و تكسوها

صورة ما هو مشتهى للمتخيّل كلّ بحسب شهوته . و لذلك كان في الجنّة كلّ ما تشتهى الأنفس و تلذّ الأعين و يتأهّل لحضوره فيحضر لهاعند إرادتها إيّاه ، و كذلك لفظ العسل والخمر استعارة لتلك الإفاضات المشتهات الملذّة للنفس بحسب محاكاة المتخيّلة لها في صورة هذا المشروب المحسوس المشتهى لبعض النفوس فتصوّره بصورته .

و قوله : ثمّ قوم لم تزل الكرامة. إلى قوله : الأسفار .

استعار لفظ التمادى الّذي هو من أفعال العقلاء لتأخّر الكرامة عنهم وانتظارهم لها في الدنيا إلى غاية حلولهم دار القرار و حصول الكرامة لهم هناك و أمنهم من نقلة الأسفار . ثمّ عقّب بتشويق المستمع إلى ما هناك .

وقوله : فلو شغلت قلبك .

أى أخذت في إعداد نفسك للوصول إلى مايهجم عليك : أى يفاض عليك من تلك الصور البهيّة المعجبة لزهقت نفسك : أى متّ شوقاً إليها ، ورحلت إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً لقربهم إلى ما يشتاق إليه . ثمّ ختم الخطبة بالدعاء لنفسه و للسامعين أن يعدّهم الله تعالى لسلوك سبيله و قطع منازل طريقه الموصلة إلى منازل الأبرار و هي درجات الجنّة و مقاماتها . وبالله التوفيق .

١٦٥ — وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ ، وَلْيَرْأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ ، وَلَا تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ : لَا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ ، وَلَا عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ ؛ كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ : يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً ؛ وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرّاً !!

أقول: قيض البيض : كسره .تقول: قضت البيضة: كسرتها، وانقاضت: تصدّعت من غير كسر ، وتقيّضت : تكسّرت فلقا . والأداح : جمع اُدحىّ اُفعول من الدحو

و هو الموضع الّذي تفرخ فيه النعامة .

و قد أمر عليه السلام صغيرهم بالتأسّي بكبيرهم لأنّ الكبير أكثر تجربةً و علماً و أكيس و أحزم فكان بالقدوة أولى ، و أمر كبيرهم أن يرؤف بصغيرهم لأنّ الصغير بمظنّة الضعف و أهل لأن يرحم ويعذر لقلّة عقليّته للاُمور ، وإنّما بدء بأمر الصغير لأنّه أحوج إلى التأديب . والغاية من هذا الأمر انتظام اُمورهم و حصول اُلفتهم بما أمرهم به . ثمّ نهاهم أن يشبهوا جفاة الجاهليّة في عدم تفقّههم في الدين و عدم عقليّتهم لأوامر الله فيشبهون إذن بيض الأفاعي في أعشاشها ، و وجه الشبه أنّها إن كسرها كاسر أثم لتأذّي الحيوان به ، و قيل : لأنّه يظنّ القطا فيأثم كاسره و إن لم يكسر يخرج حضانها شرّاً إذ تخرج أفعى قاتلاً فكذلك هؤلاء إذا أشبهوا جفاة الجاهليّة لا يحلّ لأحد أذاهم و إهانتهم لحرمة ظاهر الإسلام عليهم و إن اُهملوا و تركوا على ما هم عليه من الجهل وقلّة الأدب خرجوا شياطين . وبالله التوفيق.

ومنه : افْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ : فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ مَالَ مَعَهُ ؛ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيفِ ، يُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَاماً كَرُكَامِ السَّحَابِ ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَاباً يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ ، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ ، وَلَا حِدَابُ أَرْضٍ ، يُذَعْذِعُهُمُ اللهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ ، وَيُمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ ؛ وَايْمُ اللهِ لَيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمْكِينِ ، كَمَا تَذُوبُ الْأَلْيَةُ عَلَى النَّارِ .

أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ، لَكِنَّكُمْ تِهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ!! وَلَعَمْرِي لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْأَدْنَى، وَوَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ!! وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفِيتُمْ مَؤُونَةَ الِاعْتِسَافِ وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأَعْنَاقِ.

أقول: القزع: قطع السحاب المتفرّقة. و مستثارهم: موضع ثورانهم. والقارّة: المستقرّ الثابت من الأرض. والأكمة: التلّ. والحداب: جمع حدب وهوما ارتفع من الأرض. والذعذعة بالذال المعجمة مرّتين: التفريق. و تهنوا. تضعفوا. و توهين الباطل: إضعافه. والفادح: المثقل.

والإشارة في هذا الفصل إلى أصحابه، و أصلهم الّذي تشتّتوا عنه هو عليه السلام، وافتراقهم بعد ألفتهم هو افتراقهم إلى خوارج و غيرهم بعد اجتماعهم عليه.

و قوله: فمنهم آخذ بغصن.

أى يكون منهم من يتمسّك بمن أخلفه بعدى من ذرّية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أينما سلك سلك معه كالشيعة، وتقدير الكلام: ومنهم من ليس كذلك. إلّا أنّه استغنى بالقسم الأوّل لدلالته على الثانى.

وقوله: على أنّ الله تعالى سيجمعهم.

أى من كان على عقيدته فينا و من لم يكن لشرّ يوم لبني اُميّة، و شبّه جمعه لهم و تأليفه بينهم بجمعه لقزع السحاب في الخريف لتراكمهم بذلك الجمع كتراكم ذلك القزع، و وجه الشبه الاجتماع بعد التفرّق. والأبواب الّتي يفتحها لهم إشارة إمّا إلى وجوه الآراء الّتي تكون أسباب الغلبة والانبعاث على الاجتماع أو

أعمّ منها كساير الأسباب للغلبة من إعانة بعضهم لبعض بالأنفس والأموال وغير ذلك، واستعار لخروجهم لفظ السيل، و شبّهه بسيل جنّتي مأرب وهماجنّتا سبأ المحكيّ عنها في القرآن الكريم «فأرسلنا عليهم سيل العرم و بدّلناهم بجنّتيهم جنّتين»(١) الآية، و وجه الشبه الشدّة في الخروج و إفساد ما يأتون إليه كقوّة ذلك السيل حيث لم يسلم عليه مرتفع من الأرض، ولم يردّ طريقه و جريه جبل مرصوص: أي شديد الالتصاق. ثمّ قال: يذعذعهم الله في بطون أوديته ثمّ يسلكهم ينابيع في الأرض، و هو من ألفاظ القرآن، والمراد كما أنّ الله ينزّل من السماء ماء فيكنّه في أعماق الأرض ثمّ يظهر منها ينابيع إلى ظاهرها كذلك هؤلاء القوم يفرّقهم الله في بطون الأودية و غوامض الأرض ثمّ يظهرهم بعد الاختفاء فيأخذ بهم من قوم حقوق آخرين، و يمكّن قوماً من ملك قوم و ديارهم. ثمّ أقسم ليذوبنّ ما في أيدي بني اُميّة بعد علوّهم و تمكّنهم كما تذوب الألية على النار، و وجه الشبه الفناء والاضمحلال. و مصداق هذه الأخبار ما كان من أمر الشيعة الهاشميّة و اجتماعها على إزالة ملك بني اُميّة من كان منهم ثابتاً على ولاء عليّ و أهل بيته و من حاد منهم عن ذلك في أواخر أيّام مروان الحمار عند ظهور الدعوة الهاشميّة. ثمّ عاد إلى توبيخ السامعين بالإشارة إلى سبب الطمع فيهم ممّن دونهم في القوّة و المنزلة و قوّته عليهم، والإشارة إلى معاوية وأصحابه، و ذلك السبب هو تخاذلهم عن نصرة الحقّ و تضاعفهم عن إضعاف الباطل، و هو في معرض التوبيخ واللائمة لهم. ثمّ شبّه تيههم بمتاه بني إسرائيل، و وجه الشبه لحوق الضعف و المذلّة والمسكنة لهم حيث لم يجتمعوا على العمل بأوامر الله فرماهم بالتيه و ضرب عليهم الذلّة والمسكنة. ثمّ أخبرهم بعاقبة أمرهم في التخاذل، و هو إضعاف التيه والتفرّق بعده لالتفاتهم عن الحقّ و مقاطعة بعضهم له مع دنوّه و قربه من الرسول صلّى الله عليه وآله و وصلهم لمعاوية و غيره مع بعده عنه. ثمّ أخذ في إرشادهم وجذبهم إلى اتّباعه. فقال: إنّ اتّبعتم الداعي - وعنى نفسه - سلك بكم منهاج الرسول صلّى الله عليه وآله و طريقه، و كفيتم مؤونة

(١) ٣٤ - ١٥.

الاعتساف في طرق الضلال، وألقيتم ثقل الأوزار في الآخرة عن أعناق نفوسكم. و ظاهر كونهم فادحة. و يحتمل أن يريد بالثقل الفادح الأيام مع ما يلحقهم في الدنيا من الخطوب الفادحة بسبب عصيان الأنام والخروج عن أمره. و بالله التوفيق.

١٦٦ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فى أول خلافته

إِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا؛ الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدُّوهَا إِلَى اللّٰهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ. إِنَّ اللّٰهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالاً غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرَمِ كُلِّهَا؛ وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِى مَعَاقِدِهَا، فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ. وَلَا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ، بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ. تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا!! فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ. اتَّقُوا اللّٰهَ فِى عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ، وَأَطِيعُوا اللّٰهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.

أقول: اصدفوا: أعرضوا. و تقصدوا: تعدلوا. و معاقدها: مواضعها. و صدّر الفصل بالتنبيه على فضيلة الكتاب، و هى كونه هادياً إلى طريق

الخير والشرّ . ثمّ أمر بأخذ طريق الخير لكونه طريق الهدى إلى المطالب الحقيقيّة الباقية ، و بالإعراض عن طريق الشرّ وسمته لاستلزام الإعراض عنه لزوم طريق الحقّ والاستقامة فيه . ثمّ أمر بأداء الفرائض لأنّها أقوى طرق الخير ، و لذلك قال : تؤدّكم إلى الجنّة لأنّ الجنّة منتهى الخير كلّه . ثمّ بيّن أنّ الله حرّم حراماً غير مجهول بل هو في غاية الوضوح ، و كذلك أحلّ حلالاً غير مدخول : أى لا عيب فيه ولا شبهة فلا عذر لمن تركه ، وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلّها ، و هذا لفظ الخبر النبوىّ : حرمة المسلم فوق كلّ حرمة دمه و عرضه و ماله . و شدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها : أى ربطها بهما و أوجب على المخلصين المعترفين بوحدانيّته المحافظة على حقوق المسلمين و مراعات مواضعها ، و قرن توحيده بذلك حتّى صار فضله كفضل التوحيد . ثمّ عرّف المسلم ببعض صفات المسلم الحقّ ، وهو من سلم المسلمون من يده ولسانه إلّا أن تكون يد حقّ أو لسان حقّ . و هو لفظ الخبر النبوىّ أيضاً .

و قوله : لا يحلّ أذى المسلم إلّا بما يجب .

كقوله : إلّا بالحقّ . أورده تأكيداً له ثمّ عقّب بتنبيههم على أمر العامّة وخاصّة أحدهم و هو الموت : أى ذلك الأمر هو الموت ، وإنّما كان مع عمومه لكلّ الحيوان خاصّة أحدهم لأنّ له مع كلّ شخص خصوصيّة و كيفيّة مخالفة لحاله مع غيره ، و أمر بمبادرته . أى بمبادرة العمل له و لما بعده قبل سبقه إليهم ، و نبّههم على أنّ الناس أمامهم : أى قد سبقوهم إلى الآخرة و الساعة تحدوهم من خلفهم ، و أمر بالتخفيف للّحاق بهم ، و حثّهم على ذلك بقوله : فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم : أى السابقين إلى الآخرة اللاحقين منكم ليبعث الكلّ جميعاً ، و قد سبقت هذه الألفاظ بعينها و شرحها مستوفى . ثمّ أمر بتقوى الله في عباده و ذلك بلزوم خوفه في مراعاة ما ينبغى لكلّ أحد مع غيره ، و في بلاده بترك الفساد في الأرض ، و نبّه على وجوب ذلك باستعقاب كلّ عمل و إن قلّ للسؤال عنه ، و مناقشة الحساب عليه حتّى عن البقاع . فيقال : لم استوطنتم هذا المكان و زهدتم في ذلك ؟ و عن

البهايم . فيقال : لم ضربتم هذه و قتلتم هذه ولم أوجعتموها ؟ ، وإليه الإشارة بقوله تعالى « و لتسئلنّ يومئذ عمّا كنتم تعملون » (١) و قوله « ثمّ لتسئلنّ يومئذ عن النعيم » (٢) قيل : هو شبع البطن و بارد الشراب و لذّة النوم و ظلال المساكن و اعتدال الخلق ، و قوله تعالى « إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ اُولئك كان عنه مسؤلا » (٣) فيقال : لم أشغلت قلبك و سمعك ؟ ، و في الخبر الصحيح النبوىّ إنّ الله عذّب إنساناً بهرّة حبسه في بيت وأجاعه حتّى هلك . ثمّ أجمل القول بعد تفصيله و أمر بطاعة الله و نهى عن معصيته وأرشد إلى الأخذ بالخير عند رؤيته و الإعراض عن الشرّ عند رؤيته .

١٦٧ — وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

بعد مابويع بالخلافة ، وقد قال له قوم من الصحابه : لو عاقبت قوما ممن أجلب على عثمان ؟ فقال عليه السلام :

يَا إِخْوَتَاهُ ؛ إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ ، وَلٰكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ ؟ وَهَاهُمْ هٰؤُلَاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عُبْدَانُكُمْ ، وَالْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ ، يَسُومُونَكُمْ مَاشَاؤُوا ، وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ ؟ وَإِنَّ هٰذَا الْأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ ، وَإِنَّ لِهٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً ، إِنَّ النَّاسَ مِنْ هٰذَا الْأَمْرِ - إِذَا حُرِّكَ - عَلَى أُمُورٍ : فِرْقَةٌ تَرَى مَاتَرَوْنَ ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَالَا تَرَوْنَ ، وَفِرْقَةٌ لَا تَرَى هٰذَا وَلَاذَاكَ . فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النَّاسُ ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا ، وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ

(١) ١٦ - ٩٥ . (٢) ١٠٢ - ٨ . (٣) ١٧ - ٣٨ .

مُسْمِحَةً ، فَاهْدَأُوا عَنِّي ، وَانْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي ، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً وَتُسْقِطُ مُنَّةً وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً ، وَسَأُمْسِكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ، وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ .

أقول : أجلب عليه : جمع . و شوكتهم : قوّتهم . والعبدان بتشديد الدال و تخفيفها و كسر العين و ضمّها : جمع عبد . والتفّت : انضمّت . و يسومونكم : يكلّفونكم . ومسمحة : مسهلة ، والألف في إخوتاه هي المنقلبة عن ياء النفس المضاف إليه ، والهاء للسكت .

و اعلم أنّ هذا الكلام اعتذار منه عليه السلام في تأخير القصاص عن قتلة عثمان .

و قوله : إنّي لست أجهل ما تعملون .

دليل على أنّه كان ذلك في نفسه ، وحاصل هذا العذر عدم التمكّن كما ينبغي، و لذلك قال : و كيف لى بقوّة والقوم على حدّ شوكتهم . و صدقه عليه السلام ظاهر فإنّ أكثر أهل المدينة كانوا من المجلبين عليه ، وكان من أهل مصر و من الكوفة خلق عظيم حضروا من بلادهم و قطعوا المسافة البعيدة لذلك وانضمّ إليها أعراب أجلاف من البادية و عبدان المدينة . فكانوا في غاية من شدّة الشوكة حال اجتماعهم ، و ثاروا ثورة واحدة ، ولذلك قال : والقوم مجلبون . إلى قوله : يسومونكم ما شاءوا .

و روى أنّه عليه السلام جمع الناس و وعظهم . ثمّ قال : لتقم قتلة عثمان فقام الناس بأسرهم إلّا القليل ، وكان ذلك الفعل منه استشهاداً على صدق قوله عليه السلام : والقوم على حدّ شوكتهم .

و مع تحقّق هذه الحال لا يبقى له موضع قدرة على شيء من أمرهم . ثمّ قال على سبيل قطع لجاج الطالبين مخاطباً لهم : إنّ هذا الأمر أمر الجاهليّة . يريد أمر المجلبين عليه إذ لم يكن قتلهم إيّاه بمقتضى الشريعة . إذ الصادر عنه من الأحداث لا يجب فيها قتل . وإنّ لهؤلاء القوم مادّة : أى معينين و ناصرين . ثمّ

قسّم حال الناس على تقدير الشروع في أمر القصاص إلى ثلاثة أقسام ، وهو احتجاج منه على الطالبين و تضعيف لرأيهم بقياس ضمير من الشكل الأوّل مركّب من شرطيّتين متّصلتين صغراهما قوله : إنّ هذا الأمر إذا حرّك كان الناس فيه على اُمور ، و تقدير الكبرى وإذا كان الناس فيه على اُمور لم يتمكّن من إتمامه وفعله . فينتج أنّ هذا الأمر إذا حرّك لا يتمّ فعله . ثمّ عدّ تلك الاُمور ، و هي أنّ فرقة ترى كونه مصيباً كما رأى الطالبون ، و فرقة ترى أنّه مخطىء وهم أنصار المقتصّ منهم ، و فرقة لا ترى هذا و لا ذاك بل تتوقّف كما جرى ذلك في أمر التحكيم . ثمّ أمرهم بالصبر إلى غاية هدوء الناس . إذ بيّن لهم أنّه لا مصلحة في تحريك الأمر حينئذٍ فإنّ الحقوق عند هدوء الناس و استقرار القلوب أسهل مأخذاً .

و قوله : فاهدأوا عنّي وانظروا ماذا يأتيكم به من أمري .

يدلّ على ترصّده وانتظاره للفرصة من هذا الأمر . ثمّ خوّفهم من الاستعجال بفعل يضعف شوكة الدين و يورث وهنه فإنّه لو شرع في عقوبة الناس والقبض عليهم لم يؤمن من تجدّد فتنة اُخرى أعظم من الاُولى ، و هو غالب الظنّ . فكان الأصوب في التدبير و الّذي يقتضيه العقل والشرع الإمساك إلى حين سكون الفتنة و تفرّق اُولئك الشعوب و رجوع كلّ قوم إلى بلادهم ، وربّما كان عليه السلام ينتظر مع ذلك أن يحضر بنو عثمان للطلب بدمه ، و يعيّنون قوماً بأعيانهم بعضهم للقتل و بعضهم للحصار كما جرت عادة المتظلّمين إلى الإمام ليتمكّن من العمل بحكم الله . فلم يقع الأمر كذلك ، و عصى معاوية و أهل الشام والتجأ إليه ورثة عثمان ، و فارقوا حوزة أمير المؤمنين عليه السلام ولم يطلبوا القصاص طلباً شرعيّاً ، وإنّما طالبوه مغالبة ، وجعلها معاوية عصبيّة جاهليّة ، ولم يأت أحد منهم الأمر من بابه ، و قيل : ذلك ما كان من أمر طلحة والزبير و نقضهما للبيعة و نهبهما أموال المسلمين بالبصرة و قتلهما للصالحين من أهلها ، و كلّ تلك الاُمور الّتي جرت مانعة للإمام عن التصدّي للقصاص ، و لذلك قال عليه السلام لمعاوية في بعض كلامه : فأمّا طلبك بدم عثمان فادخل في الطاعة و حاكم القوم إليّ أحملك و إيّاهم على كتاب الله و سنّة رسوله .

فأمّا قوله : وسأمسك الأمر ما استمسك . إلى آخره .

فاعلم أنّ هذا الكلام إنّما صدر عنه عليه السلام بعد إكثار القول عليه في أمر عثمان واضطراب الأمر من قبل طلحة والزبير ونكثهما للبيعة بسبب هذه الشبهة مع كونهما من أكابر الصحابة ، و تشتّت قلوب كثير من المسلمين عنه . فحينئذ أشار بعض الصحابة بأخذ القصاص من قتلة عثمان تسكيناً لفتنة طلحة والزبير ومعاوية لغلبة الظنّ حينئذ بمخالفته واضطراب أمر الشام فقال الكلام : أى قد أبديت هذا العذر فإن لم يقبلوا منّى فسأمسك الأمر : أى أمر الخلافة بجهدى فإذا لم أجد بدّاً : أى من قتال من يبغى و ينكث فآخر الدواء الكىّ : أى الحرب والقتال لأنّها الغاية الّتي ينتهى أمر العصاة إليها و مداواة أمراض قلوبهم كما تنتهى مداواة المريض إلى أن يكوى . و بالله التوفيق .

١٦٨ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة

إِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِيًا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ ؛ لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ ، وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ ، إِلَّا مَا حَفِظَ اللهُ مِنْهَا ، وَإِنَّ فِى سُلْطَانِ اللهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا . وَاللهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا حَتَّى يَأْرِزَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ .

إِنَّ هٰؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَؤُوا عَلَى سَخْطَةِ إِمَارَتِى ، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ هٰذَا الرَّأْيِ ، انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا

طَلَبُوا هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ.

أقول: يأرز: ينحاز وينقبض. وتمالأوا: اجتمعوا. والفيالة: الضعف. والنعش: الرفع.

و قوله: إنّ الله بعث. إلى قوله: هالك.

تصدير للفصل بالأمور الجامعة للمسلمين الّتي هي أصول دولتهم و تذكيرلهم بها ليرجعوا إليها. وأمرقائم: مستقيم.

و قوله: لا يهلك عنه إلّا هالك.

أى لا يهلك من مخالفته إلّا أعظم هالك كما تقول لا يعلم هذا الفنّ من العلم إلّا عالم: أى من بلغ الغاية من العلم.

و قوله: و إنّ المبتدعات المشبهات هنّ المهلكات إلّا ما حفظ الله.

لمخالفتها الكتاب والسنّة الجامعين لحدود الله وخروجها عنهما، و أراد الهلاك الأخرویّ.

و قوله: إلّا من حفظ الله.

استثناء من المهلكات: أى إلّا ما حفظ الله منها بالعصمة عن ارتكابها. إذ لا تكون مهلكة إلّا لمن ارتكبها، و المشبهات ماأشبه السنن و ليس منها، و روى المشبّهات بتشديد الباء وفتحها، و هو ما شبّه على الناس وليس. و روى المشتبهات: أى الملتبسات، و سلطان الله هو سلطان الإسلام، و أراد سلطان دين الله فحذف المضاف، و يحتمل أن يريد بسلطان الله نفسه لكونه خليفة له في أرضه، و إنّما أضافها إليه اعتزازاً به، و ظاهر أنّ فيه منعة و عصمة لهم فإنّ الّذي نصرهم وهم قليلون حيّ قيّوم فبالأولى أن ينصرهم على كثرتهم بشرط طاعته الخالصة و

الدخول في أمر سلطانه . و لذلك قال : فأعطوه طاعتكم غير ملوّمة : أى غير ملوم صاحبها بالنسبة إلى النفاق و الرياء و لا مستكره بها : و يروى غير ملويّة : أى معوجّة . ثمّ أخذ في وعيدهم إن لم يطيعوا بنقل الله عنهم سلطان الإسلام من غير أن يردّه إليهم أبداً حتّى يصير الأمر إلى غيرهم ، و أراد أمر الخلافة . ثمّ إن جعلنا حتّى و ما بعدها غاية لنقل السلطان عنهم لم يفهم منها عوده إليهم ، و إن جعلناها غاية من عدم نقله إليهم فهم منها ذلك .

فإن قلت : لم قال لا يرجع إليهم أبداً و قد عاد بالدولة العباسيّة ؟.

قلت : اُجيب من وجوه : الأوّل: أنّ القوم الّذين خاطبهم من أصحابه بهذا الخطاب لم ترجع الدولة إليهم أبداً فإنّ اُولئك بعد انقضاء دولة بني اُميّة لم يبق منهم أحد . ثمّ لم يرجع إلى أحد من أولادهم أصلاً . الثاني : أنّه قيّد بالغاية فقال: لا يصير إليكم حتّى يصير في قوم آخرين ، و ظاهر أنّه كذلك بانتقاله إلى بني اُميّة. الثالث : قال بعض الشارحين : إنّما عاد لأنّ الشرط لم يقع وهو عدم الطاعة فإنّ أكثرهم أطاعه طاعة غير ملوّمة ولا مستكره بها . الرابع : قال قوم : أراد بقوله : أبداً المبالغة كما تقول لغريمك : لاحبسنّك أبداً ، والمراد بالقوم الّذين يأرز إليهم هذا الأمر بنو اُميّة كما هو الواقع .

و قوله : إنّ هؤلاء قد تمالأوا .

إشارة إلى طلحة والزبير و عايشة وأتباعهم، و أومى إلى أنّ مسيرهم لسخطهم من أمارته لا ما أظهروه من الطلب بدم عثمان . ثمّ وعد بالصبر عليهم مادام لايخاف على حوزة الجماعة ، و أخبر أنّهم إن بقوا على ضعف رأيهم في مسيرهم و مخالفتهم قطعوا نظام المسلمين وفرّقوا جماعتهم .

و قوله : إنّما طلبوا . إلى قوله : عليه .

بيان لعلّة سخطهم لأمارته وهي الحسد على الدنيا لمن أفاء الله عليه ، والإشارة إلى بيت الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم .

و قوله : فأرادوا ردّ الاُمور على أدبارها .

أى أرادوا إخراج هذا الأمر عن أهل بيت الرسول آخراً كما أخرجوه أوّلاً ، أوصرف هذا الأمر عنهم بعد إقباله إلى ما كان عليه من إدباره عنهم . ثمّ أخبر بما عليه من الحقّ إن أطاعوه الطاعة غير المدخولة ، وهي أن يعمل فيهم بكتاب الله و يسير سيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم والقيام بحقوقه الّتي أوجبها و إقامة سننه ، و ذلك هو الواجب على الإمام . و بالله التوفيق .

و من كلام له عليه السلام

كلّم به بعض العرب ، و قد أرسله قوم من أهل البصره لمّا قرب عليه السلام منها ليعلم لهم منه حقيقة حاله مع أصحاب الجمل لتزول الشبهة من نفوسهم فبيّن له عليه السلام من أمره معهم ما علم به أنّه على الحقّ . ثمّ قال له : بايع . فقال : إنّى رسول قوم و لا أحدث حدثاً دونهم حتّى أرجع إليهم . كذا في أكثر النسخ لكن في آخر بعضها بعد قول الرجل «فبايعته عليه السلام» . والرجل يعرف بكليب الجرمىّ .

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلَإِ وَالْمَاءِ فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ وَالْمَجَادِبِ ، مَا كُنْتَ صَانِعًا ؟ قال : كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلأ والماء . فقال عليه السلام : فَامْدُدْ إِذاً يَدَكَ ! فقال الرجل : فوالله مااستطعت أن أمتنع عند قيام الحجة على ، فبايعته عليه السلام

أقول : الجرمىّ : منسوب إلى بنى جرم ، وكان قوم من أهل البصرة بعثوه إليه عليه السلام ليستعلم حاله أهو على حجّة أم على شبهة ؟ فلمّا رآه و سمع لفظه لم يتخالجه شكّ في صدقه فبايعه ، وكان بينهما الكلام المنقول . ولا ألطف من التمثيل الّذي جذبه به عليه السلام فالأصل في هذا التمثيل هو حالة هذا المخاطب في وجدانه للماء

والكلاء على تقدير كونه رائداً لهما ، والفرع هو حاله في وجدانه للعلم والفضائل والهداية عنده ، والحكم في الأصل هو مخالفته لأصحابه إلى الماء والكلاء على تقدير وجدانه لهما و مخالفة أصحابه له ، و علّة ذلك الحكم في الأصل هو وجدانه للكلاء والماء ، ولمّا كان المشبّه لهذه العلّة و هو وجدانه للفضائل و العلوم الّتي هي غذاء النفوس و مادّة حياتها كما أنّ الكلاء والماء غذاء للأبدان و مادّة حياتها موجود لهذا الرائد في الفرع وهو حالة وجدانه للعلم والفضل والهداية وجب عن تلك العلّة مثل الحكم في الأصل و هو مخالفة أصحابه إلى الفضل والعلم والهداية عنده عليه السلام و لزوم أن يبايع . و لذلك قال له : فامدد إذن يدك . و هو تمثيل لا تكاد النفس السليمة عند سماعه أن تقف دون الانفعال عنه والإذعان له ، و لذلك أقسم الرجل أنّه لم يستطع الامتناع عند قيام هذه الحجّة فبايع . وبالله التوفيق .

١٧٠ ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

لما عزم على لقاء القوم بصفين

اَللّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِّلَيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمَجْرىً لِّلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَمُخْتَلَفاً لِّلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ ، وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِّنْ مَلَائِكَتِكَ ، لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ ؛ وَرَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِّلْأَنَامِ ، وَمَدْرَجاً لِّلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ ، وَمَا لَا يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمِمَّا لَا يُرَى ؛ وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً ـ إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ ، وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ .

أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ، وَالْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ ؟! الْعَارُ وَرَاءَكُمْ، وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ.

أقول : مغيضاً لهما: أي مغيباً . والسبط : القبيلة .

و قد دعا الله سبحانه باعتبار كونه ربّاً للسماء والأرض و باعتبار ما فيهما من الآيات المنبّهة على كمال عظمته و لطفه بخلقه ، وهذا الدعاء ممّا تستعدّ به القلوب والأبدان لاستفاضة الغلبة والنصر على العدوّ . والسقف المرفوع:السماء . و كذلك الجوّ المكفوف ، و قد مرّت الإشارة إلى ذلك في الخطبة الاُولى ، و كونه مغيضاً للّيل والنهار لأنّ الفلك بحركته المستلزمة لحركة الشمس إلى وجه الأرض يكون سبباً لغيبوبة الليل ، واستلزام حركته لحركاتها عن وجه الأرض يكون سبباً لغيبوبة النهار فكان كالمغيض لهما فاستعار له لفظ المغيض. و كونه محلاً لجرى الشمس والقمر ومحلّ اختلاف النجوم السيّارة ظاهر . وليس فيه دلالة على أنّ النجوم تتحرّك فيه بذاتها من دون حركته . والطائفة من الملائكة إشارة إلى الأرواح الفلكيّة المحرّكة لأجرامها ، و قد سبقت الإشارة إليهم وبيان أنّهم لا يسأمون من العبادة في الخطبة الاُولى . ثمّ دعاه باعتبار كونه ربّاً للأرض ، و باعتبار ما بسطها لأجله من كونها قراراً للأنام و مدرجاً للهوامّ والأنعام و ما لا يحصى ممّا يرى و لا يرى من أنواع الحيوان . قال بعض العلماء : من أراد أن يعرف حقيقة قوله عليه السلام : ما يرى و ما لا يرى فليوقد ناراً صغيرة في فلاة في ليلة صيفيّة وينظر ما يجتمع عليها من غرائب أنواع الحيوان العجيبة الخلق لم يشاهدها هو ولا غيره . و أقول : يحتمل أن يريد بقوله : و ما لا يرى ما ليس من شأنه أن يرى إمّا لصغره أو لشفافيّته . ثمّ باعتبار كونه ربّاً للجبال ، و قد علمت معنى كونها أوتاداً للأرض. فأمّا كونها اعتماداً للخلق فلأنّهم قد يبنون بها المساكن و يقوم فيها من المنافع ما لا يقوم في الأودية لكثير من الأشجار والثمار ، و لأنّها معادن الينابيع ومنابع المعادن ، وظاهر كونها إذن معتمداً للخلق في مراتعهم و منافعهم . ثمّ سأل على تقدير نصره أن يجنّبه

البغي و هو العبور إلى طرف الإفراط من فضيلة العدل ثمّ التسديد والاستقامة على فضيلة العدل و هو الحقّ ، و على تقدير إظهار عدوّه عليه الشهادة والعصمة من فتنة الغبن والانقهار فإنّ المغلوب إذا كان معتقداً أنّه على الحقّ قلّما يسلم من التسخّط على البخت والتعتّب على ربّه ، و ربّما كفر كثير من الناس عند نزول البلاء بهم . و ظاهر كونه فتنة : أى صارفاً عن الله . واعتصم عليه السلام من تلك الفتنة و أمثالها استثباتاً لنفسه على الحقّ وتأديباً للسامعين . ثمّ أخذ فيما العادة أن يستحمى به الإنسان أصحابه في الحرب ، ويستثير به طباعهم : من الاستفهام عن حامى الذمار ، والّذي تصيبه الغيرة من أهل المحافظة عند نزول الحقايق : أى عظائم الأمور و شدائدها . ثمّ قال : النار ورائكم : أى إنّ رجوعكم القهقرى هرباً من العدوّ مستلزم لدخولكم النار واستحقاقكم لها ، والجنّة أمامكم : أى في إقدامكم على العدوّ و التقدّم إلى مناجزته ، وهو كلام في غاية الوجازة والبلاغة .

١٧١ — ومن خطبة له عليه السلام

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى لَا تُوَارِى عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً

أقول : حمد الله تعالى باعتبار إحاطة علمه بالسماوات والأرضين ، واستلزم ذلك تنزيهه تعالى عن وصف المخلوقين . إذ كانوا في إدراكهم لبعض الأجرام السماويّة والأرضيّة محجوبين عمّا ورائها ، و علمه تعالى هو المحيط بالكلّ الّذي لا يحجبه السواتر ولا تخفى عليه السرائر .

منها : وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّكَ عَلَى هٰذَا الْأَمْرِ يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ !

فَقُلْتُ : بَلْ أَنْتُمْ وَاللّٰهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ ! وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقّاً لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ ، فَلَمَّا قَرَعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلَأِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ [بُهِتَ] لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ !

اللّهمّ إنّى أستعينك على قريش ومن أعانهم، فإنّهم قطعوا رحمي، وصغّروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هولي؛ ثمّ قالوا: ألا إنّ في الحقّ أن تأخذه وفي الحقّ أن تتركه.

أقول: هذا الفصل من خطبة يذكر فيها عليه السلام ماجرى له يوم الشورى بعد مقتل عمر، والّذي قال له هذا القول هو سعدبن أبى وقّاص مع روايته فيه: أنت منّى بمنزلة هرون من موسى. و هو محلّ التعجّب. فأجابه بقوله: بل أنتم والله أحرص وأبعد: أى أحرص على هذا الأمر وأبعد من استحقاقه. وهو في صورة احتجاج بقياس ضمير من الشكل الأوّل مسكت للقائل صغراه ما ذكر، و تقدير كبراه: و كلّ من كان أحرص على هذا الأمر و أبعد منه فليس له أن يعيّر الأقرب إليه بالحرص عليه.

و قوله: و أنا أخصّ و أقرب.

صغرى قياس ضمير احتجّ به على أولويّته بطلب هذا الأمر، و تقدير كبراه: و كلّ من كان أخصّ و أقرب إلى هذا الأمر فهو أولى بطلبه، و روى أنّ هذا الكلام قاله يوم السقيفة، و أنّ الّذي قال له: إنّك على هذا الأمر لحريص. هو أبى عبيدة بن الجرّاح، والرواية الأولى أظهر و أشهر. و روى عوض بهت هبّ: أى انبته كأنّه كان غافلاً ذاهلاً عن الحجّة فاستيقظ من غفلته. ثمّ أخذ في استعانة الله تعالى على قريش ومن أعانهم عليه، وشكا اُموراً: منها قطع رحمه فإنّهم لم يراعو قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومنها تصغير عظيم منزلته بعدم التفاتهم إلى ما ورد من النصوص النبويّة في حقّه، و منها اتّفاقهم على منازعته أمر الخلافة الّذي يرى أنّه أحقّ به منهم.

و قوله: ثمّ قالوا: إلى آخره.

أى إنّهم لم يقتصروا على أخذ حقّى ساكتين عن دعوى كونه حقّاً لهم ولكنّهم

أخذوه مع دعواهم أنّ الحقّ لهم ، و أنّه يجب عليّ أن أترك المنازعة فيه. فليتهم أخذوه معترفين أنّه حقّ لي فكانت المصيبة أهون ، وروى نأخذه ونتركه بالنون في الكلمتين ، و عليه نسخة الرضي ـ رضوان الله عليه ـ والمراد إنّا نتصرّف فيه كما نشاء بالأخذ والترك دونك ، و هذه شكاية ظاهرة لا تأويل فيها .

منها فى ذكر أصحاب الجمل :

فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، كَمَا تُجَرُّ الْأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا ؛ مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ : فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا ، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ ، طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ ؛ فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا : فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً ، وَطَائِفَةً غَدْراً ! فَوَاللهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ ، بِلَا جُرْمٍ جَرَّهُ ؛ لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ ؛ إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا ، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ . دَعْ مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ .

أقول : جرّه : جناه .

و مقصود الفصل إظهار عذره في قتال أصحاب الجمل . و ذكر لهم ثلاث كبائر من الذنوب تستلزم إباحة قتالهم و قتلهم :

الأولى : خروجهم بحرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحبيسه يجرّونها كما تجرّ الأمة

عند شرائها مع حبسهما لنسائهما و محافظتهماعليهنّ ، وضمير التثنية في حبسا لطلحة والزبير ، و وجه الشبه انتهاك الحرمة و نقصانها في إخراجها ، وفي ذلك جرأة على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . و روى عكرمة عن ابن عبّاس أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال يوماً لنسائه و هنّ عنده جميعاً : ليت شعرى أيتكنّ صاحبة الجمل الأدب تنبحها كلاب الحوؤب يقتل عن يمينها و شمالها قتلى كثير كلّهم في النار و تنجو بعد ماكادت ، و روى حبيب بن عمير قال : لمّا خرجت عايشة و طلحة و الزبير من مكّة إلى البصرة طرقت ماء الحوؤب ـ وهوماء لبنى عامر بن صعصعة ـ فنبحتهم الكلاب فنفرت صعاب إبلهم. فقال قائل منهم : لعن الله الحوؤب فما أكثر كلابها. فلمّا سمعت عايشة ذكر الحوؤب قالت : أهذاماءالحوؤب؟قال : نعم.قالت : ردّونى . فسئلوها ما شأنها و ما بدء لها . قالت : إنّى سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : كأنّى بكلاب الحوؤب قدنبحت بعض نسائى ثمّ قال لى : يا حميراء إيّاك أن تكونيها . فقال الزبير : مهلاً يرحمك الله فإنّا قد جزنا ماء الحوؤب بفراسخ كثيرة. فقالت : أعندك من يشهد بأنّ هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوؤب ؟ فلفّف لها الزبير و طلحة و طلبا خمسين أعرابيّاً جعلا لهم جعلا فحلفوا لها و شهدوا أنّ هذا الماء ليس بماء الحوؤب. فكانت هذه أوّل شهادة زور علمت في الإسلام. فسارت عايشة لوجهها. فأمّا قوله في الخبر : و تنجو بعد ما كادت . فقالت الإماميّة : معناه تنجو من القتل بعد ما كادت أن تقتل، و قال المعتذرون لها معناه تنجو من النار بالتوبة بعدماكادت أن تدخلها بمافعلت .

الثانية : نكثهم لبيعته و خروجهم عليه بعد الطاعة في جماعة مامنهم إلّا من أخذ بيعته .

الثالثة : قتلهم لعامله بالبصرة و خزّان بيت مال المسلمين بها بعض صبرا : أى بعد الأسر و بعض غدراً : أى بعد إعطائهم الأمان. وخلاصة القصّة ما روى أنّ طلحة والزبير و عايشة لمّا انتهوا في مسيرهم إلى حفر أبى موسى قريب البصرة كتبوا إلى عثمان بن حنيف الأنصارى ، و هو يومئذ عامل عليّ على البصرة: أنّ أخل لنا دار الأمارة. فلمّا قرأ كتابهم بعث إلى الأحنف بن قيس و إلى حكيم بن جبلّة العبدىّ

فاقرء هما الكتاب . فقال الأحنف : إنّهم إن حاولوا بهذا الطلب بدم عثمان و هم الّذين أكّبوا على عثمان وسفكوا دمه فأراهم والله لا يزايلونا حتّى يلقوا العداوة بيننا و يسفكوا دماءنا ، و أظنّهم سيركبون منك خاصّة مالا قبل لك به ، والرأى إن تتأهّب لهم بالنهوض إليهم في من معك من أهل البصرة فإنّك اليوم الوالي عليهم و أنت فيهم مطاع فسر إليهم بالناس و بادرهم قبل أن يكونوا معك في دار واحدة فيكون الناس لهم أطوع منهم لك . وقال حكيم : مثل ذلك . فقال عثمان بن حنيف : الرأى ما رأيتما لكنّي أكره الشرّ وأن أبدأهم به و أرجو العافية والسلامة إلى أن يأتيني كتاب أمير المؤمنين و رأيه فأعمل به . فقال له حكيم : فاذن لى حتّى أسير إليهم بالناس فإن دخلوا في طاعة أمير المؤمنين و إلّا نابذتهم إلى سواء . فقال عثمان : ولو كان ذلك لى لسرت إليهم بنفسى . فقال حكيم : أمّا والله لئن دخلوا عليك هذا المصر لينتقلنّ قلوب كثير من الناس إليهم وليزيلنّك عن مجلسك هذا ، وأنت أعلم . فأبى عثمان . ثمّ كتب علي عليه السلام إلى عثمان بن حنيف لمّا بلغه مسير القوم إلى البصرة : من عبدالله عليّ أمير المؤمنين إلى عثمان بن حنيف أمّا بعد فإنّ البغاة عاهدوا الله ثمّ نكثوا و توجّهوا إلى مصرك و ساقهم الشيطان لطلب ما لا يرضى الله به ، والله أشدّ بأساً و أشدّ تنكيلا فإذا قدموا عليك فادعهم إلى الطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الّذي فارقونا عليه فإن أجابوا فأحسن جوارهم ماداموا عندك ، وإن أبوا إلّا التمسّك بحبل النكث والخلاف فناجزهم القتال حتّى يحكم الله بينك و بينهم وهو خير الحاكمين ، وكتبت كتابى هذا من الربذة و أنا معجّل السير إليك إنشاء الله ، و كتب عبيدالله بن أبي رافع في صفر سنة ستّ وثلاثين . فلمّا وصل الكتاب إلى عثمان بعث أبا الأسود الدؤليّ و عمران بن الحصين إليهم فدخلا على عايشة فسألاها عمّا جاء بهم . فقالت لهما : ألقيا طلحة والزبير. فقاما وألقيا الزبير فكلّماه فقال : جئنا لنطلب بدم عثمان و ندعو الناس أن يردّوا أمر الخلافة شورى ليختار الناس لأنفسهم . فقالا له : إنّ عثمان لم يقتل بالبصرة لتطلبا دمه فيها ، و أنت تعلم قتلة عثمان وأين هم ، و إنّك وصاحبك و عايشة كنتم أشدّ الناس عليه وأعظمهم إغراء

بدمه فأقيدوا أنفسكم ، و أمّا إعادة أمر الخلافةشورى فكيف وقد بايعتم عليّاً طائعين غير مكرهين ، و أنت يا أبا عبدالله لم يبعد العهد بقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله و أنت آخذ قائم سيفك تقول : ماأحد أحقّ بالخلافة منه . وامتنعت من بيعة أبي بكر . فأين ذلك الفعل من هذا القول ؟ فقال لهما : اذهبا إلى طلحة . فقاما إلى طلحه فوجداه خشن الملمس شديد العريكة قويّ العزم في إثارة الفتنة . فانصرفا إلى عثمان بن حنيف فأخبراه بماجرى ، وقال له أبو الأسود : يا ابن حنيف قد أتيت فانفر و طاعن القوم و جالد واصبر وأبرز لهما مستلئماً وشمّر. فقال ابن حنيف : أي والحرمين لأفعلنّ ، و أمر مناديه فنادى في الناس: السلاح السلاح. فاجتمعوا إليه و أقبلوا حتّى انتهوا إلى المربد . فملأ مشاةً و ركباناً فقام طلحة فأشار إلى الناس بالسكوت ليخطب فسكتوا بعد جهد فقال : أمّا بعد فإنّ عثمان بن عفّان كان من أهل السابقة والفضيلة و من المهاجرين الأوّلين الّذين رضي الله عنهم و رضوا عنه ، و نزل القرآن ناطقاً بفضلهم وأحد الائمّة الوالين عليكم بعد أبي بكر وعمر صاحبي رسول الله و قد كان أحدث أحداثاً نقمناها عليه فأتيناه و استعتبناه فأعتبنا فعدا عليه امرؤ ابتزّ هذه الأمّة أمرها غصباً بغير رضى ولا مشورة فقتله و ساعده على ذلك قوم غير أتقياء ولا أبرار فقتل محرماً بريئاً تائباً ، و قد جئناكم أيّها النّاس نطلب بدمه وندعوكم إلى الطلب بدمه فإن نحن أمكننا الله قتلهم قتلناهم به و جعلنا هذا الأمر شورى بين المسلمين و كانت خلافته رحمةً للأمّة جميعاً فإنّ كلّ من أخذ الأمر من غير رضى العامّة ولا مشورة منها ابتزازاً كان ملكه ملكاً عضوضاً وحدثاً كبيراً . ثمّ قام الزبير فتكلّم بمثل كلام طلحة. فقام إليهما ناس من أهل البصرة فقالوا لهما : ألم تبايعا عليّاً فيمن بايعه ففيم بايعتما ثمّ نكثتما ؟ . فقالا : ما بايعناه و ما لأحد في أعناقنا بيعة و إنّما استكرهنا على بيعته . فقال ناس : قد صدقا ونطقا بالصواب ، وقال آخرون : ما صدقا ولا أصابا. حتّى ارتفعت الأصوات فأقبلت عايشة على جملها فنادت بصوت مرتفع أيّها الناس أقلّوا الكلام واسكتوا. فسكت الناس لها . فقالت : إنّ أمير المؤمنين عثمان قدكان غيّر و بدّل . ثمّ لم يزل يغسل ذلك بالتوبة

حتّى قتل مظلوماً تائباً و إنّما نقموا عليه ضربه بالسوط و تأميره الشبّان و حمايته موضع الغمامة فقتلوه محرماً في حرمة الشهر ، وحرمة البلد ذبحاً كما يذبح الجمل، ألا و إنّ قريشاً رمت غرضها بنبالها و أدمت أفواهها بأيديها و ما نالت بقتلها إيّاه شيئاً ولا سلكت به سبيلاً قاصداً أما والله ليرونها بلايا عقيمة تنبه النائم و تقيم الجالس، وليسلطنّ عليهم قوم لا يرحمونهم، يسومونهم سوء العذاب. أيّها الناس إنّه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحلّ به دمه مصتموه كما يماصّ الثوب الرحيض ، ثمّ عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته و خروجه من ذنبه و بايعتم ابن أبي طالب بغير مشورة من الجماعة ابتزازاً وغصباً، أتراني أغضب لكم من سوط عثمان و لسانه ولا أغضب لعثمان من سيوفكم. ألا إنّ عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم ، ثمّ اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الّذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب و لايدخل فيهم من شرك في دم عثمان. قال: فماج الناس واختلطو فمن قايل يقول: القول ما قالت ، و من قائل يقول: وماهي من هذا الأمر إنّما هي امرءة مأمورة بلزوم بيتها. وارتفعت الأصوات و كثر اللغط حتّى تضاربوا بالنعال وترامو بالحصا . ثمّ تمايزوا فرقتين فرقة مع عثمان بن حنيف و فرقة مع طلحة والزبير . ثمّ أقبلا من المربد يريدان عثمان بن حنيف فوجدوه و أصحابه قد أخذوا بأفواه السكك فمضوا حتّى انتهوا إلى مواضع الدبّاغين فاستقبلهم أصحاب ابن حنيف فشجرهم طلحة و الزبير و أصحابهما بالرماح فحمل عليهم حكيم بن جبلّة فلم يزل هوو أصحابه يقاتلونهم حتّى أخرجوهم من جميع السكك ، و رماهم النساء من فوق البيوت بالأحجار فأخذوا إلى مقبرة بني مازن فوقفوا بها مليّاً حتّى ثابت إليهم خيلهم ، ثمّ أخذوا على مسنّاة البصرة حتّى انتهوا إلى الرابوقة . ثمّ أتوا سبخة دار الرزق فنزلوها فأتاهما عبدالله بن حكيم التميميّ لمّا نزلا السبخة بكتب كتباها إليه فقال لطلحة : يا أبا محمد أما هذه كتبك إلينا ؟. فقال : بلى. فقال : فكنت أمس تدعونا إلى خلع عثمان و قتله حتّى إذا قتلته أتيتنا ثائراً بدمه، فلعمري ما هذا رأيك و لا تريد إلّا هذه الدنيا. مهلا إذا كان هذا رأيك. قبلت من عليّ ما عرض عليك من البيعة فبايعته

طائعاً راضياً ثمّ نكثت بيعتك و جئتنا لتدخلنا في فتنتك . فقال : إنّ علياً دعانى إلى بيعته بعد ما بايع الناس فعلمت أنّى لولم أقبل ما عرضه عليّ لا يتمّ لى ثمّ يغرى بى من معه . ثمّ أصبحا من غد فصفّا للحرب وخرج إليهما عثمان في أصحابه فناشدهما الله والإسلام وأذكرهما بيعتهما ثلاثاً. فشتماه شتماً قبيحاً و ذكرا أُمّه . فقال للزبير : أما والله لولا صفيّة و مكانها من رسول الله صلّى الله عليه وآله فإنّها أدنتك إلى الظلّ ، و إنّ الأمر بينى و بينك يا ابن الصعبة يعنى طلحة أعظم من القول لأعلمتكما من أمركما مايسوئكما . اللّهمّ إنّى قد أعذرت إلى هذين الرجلين . ثمّ حمل عليهم فاقتتل الناس قتالاً شديداً .ثمّ تحاجزوا واصطلحوا على أن يكتب بينهم كتاب صلح. فكتب: هذا ما اصطلح عليه عثمان بن حنيف الأنصارىّ ومن معه من المؤمنين من شيعة عليّ بن أبيطالب و طلحة والزبير و من معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما أنّ لعثمان بن حنيف الأنصارىّ دار الأمارة والرحبة والمسجد و بيت المال والمنبر ، و أنّ لطلحة والزبير و من معهما أن ينزلوا حيث شاؤوا من البصرة و لا يضارّ بعضهم بعضاً في طريق و لا سوق و لا فرضة و لا مشرعة ولا مرفق حتّى يقدم أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب فإن أحبّوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمّة و إن أحبّوا ألحق كلّ قوم بهواهم و ما أحبّوا من قتال أو سلم أو خروج أو إقامة ، و على الفريقين بما كتبوا عهد الله و ميثاقه و أشدّ ما أخذه على نبىّ من أنبيائه من عهد و ذمّة. و ختم الكتاب ، و رجع عثمان حتّى دخل دار الأمارة وأمر أصحابه أن يلحقوا بأهلهم و يداو واجراحاتهم فمكثوا كذلك أيّاماً . ثمّ خاف طلحة والزبير من مقدم عليّ عليه السلام وهما على تلك القلّة والضعف فراسلوا القبائل يدعونهم إلى الطلب بدم عثمان وخلع عليّ عليه السلام فبايعهم على ذلك الأزد وضبّة وقيس غيلان كلّها إلّا الرجل والرجلين من القبيلة كرهوا أمرهم فتواروا عنهم، وبايعهما هلال بن و كيع بمن معه من بنى عمرو ابن تميم و أكثر بنى حنظلة و بنى دارم. فلمّا استوسق لهما أمرهما خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح و مطر في أصحابهما ، وقد ألبسوهم الدروع ، وظاهروا فوقها بالثياب فانتهوا إلى المسجد وقت صلوة الفجر و قد سبقهم عثمان بن حنيف إليه و أُقيمت

الصلاة فتقدّم عثمان ليصلّي بهم فأخّره أصحاب طلحة والزبير ، و قدّموا الزبير فجاءت الشرط - حرس بيت المال - وأخّروا الزبير وقدّموا عثمان فغلبهم أصحاب الزبير فقدّموه و أخّروا عثمان فلم يزالوا كذلك حتّى كادت الشمس أن تطلع فصاح بهم أهل المسجد ألا تتّقون الله أصحاب محمّد قد طلعت الشمس فغلب الزبير فصلّى بالناس فلمّا انصرف من صلاته صاح بأصحابه المتسلّحين أن خذوا عثمان فأخذوه بعد أن تضارب هو و مروان بن الحكم بسيفهما فلمّا اُسر ضرب ضرب الموت ونتفت حاجباه و أشفار عينيه و كلّ شعرة في رأسه و وجهه ، و أخذوا السيالحة وهم سبعون رجلاً فانطلقوا بهم و بعثمان بن حنيف إلى عايشة فأشارت إلى أحد أولاد عثمان أن اضرب عنقه فإنّ الأنصار قتلت أباك وأعانت على قتله . فنادى عثمان ياعايشة و يا طلحة و يا زبير إنّ أخي سهل بن حنيف خليفة عليّ بن أبي طالب على المدينة و اُقسم بالله إن قتلتموني ليضعنّ السيف في بني أبيكم وأهليكم و رهطكم فلا يبقى منكم أحداً. فكفّوا عنه و خافوا من قوله فتركوه ، وأرسلت عايشة إلى الزبير أن اقتل السيالحة فإنّه قد بلغني الّذي صنعوا بك قبل . فذبحهم والله كما يذبح الغنم. ولي ذلك عبدالله ابنه وهم سبعون رجلاً ، وبقيت منهم بقيّة متمسّكون ببيت المال قالوا : لا نسلّمه حتّى يقدم أمير المؤمنين. فسار إليهم الزبير في جيش ليلاً و أوقع بهم و أخذ منهم خمسين أسيراً فقتلهم صبراً. فحكى أنّ القتلى من السيالحة يومئذ أربع مأة رجل ، وكان غدر طلحة والزبير بعثمان بن حنيف بعد غدرهم في بيعة عليّ غدراً في غدر ، وكانت السيالحة أوّل قوم ضربت أعناقهم من المسلمين صبراً ، وخيّروا عثمان بن حنيف بين أن يقيم أو يلحق بعليّ فاختار الرحيل فخلّوا سبيله فلحق بعليّ عليه السلام فلمّا رآه بكى و قال له شيخ وجئتك أمرداً. فقال عليّ عليه السلام : إنّا لله وإنّا إليه راجعون قالها ثلاثاً . فذلك معنى قوله : فقدموا على عاملي بها وخزّان بيت مال المسلمين . إلى آخره . ثمّ أقسم عليه السلام إنّهم لو لم يصيبوا أي يقتلوا من المسلمين إلّا رجلاً واحداً متعمّدين قتله بغير ذنب جناه لحلّ له قتل ذلك الجيش كلّه ، و - إن - زايدة .

فإن قلت : المفهوم من هذا الكلام تعليل جواز قتله لذلك الجيش كلّه بعدم

إنكارهم للمنكر فهل يجوز قتل من لم ينكر المنكر ؟

قلت : أجاب الشارح عبدالحميد بن أبى الحديد عنه . فقال : إنّه تجوّز قتلهم لأنّهم اعتقدوا ذلك القتل مباحاً مع أنّه ممّا حرّمه الله فجرى ذلك مجرى اعتقادهم لإباحة الزنا وشرب الخمر .

و أجاب القطب الراوندىّ بأنّ جواز قتلهم لدخولهم في عموم قوله تعالى « إنّما جزاء الّذين يحاربون الله و رسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا »[1] الآية و إنّ هؤلاء القوم قد حاربوا رسولالله لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: حربك يا عليّ حربى ، وسعوا في الأرض بالفساد ، واعترض المجيب الأوّل عليه . فقال: الإشكال إنّما هوفي تحليله لقتل الجيش المذكور لكونه لم ينكرعلى من قتل رجلاً واحداًمن المسلمين فالتعليل بعدم إنكار المنكر لا بعموم الآية .

وأقول: الجواب الثانى أسدّ ، والأوّل ضعيف .لأنّ القتل وإن وجب على من اعتقدإباحة ماعلم تحريمه من الدين ضرورة كشرب الخمر والزنافلم قلت إنّه يجب على من اعتقد إباحة ما علم تحريمه من الدين بالتأويل كقتل هؤلاء القوم لمن قتلوا وخروجهم لما خرجواله فإنّ جميع ما فعلوه كان بتأويل لهم وإن كان معلوم الفساد. فظهر الفرق بين اعتقاد حلّ الخمر والزنا و بين اعتقاد هؤلاء لإباحة ما فعلوه ،

وأمّا الاعتراض على الجواب الثانى فضعيف أيضاً. لأنّ لهأن يقول: إنّ قتل المسلم الّذي لاذنب له عمداً إذا صدر من بعض الجيش ولم ينكر الباقون مع تمكّنهم وحضورهم كان ذلك قرينة دالّة على الرضا من جميعهم ، والراضى بالقتل شريك القاتل خصوصاً إذا كان معروفاً بصحبته والاتّحاد به كاتّحاد بعض الجيش ببعض. فكان خروج ذلك الجيش على الإمام العادل محاربة لله و رسوله ، و قتلهم لعامله و خزّان بيت مال المسلمين و نهبهم له و تفريق كلمة أهل المصر وفساد نظامهم سعى في الأرض بالفساد ، و ذلك عين مقتضى الآية .

و قوله : دع . إلى آخره .

---

(١) ٥ - ٣٧ .

أي لو كان من قتلوه من المسلمين واحداً لحلّ لي قتلهم فكيف وقد قتلوا منهم عدّة مثل عدّتهم الّتي دخلوا بها البصرة . وما بعد «ما» زايدة، والمماثلة هنا في الكثرة. و صدق عليه السلام فإنّهم قتلوا من أوليائه وخزّان بيت المال بالبصرة خلقاً كثيراً كما ذكرناه على الوجه الّذي ذكره بعض غدراً و بعض صبراً . وبالله التوفيق .

١٧٢ — ومن خطبة له عليه السلام

أَمِينُ وَحْيِهِ ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ ، وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهٰذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ ؛ وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ فِيهِ ؛ فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتُعْتِبَ ، فَإِنْ أَبَى قُوتِلَ . وَلَعَمْرِي لَئِنْ كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى تَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ فَمَا إِلَى ذٰلِكَ سَبِيلٌ ؛ وَلٰكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا ؛ ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ .

أَلَا وَإِنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ : رَجُلاً ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ ؛ وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ .

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ ؛ فَإِنَّهَا خَيْرُ مَا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ ، وَخَيْرُ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللهِ ، وَقَدْ فُتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَلَا يَحْمِلُ هٰذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصَرِ وَالصَّبْرِ ، وَالْعِلْمِ بِمَوَاقِعِ الْحَقِّ ، فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ، وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا ؛ فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً .

أَلَا وَإِنَّ هٰذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ؛ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ وَلَا مَنْزِلِكُمُ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ، أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ، وَلَا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا، وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَإِطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا، وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَانْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا وَلَا يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ الْأَمَةِ عَلَى مَا زُوِيَ عَنْهُ مِنْهَا، وَاسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ، أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ.

أقول: صدر هذا الفصل من ممادح الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فشهادة كونه أميناً على التنزيل من التحريف و التبديل العصمة، وشهادة ختامه للرسل قوله تعالى «و خاتم النبيّين» وكونه بشير رحمته بالثواب الجزيل و نذير نقمته بالعذاب الوبيل قوله تعالى «إنّا أرسلناك بالحق بشيراً و نذيراً». ثمّ أردفه ببيان أحكام:

الأوّل: بيان أحكام الّذي هو أحقّ الناس بأمر الخلافة، و حصر الأحقّ به في أمرين: أحدهما أقوى الناس عليه وهو الأكمل قدرة على السياسة والأكمل علماً بمواقعها و كيفيّاتها و كيفيّة تدبير المدن والحروب وذلك يستلزم كونه أشجع الناس. والثاني أعملهم بأوامر الله فيه، ومفهوم الأعمل بأوامر الله يستلزم الأعلم بأُصول الدين و فروعه ليضع الأعمال مواضعها، و يستلزم أشدّ حفاظاً على مراعاة حدود الله

والعمل بها ، و ذلك يستلزم كونه أزهد الناس و أعفّهم و أعدلهم . و لمّا كانت هذه الفضائل مجتمعة له عليه السلام كان إشارة إلى نفسه ، و روى عوض أعملهم أعلمهم .

الثاني : في بيان حكم المشاغب للإمام بعد انعقاد بيعته ، و هو أنّه يستعتب: أي أنّه في أوّل مشاغبته يطلب منه العتبى والرجوع إلى الحقّ والطاعة بلين القول فإن أبى قوتل و ذلك الحكم مقتضى قوله تعالى «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » (١) الآية .

الثالث : بيان كيفيّة انعقاد الإمامة بالإجماع فبيّن بقوله : و لعمري . إلى قوله : ما إلى ذلك سبيل . أنّ الأجماع لايعتبر فيه دخول جميع الناس حتّى العوامّ . إذ لو كان ذلك شرطاً لأدّى إلى أن لا ينعقد إجماع قطّ فلم تصحّ إمامة أحد أبداً لتعذّر اجتماع المسلمين بأسرهم من أطراف الأرض بل المعتبر في الإجماع اتّفاق أهل الحلّ والعقد من اُمّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم على بعض الاُمور ، وهم العلماء ، و قد كانوا بأسرهم مجتمعين حين بيعته عليه السلام فليس لأحدمنهم بعد انعقادها أن يرجع ،ولالمن عداهم من العوامّ و من غاب عنهما أن يختاروا غير من أجمع هؤلاء عليه .

فإن قلت : إنّه عليه السلام إنّما احتجّ على القوم بالإجماع على بيعته ، و لو كان متمسّك آخر من نصّ أو غيره لكان احتجاجه بالنصّ أولى فلم يعدل إلى دعوى الإجماع .

قلت : احتجاجه بالإجماع لا يتعرّض لنفي النصّ ولا لإثباته بل يجوز أن يكون النصّ موجوداً ، و إنّما احتجّ عليهم بالإجماع لاتّفاقهم على العمل به فيمن سبق من الأئمّة ، ولأنّه يحتمل أن يكون سكوته عنه لعلمه بأنّه لا يلتفت إلى ذكره على تقدير وجوده لأنّه لمّا لم يلتفت إليه في مبدء الأمر حين موت الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فبالأولى أن لا يلتفت إليه الآن و قد طالت المدّة و بعد العهد فلم تكن في ذكره فايدة .

الرابع : بيان من يجب قتاله و هو أحد رجلين : الأوّل : رجل خرج على

(١) ٤٩ - ٩ .

الإمام العادل بعد تمام بيعته وادّعى أنّ الإمامة حقّ له وقد ثبت بالإجماع على غيره أنّها ليست له، والثاني: رجل خرج على الإمام و لم يمتثل له في شيء من الأحكام. والأوّل إشارة إلى أصحاب الجمل، والثاني إلى معاوية و أصحابه. ثمّ عقّب بالوصيّة بتقوى الله فإنّها خير زاد عند الله يستعقبه الإنسان من حركاته وسكناته ولمّا كان كذلك كان خير ما تواصى به عباد الله.

و قوله: و قد فتح باب الحرب بينكم و بين أهل القبلة. إلى قوله: غيراً.

إعلام لأصحابه بحكم البغاة من أهل القبلة على سبيل الإجمال، و أحال التفصيل على أوامره حال الحرب، و قد كان الناس قبل حرب الجمل لا يعرفون كيفيّة قتال أهل القبلة ولا كيف السنّة فيهم إلى أن علموا ذلك منه عليه السلام. و نقل عن الشافعي أنّه قال: لولا عليّ ماعرفت شيء من أحكام أهل البغى.

وقوله: ولا يحمل هذا العلم إلّا أهل البصر.

أى أهل البصائر، والعقول الراجحة، والصبر: أى على المكاره وعن التسرّع إلى الوساوس، والعلم بمواضع الحقّ. و ذلك أنّ المسلمين عظم عندهم حرب أهل القبلة و أكبروه، و المقدمون منهم على ذلك إنّما أقدموا على خوف وحذر. فقال عليه السلام: إنّ هذا العلم لا يدركه كلّ أحد بل من ذكره. و روى العلم بفتح اللام، وذلك ظاهر فإنّ حامل العلم عليه مدار الحرب و قلوب العسكر منوطة به فيجب أن يكون بالشرائط المذكورة ليضع الأشياء مواضها. ثمّ أمرهم بقواعد كلّيّة عند عزمه على المسير للحرب وهي أن يمضوا فيما يؤمرون به ويقفوا عند ما ينهون عنه و لا يعجلوا في أمر إلى غاية أن يتبيّنوه: أى لا يتسرّعوا إلى إنكار أمر فعله أو يأمرهم به حتّى سألوه عن فايدته وبيانه. فإنّ له عند كلّ أمر ينكرونه تغييراً: أى قوّة على التغيير إن لم يكن في ذلك الأمر مصلحة في نفس الأمر و فايدة أمرهم بالتبيّن عند استنكار أمر أنّه يحتمل أن لا يكون مااستنكروه منكراً في نفس الأمر فيحكمون بكونه منكراً لعدم علمهم بوجهه، و يتسرّعون إلى إنكاره بلسان أو يدفيقعون في الخطأ. قال بعض الشارحين: وفي قوله: فإنّ لنا عند كلّ أمر ينكرونه

تغييراً. إيماء إلى أنّه ليس كعثمان في صبره على ارتكاب الناس لما كان ينهاهم عنه بل يغيّر كلّ ما ينكره المسلمون ويقتضي العرف و الشرع تغييره . ثمّ أخذ في التنفير عن الدنيا بأُمور :

الأوّل : التنفير عن تمنّيها و الرغبة فيها و عن الغضب لفوتها و الرضى بحصولها بكونها ليست الدار و المنزل الّذي خلقوا له و دعوا إليه ، واستلزم ذلك التنفير التنبيه على ما ورائها والعمل له .

الثاني : نفّر عنها بفنائها عنهم وفنائهم عنها .

الثالث : بأنّه لا فائدة فيها فإنّها و إن كانت تغرّ و تخدع بما فيها ممّا يعتقد خيراً و كمالاً فإنّ فيها مايقابل ذلك وهو التحذير بما فيها من الآفات والتغيّرات المتعدّدة شرّاً فينبغي أن يتركوا خيرها القليل لشرّها الكثير ، وإطماعها لتخويفها ، ويسابقوا إلى الخير الخالص و الدار الّتي دعوا إليها وخلقوا لأجلها ، ويتصرّفوا بقلوبهم عنها: أي يزهدوا الزهد الحقيقيّ فيها فإنّ الزهد الظاهريّ مع الحنين إلى ما زوى منها عن أحدكم غير منتفع و به خصّ حنين الأمة لأنّ الحنين أكثر ما يسمع من الأمة لأنّ العادة أن تضرب و تؤذى فيكثر حنينها . و روى خنين بالخاء المعجمة . و الخنين كالبكاء في الأنف . و إذ أمر بالزهد الحقيقي أمر بالصبر على طاعة الله و عبادته و المحافظة على أوامر كتابه و نواهيه أذ بالزهد يكون حذف الموانع الداخلة و الخارجة ، و بالطاعة و العبادة يكون تطويع النفس الأمّارة بالسوء للنفس المطمئنّة . وهما جزاء الرياضة و السلوك لسبيل الله . و رغّب في الصبر على طاعة الله بأنّ فيه استتماماً لنعمة الله . و ظاهر أنّ طاعة الله سبب عظيم لإفاضة نعمه الدنيويّة و الاُخرويّة . ثمّ أكّد الأمر بالمحافظة على ما قام من الدين بأنّه لامضرّة في ترك شيء من الدنيا وتضييعها مع المحافظة على الدين لما في المحافظة على الدين من الخير الدائم التامّ الأُخروي الّذي لا نسبة لخير الدنيا إليه ، و بأنّه لامنفعة في المحافظة على مافيها : أي في الدنيا مع تضييع الدين وإهماله . وذلك أمر مفروغ عنه و مستغنى عن بيانه . ثمّ ختم بالدعاء لهم و لنفسه بأخذ الله بقلوبهم إلى الحقّ :

أى إلهامهم لطلبه وهدايتهم إليه و جذبهم إلى سلوك سبيله ، ثمّ إلهامهم الصبر : أى على طاعته و عن معصية . و بالله التوفيق .

١٧٣ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

فى طلحة بن عبيد الله

قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ ، وَلَا أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ ، وَأَنَا عَلَى مَا قَدْ وَعَدَنِى رَبِّى مِنَ النَّصْرِ ، وَاللهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ ، إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ لِأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ ، وَلَمْ يَكُنْ فِى الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْبِسَ الْأَمْرُ ، وَيَقَعَ الشَّكُّ ! وَوَاللهِ مَا صَنَعَ فِى أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ : لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِمًا ، كَمَا كَانَ يَزْعُمُ ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يُوَازِرَ قَاتِلِيهِ ، أَوْ أَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ ، وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُومًا لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنَهْنِهِينَ عَنْهُ ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ ، وَلَئِنْ كَانَ فِى شَكٍّ مِنَ الْخَصْلَتَيْنِ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ وَيَرْكُدَ جَانِبًا ، وَيَدَعَ النَّاسَ مَعَهُ . فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ .

أقول : هذا الفصل من كلام قاله حين بلغه خروج طلحة و الزبير إلى البصرة . وتهديدهم بالحرب .

ونهنه عنه : كفّ وزجر . والمعذرين بالتخفيف : المتعذّرين عنه . وبالتشديد المظهرين للعذر مع أنّه لا عذر . وركد : سكن .

فقوله : و قد كنت . إلى قوله : النصر .

جواب لتهديدهم . و قد مرّت هذه الألفاظ بعينها مشروحة إلّا أنّ هناك : و إنّى على يقين من ربّى . وهنا : وأنا على ما قدوعدنى ربّى من النصر . وذلك الّذى هو عليه هو اليقين بالنصر على لسان الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، و الواو في قوله : و ما اُهدّد للحال . وكان تامّة .

و قوله : والله ما استعجل . إلى قوله : ويقع الشكّ .

إشارة إلى شبهتهم في الخروج إلى البصرة . وهي الطلب بدم عثمان ، ثمّ إلى معارضة هذه الشبهة وهى أنّ خروجه ليس إلّاخوفاً من أن يطلب بدمه لأنّه مظنّة ذلك . و قد سبقت منّا الإشارة إلى دخول طلحة في تحريض الناس على قتل عثمان و جمعه لهم في داره . و روى أنّه منع الناس من دفنه ثلاثة أيّام ، و أنّ حكيم بن حزام وجبيربن مطعم استنجدا بعليّ في دفنه فأقعد لهم طلحة في الطريق اُناسا يرمونهم بالحجارة فخرج به نفر من أهله يريدون به حائطاً في المدينة يعرف بحشّ كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم فلمّا صار هناك رجم سريره فهمّوا بطرحه فأرسل إليهم عليّ عليه السلام فكفّهم عنه حتّى دفن بحشّ كوكب . و روى أنّه جادل في دفنه بمقابر المسلمين و قال : ينبغى أن يدفن بدير سلع يعني مقابر اليهود . و بالجملة فهو كما قال عليه السلام: لم يكن في القوم أحرص منه على قتله لكنّه أراد أن يغالط بما أجلب في الطلب بدمه ليلتبس الأمر و يقع الشكّ في دخوله في قتله .

و قوله : و والله ما صنع في أمر عثمان. إلى آخره .

صورة احتجاج عليه وقطع اعذره في الخروج و الطلب بدمه بقياس شرطىّ منفصل ، وتقريره أنّ حاله في أمر عثمان و خروجه في طلب دمه لا تخلو من اُمور ثلاثة فإنّه إمّا أن يعلم أنّه كان ظالماً أو يعلم أنّه كان مظلوماً أو يشكّ في الأمرين ويتوقّف فيهما فإن كان الأوّل فقد كان الواجب عليه أن يساعد قاتليه و يوازرهم و ينابذ ناصريه لوجوب إنكار المنكر عليه . وهو قد عكس الحال لأنّه نابذ قاتليه و ثار في طلب دمه مع ناصريه ممّن توهّم فيه ذلك ، و إن كان الثانى فقد كان يجب عليه أن يكون ممّن يكفّ الناس عنه و يعتذر عنه فيما فعل لوجوب إنكار المنكر

أيضاً مع أنّه ممّن وازر عليه الناس وأظهر أحداثه وعظّمها كما هو المنقول المشهور عنه ، و إن كان الثالث فقد كان الواجب عليه أن يعتزله و يسكن عن الخوض في أمره و لم يفعل ذلك بل ثار في طلب دمه . فكان في هذه الأحوال الثلاثة محجوجاً في خروجه ونكثه للبيعة . فإذن ماجاء به من ذلك أمر لا يعرف بابه : أى وجه دخوله فيه ، ولم يسلّم فيه عذر . وبالله التوفيق .

١٧٤ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

أَيُّهَا الْغَافِلُونَ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ . مَالِى أَرَاكُمْ عَنِ اللهِ ذَاهِبِينَ ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ ؟ كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعَى وَبِيٍّ ، وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ !! إِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدَى ، لَا تَعْرِفُ مَا ذَا يُرَادُ بِهَا : إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا ، وَشِبَعَهَا أَمْرَهَا ؛ وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، أَلَا وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَى الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ . وَالَّذِى بَعَثَهُ بِالْحَقِّ ، وَاصْطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ ؛ مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقاً ، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ ، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو ؛ وَمَآلِ هَذَا الْأَمْرِ ؛ وَمَا أَبْقَى شَيْئاً يَمُرُّ عَلَى رَأْسِى إِلَّا أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي وَاللهِ مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا أَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا وَلَا أَنْهَاكُمْ

عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلاَّ أَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا.

أقول: السائم : الراعى. و الوبى‌ّ: محل‌ّ الوباء. والدوي‌ّ: محل‌ّ الداء. والمدى: جمع مدية، وهي السكين.

والخطاب عام‌ّ. و كونهم غافلين : أى عمّا يراد بهم من أمر الآخرة، و غير مغفول عنهم: أى أن‌ّ أعمالهم محصّلة في اللوح المحفوظ. و تاركين: أى لما اُمروا به من الطاعة، المأخوذ منهم: أى منتقص من أعمار هم و قيناتهم الدنيويّة من مال و أهل. ثم‌ّ نبّههم على ذهابهم عن الله و هو التفاتهم عن طاعته و رغبتهم في غيره و هو الحياة الدنيا و زينتها. ثم‌ّ شبّههم في ذلك بالنعم الّتي أراح بها راعيها إلى مرعى كثير الوباء والداء. و وجه الشبه أنّهم لغفلتهم كالنعم ونفوسهم الأمّارة بالسوء القائدة لهم إلى المعاصى كالراعى القائد إلى المرعى الوبي‌ّ و لذّات الدنيا و مشتهياتها، وكون تلك اللذّات و المشتهيات محل‌ّ الآثام الّتي هي مظنّة الهلاك الاُخروى‌ّ و الداء الدوي‌ّ تشبه المرعى الوبي‌ّ والمشرب الدوى‌ّ.

وقوله: وإنّما هي كالمعلوفة.

تشبيه آخر لهم بمعلوفة النعم، و وجه الشبه أنّهم لعنايتهم بلذّات الدنيا من المطاعم و المشارب كالنعم المعتنى بعلفها، وكون ذلك التلذّذ غايته الموت تشبه غاية المعلوفة و هي الذبح، و كونهم غافلين من غاية الموت و ما يراد بهم يشبه غفلة النعم عن غايتها من الذبح، و كونهم يظنّون أن‌ّ الإحسان إليهم ببسط اللذّات الدنيويّة في بعض الأوقات دائم في جميع أوقاتهم و، أن‌ّ شبعهم في هذه الحياة وريّهم هو غايتهم الّتي خلقوا لأجلها و تمام أمرهم يشبه غفلة النعم في حال حضور علفها في بعض الأوقات عمّا بعده من الأوقات و توهّمها أن‌ّ ذلك غايتها الّتي خلقت لأجلها، و وجه هذا الشبه مركّب من هذه الوجوه. ثم‌ّ أقسم أنّه لو شاء لأخبر كل‌ّ رجل منهم بمواضع تصرّفاته و حركاته وجميع أحواله. وهو كقول المسيح عليه السلام: و اُنبّئكم بما تأكلون و ما تدّخرون في بيوتكم.[1] و قد علمت إمكان ذلك

(١) ٣ - ٤٣.

العلم و سببه في حقّ الأنبياء والأولياء في مقدّمة الكتاب .

و قوله : ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

أى أخاف أن تغلوا في أمرى ، و تفضّلوني على رسول الله . بل كان يخاف أن يكفروا فيه بالله كما ادّعت النصارى في المسيح حيث أخبرهم بالاُمور الغايبة . ثمّ قال : ألا وإنّي مفضيه إلى الخاصّة : أى أهل العلم و الثبات من أصحابه ممّن يؤمن ذلك الكفر منه ، و هكذا شأن العلماء و أساطين الحكمة رأيهم أن لا يضعو العلم إلّا في أهله . هذا مع أنّ من الناس من يدّعي فيه النبوّة وأنّه شريك محمّد في الرسالة ، ومنهم من ادّعى أنّه إله ، و هو الّذي أرسل محمّداً . إلى غير ذلك من الضلال . و فيه يقول بعض شعرائهم :

و من أهلك عاداً و ثمود بدواهيه   و من كلّم موسى فوق طور إذ يناديه

و من قال على المنبر يوماً وهو راقيه :   سلوني أيّها الناس . فحاروا في معانيه

وقول الآخر :

إنّما خالق الخلائق من   زعزع أركان خيبر جذباً

قد رضينا به إماماً ومولى   و سجدنا له إلهاً وربّاً

ثمّ أقسم أنّه ما نطق إلّا صادقاً فيما يخبر به من هذه الاُمور ، و أخبر أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عهد إليه بذلك و بمهلك من يهلك . إلى قوله : وأفضى به إليّ : أى ألقاه إليّ وأعلمني به . و ذلك التعليم منه ما يكون على وجه جزئيّ أعني أن يخبره بواقعة واقعة ، ومنه ما يكون على وجه كلّيّ : أى يلقى إليه اُصولاً كلّيّة يعدّ ذهنه بها لاستفاضته الصور الجزئيّة من واهب الصور كما سبق تقريره . و ممّا نقل عنه من ذلك في بعض خطبته الّتي يشير فيها إلى الملاحم يؤمى به إلى القرامطة : ينتحلون لنا الحبّ و الهوى ويضمرون لنا البغض و القلى و آية ذلك قتلهم و رّاثنا و هجرهم أحداثنا . وصحّ ما أخبر عنه لأنّ القرامطة قتلت من آل أبي طالب خلقاً كثيراً . و أسماؤهم مذكورة في كتاب مقاتل الطالبيّين لأبي الفرج الإصبهانيّ .

قال بعض الشارحين : و من هذه الخطبة ـ وهو يشير إلى السارية الّتي كانت

يستند إليها في مسجد الكوفة ـ : كأنّي بالحجر الأسود منصوباً هيهنا ويحهم إنّ فضيلته ليست في نفسه بل في موضعه و أنّه يمكث هيهنا مدّة ثمّ هيهنا مدّة ـ و أشار إلى مواضع ـ ثمّ يعود إلى ما و راءه و يأمّ مثواه . و وقع من القرامطة في الحجر الأسود بموجب ما أخبر به عليه السلام .

وأقول : في هذا النقل نظر لأنّ المشهور أنّ القرامطة نقلوا الحجر الأسود إلى أرض البحرين ، وبنوا له موضعاً وضعوه فيه يسمّى إلى الآن بالكعبة ، و بقي هناك مدّة ثمّ اُعيد إلى مكّة ، و روي أنّه مات في المجيء به خمسة و عشرون بعيراً وعاد به إلى مكّة بعير ليس بالقويّ ، وذلك من أسرار دين الله تعالى ، ولم ينقل أنّهم نقلوه مرّتين ، والله أعلم .

١٧٥ — ومن خطبة له عليه السلام

انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللهِ ، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللهِ ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللهِ . فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ ، وَأَخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ مِنْهَا ؛ لِتَتَّبِعُوا هٰذِهِ وَتَجْتَنِبُوا هٰذِهِ ؛ فَإِنَّ رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، كَانَ يَقُولُ : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » . وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهٍ ؛ وَمَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ . فَرَحِمَ اللهُ رَجُلًا نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّ هٰذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزَعاً ، وَإِنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوًى .

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُمْسِي وَلَا يُصْبِحُ إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ فَلَا يَزَالُ زَارِياً عَلَيْهَا ، وَمُسْتَزِيداً لَهَا . فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ وَالْمَاضِينَ

أَمَامَكُمْ، قَوِّضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوُوهَا طَيَّ الْمَنَازِلِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ، وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدًى، وَنُقْصَانٍ مِنْ عَمًى. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى. فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ؛ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ وَالْغَيُّ وَالضَّلَالُ. فَاسْأَلُوا اللهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ. إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللهِ بِمِثْلِهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ وَمُشَفَّعٌ، وَقَائِلٌ وَمُصَدَّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلًى فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ»، فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ، الْعَمَلَ الْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ وَالِاسْتِقَامَةَ الِاسْتِقَامَةَ ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَالْوَرَعَ الْوَرَعَ، إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى نِهَايَتِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَمًا فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى غَايَتِهِ، وَاخْرُجُوا

إِلَى اللهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ . أَنَا شَهِيدٌ لَكُمْ وَحَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ .

أَلَا وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ ، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ ، وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللهِ وَحُجَّتِهِ : قَالَ اللهُ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) وَقَدْ قُلْتُمْ رَبُّنَا اللهُ ، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ، ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا ، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا ، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ وَتَصْرِيفَهَا ، وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِدًا ، وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ ، فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ ، وَاللهِ مَا أَرَى عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْزُنَ لِسَانَهُ ، وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ : فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَبْدَاهُ ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ : لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ ؛ وَمَاذَا عَلَيْهِ !!

وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ

حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللهَ وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ: فَلْيَفْعَلْ.

وَاعْلَمُوا، عِبَادَ اللهِ، أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَامًا أَوَّلَ، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَامًا أَوَّلَ، وَإِنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ لَا يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئًا مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِ الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللهُ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللهُ، فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضُرِبَتْ لَكُمُ الْأَمْثَالُ، وَدُعِيتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ، فَلَا يَصَمُّ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَمُّ، وَلَا يَعْمَى عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَعْمَى!! وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شِرْعَةً، وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللهِ بُرْهَانُ سُنَّةٍ، وَلَا ضِيَاءُ حُجَّةٍ، وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلَاءٌ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوِ الْمُتَنَاسُونَ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَاذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله

عليه وآله وسلم ، كَانَ يَقُولُ : « يَاابْنَ آدَمَ اعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعِ الشَّرَّ فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ » .

أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ : فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ : فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ ، قَالَ اللهُ : (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ، الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ ! لَيْسَ هُوَ جَرْحًا بِالْمُدَى ، وَلَا ضَرْبًا بِالسِّيَاطِ ، وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ . فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللهِ ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا بِفُرْقَةٍ خَيْرًا : مِمَّنْ مَضَى وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ؛ طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ ، وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ وَأَكَلَ قُوتَهُ ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ ، وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ ، فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ !

أقول : الظنون : المتّهمة . و الزارى : العايب . و تقويض البناء : نقضه . و اللأواء : الشدّة . و محل به السلطان : كاده و قال فيه ما يضرّه . و تورّدت الخيل البلدة : دخلتها قطعة قطعة . و تهزيع الأخلاق : تكسيرها و تفريقها . و ضرست الأمر : أحكمته تجربة .

و قدأمر السامعين أن ينتفعوا ببيان الله في كتابه و على لسان رسوله ، ويتّعظوا بمواعظه و يقبلوا نصيحته فيما لأجله خلقوا ، و إنّما عدّد اسم الله صريحاً دون

الضمير للتعظيم . ثمّ أشار إلى وجه وجوب الامتثال عليهم وهو إعذاره إليهم بالجليّة: أى إظهار ما هو صورة العذر من الآيات و النذر الجليّة الواضحة ، واتّخاذ الحجّة ببعث الرسل ، وبيان محابّه من الأعمال الصالحات و مكارهه من المحرّمات في كتابه العزيز لغاية اتّباع محابّه و اجتناب مكارهه . ثمّ نبّه على ما في الطاعة و امتثال التكليف من الشدّة و المكروه فذكر الخبر ، ونعم ما تضمّنه الخبر و أنّه لم ينبّه على الشدّة مجرّدة بل قرنها بذكر الجنّة و جعلها محجوبة بها لتحصل الرغبة في الجنّة فيتمّ السعى في قطع تلك الحجب المكروهة ، و كذلك قرن ذكر الشهوات بذكر كونها محفوفة بها بالنار تنفيراً عنها . ثمّ بعد تسهيل المكاره الّتي يشتمل عليها الطاعات بذكر الجنّة وتحقير الشهوات الّتي يريد الجذب عنها بذكر النار صرّح بأنّه لا تأتى طاعة إلّا في كره ولا معصية إلّا في شهوة ، و قد عرفت سرّ ذلك ، و أنّ النفس للقوّة الشهويّة أطوع منها للعقل خصوصاً فيما هو أقرب إليها من اللذّات المحسوسة الّتي يلحقها العقاب عليها . ثمّ عقّب ذلك بدعاء الله أن يرحم امرءاً نزع عن شهوته : أى امتنع من الانهماك فيها و قمع نفسه الأمّارة بالسوء فإنّها أبعد شيء منزعاً عن الله . ثمّ فسّر منزعها الّذي ينزع إليه و هي المعصية في هواها ، وما تميل إليه . ثمّ نبّه على حال المؤمن الحقّ و تهمته نفسه في جميع أوقاته من صباح و مساء ، و أنّه لا يزال عائباً عليها ومراقباً لأحوالها ، و مؤاخذاً لها بالزيادة في الأعمال الصالحة ، و قد سبقت الإشارة إلى ذلك . ثمّ أمرهم أن يكونوا كالسابقين من أكابر الصحابة و الماضين أمامهم إلى الجنّة في الإعراض عن الدنيا ، و استعار لفظ التقويض والطىّ لقطعهم علائق الدنيا ورحيلهم إلى الآخرة كما يقوّض الراحل متاعه للسفر ، و يطوى خيامه للرحيل . ثمّ عقّب بذكر القرآن وممادحه ترغيباً في الاقتداء به ، واستعار وصف الناصح له ، و وجه الاستعارة أنّ القرآن يرشده إلى وجوه المصالح كما أنّ الناصح كذلك ، و رشّح بكونه لا غشّ معه و كذلك كونه هادياً لا يضلّ : أى طريق الله ، و روى لا يضلّ : أى لا يضلّ غيره ، و كذلك استعار وصف المحدّث له ، و رشّح بكونه لا يكذب ، و وجه الاستعارة اشتماله على الأخبار

و القصص الصحيح ، و فهمه و استفادته عنه كالمحدّث الصادق ، و كنّى بمجالسة القرآن عن مجالسة حملته و قرّائه لاستماعه منهم ، و تدبّره عنهم فإنّ فيه من الآيات الباهرة و النواهي الزاجرة ما يزيد بصيرة المستبصر من الهدى ، و ينقص من عمى الجهل . ثمّ نبّههم على أنّه ليس بعده على أحد فقر : أى ليس بعد نزوله للناس و بيانه الواضح حاجة بالناس إلى بيان حكم في إصلاح معاشهم ومعادهم، ولالأحد قبله من غنى : أى قبل نزوله لاغنى عنه للنفوس الجاهلة ، وإذا كان بهذه الصفة أمرهم بأخذ الشفاء عنه لأدوائهم : أى أدواء الجهل ، و أن يستعينوا به على شدّتهم وفقرهم إلىأن يستليحوا منه وجوه المصالح الدنيويّة والاُخرويّة. ثمّ عدّ أكبر أدواء الجهل وأعاد ذكر كونه شفاء منها : أوّلها : الكفر بالله و هوعمى القوّة النظريّة من قوى النفس عن معرفة صانعها و مبدعها إلى غاية إنكاره أو اتّخاذثان له أو الحكم عليه بصفات المخلوقين المحدّثين ، و الثانى : النفاق وهو مستلزم لرذيلة الكذب المقابلة لفضيلة الصدق . ثمّ ارذيلة الغدر المقابلة لفضيلة الوفاء ، و قد سبق بيان حال النفس في هاتين الرذيلتين . الثالث : الغيّ وهو رذيلة التفريط من فضيلة الحكمة . الرابع: الضلال وهو الانحراف عن فضيلة العدل ، و إلى كونه شفاءاً الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ القلوبتصدء كما يصدء الحديد . قيل : يا رسول الله ما جلاؤها ؟ قال : قرائة القرآن وذكر الموت ، و قد علم اشتماله على ذكر الموت في مواضع كثيرة . ثمّ أمرهم أن يسئلو الله به ، و المراد أنّكم اعدّوا أنفسكم و كمّلوها لاستنزال المطالب من الله بما اشتمل عليه القرآن من الكمالات النفسانيّة ، و توجّهوا إليه بحبّه لأنّ من أحبّه استكمل بما فيه فحسن توجّهه إلى الله .

و قوله : ولاتسئلوا به خلقه .

أىلا تجعلوا تعلّمكمله لطلب الرزق به من خلق مثلكم فإنّه لمينزللذلك.

و قوله : إنّه [فإنّه خ] ما توجّه العباد إلى الله بمثله .

و ذلك لاشتماله على جميع الكمالات النفسانيّة من العلوم ، ومكارم الأخلاق

والنهى عن جميع الرذائل الموبقة . ثم استعار لفظى الشافع والمشفّع . و وجه الاستعارة كون تدبّره و العمل بما فيه ماحياً لما يعرض للنفس من الهيئات الرديئة من المعاصي، وذلك مستلزم لمحو غضب الله كما يمحو الشفيع المشفّع أثر الذنب عن قلب المشفوع إليه ، وذلك سرّ الخبر المرفوع ما من شفيع من ملك ولا نبىّ ولا غيرهما أفضل من القرآن ، و كذلك لفظ القائل المصدّق ، ووجه الاستعارة كونه ذا ألفاظ إذا نطق بها لا يمكن تكذيبها كالقائل الصادق . ثمّ أعاد معنى كونه شافعاً مشفّعاً يوم القيامة . ثمّ استعار لفظ المحل للقرآن ، و وجه الاستعارة أنّ لسان حال القرآن شاهد في علم الله و حضرة ربوبيّته على من أعرض عنه بعدم اتّباعه ومخالفته لما اشتمل عليه ، و تلك شهادة لا يجوز عليها الكذب فبا لواجب أن يصدق فأشبه الساعى إلى السلطان في حقّ غيره بما يضرّه .

وقوله : فإنّه لا ينادى مناد يوم القيامة . إلى آخره .

فالمنادى هو لسان حال الأعمال ، والحرث كلّ عمل تطلب به غاية وتستخرج منه ثمرة ، والابتلاء هيهنا ما يلحق النفس على الأعمال و عواقبها من العذاب بقدر الخروج فيها عن طاعة الله ، وظاهر أنّ حرث القرآن و البحث عن مقاصده لغاية الاستكمال به برىء من لواحق العقوبات . ثمّ حثّهم على أن يكونوا من حرثته وأتباعه ، و أن يستدلّوه : أى يتّخذوه دليلاً قاعداً إلى ربّهم ، وأن يستنصحوه على انفسهم : أى يتّخذوه ناصحاً على نفوسهم الأمّارة بالسوء لكونها هي الغاشية لهم يقودها إلى معصية الله ، و كون القرآن زاجراً لهم عمّا تأمرهم به تلك النفوس فيجب أن تقبل نصيحته عليها ، و كذلك اتّهموا عليه آرائكم : أى إذا رأيتم رأياً يخالف القرآن فاتّهموا ذلك الرأى فإنّه صادر عن النفس الأمّارة بالسوء ، و كذلك قوله : و استغشّوا فيه أهوائكم ، وإنّما قال هنا : استغشّوا ، وقال في الآراء : اتّهموا لأنّ الهوى هو ميل النفس الأمّارة من غير مراجعة العقل فإذا حكمت النفس عن متابعتها بحكم فهو غشّ صراح ، و أمّا الرأي فقد يكون بمراجعة العقل وحكمه ، وقد يكون بدونه فجاز أن يكون حقّاً ، و جاز أن يكون باطلاً فكان بالتهمة أولى .

ثمّ أمر بلزوم العمل الصالح . ثمّ بحفظ النهاية المطلوبة منهم بالعمل و الوصول إليها منه : أى راعوا عاقبتكم ونهاية أعمالكم و غايتها فإنّ الأمور بخواتيمها . ثمّ أمر بالاستقامة : أى على العمل . ثمّ بالصبر عليه ، و حقيقته مقاومة الهوى لئلاّ ينقاد إلى قبائح اللذّات فيخرج عن الصراط . ثمّ بالورع ، و هو لزوم الأعمال الجميلة ، و إنّما عطف النهاية و الصبر بثمّ لتأخّر نهاية العمل عنه ، و كون الصبر أمراً عدمياً فهو في معنى المتراخي و المنفك عن العمل الّذي هو معنى وجوديّ بخلاف الاستقامة على العمل فإنّها كيفيّة له ، و الورع فإنّه جزء منه ، و كرّر تلك الألفاظ للتأكيد ، والنصب في جميعها على الإغراء . ثمّ أشار إلى أنّ تلك النهاية هى النهاية الّتي لهم و أمرهم بالانتهاء إليها ، وهي الأمر الّذي خلقوا لأجله أعنى الوصول إلى الله طاهرين عن رجس الشيطان ، و هو لفظ الخبر النبوي" أيّها الناس إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، و إنّ لكم غاية فانتهوا إلى غايتكم فإنّ المراد بالغاية والنهاية واحد ، و المراد بالمعالم حظائر القدس و منازل الملائكة ، و كذلك إنّ لكم علماً فاهتدوا بعلمكم : أى إلى تلك النهاية . و استعار لفظ العلم لنفسه . ثمّ أخبر أنّ للإسلام غاية وأمرهم بالانتهاء إليها، وتلك الغاية هي النهاية المشار إليها .

وقوله : وأخرجوا إلى الله . إلى قوله : وظائفه .

فالتقدير أخرجوا من حقّه فيما افترض عليكم ، وحقّه في فرائضه ووظائفه الإخلاص بها لوجهه . ثمّ رغّبهم في طاعته و اتّباع أوامره بكونه شاهداً لهم يوم القيامة و محتجاً . قال بعض الشارحين : و إنّما ذكر الاحتجاج و إن كان ذلك الموقف ليس موقف محاجّة لأنّه إذا شهد لهم فكأنّه أثبت الحجّة لهم فأشبه المحاجّ ، و أقول : لمّا كان إمام كلّ قوم هو المخاطب عنهم و الشهيد لهم كما قال تعالى «يوم ندعوا كلّ اُناس بإمامهم » (١) و قوله « و نزعنا من كلّ اُمّة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم » (٢) و كان ذلك الموقف هو موقف السؤال و الجواب كان ذلك معنى المحاجّة و المجادلة . فالخلوص من الأسؤلة بأجوبتها يشبه غلب المسؤول بالحجّة

(١) ١٧ - ٧٣ (٢) ٢٨ - ٧٥

و هو البرهان المطلوب ، وجرت العادة بأنّ البرهان يكون عندالمحاجّة ، و كذلك الانقطاع عن الجواب يشبه كون المسؤول محجوجاً ، و هذا الاحتجاج و الشهادة مقاليّةعندالقائلين بحشر الأجساد ، وحاليّة عندغيرهم . ثمّ أخبر أنّ القدرالسابق في علم الله قد وقع ، و القضاء الماضى : أى النافذ قدتورّد : أى دخل في الوجود شيئاً فشيئاً ، وقد علمت فيما سلف أنّ القضاء هو العلم الإلهى بما يكون و ما هو كائن ، و أنّ القدر تفصيله الواقع على وفقه لكنّه أشار بوقوع القدر هنا إلى وقع خاص و هو خلافته و ما يلزمها من الفتن و الوقايع ، و روى أنّ هذه الخطبة من أوائل الخطب الّتي خطب بها أيّام بويع بعد قتل عثمان . قال بعض الشارحين : و في هذا الكلام إشارة إلى أنّ الرسول صلى الله عليه وآله أخبره أنّ الأمر سيصل إليه في آخر وقته ، وأقول : لاشكّ أنّ وقوع هذا الأمر من القدر السابق على وفق القضاء ، و ليس للّفظ إشعار بما قال هذا الفاضل . إذكان عليه السلام عالماً بأنّ كلّ واقع فيالوجودفبقضاء من الله وقدر .

و قوله : وإنّى متكلّم بعدة الله وحجّته .

أى لمّا وقع هذا الأمر إلىّ فإنّى أتكلّم بكذا ، وعدة الله ما وعد به عباده الّذين اعترفوا بربوبيّته واستقاموا علىسلوك سبيله بطاعته من تنزّل الملائكةعليهم بذهاب الخوف والحزن والبشارة بالجنّة ، و أمّا حجّته الّتي تكلّم بها فقوله : وقد قلتم ربّنا الله : أى اعترفتم بالربوبيّة فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته : أى الّتي هي عن علم و الخالصة من الرياء و النفاق من غير أن يمرقوا منها : أى يخرجوا فيها بالتحذلق و التشدّد إلى طرف الإفراط الّذي هو ثمرة الجهل ، و لا تحدثوا فيها بدعة ولا تخالفوا عنها و تحيدوا يميناً و شمالاً فتقعوا في مهاوى الهلاك فإنّكم متى فعلتم ذلك فقد تمّ شرط استحقاقكم لإنجازعدته المذكورة فإنّ ذلك الشرط مركّب من الاعتراف بربوبيّته ، والاستقامة على الأمورالمذكورة فحينئذ يجب أن تفاض تلك العدة ، ومع فوات جزء من ذلك الشرط لايقع المشروط فلم يتحقّق الموعود به ، و ذلك معنى كون أهل المروق

منقطعاً بهم : أى لايجدون بلاغاً يوصلهم إلى المقصد لأنّ الشرط هو البلاغ إلى المقصد الحقيقى . ثمّ شرع في النهى عن النفاق لأنّ تهزيع الأخلاق تغييرها و نقلها من حال إلى حال و هو معنى تصريفها ، و ذلك هو النفاق . إذ المنافق لا يلزم خلقاً واحداً بل تارة يكون صادقاً ، و تارة كاذباً ، وتارة و فيّاً ، و اُخرى غادراً ، و مع الظالمين ظالم ، و مع أهل العدل عادل ، ولذلك قال : و اجعلوا اللسان واحداً ، و هو شروع في الوصيّة بحال اللسان وعد له : أى لا يكونن أحد كم ذا لسانين وهو المنافق . ثمّ أمر بخزنه و استلزم النهى عن اُمور ، و هي الفضل من القول و وضعه في غير مواضعه و الغيبة و النميمة والسعاية والمسابة و القذف ونحوه ، و كلّها رذائل في طرف الإفراط من فضيلة العدل .

و قوله : فإنّ اللسان جموح بصاحبه .

تعليل لذلك النهى ، و إشارة إلى خروجه بصاحبه عن فضيلة العدل إلى الرذائل الّتي هي موارد الهلكة في الآخرة و الدنيا كما أنّ الفرس الجموح مخرج بصاحبه إلى الهلاك ، و لفظ الجموح مستعار له بهذا الاعتبار . ثمّ أقسم أنّه لامتّقى ينفعه تقواه إلّا بخزن لسانه ، وهو حقّ لأنّ التقوى النافع هو تقوى التامّ ، وخزن اللسان و كفّه عن الرذائل المذكورة جزء عظيم من التقوى لا يتمّ بدونه فهي إذن لا ينفع إلّا به . ثمّ نبّه على ما ينبغي عند إرادة القول من التثبّت و التأمّل مايراد النطق به وعلى ما لاينبغى من القول بغير مراجعة الفكر ، وقرن الأوّل بالإيمان ترغيباً فيه ، و الثانى بالنفاق تنفيراً عنه .

و قوله : لأنّ المؤمن . إلى قوله : وماذا عليه .

بيان لمعنى كون اللسان وراء و أماماً ، و تلخيص هذا البيان أنّ الوراء في الموضعين كناية عن التبعيّة لأنّ لسان المؤمن تابع لقلبه فلا ينطق إلّا بعد تقديم الفكر فيما ينبغي أن يقوله ، و قلب المنافق و ذكره متأخّر عن نطقه فكان لفظ الوراء استعارة من المعنى المحسوس للمعقول فأمّا الخبر النبوىّ المذكور فهو استشهاد على أنّ الإيمان لا يتمّ إلّا باستقامة اللسان على الحقّ وخزنه عن الرذائل

الّتي عدّدناها وذلك عين ما ادّعاه في قوله : إنّ التقوى لا ينفع العبد حتّى يخزن لسانه . فأمّا برهان الخبر فهو أنّ استقامة القلب عبارة عن التصديق بالله و رسوله و اعتقاد حقيّة ما وردت به الشريعة من المأمورات والمنهيّات ، وذلك عين الإيمان و حقيقته فإذن لا يستقيم الإيمان حتّى يستقيم القلب ، وأمّا أنّه لا يستقيم القلب حتّى يستقيم اللسان فلأنّ استقامة اللسان على الإقرار بالشهادتين ولوازمها وعلى الإمساك عمّا لاينبغي من الاُمور المعدودة من لوازم استقامة القلب لحكمنا على غير المقرّ بتلك الاُمور والقائل بها بعدم الإيمان الكامل ، ولا يستقيم أمر من دون لازمه.

و قوله : فمن استطاع . إلى قوله : فليفعل .

أمر بالاجتهاد في لقاء الله تعالى على أحوال ، و هي نقاء الراحة من دماء المسلمين وأراد السلامة من قتل النفس ، وأموالهم و أراد السلامة من الظلم ، و أن يكون الإنسان سليم اللسان من أعراضهم و أراد الكفّ عن الغيبة و السبّ ، وشرط ذلك بالاستطاعة لعسره وشدّته وإن كان واجب الترك على كلّ حال ، وأشدّها الكفّ عن الغيبة فإنّه يكاد أن لايستطاع ، وإلى نحو هذا إشارة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه . فسلامتهم من يده سلامة دمائهم وأموالهم ، و سلامتهم من لسانه سلامة أعراضهم ، و أعمّ من ذلك قال بعض الحكماء : من علم أنّ لسانه جارحة من جوارحه أقلّ من إعمالها و استقبح إدامة تحريكها كما يستقبح أن يحرّك رأسه أو منكبه دائماً .

و قوله : واعلموا . إلى قوله : حرّم عليكم .

قال بعض الشارحين : هو إشارة إلى أنّ ما ثبت من طريق النصّ أو العادة الّتي شهد بها النصّ في زمان الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم لا يجوز أن ينقض بالقياس و الاجتهاد بل كلّ ما ورد به النصّ فيتبع فيه مورد النصّ فما كان حلالاً بمقتضى النصّ و عمومه العام الماضى فهو في هذا العام حلال ، و كذا في الحرام ، وعموم هذا الكلام يقتضى عدم جواز نسخ النصّ و تخصيصه بالقياس و هو مذهب الإماميّة لاعتقادهم بطلان القول بالقياس المتعارف ، ومذهب جماعة من الاُصوليّين مع اعترافهم بصحّة

القياس ، و من يجوّز تخصيصه به يحمل هذا الكلام على عدم قبول القياس في نسخ النصّ من كتاب أو سنّة ، وما أحدثه الناس إشارة إلى القياس .

وقوله : ولكنّ الحلال ما أحلّ الله والحرام ما حرّم الله ،

تأكيد لاتّباع النصّ وما كان عليه الصحابة من الدين ممّا هو معلوم بينهم دون ما أحدث من الآراء والمذاهب .

و قوله : وقد جرّبتم الاُمور و ضرّستموها . إلى قوله : الأمر الواضح .

إشارة إلى وجوه العلم ومأخذه ، و وجه اتّصاله بما قبله أنّهم إذا كانوا قد أحكموا الاُمور تجربة ، و وعّظوا بمن كان قبلهم ، و ضربت لهم الأمثال ، ودعوا إلى الأمر الواضح و هو الدين و طريقه فلابدّ أن تكون نفوسهم قد استعدّت بذلك لعلم الأحكام الشرعيّة و مقاصدها من الكتاب والسنّة وعادات الرسول والصحابة ، ولا يخفى عليهم ما ابتدع بعدها ، وأنّ كلّ بدعة حرام فضلاً أن ترفع حكم نصّ أو سنّة سبق العلم بها ، ولا يصمّ عن هذه المواعظ و الأمثال و الدعوة إلى الدين إلّا أصمّ . أى من هو شديد الصمم كما يقال : ما يجهل بهذا الأمر إلّا جاهل : أى أشدّ الناس جهلاً ، و كذلك لا يعمى عنه : أى لا يعمى عنه بصيرة إلّا بصيرة اشتدّ عماها .

وقوله : من لم ينفعه . إلى قوله : من أمامه .

كلام حقّ ، و ذلك أنّ الإنسان في مبدء الفطرة خالٍ عن العلوم ، و إنّما خلقت له هذه الآلات البدنيّة ليتصفّح بها صور المحسوسات و معانيها و يتنبّه لمشاركات بينها ومباينات فيحصل له التجربة و سائر العلوم الضروريّة و المكتسبة فمن لم ينتفع بالبلاء : أى بامتحان الأمور و تجاريبها ، و هو إشارة إلى اعتبار الاُمور والتفكّر فيها و الابتلاء بها كالوقوع في المكاره و معاناة الأعمال ولم يستفد منها علماً فظاهر أنّه لا ينفعه العظة لأنّ العظة فرع تصفّح الأمور و اعتبار آيات الله منها ، ومحال أن يحصل فرع من دون أصله و حينئذ يأتيه النقص في كمال نفسه و وجوه مصالحه ، ويحتمل أن لا يريد بالعظة الاتّعاظ بل الموعظة ، و ظاهر أنّ الموعظة أيضاً لاينفعه لأنّ البلاء بالمكاره و الوقائع النازلة أقوى فعلاً في النفس و

أكثر تأثيراً فإذا لم ينتفع بها ولم يستفد منها علماً فبالأولى أن لا ينتفع بالموعظة .

وقوله : من أمامه .

لأنّ الكمالات الّتي يتوجّه إليها بوجه عقله تفوته لنقصان تجربته و وقوف عقله عنها فأشبه فوتها له مع طلبه لها إتيان النقصان له من أمامه .

و قوله : حتّى يعرف ما أنكر وينكر ما عرف .

إشارة إلى غاية نقصانه ، وهي الاختلاط والحكم على غير بصيرة فتارة يتخيّل فيما أنكره وجهله أنّه عارف بحقيقته ، وتارة ينكر ما كان يعرفه و يحكم بصحّته لخيال يطرء عليه . ثمّ قسّم لهم الناس إلى قسمين : فقسم متّبع شرعة : أى طريقة ومنهاجاً وهو منهاج الدين ، وقسم مبتدع بدعة بغير برهان سنّة من الله يعتمد عليه ، ولا ضياء حجّة يقوده في ظلمات الجهل ليلحقوا بأفضل القسمين .

و قوله : إنّ الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن .

رجوع إلى ممادح القرآن ، واستعار له ألفاظاً : الأوّل : لفظ الحبل ، ورشّح بالمتين ، وقد عرفت وجه هذا الاستعارة مراراً . الثانى : و كذلك سببه الأمين . الثالث : لفظ الربيع ، و وجهها أنّ القلوب يحيى به كما يحيى الأنعام بالربيع . الرابع : لفظ الينابيع ، و وجهها أنّ العلوم عند تدبّره و التفهم عنه تغيض عنه وينتفع بها كما يغيض الماء عن الينابيع . الخامس : لفظ الجلاء ، و وجهها أنّ الفهم عنه يكشف عن القلوب صداء الجهل كما يجلو الصيقل المرآة .

فإن قلت : فلم قال : وليس للقلب جلاء غيره مع أنّ سائر العلوم جلاء له ؟.

فالجواب من وجهين :

أحدهما : أنّ العلوم الجالية للقلب هي المعدّة لسلوك سبيل الله والوصول إلى الغاية من الكمال النفسانىّ كالعلوم الإلهيّة ، و علم الأخلاق و أحوال المعاد ، و لا علم منها إلّا و في القرآن أصله و مادّته و هو مقتبس من القرآن .

الثاني : أنّ هذا الكلام صدر عنه عليه السلام ولم يكن في ذلك الزمان علم مدوّن ولا استفادة للمسلمين إلّا من القرآن الكريم فلم يكن إذن جلاء للقلب غيره .

و قوله : مع أنّه قد ذهب المتذكّرون : أى المتدبّرون لمقاصد القرآن ، و بقى الناسون له و المتناسون المتعمّدون للتشاغل و النسيان للجواذب إلى الله ، و هو في معنى التوبيخ لهم . ثمّ أمرهم باعانة من يعمل الخير على فعله ، و وجوه الاعانة كثيرة . ثمّ بالاعراض عن الشرّ وإنكاره عند رؤيته و استشهد على وجوب امتثال أمره بالخبر النبوىّ ، و قد نبّه الخبر على وجوب عمل الخير و الانتهاء عن الشرّ باستلزام ذلك لكون فاعله جواداً قاصداً ، و استعار وصفى الجواد القاصد ، ووجه المشابهة أنّ العامل للخير المنتهى عن الشرّ مستقيم على طريق الله فلاتعريج في طريقه ولا اعوجاج فيكون سيره في سلوك سبيل الله أسرع سير كالجواد من الخيل المستقيم على الطريق . ثمّ قسّم عليه السلام الظلم إلى ثلاثة أقسام :

الأوّل : الظلم الّذي لا يغفر أصلاً . و هو ظلم النفس بالشرك بالله ، و برهانه النصّ و المعقول : أمّا النصّ فقوله تعالى « إنّ الله لا يغفر أن يشرك به » و أمّا المعقول فلأنّ المغفرة عبارة إمّا عن محو آثار الجرائم عن ألواح النفوس أو عمّا يلزم ذلك من ستر الله على النفوس أن تحترق بنار جهنّم ، والهيئات البدنيّة الّتي حجبت نفوس المشركين عن معرفة الله هيئات متمكّنة من تلك النفوس قد صارت ملكات لا يمكن زوالها مع عدم مسكتهم بالمعارف الالهيّة فهم في العذاب ما كثون ، و في سلاسل تلك الهيئات وأغلالها مكبّلون فاذن لا يتحقّق المغفرة في حقّهم لعدم مخلصهم منها وجاذبهم عنها وهي عصمة المعرفة .

الثانى : ظلم لا يترك : أى لابدّ من أخذ فاعله بالعقوبة والقصاص به ، و هو ظلم العباد بعضهم لبعض ، و إليه الاشارة بقوله : يوم يقتصّ للجماء من القرناء ، و هذا الظالم إن كانت له مسكة ببعض عصم النجاة من المعارف الالهيّة وجب خلاصه من العذاب بعد حين لكن يتفاوت مكثه بحسب تفاوت شدّة تمكّن تلك الهيئات الرديئة من نفسه وضعفها ، و إليه أشار الخبر النبوىّ يخرجون من النار بعد ما يصيرون حمماً وفحماً .

والثالث : الظلم الّذي يغفر ولا يطلب وهو ظلم العبد نفسه عند ارتكابه بعض

صغائر الزلّات، و هى الّتي لا تكسب النفس هيئة رديئة باقية بل حالة يسرع زوالها، وإليه الإشارة بقوله تعالى «و إنّ ربّك لذو مغفره للناس على ظلمهم»[1] أى في حال كونهم ظالمين. ثمّ أخذ في التحذير من الظلم بذكر شدّة القصاص في الآخرة، و صدق أنّه ليس جرحاً بمدية ولا ضرباً بسوط كقصاص الدنيا، ولكنّه مايستصغر ذلك معه من العقوبات بالنار المشهورة أوصافها، و روى عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه كان جالساً في أصحابه فسمع هدّة. فقال: هذا حجر أرسله الله تعالى من شفير جهنّم فهو يهوى فيها منذ سبعين خريفاً حتّى بلغ الآن قعرها فهذا بعض أوصافها المحسوسة.

و اعلم أنّ لهذا الخبر تماماً يكشف سرّه، و هو أنّ الراوى قال: فسمعنا بعد ذلك صيحة و صراخاً فقلنا: ما هذا؟ فقالوا: فلان المنافق مات و كان عمره يومئذ سبعين سنة. قال بعض من تلطّف: إنّ المراد بجهنّم المشار إليها هي الدنيا ومتاعها. و بالحجر هو ذلك المنافق استعارة، و وجه المشابهة أنّ ذلك المنافق لم ينتفع بوجوده مدّة حياته ولم تكسب نفسه خيراً فأشبه الحجر في ذلك، وإرسال الله تعالى له هو إفاضته عليه ما استعدّ له من اتّباع هواه فيها و الانهماك في شهوتها و التيه عن سبيله المشار إليه بقوله «يضلّ من يشاء» و شفيرها هو أوّلها بالنسبة إليه و ذلك حين استعداده للانهماك فيها، وأوّل الأمور القائدة له في طرق الضلال من متاعها ولذّاتها، وهويّه فيها سبعين خريفاً هو انهماكه فيها مدّة عمره، وبلوغه قعرها هو وصوله بموته إلى غاية العذاب بسبب ما اكتسب منها من ملكات السوء كما أومأنا إليه غير مرّة. ثمّ نهى عن التلوّن في دين الله، و كنّى به عن منافقة بعضهم لبعض فإنّ ذلك يستلزم الفرقة و لذلك. قال: فإنّ جماعة فيما تكرهون من الحقّ خير من فرقة فيما تحبّون من الباطل: أى فإنّ الاجتماع على الحقّ المكروه إليكم كالحرب مثلاً خير لكم من الافتراق في الباطل المحبوب عندكم كمتاع الدنيا. ثمّ تمّم النهى عن الفرقة و قال: فإنّ الله لم يعط أحداً بفرقة خيراً لا من الماضين ولا من الباقين، ولمّا كان الخير في الاجتماع و الألفة والمحبّة

(١) ١٣ - ٧.

حتّى يصير الناس كرجل واحد و يتمّ نظام العالم بذلك كان في الفرقة أضداد ذلك وكذلك ما روى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، و قدسبق بيان فضيلة الاجتماع . ثمّ أعاد النهى عن الغيبة للناس بذكر معايبهم و نبّه من عساه أن يستحيى من نفسه بأنّ لكلّ عيباً ينبغى أن يشتغل به، و طوبى فعلى من الطيب ، والواو منقلبه عن الياء ، و قيل : هى اسم شجرة في الجنّة ، وعلى التقديرين مبتداء . ثمّ نبّه على فضل العزلة و لزوم البيت للاشتغال بطاعة الله و البكاء على الخطيئة و الندم عليها .

و قوله : وكان من نفسه في شغل . إلى آخر ما ذكره ثمرة العزلة .

و اعلم أنّ الناس قد اختلفوا في أنّ العزلة أفضل أم المخالطة ؟ ففضّل جماعة من مشاهير الصوفيّة و العارفين العزلة منهم إبراهيم بن أدهم و سفيان الثورى ، وداود الطائى والفضيل بن عياض وسليمان الخواص وبشر الحافي ، وفضّل الآخرين المخالطة و منهم الشعبى و ابن أبى ليلى و هشام بن عروة و ابن شبرمة و ابن عيينة و ابن المبارك ، واحتجّ الأوّلون بالنقل و العقل: أمّا النقل فقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الله بن عامر الجهنى لمّاسأله عن طريق النجاة . فقال : ليسعك بيتك وأمسك عليك لسانك و ابك على خطيئتك . وقيل له صلى الله عليه وآله وسلم : أىّ الناس أفضل ؟. فقال : رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربّه ويدع الناس من شرّه ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: يحبّ التقى النقى الخفىّ ، و أمّا العقل فهو أنّ في العزلة فوائد مطلوبة لله لا توجد في المخالطة فكانت أشرف منها الفراغ لعبادة الله و الذكر له والاستيناس بمناجاته والاستكشاف لأسراره في أُمور الدنيا و الآخرة من ملكوت السماوات و الأرض ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتعبّد بجبل حراء ويعتزل به حتّى آتته النبوّة ، واحتجّ الآخرون بالقرآن والسنّة : أمّا القرآن فقوله تعالى «فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً»[1] وقوله « و لا تكونوا كالّذين تفرّقوا واختلفوا »[2] و معلوم أنّ العزلة تنفى تألّف القلوب و توجب تفرّقها ، وأمّا السنّة فقوله صلى الله عليه وآله وسلم : من فارق الجماعة قيد شبر

(١) ٣ - ٩٨ (٢) ٣ - ٩٩ .

فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه . و ما روى أنّ رجلاً أتى جبلاً يعبد الله فيه فجاء به أهله إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فنهاه عن ذلك . و قال له : إنّ صبر المسلم في بعض مواطن الجهاد يوماً واحداً خير له من عبادة أربعين سنة ، و أقول : إنّ كلا الاحتجاجين صحيح لكنّه ليس أفضليّة العزلة مطلقا ولا أفضليّة المخالطة مطلقا بل كلّ في حقّ بعض الناس بحسب مصلحته ، وفي بعض الأوقات بحسب ما يشتمل عليه من المصلحة .

و اعلم أنّه من أراد أن يعرف مقاصد الأنبياء عليهم السلام في أوامرهم و تدبيراتهم فينبغي أن يتعرّف طرفاً من قوانين الأطبّاء ، و مقاصدهم من العبارات المطلقة لهم فإنّه كما أنّ الأطبّاء هم المعالجون للأبدان بأنواع الأدوية و العلاجات لغاية بقائها على صلاحها أورجوعها إلى العافية من الأمراض البدنيّة كذلك الأنبياء عليهم السلام ومن يقوم مقامهم فإنّهم أطبّاء النفوس والمبعوثون لعلاجها من الأمراض النفسانيّة كالجهل و سائر رذائل الأخلاق بأنواع الكلام من الآداب و المواعظ و النواهى و الضرب والقتل ، و كما أنّ الطبيب قد يقول الدواء الفلانى نافع من المرض الفلانى ، و لا يعنى به في كلّ الأمزجة بل في بعضها كذلك الأنبياء و الأولياء إذا أطلقوا القول في شيء أنّه نافع كالعزلة مثلاً فإنّهم لا يريدون أنّها نافعة لكلّ إنسان ، و كما أنّ الطبيب قد يصف لبعض المرضى دواء ويرى شفائه فيه و يرى أنّ ذلك الدواء بعينه لمريض آخر كالسمّ القاتل ويعالجه بغيره كذلك الأنبياء عليهم السلام قد يرون أنّ بعض الأمور دواء لبعض النفوس فيقتصرون عليه ، و قد يرون أنّ بعض الأوامر علاج لبعض النفوس كالأمر بالعزلة و الحثّ عليها لبعض الناس ، وقد يرون أنّ ذلك العلاج بعينه مضرّ لغير تلك النفس فيأمرونها بضدّ ذلك كالأمر بالمخالطة و المعاشرة ، وأكثر ما يختارون العزلة لمن بلغ رتبة من الكمال في قوّتيه النظريّة و العمليّة ، و استغنى عن مخالطة كثير من الناس لأنّ أكثر الكمالات الإنسانيّة من العلوم و الأخلاق إنّما تحصل بالمخالطة خصوصاً إذا كان ذلك الإنسان أعنى المأمور بالعزلة خالياً عن عائلة يحتاج أن يتكسب لهم ، و أكثر ما يختارون المخالطة

و الاجتماع لتحصّل الألفة و الاتّحاد بالمحبّة ، و للاتّحاد غايتان كلّيّتان : إحديهما: حفظ أصل الدين و تقويته بالجهاد ، والثانية : تحصيل الكمالات الّتي بها نظام أمر الدارين لأنّ أكثر العلوم والأخلاق يستفاد من العشرة و المخالطة كما بيّنّاه . وبالله التوفيق .

١٧٦ — وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

فى معنى الحكمين

فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى أَنِ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجَعْجِعَا عِنْدَ الْقُرْآنِ ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ ، وَقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ ، فَتَاهَا عَنْهُ ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا ، وَالِاعْوِجَاجُ رَأْيَهُمَا ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِى الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا ، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا ! وَالثِّقَةُ فِى أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا ، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ ، وَأَتَيَا بِمَا لَا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ .

أقول : هذا الفصل من خطبة خطبها بعد ما بلغه أمر الحكمين . والاجماع : تصميم العزم . و يجعجعا : يحبسا نفسهما على القرآن ، و الخطاب لمن أنكر عليه رضاه بالتحكيم بعد الرضا به ، وقد حكى فيه إجماع رأى جماعتهم على اختيار الرجلين و هما أبو موسى الأشعرى و عمرو بن العاص و أخذه عليهما أن يحبسا نفسهما على العمل بالقرآن ولا يجاوزاه ، و تكون ألسنتهما و قلوبهما معه ، وأطلق لفظ القلوب على الميول الاراديّة مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب كقوله تعالى « فقد صغت قلوبكما » و ذلك هو شرط رضاه عليه السلام بالتحكيم . ثمّ حكى

خروجهما عمّا اشترط عليهما وتيههما عن الكتاب وتركهما للحقّ مع إبصارهما له، و خروجهما عن فضيلة العدل بحسب الهوى إلى رذيلة الجور و الاعوجاج عن طريقة الحقّ.

و قوله: و قد سبق استثناؤنا.

إعادة لذكر سبق الشرط في الحكم بالعدل، و سوء رأيهما منصوب لأنّه مفعول سبق.

و قوله: و الثقة في أيدينا لأنفسنا.

أي إنّا على برهان وثقة من أمرنا، و ليس بلازم لنا حكمهما لأنّهما خالفا الشرط وآتيا بما لا يعرف من الحكم المعكوس، و قد حكينا فيما سبق طرفاً من حال التحكيم و خداع عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري. وبالله التوفيق.

١٧٧ - و من خطبة له عليه السلام

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ، وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا، وَلَا مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ الْأَحْدَاقِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ، وَصَفَتْ دِخْلَتُهُ، وَخَلَصَ يَقِينُهُ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ، وَالْمُعْتَامُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ

وَالْمُخْتَصِّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ، وَالْمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالاَتِهِ، وَالْمُوَضِّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى، وَالْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ الْعَمَى.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَهَا، وَالْمُخْلِدَ إِلَيْهَا، وَلاَ تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا. وَايْمُ اللهِ مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلاَّ بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا؛ لأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ. وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ — حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ — فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ؛ لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ. وَإِنِّي لأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ، وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيهَا مَيْلَةً كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ وَمَا عَلَيَّ إِلاَّ الْجُهْدُ! وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ، عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ.

أقول: هذه الخطبة خطب بها بعد مقتل عثمان في أوّل خلافته.

و الدخلة بالكسر و الضمّ: باطن الشيء. و المعتام: المختار. و عقائل الشيء: نفايسه. و أشراط الهدى: علاماته. والغربيب: الأسود. و المخلد إليها: المسلّم إليها اُموره. ولا تنفس: لا تضنّ ولاتبخل. و غضّ النعمة: طريفها.

و صدّر الخطبة بالإشارة إلى اعتبارات توحيديّة:

الأوّل: أنّه لا يشغله شأن عن شأن، و ذلك لأنّ الشغل عن الشيء إمّا لقصور القدرة أوالعلم، و قدرته تعالى و علمه المحيطان بكلّ مقدور و معلوم فإذن لا يشغله مقدور عن مقدور ولا معلوم عن معلوم، و تقرير هاتين المسئلتين في الكتب

الكلاميّة والحكميّة .

الثاني : لا يغيّره زمان ، وإذ ثبت أنّه تعالى خالق الزمان ، ولازمان يلحقه . فلا تغيّر يلحقه ، ولأنّه واجب الوجود ، ولا شيء من المتغيّر في ذاته أوصفاته بواجب الوجود. فلا شيء منه يلحقه التغيّر .

الثالث : ولا يحويه مكان لبراءته عن الجسميّة و لواحقها ، وكلّما كان كذلك فهو بريء عن المكان ولواحقه فينتج أنّه بريء من المكان ولواحقه .

الرابع : ولا يصفه لسان : أي لايعبّر اللسان عن حقيقة وصفه ، و بيان ما هو ذلك أنّه تعالى منزّه عن ركوب [وجوه خ] التراكيب فمحال أن يقع العقول على حقيقة وصفه فكيف باللسان الّذي هو المعبّر عنها .

الخامس : ولا يعزب عنه عدد قطر الماء . إلى قوله : الأحداق ، و هو إشارة إلى إحاطة علمه المقدّس بكلّيّات الأمور وجزئيّاتها ، وهذه مسئلة عظيمة حارت العقول ، و قد أشرنا إليها في المختصر الموسوم بالقواعد الإلهيّة . ثمّ عقّب هذا التنزية بالشهادة بكلمة التوحيد ، و ذكر لله تعالى أحوالاً شهد بوحدانيّته عليها :

الأوّل : كونه غير معدول به : أي لاعديل له ولامثل .

الثاني : ولامشكوك فيه : أي في وجوده فإنّ ذلك ينا في الشهادة بوحدانيّته .

الثالث : و لا مكفور دينه لأنّ الجحود لدينه يستلزم النقصان في معرفته فكان الاعتراف به كمالاً لمعرفته وللشهادة بوحدانيّته .

الرابع : ولامجحود تكوينه : أي إيجاده للموجودات وكونه ربّاً لها . ثمّ عقّب وصف المشهود له حال تلك الشهادة بأوصاف الشاهد بها باعتبار شهادته : وهي كونه صادق النيّة في تلك الشهادة : أي باعتقاد جازم ، و صافي الدخلة : أي نقيّ الباطن من الرياء و النفاق ، و خالص اليقين بوجود المشهود أو كمال وحدانيّته من الشكوك و الشبهات فيه ، و ثقيل الموازين بكمال تلك الشهادة و القيام بحقوقها من سائر الأعمال الصالحات ، و أردفها باختها و ذكر للمشهود بحقّية رسالته أوصافاً :

أحدها : كونه مجتبى من الخلايق و مصطفى منهم ، و ذلك يعود إلى إكرامه باعداد نفسه لقبول أنوار النبوّة .

الثاني : و المعتام لشرح حقايقه : أي لإيضاح ما خفى من الحقائق الإلهيّة والشرعيّة الّتى بيّنها .

الثالث : المختصّ بنفايس كرامته ، و هى الكمالات النفسانيّة من العلوم و مكارم الأخلاق الّتي اقتدر معها على تكميل الناقصين .

الرابع : والمصطفى لكرائم رسالاته : أى لرسالاته الكريمة . وتعديدها باعتبار تعداد نزول الأوامر عليه فإنّ كلّ أمر أمر بتبليغه إلى الخلق رسالة كريمة .

الخامس : الموضّحة به أعلام الهدى ، وهى قوانين الشريعة ودلالات الكتاب و السنّة .

السادس : و المجلوّ به غربيب العمى ، و استعار لفظ الغربيب لشدّة ظلمة الجهل ، و لفظ الجلاء لزوال تلك الظلم بأنوار النبوّة . ثمّ أيّه بالناس منبّهاً لهم على مقابح الدنيا ومذامّها . منها : تغرّ المؤمّل لها والراكن إليها . وذلك أنّ المؤمّل لبعض مطالبها لا يزال يتجدّد له أمارات خياليّة على مطالب و هميّة و أنّها ممكنة التحصيل نافعة فتوجب له مدّ الأمل ، وقد يخترم دون بلوغها ، و قد ينكشف بطلان تلك الأمارات بعد العناء الطويل ، ومنها : أنّها لا تنفس على من نافس فيها وأحبّها بل تسمح به للمهالك و ترميه بغرايب من النوايب ، و منها : أنّها تغلب على من غلب عليها : أى من ملكها و أخذها بالغلبة فعن قريب تقهره و تهلكه ، و الأوصاف المذكورة الّتى من شأنها أن تكون للعدوّ القوىّ الداهى و هى كونها تغرّ المؤمّل لها و تغلب مغالبها ولا تبقى على محبّها مستعارة ، و وجه المشابهة استلزام الكون فيها و الاغترار بها و محبّتها و التملّك لها الهلاك فيها و في الآخرة كاستلزام الغرور بالعدوّ الداهى الّذي لا يحبّ أحداً و الركون إليه الهلاك . ثمّ أخذ عليه السلام في التنبيه على وجوب شكر المنعم و استدراكها بالفزع إلى الله ، وأقسم أنّ زوالها عنهم ليس إلّا بذنوب اجترحوها ، و ذلك إشارة إلى أنّ الذنوب تعدّ

ازوال النعم وحلول النقم لأنّهم لو استحقّوا إفاضة النعم مع الذنوب لكان منعهم إيّاها منعاً للمستحقّ المستعدّ، و ذلك عين الظلم و هو من الجود الإلهي محال كما قال تعالى «و ما ربّك بظلّام للعبيد»[(١)] و إلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى «إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم»[(٢)] أى يستعدّوا للتغيّر بالمعاصي.

و قوله: ولو أنّ الناس. إلى قوله: كلّ فاسد.

إشارة إلى أنّ الفزع إلى الله بصدق النيّة و وله القلب و تحيّره و ذهوله عن كلّ شيء سوى الله يعدّ الإعداد التامّ لإفاضة المطالب سواء كانت عود نعمة أو استحداثها أو زوال نقمة أو استنزالها على عدوّ. و ردّ الشارد: أى من النعم، وإصلاح الفاسد: أى من سائر الأحوال.

و قوله: وإنّي لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة.

كنّى بالفترة عن أمر الجاهليّة كناية بالمجاز إطلاقاً لاسم الظرف على المظروف: أى أخشى أن يكون أحوالهم [لكم خ] أحوال الجاهليّة في التعصّبات الباطلة بحسب الأهواء المختلفة.

و قوله: وقد كانت أُمور. إلى قوله: محمودين.

قالت الإماميّة: تلك الأُمور الّتي مالوا فيها هى تقديمهم عليه من سبق من الأئمّة، و قال غيرهم: هى حركاتهم وميلهم عليه في تقديم عثمان وقت الشورى، و اختيارهم له و ماجرى فيها من الأقوال والأفعال.

و قوله: ولئن ردّ عليكم أمركم.

أى صلاح أحوالكم واستقامة سيرتكم الّتي كنتم عليها في زمن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم إنّكم لسعداء عند الله وفي الدنيا. وما عليّ إلّا الجهد: أى في عود ذلك الأمر عليكم.

و قوله: ولو أشاء أن أقول لقلت.

يفهم منه أنّه لو قال لكان مقتضى قوله نسبة من تقدّم عليه إلى الظلم له و

(١) ٤١ - ٤٦ (٢) ١٣ - ١٢.

تخطئهم في التقدّم عليه ، وذكر معائب يقتضى وجوب تأخّرهم في نظره . و تقدير الكلام : ولكنّي لا أقول فلم أكن مريداً للقول .

و قوله : عفا الله عمّا سلف .

إشارة إلى مسامحته لهم بما سبق منهم . إذ العادة جارية بأن يقول الإنسان مثل ذلك فيما تسامح به غيره من الذنوب ، و أحسن العبارات في ذلك لفظ القرآن الكريم فيقتبس في الكلام . وبالله التوفيق .

١٧٨ — وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

وقد ساله ذعلب اليماني فقال : هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عليه السلام : أفأعبد مالا أرى ؟ فقال : وكيف تراه ؟ فقال :

لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ ، وَلٰكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرُ مُلَامِسٍ ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرُ مُبَايِنٍ ، مُتَكَلِّمٌ لَا بِرَوِيَّةٍ ، مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ ، صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ ، لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ ، بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ . تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ ، وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ .

أقول : تعنو : تخضع . و تجب القلوب : تخفق .

و الفصل فصل شريف من التوحيد والتنزية .

فقوله : أفأعبد ما لا أرى ؟.

استفهام على سبيل الإنكار لعبادة ما لا يدرك ، وفيه إزراء على السائل .

و قوله : لاتدركه العيون . إلى آخره .

تنزية له عن الرؤية بحاسّة البصر و شرح لكيفيّة الرؤية الممكنة ، و لمّا

كان تعالى منزّهاً عن الجسميّة ولواحقها من الجهة و توجيه البصر إليه و إدراكه به و إنّما يرى ويدرك بحسب ما يمكن لبصيرة العقل لا جرم نزّهه عن تلك و أثبت له هذه . فقال : لاتدركه العيون . إلى قوله : بحقائق الايمان . و أراد بحقائق الايمان أركانه ، وهى التصديق بوجود الله و وحدانيّته و سائر صفاته و اعتبارات أسمائه الحسنى ، وعدّ من جملتها اعتبارات يدركه بها :

أحدها : كونه قريباً من الأشياء ، ولمّا كان المفهوم من القرب المطلق الملامسة والالتصاق و هما من عوارض الجسميّة نزّه قربه تعالى عنها . فقال : غير ملامس فأخرجت هذه القرينة ذلك اللفظ عن حقيقته إلى مجازه و هو اتّصاله بالأشياء و قربه منها بعلمه المحيط وقدرته التامّة .

الثاني : كونه بعيداً منها ، و لمّا كان البعد يستلزم المباينة و هي أيضاً من لواحق الجسميّة نزّهه عنها بقوله : غيرمباين. و قدسبق بيان ذلك مراراً فكان بعده عنها إشارة إلى مباينته بذاته الكاملة عن مشابهة شيء منها .

الثالث : و كذلك قوله : متكلّم بلارويّة. و كلامه يعود إلى علمه بصورالأوامر و النواهي و سائر أنواع الكلام عند قوم ، وإلى المعنى النفسانيّ عند الأشعرى ، وإلى خلقةالكلام في جسم النبيّ عند المعتزلة .

و قوله : بلا رويّة [لابرويّة خ].

تنزيه له عن كلام الخلق لكونه تابعاً للأفكار والتروّي .

الرابع : و كذلك مريد بلاهمّة تنزيه لإرادته عن مثليّة إرادتنا في سبق العزم والهمّة لها .

الخامس : صانع بلا جارحة . وهو تنزيه لصنعه عن صنع المخلوقين لكونه بالجارحة الّتي هي من لواحق الجسميّة .

السادس: و كذلك لطيف لا يوصف بالخفاء ، واللطيف يطلق و يراد به رقيق القوام ، و يراد به صغير الحجم المستلزمين للخفاء ، و عديم اللون من الأجسام ، و المحكم من الصنعة . و هو تعالى منزّه عن إطلاقه بأحد هذه المعاني لاستلزام

الجسميّة و الامكان فبقى إطلاقها عليه باعتبارين : أحدهما: تصرّفه في الذوات و الصفات تصرّفاً خفياً بفعل الأسباب المعدّة لها لإفاضة كمالاتها . و الثانى : جلالة ذاته و تنزيهها عن قبول الإدراك البصرى .

السابع : رحيم لا يوصف بالرّقة. تنزية لرحمته عن رحمة أحدنا الاستلزامها رقّة الطبع و الانفعال النفسانيّ، و قد سبق بيان كونه تعالى رحيماً

الثامن : كونه عظيماً تخضع الوجوه لعظمته . إذ هو الاله المطلق لكلّ موجود و ممكن فهو العظيم المطلق الّذي تفرّد باستحقاق ذلّ الكلّ وخضوعه له ، و وجيب القلوب و اضطرابها من هيبته عند ملاحظة كلّ منها ما يمكن له من تلك العظمة .

١٧٩ ــ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

فى ذم أصحابه

أَحْمَدُ اللهَ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ ، وَعَلَى ابْتِلائِى بِكُمْ أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِى إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ ، إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ ! وَإِنِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ . لَا أَبَا لِغَيْرِكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ ، وَالْجِهَادَ عَلَى حَقِّكُمْ : الْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ ! فَوَاللهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِى — وَلَيَأْتِيَنِّى — لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لِكُمْ قَالٍ ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ . لِلّهِ أَنْتُمْ ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ ، وَلَا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ ؟ أَوَ لَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ ، فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الْإِسْلَامِ ، وَبَقِيَّةُ النَّاسِ

إلَى الْمَعُونَةِ وَطَائِفَةً مِنَ الْعَطَاءِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنِّي ، وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ ؟ ! إنَّهُ لَا يَخْرُجُ إلَيْكُمْ مِنْ أمْرِي رِضًا فَتَرْضَوْنَهُ ، وَلَا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ ، وَإنَّ أحَبَّ مَا أنَا لَاقٍ إلَى الْمَوْتُ . قَدْ دَارَسْتُكُمُ الْكِتَابَ ، وَفَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أنْكَرْتُمْ ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ ، لَوْ كَانَ الْأعْمَى يَلْحَظُ ، أوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ ! ! وَأقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ وَمُؤَدِّبُهُمُ ابْنُ النَّابِغَةِ .

أقول : الخور : الضعف ، ويحتمل أن يكون من الخوار و هو الصياح . و اُجئتم : جذبتم ، ودعيتم . ونكص : رجع على عقبه . و القالى : المبغض . والطغام: أوغاد الناس . و التريكة : بيضة النعام . و مجـّه : ألقاه من فيه .

وقد حمدالله تعالى على ما قضى وقدّر ، و لمّا كان القضاء هو الحكم الإلهى بما يكون قال : على ما قضى من الأمر . لأنّ الأمر أعمّ أن يكون فعلاً ، و لمّا كان القدر هو تفصيل القضاء و إيجاد الأشياء على وفقه قال : و قدّر من فعل .

و قوله : و على ابتلائى بكم .

تخصيص لبعض ما قضى وقدّر .

و قوله : إذا أمرت . إلى قوله : نكصتم.

شرح لوجوه الابتلاء بهم ، و حاصلها يعود إلى مخالفتهم له في جميع ما يريده منهم ممّا ينتظم به حالهم .

و قوله : إلى مشاقّة .

أى إلى مشاقّة عدوّ.

و قوله : لا أبا لغير كم .

دعاء بالذلّ لغيرهم ، وفيه نوع تلطّف لهم ، و الأصل لا أب ، والألف مزيدة إمّا لاستثقال توالى أربع حركات فأشبعوا الفتحة فانقلبت ألفاً أو لأنّهم قصدوا

الإضافة وأتوا باللام للتأكيد . ثمّ أقسم إن جاء يومه : أى وقت موته ليفرقنّ بينهم وبينه و هو تهديد لهم بفراقه و انشعاب اُمورهم بعده .

وقوله : وليأتينّي .

حشوة لطيفة و أتى به مؤكّدة لأنّ إتيان الموت أمر محقّق ، و كأنّه ردّ بها ما يقتضيه إن من الشكّ فحسنت هذه الحشوة بعدها . ثمّ أخذ في التضجّر منهم ، وأخبرهم أنّه لصحبتهم مبغض ، وأنّه غير كثير بهم لأنّ الكثرة إنّما تراد للمنفعة فحيث لامنفعة فكأنّه لا كثرة .

وقوله : لله أنتم .

جملة اسميّة فيها معنى التعجّب من حالهم، ومثله لله أبوك ولله درّك . ثمّ أخذ في استفهامهم عمّا يدّعون أنّه موجود فيهم ، و هو الدين و الحميّة و الأنفة ، و من شأن الدين أن يجمع على إنكار المنكر ، والحميّة أن تشحذ و تثير القوّة الغضبيّة لمقاومة العدوّ استفهاماً على سبيل العيب والإنكارعليهم .

و قوله : أوليس عجباً . إلى قوله : وتختلفون عليّ .

استفهام لتقرير التعجّب من حاله معهم في تفرّقهم عنه حتّى عند الدعوة إلى العطاء ، و من حال معاوية مع قومه في اجتماعهم عليه من غير معونة و لاعطاء .

فإن قلت : المشهور أنّ معاوية إنّما استجلب من استجلب من العرب بالأموال و الرغايب فلم قال : فيتّبعونه علىغيرمعونة ولاعطاء ؟

قلت: إنّ معاوية لم يكن يعطى جنده على وجه المعونة و العطاء المتعارف بين الجند ، و إنّما كان يعطى رؤساء القبائل من اليمن و الشام الأموال الجليلة ليستعبدهم بها و اُولئك الرؤساء يدعونأتّباعهم من العرب فيطيعونهم . فصادق إذن أنّهم يتّبعونه على غير معونة و عطاء ، وأمّا هو عليه السلام فإنّه كان يقسّم بيوتالأموال بالسويّة بين الأتباع و الرؤساء على وجه الرزق و العطاء ، لا يرى لشريف على مشروف فضلاً ، وكان أكثر من يقعد عن نصرته من الرؤساء لما يجدونه في أنفسهم من أمر المساواة بينهم وبين الأتباع ، و إذا أحسّ الأتباع بذلك تخاذلوا أيضاً متابعة

لرؤسائهم . والمعونة هي ما يعطى للجند في وقت الحاجة لترميم أسلحتهم و إصلاح دوابّهم و هو خارج عن العطاء المفروض شهراً فشهراً ، و استعار لهم لفظ التريكة ، و وجه المشابهة أنّهم خلف الإسلام و بقيّة أهله كالبيضة الّتي تتركها النعامة .

و قوله : إنّه لايخرج . إلى قوله : فترضونه .

أي إنّه لايخرج إليكم من أمري أمر من شأنه أن يرضى به أو يسخط منه فترضونه و تجتمعون عليه بل لا بدّ لكم من التفرّق و المخالفة على الحالين . ثمّ نبّههم على سوء صنيعهم معه بأنّ أحبّ الأشياء إليه الموت . و قد لاحظ هذه الحال أبوالطيّب فقال :

كفى بك داءاً أن ترى الموت شافياً و حسب المنايا أن تكون أمانياً
تمنّيتها لمّا تمنّيت أن أرى صديقاً فأعيا أو عدوّاً مداجياً

وقوله: قد دارستكم الكتاب . إلى قوله : مججتم .

إشارة إلى وجوه الامتنان عليهم و هي مدارستهم الكتاب : أي تعليمه ، و مفاتحتهم الحجاج : أي مماراتهم وتعريفهم وجوه الاحتجاج ، وتعريفهم ما أنكروه : أي الأمور المجهولة لهم ، و تسويغهم ما مجّوه . و استعار وصف التسويغ إمّا لإعطائه لهم العطيّات والأرزاق الّتي كانوا يحرمونها من يد غيره لو كان كمعاوية ، و إمّا لإدخاله العلوم في أفواه أذهانهم ، و كذلك لفظ المجّ إمّا لحرمانهم من يد غيره أو لعدم العلوم عن أذهانهم و نبوّ أفهامهم عنها فكأنّهم ألقوها لعدم صلوحها للإساغة ، ووجه الاستعارتين ظاهر .

و قوله : لو كان الأعمى . إلى قوله : يستيقظ .

إشارة إلى أنّهم جهّال لا يلحظون بأعين بصائرهم ما أفادهم من العلوم ، و غافلون لايستيقظون من سنة غفلتهم بما أيقظهم به من المواعظ أو غيرها ، ولفظ الأعمى والنائم مستعاران ، والقوم في قوله : وأقرب بقوم . هم أهل الشام . وهو تعجّب من شدّة قربهم من الجهل بالله . إذ كان قائدهم في الطريق معاويه ومؤدّبهم ابن النابغة : أي عمرو بن العاص و هو رئيسهم رئيس المنافقين و أهل الغدر و الخداع ، و إذا كان

الرئيس القائد والمؤدّب في تلك الطريق من الجهل والفجور بحال الرجلين المشار إليهما فما أقرب أتباعهما من البعد عن الله والجهل به . وأقرب : صيغة التعجّب . و قائدهم معاوية : جملة اسميّة محلّها الجرّ صفة لقوم . وفصّل بين الموصوف والصفة بالجار والمجرور كما في قوله تعالى « و ممّن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق »[1] فمحلّ مردوا الرفع صفة المنافقون ، و فصّل بينهما بقوله : و من أهل المدينة ، و الغرض من ذكرهم و وصفهم بما وصف التنفير عنهم .

١٨٠ — ومن كلام له عليه السلام

وقد أرسل رجلا من أصحابه يعلم له علم أحوال قوم من جند الكوفة قد هموا باللحاق بالخوارج ، وكانوا على خوف منه عليه السلام ، فلما عاد إليه الرجل قال له : أمنوا فقطنوا أم جبنوا فظعنوا ؟ ؟ فقال الرجل : بل ظعنوا يا أمير المؤمنين . فقال :

بُعْداً لَهُمْ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ، أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ الْأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ ، وَصُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ ! لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدِ اسْتَفَلَّهُمْ ، وَهُوَ غَداً مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ ، وَمُتَخَلٍّ عَنْهُمْ ، فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى ، وَارْتِكَاسِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى ، وَصَدِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَجِمَاحِهِمْ فِي التِّيهِ .

أقول : قطنوا : أقاموا . وبعدت بالكسر : هلكت . وأشرعت الرمح : سدّدته و صوّبته نحو من تريد ضربه. و استفلّهم : أي طلب منهم التفرّق و الهزيمة وزيّنها لهم . و الفلّ : التفريق و الانهزام . والارتكاس : الرجوع في الشيء مقلوباً .

(١) ٩ - ١٠٢ .

والفصل مشتمل على السؤال عن ظعنهم وإقامتهم وعلّتهما وهما الأمن والجبن . ثمّ على الدعاء عليهم بالهلاك . وانتصب بعداً على المصدر . ثمّ على ما لو فعل لكان سبباً لندمهم على ما فعلوا و هو الهجوم عليهم بالقتل و الإذلال على ما كان منهم من اللحوق بأولياء الشيطان . ثمّ على علّة لحوقهم بهم وهى استفلال الشيطان لهم وتفريقه لجماعتهم ، وروى استفزّهم : أى استخفّهم ، و روى استقبلهم : أى تقبّلهم و رضى عنهم . وهى أقوى القرينة .

قوله : و هو غداً متبرّ ىء منهم و متخلّ عنهم .

أى تارك لهم فإنّ التبرى في مقابلة الاستقبال وذلك كقوله تعالى « وإذزيّن لهم الشيطان أعمالهم » إلى قوله « إنّى برى‌ء منكم » (١).

و قوله: فحسبهم بخروجهم من الهدى.

أى يكفيهم ذلك عذاباً وشرّاً، و الباء في بخروجهم زائدة كهي في قوله تعالى « و كفى بالله شهيداً » ، وارتكاسهم في الضلال و العمى رجوعهم إلى الضلال القديم و عمى الجهل الّذي كانوا عليه بعد خروجهم منه بهدايته ، و صدّهم عن الحقّ بالخروج عن طاعته و جماحهم في تيه الجهل و الهوى بعد الاستقرار في مدينة العلم و العقل ، ولفظ الجماح مستعار لخروجهم عن فضيلة العدل إلى رذيلة الإفراط منها كما سبق و الغلوّ في طلب الحقّ إلى حدّ الجور عن الصراط المستقيم . و بالله التوفيق .

١٨١ - ومن خطبة له عليه السلام

روى عن نوف البكالى قال : خطبنا هذه الخطبة بالكوفة أمير المؤمنين عليه السلام وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومى ، وعليه مدرعة من صوف ، وحمائل سيفه ليف ، وفى رجليه نعلان من ليف ، وكأن جبينه ثفنة بعير . فقال عليه السلام:

---

(١) ٨ - ٥٠ .

الْحَمْدُ لله الَّذى إلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ وعَوَاقِبُ الأَمْرِ ، نَحْمَدُه عَلَى عَظِيمِ إحْسَانِه ، وَنَيِّرِ بُرْهَانِه ، وَنَوَامِى فَضْلِه وَامْتِنَانِه ، حَمْدًا يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً ، وَلِشُكْرِه أَدَاءً ، وَإِلَى ثَوَابِه مُقَرِّبًا ، وَلِحُسْنِ مَزِيدِه مُوجِبًا . وَنَسْتَعِينُ بِه اسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِه ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِه ، وَاثِقٍ بِدَفْعِه ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ . وَنُؤْمِنُ بِه إِيمَانَ مَنْ رَجَاهُ مُوقِنًا ، وَأَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِنًا ، وَخَنَعَ لَهُ مُذْعِنًا ، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّدًا ، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّدًا ، وَلاذَ بِه رَاغِبًا مُجْتَهِدًا : لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَه فَيَكُونَ فِى الْعِزِّ مُشَارَكًا ، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثًا هَالِكًا ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلَا زَمَانٌ ، وَلَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ .

وَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِه خَلْقُ السَّمٰوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ ، دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلَا مُبْطِئَاتٍ . وَلَوْلَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَإِذْعَانُهُنَّ لَهُ بِالطَّوَاعِيَةِ لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعًا لِعَرْشِه وَلَا مَسْكَنًا لِمَلَائِكَتِه ، وَلَا مَصْعَدًا لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِه ، جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَامًا يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِى مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الأَقْطَارِ ، لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا ادْلِهْمَامُ سُجُفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَلَا اسْتَطَاعَتْ جَلَابِيبُ سَوَادِ الْحَنَادِسِ أَنْ

تَرُدُّ مَاشَاعَ فِى السَّمٰوات مِنْ تَلَأْلُؤِ نُورِ الْقَمَرِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقٍ دَاجٍ ، وَلَا لَيْلٍ سَاجٍ فِى بِقَاعِ الْأَرَضِينَ الْمُتَطَأْطِئَاتِ ، وَلَا فِى يَفَاعِ السُّفْعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ ، وَمَا يَتَجَلْجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِى أُفُقِ السَّمَاءِ ، وَمَا تَلَاشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ وَانْهِطَالُ السَّمَاءِ ، وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّهَا ، وَمَسْحَبَ الذَّرَّةِ وَمَجَرَّهَا ، وَمَا يَكْفِي الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِهَا ، وَمَا تَحْمِلُ الْأُنْثَى فِى بَطْنِهَا .

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوْ عَرْشٌ ، أَوْسَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ ، أَوْجَانٌّ أَوْإِنْسٌ لَايُدْرَكُ بِوَهْمٍ ، وَلَايُقَدَّرُ بِفَهْمٍ ، وَلَايَشْغَلُهُ سَائِلٌ ، وَلَايَنْقُصُهُ نَائِلٌ ، وَلَايَنْظُرُ بِعَيْنٍ ، وَلَا يُحَدُّ بِأَيْنٍ ، وَلَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ ، وَلَايَخْلُقُ بِعِلَاجٍ ، وَلَايُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ . الَّذِى كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً ، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيماً ، بِلَا جَوَارِحَ وَلَا أَدَوَاتٍ ، وَلَا نُطْقٍ وَلَا لَهَوَاتٍ . بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ ، فَصِفْ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِى حُجُرَاتِ الْقُدْسِ مُرْجَحِنِّينَ ، مُتَوَلِّهَةً عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . فَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُو الْهَيْئَاتِ وَالْأَدَوَاتِ ، وَمَنْ يَنْقَضِى إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ ! فَلَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ ،

وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلُّ نُورٍ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ وَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً أَوْ إِلَى دَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلاً لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ ابْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَعَ النُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ، فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيُّ الْفَنَاءِ بِنِبَالِ الْمَوْتِ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، وَالْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً! أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ؟ أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ؟ أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ. وَأَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ؟ أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ، وَهَزَمُوا بِالْأُلُوفِ، وَعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ؟!

أقول: نقل الجوهري في الصحاح أنّ نوفا البكالي بفتح الباء و تخفيف الكاف كان صاحب علي عليه السلام، ونقل عن ثعلب أنّه منسوب إلى بكالة قبيلة. وقال القطب الراوندي: وهو منسوب إلى بكال، وبكيل و بكال شيء واحد و هو اسم حيّ من همدان. قال: وبكيل أكثر، و قال الشارح عبد الحميدبن أبي الحديد: و الصواب غير ما قالاه، وإنّما هو بكال بكسر الباء من حمير فمنهم هذا الشخص و هو نوف بن فضالة صاحب علي عليه السلام. والأقوال محتملة. وأمّا جعدة بن هبيرة فهو ابن اُخت أمير المؤمنين عليه السلام اُمّ هاني بنت أبي طالب بن عبدالمطّلب بن هاشم، وأبوه هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عامد بن عمران بن مخزوم وهو صحابيّ. وثفنة البعير: واحدة

الثفنات و هي ما يقع على الأرض من أعضائه . والخنوع : الخضوع . و يتعاوره . يختلف عليه. وموطّدات. ممهّدات. والتلكؤ :التوقّف. والطواعية :الطاعة. والفجاج: الطرق بين الجبال . والادلهمام : شدّة الظلمة . والسجف : الستور . والحندس بكسر الحاء : الليل شديد الظلمة . و السفع : الجبال . و السفعة : سواد مشرب بحمرة و لون الجبال في الأكثر . واليفاع : المرتفع من الأرض . والجلجلة : صوت الرعد. و تلاشي : اضمحلّ : و الأنواء : جمع نوء ، وهو سقوط نجم من منازل القمر الثمانية و العشرين في المغرب مع الفجر ، و طلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كلّ ليلة إلى ثلاثة عشر يوماً ، و هكذا كلّ نجم منها إلى انقضاء السنة ما خلا الجبهة فإنّ لها أربعة عشر يوماً. ومرجحنّين: مائلين إلى جهة تحت . و الرياش : اللباس . والطعمة . المأكلة .

فقوله : الحمد لله . إلى قوله : الأمر .

حمده باعتبار كونه منتهى جميع آثاره في عالمى الخلق و الأمر انتهاءاً في أوّليّتها بالصنع والإبداع و انتهاءاً في آخريّتها لأنّه غاية مطلوب السالكين ، و هو الباقى بعد كلّ شيء منها باعتبار وجوب وجوده فهو مستحقّ البقاء لذاته ، وهى الممكنة و المستحقّة للفناء باعتبار كونه ممكناً لها ، و لمّا كان الحمد قد يكون لأداء حقّ ما سبق من النعمة ، وقد يكون للاستزادة منها كان قوله : نحمده. إلى قوله: أداءاً . نظراً إلى ما سبق من أنواع نعم الله وهي عظيم إحسانه بالخلق والايجاد على وفق الحكمة و المنفعة . ثمّ بإنارة برهانه في متقن صنعه و محكمه و على ألسنة رسله لسوقنا في صراطه المستقيم إلى جنّات النعيم و هدايتنا إليها . ثمّ بإفاضة نوامى فضله وامتنانه بكفايتنا في حياتنا الدنيا . ثمّ بإفاضة أسباب معاشنا ومعادنا ، و كان قوله : و إلى ثوابه . إلى قوله : موجباً إشارة إلى ما يستزاد منها و هو القرب من ثوابه الأخروى لاستكمال النفس بذلك و حسن مزيده من نعمه الحاضرة كما قال تعالى «ولئن شكرتم لأزيدنّكم » (١) ثمّ أردف ذلك الشكر بطلب المعونة منه استعانة

(١) ١٤ - ٧ .

بالصفات المعدودة . إلى قوله : والقول . فإنّ استعانة من هذه صفته تكون أقرب الاستعانات إلى إجابة المستعان بالعون لقوّتها باستجماعها قوّة الرجاء ، و الأمل له تعالى ، وحسن اليقين في قدرته على بذل النفع ودفع الضرّ ، والشكر والإذعان بالطاعة العمليّة و القوليّة . ثمّ أردف ذلك بالإقرار بالإيمان الكامل ، و هو إيمان من استكمل الأوصاف المعدودة آنفاً وهي رجاء المطالب العالية منه حال اليقين التامّ بأنّه أهلها ، والرجوع إليه عن جميع الفرطات و في سائر المهمّات حال الإيمان به ، و الخضوع حال انقياده لعزّته ، ثمّ الإخلاص له حال توحيده ، ثمّ تعظيمه حال تمجيده ، واللوذ به حال الرغبة إليه و الاجتهاد فيها . و ظاهر أنّ ذلك الإيمان كامل . ثمّ أخذ في تنزيهه تعالى باعتبارات سلبيّة و إضافيّة هي غاية الواصفين :

منها أنّه لم يكن له والد فيكون له شريك في العزّ . إذ العادة أن يكون والد العزيز عزيزاً .

و منها أنّه لم يلد فيكون موروثاً هالكاً . وهو تنزيه له عن صفات البشر . إذ العادة أنّ الإنسان يهلك فيرثه ولده ، و برهانهما أنّهما من لواحق الحيوانيّة المستلزمة للجسميّة المنزّه قدسه عنها .

و منها أنّه لم يتقدّمه وقت و لا زمان و الوقت جزء الزمان و إذا كان خالق الوقت و الزمان فبالحرى أن يتقدّمهما .

و منها أنّه لم يختلف عليه الزيادة و النقصان لأنّ الزيادة و النقصان من لواحق الممكنات لاستلزامهما التغيّر المستلزمة للإمكان المنزّه قدسه عنه .

و منها أنّه ظاهر للعقول في علامات التدبير ، و هى الإحكام و الإتقان في مصنوعاته الموجودة على وفق القضاء المحكم فمن جملتها خلق السماوات كقوله تعالى « إنّ في خلق السماوات و الأرض» الآية ، وقوله «أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض» وقدمرّ بيان كونهما بلاعمد وقيامهما بلاسند في الخطبة الأولى ، ودعاؤهنّ حكم سلطان القدرة الإلهيّة عليهنّ ، وإجابتهنّ دخولهنّ في الوجود عن ذلك الحكم و طوعهنّ و إذعانهنّ من غير تلكّؤ ولا تباطىء في إجابتهنّ وخضوعهنّ في رقّ الحاجة

و الامكان لواجب وجوده وسلطانه .

و قوله : و لولا إقرارهنّ . إلى قوله : والعمل الصالح من خلقه .

كلام حقّ فإنّ الاقرار بالربوبيّة له راجع إلى شهادة لسان حال الممكن بالحاجة إلى الربّ والانقياد لحكم قدرته ، وظاهر أنّه لولا إمكانها و انفعالها عن قدرته و تدبيره لم يكن فيها عرش ولم يكن أهلاً لقبول تدبير أحوال الملائكة و سكناها ، و لم تكن قابلة لصعود الملائكة بالكلم الطيّب والأعمال الصالحة للخلق ، و قد سبقت الاشارة إلى بيان الصعود بالأعمال و غيرها في الخطبة الاُولى بحسب الامكان ، و لفظ الدعاء و الاقرار و الاذعان مستعارة و يحتمل أن يكون حقائق نظراً إلى أنّ لها أرواحاً مدبّرة عاقلة .

و قوله : وجعل نجومها . إلى قوله : الأقطار .

إشارة إلى بعض غايات وجود النجوم ، وقدسبق بيان ذلك .

و قوله : لم يمنع. إلى قوله : القمر .

استعار لفظ السجف و الجلابيب للساتر من سواد الليل ، و وجه الاستعارة ظاهر ، و خصّ القمر بالذكر لكونه من الآيات العظيمة ، و المقابلة بين الضياء و الظلم مقابلة العدم و الملكة ، و كلّ منهما يوجد بوجود سببه و يعدم بعدم سببه فلا يكون رفع أحدهما بالآخر ، و ظاهر إذن أنّ نور القمر و النجوم لا يمنعه من الوجود و التحقّق ظلمة ليل بل يتعاقبان بحسب تعاقب أسبابهما المنتهية إلى قدرة الصانع الحكيم - جلّت قدرته - .

و قوله : فسبحان . إلى قوله : في بطنها .

تنزيه له بحسب إحاطة علمه بحسب كلّيّات الأشياء وجزئيّاتها . والمطأطئات : مهابط الأرض ، وما يتجلجل به الرعد إشارة إلى تسبيحه في قوله تعالى « و يسبّح الرعد بحمده » (١) و ذلك التسبيح يعود إلى شهادته بلسان حاله في ذلك الصوت على كمال قدرة مسخّر السحاب ومؤلّفه و المقدّر لتصويته، وقد عرفت سببه ، وما تلاشت

(١) ١٣ - ١٤ .

عنه بروق الغمام إشارة إلى ما ينكشف للأبصار با ضائتها ، و إنّما خصّ ذلك دون ما أضاءته لأنّ العلم هناك أشرف لتعلّقه بما لا يدركه أبصار المخلوقين دون ماتضيئه لإدراك الكلّ له ، و إنّما أضاف العواصف إلى الأنواء لأنّ العرب تضيف الآثار العلويّة من الرياح و الأمطار و الحرّ و البرد إليها . ثمّ عاد إلى حمده تعالى باعتبار تقدّمه في الوجود على سائر مخلوقاته ، و قد عرفت ما يقال في الكرسيّ و العرش . ثمّ نزّهه تعالى باعتبارات سلبيّة :

الأوّل : أنّه لايدرك بوهم .

الثاني : أنّه لا يقدّربفهم : أي لا يحدّ بفهم ، و الفهم من صفات العقل و قد مرّت الإشارة إلى عجز العقول و الأوهام عن وصفه تعالى .

الثالث : ولايشغله سائل لإحاطة علمه و قدرته . و قد سبق بيانه أيضاً .

الرابع : ولا ينقصه نائل لأنّ النقصان يتوجّه نحوذى الحاجة ، و قد تنزّه قدسه تعالى عنها .

الخامس : كونه لايبصر بعين : أى أنّ إدراكه ليس بحاسّة البصر و إن كان بصيرأوذلك لتنزّه قدسه عن الحواسّ .

السادس : ولا يحدّ بأين : أى لاتحدّه العقول بالأمكنة ولاتحيط به باعتبارها لبراءته عن التحيّز و هو نفى الكميّة المتّصلة عنه .

السابع : و لا يوصف بالأزواج و هو نفى الكمّ المنفصل عنه :أى ليس فيه اثنينيّة وتعدّد .

والثامن : ولايخلق بعلاج تنزيه لصنعه عن وساطة الآلة والحيلة كما تزاوله أصحاب الصنايع .

التاسع : ولا يدرك بالحواسّ لتخصيص إدراكها بالأجسام و كيفيّاتها وتنزّهه تعالى عن الجسميّة ولواحقها .

العاشر : ولا يقاس بالناس تنزيه له عن التشبّه بخلقه في كمالاتهم كمايتوهّمه أهل التجسيم .

الحادي عشر : كونه متكلّماً بلا جارحة نطق ولا لهوات ، و هو تنزيه له عن حال البشريّة . وعلمت في المقدّمات كيفيّة سماع الأنبياء عليهم السلام للوحي . فأمّا قوله : وأراه من آياته عظيماً . فقيل : أراد آياته في كلامه لئلّا يصير بين قوله : تكليماً. وقوله : بلا جوارح. اعتراض غير مناسب ، والّذي رآه من تلك الآيات ما روى أنّه كان يسمع الصوت من جهاته الستّ ليس على حدّ سماع البشر من جهة مخصوصة وله دويّ كوقع السلاسل العظيمة على الحصا الأصمّ ، وفي هذه الكيفيّة سرّ لطيف ، و كونه يسمع من الجهات الستّ إشارة إلى أنّ الكلام كان يأتيه فينتقش في لوح خياله لا من جهة بل نسبة الجهات الستّ إليه على سواء في عدم سماعه منها فلا جرم قيل : يسمع من الجهات الستّ وهو أولى من أن يقال : يسمع لا من جهة لبعد ذلك عن أوهام الخلق . فأمّا كونه كوقع السلاسل في القوّة فأشار إلى عظمته بالنسبة إليه فشبّهه بأشدّ الأصوات جرساً .

و قيل : أراد بها الآيات التسع كانشقاق البحر وقلب العصا ثعباناً وغيرهما .

ثمّ نبّه على عجز القوّة البشريّة عن وصف كماله تعالى بقوله : بل إن كنت صادقاً إلى قوله : أحسن الخالقين . وهي صورة قياس استثنائيّ متّصل نبّه به على عجز من يدّعي وصف ربّه كما هو ، وتقديره إن كنت صادقاً أيّها المتكلّف لوصف ربّك في وصفه فصف بعض خلقه و هو جبرئيل و ميكائيل و جنود ملائكته المقرّبين ، و و ينتج باستثناء نقيض تاليه : أى لكنّك لا يمكنك وصف هؤلاء بالحقيقة فلا يمكنك وصفه تعالى . بيان الملازمة أنّ وصفه تعالى إذا كان ممكناً لك فوصف بعض آثاره أسهل عليك ، وأمّا بطلان التالى فلأنّ حقيقة جبرئيل وميكائيل وساير الملائكة المقرّبين غير معلومة لأحد من البشر ، و من عجز عن وصف بعض آثاره فهو عن وصفه أعجز، وحجرات القدس : مقارّ الطهارة عن الهيئات البدنيّة والتعلّقات الخياليّة عن شوائب النفس الأمّارة بالسوء ، واستعار لفظ المرجحنّين لخضوعهم تحت سلطان هيبته وعظمته ، وتولّه عقولهم : حيرتها وتشتّتها عن إدراك حقيقته بحدّ تقف عنده عظمته . ثمّ نبّه على ما يدرك من جهة الوصف و هو ذوو الهيئات والآلات الّتي يحترف بها ويحيط

بها الأفهام من جهتها ، وما يلحقه الفناء فينقضي إذا بلغ أمد حدّه ، و تقف الأفهام على ذلك الحدّ و تحلّله إلى أجزائه فتطّلع على كنههمنها . ثمّ عقّب ذلك التنزيه بتوحيده ونفي الكثرة عنه .

و قوله : أضاء بنوره كلّ ظلام .

فالظلام إمّا محسوس فأضاء بأنوار الكواكب ، أو معقول و هو ظلام الجهل فأضاءه بأنوار العلم والشرايع .

و قوله : وأظلم بنوره كلّ نور .

إذ جميع الأنوار المحسوسة أو المعقولة لغيره متلاشية مضمحلّة في نور علمه ، و ظلام بالنسبة إلى ضياء براهينه في جميع مخلوقاته الكاشفة على وجوده و كمال جوده. ثمّ شرع في الموعظة فبدء بالوصيّة بتقوى الله باعتبار سلب أمرين هما سبب البقاء في الحياة الدنيا و هما الملبوس والمطعوم ، ويحتمل أن يريد بالمعاش سائر أسباب البقاء ، و ثنّى بذكر أنّه لا سبيل إلى البقاء و دفع الموت تخويفاً به ، واحتجّ عليه بقياس استثنائي تلخيصه : لو أنّ أحداً يجد سبيلا إلى دفع الموت لوجده سليمان عليه السلام و تقدير الاستثناء : لكنّه لم يجده فلن يجده أحد بعده . أمّا الملازمة فلأنّ سليمان عليه السلام كان أقوى سلطان وجد في العالم لاستيلاء حكمه على ملك الجنّ والانس مع النبوّة و عظيم الزلفة عند الله فكان أولى بدفعه لو كان يمكن دفعه ، وأمّا بطلان التالي فلأنّه عليه السلام لما استوفى طعمته واستكمل مدّته مات فلو وجد مدفعاً لدفعه عن نفسه .

فقوله : فلو أنّ . إلى قوله : سبيلا .

هو مقدّم الشرطيّة .

و قوله : لكان ذلك . إلى قوله : عليه السلام .

هو التالي .

و قوله : الّذي . إلى قوله : الزلفة .

بيان لوجه الملازمة .

و قوله : فلمّا استوفى . إلى قوله : قوم آخرون .

هو بيان بطلان التالي ، ولفظ القسيّ والنبال استعارة لمرامي الأمراض و أسبابها الّتي هي نبال الموت ، ووجها ظاهر . ثمّ شرع في التنبيه على الاعتبارات بأحوال القرون السالفة واستفهم عن قرن قرن تنبيهاً على فنائهم استفهاماً على سبيل التقرير . والعماليق أولاد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح وكان باليمن والحجاز و ما تاخم ذلك من الأقاليم فمن أولاده عملاق و طسم وجديس ، وكان العزّ والملك بعد عملاق بن لاوذ في طسم فلمّا ملكهم عملاق بن طسم بغى وأكثر العبث والفساد في الأرض حتّى كان يطأ العروس ليلة هدائها إلى بعلها وإن كانت بكراً افتضّها قبل وصولها إليه ففعل ذلك بامرأة من جديس فغضب لها أخوها و تابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم و أهل بيته فصنع أخوها طعاماً ودعا [دخل خ] عملاق الملك إليه . ثمّ وثب به و بطسم فأتى على رؤسائهم و نجا منهم رياح بن مرّ فصار إلى ذى جيشان بن تبّع الحميرى ملك اليمن فاستغاث به واستنجده على جديس وأتى ذو جيشان في حمير بلاد جوّ و هي قصبة اليمامة فاستأصل جديسا و أخرب اليمامة . فلم يبق لجديس باقية ولا لطسم إلّا اليسير منهم . ثمّ ملك بعد طسم و جديس وبازبن أميم بن لاوذ بن إرم بولده و أهله فنزل بأرض وباز وهي المعروفة الآن برمل عالج فبغوا في الأرض حيناً ثمّ أفناهم الله . ثمّ ملك بعد وباز عبد ضخم [صمم خ] بن آسف بن لاوذ فنزلوا بالطايف حيناً . ثمّ بادوا . وأمّا الفراعنة فهم ملوك مصر فمنهم الوليد بن ريّان فرعون يوسف ، ومنهم الوليد بن مصعب فرعون موسى، ومنهم فرعون الأعرج الّذي غزا بنى إسرائيل و أخرب بيت المقدس . و أمّا أصحاب مداين الرسّ . فقيل : إنّهم أصحاب شعيب النبيّ عليه السلام و كانوا عبدة أوثان ولهم مواشى و آبار يستقون منها ، و الرسّ بئر عظيمة جدّاً انخسفت بهم وهم حولها ، و قيل : الرسّ قرية باليمامة كان يسكنها قوم من بقايا ثمود فبغوا فأُهلكوا ، وقيل الرس : أصحاب الأُخدود وهو الرسّ الأُخدود ، و قيل : الرسّ نهر عظيم في إقليم الباب والأبواب مبدئه من مدينة طرار وينتهى إلى نهر كبير فيختلط به حتّى يصبّ في بحر الخزر ، وكان هناك ملوك أُولو بأس وقدرة فأهلكهم الله ببغيهم . وبالله التوفيق .

منها : قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا ، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا : مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا ، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا ، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا ، وَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا ، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا ، فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ وَأَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ ، بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ .

ثم قال عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ ؛ وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا ؛ وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا !! لِلَّهِ أَنْتُمْ ، أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ ، وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ ؟!

أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلاً ، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً ، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللَّهِ الْأَخْيَارُ ؛ وَبَاعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى ، مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بِصِفِّينَ أَنْ لَا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً يُسِيغُونَ الْغُصَصَ ، وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ ؟! قَدْ - وَاللَّهِ - لَقُوا اللَّهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ ، أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ ؟ وَأَيْنَ ذُو

الشَّهادَتَيْنِ ؟ وَأَيْنَ نُظَراؤُهُمْ مِنْ إِخْوانِهِمِ الَّذِينَ تَعاقَدُوا عَلَى النِّيَّةِ ، وَأُبْرِدَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ ؟!

قال : ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة فأطال البكاء ، ثم قال عليه السلام :

أَوِّهِ عَلَى إِخْوانِي الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقامُوهُ ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ ، وَأَماتُوا الْبِدْعَةَ ، دُعُوا لِلْجِهادِ فَأَجابُوا ، وَوَثِقُوا بِالْقائِدِ فَاتَّبَعُوهُ

ثم نادى باعلى صوته :

الْجِهادَ الْجِهادَ عِبادَ اللهِ !! أَلا وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هٰذا ، فَمَنْ أَرادَ الرَّواحَ إِلَى اللهِ فَلْيَخْرُجْ

قال نوف : وعقد للحسين ـ عليه السلام ـ فى عشرة آلاف ، ولقيس بن سعد رحمه الله فى عشرة آلاف ، ولأبى أيوب الأنصارى فى عشرة آلاف ، ولغيرهم على أعداد أخر ، وهو يريد الرجعة إلى صفين ، فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله ، فتراجعت العساكر فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان .

أقول : جرانه : صدره . وعسيب ذنبه : طرفه . واستوسق الأمر : انتظم واجتمع . و أزمع : صمّم عزمه . والرنق بالسكون : الكدر . وأبرد : أرسل . و أوه : ساكنة الواو مكسورة الهاء كلمة توجّع . والاختطاف والتخطّف : الأخذ بسرعة .

والإشارة إلى العارف مطلقا ، و قال بعض الإماميّة : الإشارة إلى الإمام المنتظر ، و ليس بواضح من هذا الكلام ، ولفظ الجنّة مستعار في الاستعداد للحكمة

بالزهد والعبادة الحقيقيّتين والمواظبة على العمل بأوامر الله ، و وجه الاستعارة أنّ بذلك الاستعداد يأمن إصابة سهام الهوى و ثوران دواعى الشهوات القايدة إلى النار كما يأمن لابس الجنّة من أذى الضرب والجرح . وأخذه لها بجميع آدابها من الإقبال عليها والمعرفة بها : أى بقدرها والتفرّغ لها عن العلايق الدنيويّة بالزهد من جملة الاستعداد لها أيضاً ، واستعار لها لفظ الضالّة لمكان إنشاده و طلبه كما تطلب الضالّة من الإبل ، و إليه الإشارة بقوله عليه السلام : الحكمة ضالّة المؤمن .

وقوله : فهو مغترب إذا اغترب الإسلام .

إشارة إلى إخفائه نفسه و إيثاره العزلة عند اغتراب الإسلام و ضعفه وظهور البدع والمنكرات كما أشار إليه سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم بدء الإسلام غريباً و سيعود غريباً كما بدء ، واستعار لفظ العسيب والذنب والجران ملاحظة لشبهه بالبعير البارك ، و كنّى بذلك عن ضعفه و قلّة نفعه فإنّ البعير أقلّ ما يكون نفعه حال بروكه .

و قوله: بقيّة من بقايا حجّته .

أى على خلقه . إذ العلماء والعارفون حجج الله في الأرض على عباده ، وظاهر كونه خليفة من خلفاء أنبيائه لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : العلماء ورثة الأنبياء .

و قوله : أيّها الناس . إلى قوله : تستوسقوا .

تذكير بموعظته لهم ، وإعذار إليهم بأداء ما كلّف به في حقّهم ممّا كلّفت به الأنبياء مع أممهم والأوصياء إلى من بعدهم ، و معاتبة لهم ، و توبيخ على عدم استقامتهم و اجتماعهم على أوامره مع تأديبه لهم بالضرب والتحذير بالزواجر .

و قوله : لله أنتم . إلى قوله : السبيل .

استفهام لهم عن توقّعهم إماماً هادياً مرشداً غيره استفهاماً على سبيل الإنكار لوجود سبيل ذلك الإمام ، و أكّد ذلك الإنكار المفهوم من الاستفهام بقوله : ألا إنّه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً : أى من الخير و صلاح أهلها ، و أقبل منها ما كان مدبراً : أى من الشرور الّتى أدبرت بمقدم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و ظهور الإسلام ، وأزمع الترحال عباد الله الأخيار المتوقّع فيهم إمام كمثله عليه السلام في الهداية لسبيل الله ، و

إز ماعهم للترحال كناية عن اقتضاء الزمان لفنائهم من الدنيا و الرحيل عنها. ثمّ استعار لفظ البيع لتعويضهم بالقليل الفانى من متاع الدنيا والكثير الباقى من متاع الآخرة. ثمّ أخذ في التذكير بنفى ضرر الموت وعدم الحياة عن إخوانه من الصحابة الّذين قتلوا بصفّين، و زهّد في تلك الحياة بكونها محلّ تجرّع الغصص و شرب الكدر من الآلام والأعراض و مشاهدة المنكرات، و لمّا زهّد في تلك الحياة نبّه على مالهم في عدمها من الفائدة و هي لقاء الله، و توفيته لأُجورهم على الأعمال الصالحة، وحلولهم في دار الأمن: أى الجنّة بعد خوفهم من فتن أهل الضلال. ثمّ أخذ في استفهام عمّن ركب طريق الحقّ ومضى عليه مستصحباً له أستفهاماً على سبيل التوجّع لفقدهم والتوحّش لفراقهم، ثمّ عن أعيان أكابرهم فذكر عمّار بن ياسر. و فضله في الصحابة مشهور و أبوه عربىّ قحطانىّ و أُمّه كانت أمة لأبى حذيفة ابن المغيرة المخزومىّ ولدت عمّاراً فأعتقها أبوحذيفة فمن هناك كان عمّار مولى لبنى مخزوم، وأسلم هو و أُمّه سميّة فعذّبهما بنو مخزوم في الله فأعطاهم عمّار ما أرادوا بلسانه مع اطمينان قلبه بالإيمان فنزلت فيه «إلّا من أُكره وقلبه مطمئنّ بالإيمان»(١) وهاجر إلى أرض الحبشة، وصلّى القبلتين، وهو من المهاجرين الأوّلين، وشهد بدراً والمشاهد كلّها، وأُبلى بلاء حسنا، ثمّ شهد اليمامة فأُبلى فيها أيضاً ويومئذ قطعت أُذنه. وعن ابن عبّاس في قوله تعالى «أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس»(٢) قال: هو عمّار بن ياسر، و عن عايشة أنّها قالت: ما من أحد من أصحاب محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أشاء أن أقول فيه إلّا قلت إلّا عمّار بن ياسر فإنّى سمعته صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول: إنّه ملىء إيماناً إلى أخمص قدميه. وعنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: عمّار جلدة ما بين عينى تقتله الفئة الباغية لا أنالها الله شفاعتى. وعنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من أبغض عمّاراً أبغضه الله. وأمّا ابن التيّهان بياء مشدّدة مفتوحة بنقطتين من تحت، و يروى مخفّفة ساكنة فهو من الأنصار كنية أبو الهيثم واسمه مالك بن مالك، و قيل: بل اسم أبيه عمرو بن الحرب وهو - ابن التيّهان - كان أحد النقباء ليلة العقبة، وشهد بدراً، والمشهور أنّه أدرك صفّين

(١) ١٦ - ١٠٨ (٢) ٦ - ١٢٢.

مع عليّ عليه السلام و قتل بها ، وقيل : توفّى في زمان الرسول صلى الله عليه وآله . وأمّا ذوالشهادتين فكنية أبو عماره واسمه حزيمة بن ثابت بن الفاكة بن ثعلبة الخطمى الأنصارى من الأوس . جعل رسول الله صلى الله عليه وآله شهادته بشهادة رجلين لقصّة مشهورة ، وشهد بدراً وما بعدها من المشاهد ، وكانت راية بنى خطمة من الأوس يوم الفتح بيده ، وشهد صفّين مع عليّ عليه السلام فلمّا قتل عمّار قاتل هو حتّى قتل معه . و نظراؤهم من إخوانه : أى الّذين قتلوا بصفّين معه من الصحابة كابن بديل و هاشم بن عتبة و نحوهما ، و تعاقدهم على المنيّة اتّفاقهم على المقاتلة إلى غاية أن يقتلوا ، و روى : تعاهدوا . والفجرة الّذين حملت رؤوسهم إليهم اُمراء الشام . ثمّ أخذ في التشكّى والتوجّع على فقدهم . ثمّ أشار إلى فضائلهم الّتي هي غاية الشريعة المطلوبة منهم و هي تلاوة القرآن وإحكامه بفهم مقاصده ومعانيه ، والتدبّر للفرض : أى فهم ما لأجله العبادات و إقامتها والمواظبة عليها نظراً إلى أسرارها ، وإحياء السنن النبويّة ، و إماتة البدع المخالفة لها ، و إجابتهم للدعوة إلى الجهاد لإقامة الدين ، و وثوقهم إليه في سبيل الله يعنى نفسه واتّباعهم له ، والرواح إلى الله الخروج إلى الجهاد الّذي هو سبيله الموصلة إليه و إلى ثوابه . و قيس بن سعد الخزرجى صحابى كنيته أبو عبدالملك روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أحاديث و أبوه سعد من رؤساء بالخزرج وهو سعد بن عبادة الّذي حاولت قومه إقامته خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وكان قيس هذا من كبار شيعة عليّ و محبّيه ، و شهد معه حروبه كلّها ، وكان مع الحسن ابنه و نقم عليه صلحه لمعاوية . و أمّا أبو أيّوب الأنصارىّ فهو خالد بن سعد بن كعب الخزرجى من بنى النجّار شهد العقبة و بدراً وساير المشاهد ، و عليه نزل رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا خرج من بنى عمرو بن عوف حين قدم المدينة مهاجراً فلم يزل عنده حتّى بنى مسجده و مساكنه ثمّ انتقل إليها ، وشهد مع عليّ مشاهده كلّها الجمل و صفّين ، و كان على مقدّمته يوم النهروان . و بالله التوفيق .

١٨٢ - وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

اَلْحَمْدُ للهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ، اَلْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ ، خَلَقَ الْخَلائِقَ

بِقُدْرَتِه، وَاسْتَعْبَدَ الأَرْبَابَ بِعِزَّتِه، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِه. وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالإِنْسِ رُسُلَهُ؛ لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَأَسْقَامِهَا، وَلِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا وَحَلالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا أَعَدَّ اللهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ.

أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِه كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِه، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلًا، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا.

أقول: المنصبة: التعب.

و حمد الله باعتبار كونه معروفاً بآيات آثاره عند العقول المعرفة المنزّهة عن إدراك البصر المختصّ بالأجسام ولواحقها. ثمّ باعتبار كونه خالقاً وموجداً الايجاد المنزّه عن المتاعب لاستلزامها الآلات المستلزمة للجسميّة الّتي من شأنها الضعف والنهاية في القوّة. ثمّ نبّه على استناد الخلايق و النعم المفاضة إلى قدرته ليعتبر السامعون نسبتهم إليه، و باعتبار استعباده الأرباب على كمال عزّه المطلق الواجبيّ المستلزم لخضوع كلّ موجود في ذلّ الإمكان والحاجة إليه، وبسيادته للعظماء على كمال عظمة وجوده الواجبيّ المطلق المستلزم لفقر كلّ إليه و تعبّده له، ثمّ بنسبة إسكانهم الدنيا وبعثه رسله إلى الجنّ والإنس منهم كما قال «يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي» (١) الآية على كمال لطفه بخلقه و حكمته في إيجادهم في الدنيا. و غاية ذلك أن يكشفوا لهم ما يغطّى بحجب الدنيا عن أعين بصائرهم من أحوال الآخرة الّتي خلقوا لها، وأن يجذبوهم بالتحذير من

(١) ٦ - ١٣٠.

ضرّ الدنيا وعواقبها و ضرب الأمثال بنسبتها كما في القرآن الكريم « إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه »⁽¹⁾ الآية وأمثالها ، وأن يبصروهم عيوبها ، وأن يهجموا عليهم بما في تصاريفها من العبرة وهي الصحّة والسقم وما أحلّ وحرّم على طريق الابتلاء به . وحلالها عطف على تصرّف ، و يحتمل أن يكون عطفاً على أسقامها باعتبار أنّ الحلال والحرام من تصاريف الدنيا ، و بيانه أنّ كثيراً من المحرّمات لنبيّ كانت حلالاً لنبيّ قبله ، وبالعكس و ذلك تابع لمصالح الخلق بمقتضى تصاريف أوقاتهم و أحوالهم الّتي هي تصاريف الدنيا .

و قوله : و ما أعدّ الله .

إمّا عطف على معتبر أو على عيوبها : أي و يبصرونهم ما أعدّ الله للمطيعين والعصاة . إلى آخره .

و قوله : أحمده إلى نفسه كما استحمد إلى خلقه .

أي أحمده حمداً يكون في الكيفيّة والكميّة على الوجه الّذي طلب الحمد لنفسه من خلقه .

و قوله : جعل لكلّ شيء قدراً .

كقوله تعالى « قد جعل الله لكلّ شيء قدراً »⁽²⁾ أي مقداراً من الكيفيّة والكميّة ينتهى إليه وحدّاً يقف عنده ، ولكلّ قدر أجلاً : أي و لكلّ مقدار وقت يكون ، انقضاؤه فيه وفناؤه ولكلّ أجل كتاباً وأراد بالكتاب العلم الإلهى المعبّر عنه بالكتاب المبين واللوح المحفوظ المحيط بكلّ شيء ، وفيه رقم كلّ شيء . وبالله التوفيق .

منها : فى ذكر القرآن : فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ ، حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ : أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَهُ ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ ، أَتَمَّ نُورَهُ ، وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَقَدْ فَرَغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ

(1) ١٠-٢٥ . (2) ٦٥ - ٣ .

الهُدَى به، فعظِّموا منه سبحانه ما عظَّم من نفسه؛ فإنه لم يخف عنكم شيئاً من دينه، ولم يترك شيئاً رضيه أو كرهه، إلا وجعل له علماً بادياً، وآية محكمة تزجر عنه أو تدعو إليه، فرضاه فيما بقي واحد، وسخطه فيما بقي واحد.

واعلموا أنه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم؛ ولن يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان قبلكم، وإنما تسيرون في أثر بيّن، وتتكلمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم، قد كفاكم مؤونة دنياكم، وحثكم على الشكر، وافترض من ألسنتكم الذكر، وأوصاكم بالتقوى وجعلها منتهى رضاه وحاجته من خلقه، فاتقوا الله الذي أنتم بعينه؛ ونواصيكم بيده، وتقلبكم في قبضته: إن أسررتم علمه، وإن أعلنتم كتبه، قد وكل بكم حفظة كراماً، لا يسقطون حقاً، ولا يثبتون باطلاً، واعلموا أن من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن، ونوراً من الظلم، ويخلده فيما اشتهت نفسه، وينزله منزلة الكرامة عنده، في دار اصطنعها لنفسه: ظلها عرشه، ونورها بهجته، وزوارها ملائكته، ورفقاؤها رسله. فبادروا المعاد، وسابقوا الآجال، فإن الناس يوشك أن ينقطع بهم الأمل، ويرهقهم الأجل، ويسد عنهم باب التوبة، فقد أصبحتم في مثل ما سأل إليه الرجعة من كان قبلكم، وأنتم

بَنُو سَبِيلٍ عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالارْتِحَالِ ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا . أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ ، وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ ، ضَجِيعَ حَجَرٍ ، وَقَرِينَ شَيْطَانٍ ؟ ! أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكًا إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضًا لِغَضَبِهِ ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِنْ زَجْرَتِهِ ؟ ؟ ! !

أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ ! كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ ، وَنَشِبَتِ الْجَوَامِعُ ، حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ ؟ ! فَاللَّهَ اللَّهَ ، مَعْشَرَ الْعِبَادِ ، وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ ! ! وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ ، فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا : أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ . وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ ، وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ تَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) وَقَالَ تَعَالَى : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ؟) ، فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ

مِنْ ذُلٍّ ؛ وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ ، اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ؛ فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ ؛ وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَدًا ، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوبًا وَنَصَبًا (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) . أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ . وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

أقول :اليفن . الشيخ الكبير . والقتير : الشيب . ولهزه: خالطة . والجوامع : جمع جامعة وهي الغلّ لجمعها الأيدى إلى الأعناق . واللغوب : التعب .

و قد وصف القرآن الكريم بالأضداد المتعادية لاختلاف الاعتبارات : فالآمر مع الزاجر . وإطلاقهما عليه مجاز من باب إطلاق اسم السبب على المسبّب . إذ الآمر والناهى هو الله تعالى ، والصامت مع الناطق . وإطلاق لفظ الناطق عليه مجاز . إذ الناطق هو المتكلّم به من باب إطلاق اسم المتعلّق على المتعلّق ، و كونه حجّة الله على خلقه لاشتماله على وعدهم و وعيدهم ، و بيان غاية وجودهم و المطلوب منهم والإعذار إليهم « أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين »[(١)] ولأنّه خلاصة ما بعث به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و قد بعث رسله مبشّرين و منذرين لئلاّ يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل ، و لأنّه أقوى المعجزات الّتي احتجّ بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الخلق في صدقه .

و قوله : أخذ عليهم ميثاقه .

---

(١) ٧ - ١٧١ .

الضمير في أخذ لله وفي ميثاقه للكتاب ، وذلك الأخذ هو خلقهم و بعثهم إلى الوجود إلى أن يعملوا بمااشتمل عليه الكتاب من مطالب الله الحقّة ، و هوما أشار إليه القرآن الكريم « وإذ أخذ ربّك من بنى آدم من ظهورهم ذرّيتهم »(١) الآية ، والتقدير أخذ عليهم ميثاق بمافيه .

و قوله : وارتهن عليه أنفسهم .

أى جعل أنفسهم رهناً على العمل بما فيه والوفاء به « فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً »(٢) ، وأتمّ به نوره : أى نور هدايته للخلق ، والنور المتمّم هو نور النبوّة و هو المشار إليه بقوله تعالى « يريدون أن يطفئوا نورالله بأفواههم و يأبى الله إلّا أن يتمّ نوره »(٣) و إطفاؤه بما كانوا يقولونه من كونه صلى الله عليه وآله معلّم مجنون وساحر كذّاب ، و كون القرآن أساطير الأوّلين اكتتبها . و كذلك أكرم به دينه .

و قوله : و قبض نبيّه .إلى قوله : به .

كقوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم » الآية ، وأحكام الهدى بيان طرقه و كيفيّة سلوكها و تثبيتها في قلوب المؤمنين. ثمّ أمر بتعظيم الله سبحانه و تعالى . يقال : عظّمت من فلان . كما يقال : عظّمته ، و ماهنا مصدريّة : أى عظّموه كتعظيمه نفسه : أى اطلبوا المناسبة في تعظيمكم له كتعظيمه نفسه . ثمّ أشار إلى وجه وجوب تعظيمنا له وهو قوله :لم يخف عنكم شيئاً من دينه بل كشفه لنا و بيّنه بأجمعه بقدرالإمكان ، ولم يترك شيئاً من مراضيه ومكارهه إلّا نصب عليه علماً ظاهراً أو آية واضحة من كتابه يشتمل على أمر بما يرضيه أو زجر عمّا يكرهه .

و قوله : فرضاه فيما بقى واحد و سخطه فيما بقى واحد .

إشارة إلى أنّ المرضىّ له من الأحكام أوالمسخوط فيما مضى هو المرضىّ أو المسخوط فيما بقى من الأوقات و استقبل من الزمان ، وحكمه في كونه مرضيّاً أو مسخوطاً واحد في جميع الأوقات لا يتغيّر ولاينقض ، وفيه إيماء إلى أنّ رفع شيء

(١) ٧ - ١٧١ - (٢) ٤٨ - ١٠ . (٣) ٩ - ٣٢.

من الأحكام السابقة بالقياس والرأى لا يجوز كما سبق بيان مذهبه عليه السلام في ذلك .

و قوله : أنّه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم . إلى قوله : قبلكم .

تأكيد وتقرير لما سبق : أى أنّ ماسخطه ونهى عنه الصحابة مثلاً فلن يرضى عنكم بفعله فليس لكم أن تجوّزوه و تحلّوه باجتهاد ، و كذلك مارضيه لهم وأمرهم به فلن يسخط عليكم بفعله حتّى تحرّموه باجتهادمنكم . ويحتمل أن يريد بقوله: فرضاه فيما بقى واحد وسخطه فيما بقى واحد : أى فيما بقى من الأحكام الجزئيّة الّتي لم يدلّ النصّ عليها بالمطابقة بل يحتاج إلى اجتهاد في إلحاقها بالمنصوص و إدراجها تحت النصوص . و معنى وحدة رضاه و سخطه فيها أنّ الحكم المطلوب أو المكروه فيها واحد لا يجوز الاختلاف فيه حتّى يحكم أحد المجتهدين في الشيء الواحد بالحلّ و يحكم الآخر فيه بالحرمة ، و يختلف الفتاوى في تلك القضيّة . لأنّها إمّا مسخوطة أو مرضيّ . و يكون ذلك نهياً منه عليه السلام عن الاختلاف في الفتيا كما علمت ذمّه لذلك فيما سبق من الفصول ، ويكون قوله : واعلموا أنّه لن يرضى عنكم . إلى قوله : قبلكم . في معنى النهى عن رفع الأحكام الشرعيّة بالاجتهاد والقياس كما قرّرناه ، و قيل : معناه النهى عن الاختلاف في الفتيا أيضاً : أى أنّه لن يرضى عنكم بالاختلاف الّذي سخطه ممّن كان قبلكم كما أشار إليه تعالى بقوله « إنّ الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء »[1] و كذلك ليس يسخط عليكم بالاتّفاق و الاجتماع المرضيّ ممّن كان قبلكم ، وقيل : بل المراد أنّه لم يرض عنكم بشيء سخطه ممّن كان قبلكم من الاعتقادات الباطلة في المسائل الإلهيّة ، ولم يسخط عليكم بشيء رضيه ممّن كان قبلكم من الاعتقادات الحقّة فيها ، ويكون ذلك مختصّاً بالأصول دون الفروع .

و قوله : و إنّما تسيرون في أثر بيّن . إلى قوله : قبلكم .

إشارة إلى أنّ الأدلّة لكم واضحة قد تداولها الأوّلون قبلكم . فأنتم المتكلّمون

---

(١) ٦ - ١٦٠ .

بها و تردّدونها رجع القول المردّد منهم .

و قوله : قد كفاكم مؤونة دنياكم .

كقوله تعالى « وآتاكم من كلّ ما سألتموه » (١) و تلك الكفاية إمّا بخلقها و إيجادها ، وإمّابرزقه بكلّ ما كتب له في اللوح المحفوظ . و حثّه على الشكر في تكرار أو امره به . و نقل عن الحسن البصري أنّه قال : إنّ الله كفانامؤونة دنيانا وحثّنا على القيام بوظائف ديننا فليته كفانا مؤونة ديننا و حثّنا على القيام بوظائف دنيانا ، وهو إشارة منه إلى شدّة التحفّظ في الدين والاحتراز عليه .

و قوله : وافترض من ألسنتكم الذكر .

لمّاكان لكلّ من الجوارح عبادة كانت العبادة المفروضة باعتبار اللسان الذكر ، وقد علمت أنّه باب عظيم من أبواب السلوك إلى الله بل هو روح العبادات كلّها . إذ كلّ عبادة لم يشفع بالذكر فهي خداج . ثمّ نبّه على التقوى بوصيّة الله تعالى فيها ، ثمّ بكونها منتهى رضاه و حاجته من خلقه ، و لفظ الحاجة مستعار . إذ تنزّه قدسه تعالى عنها ، و وجه مشابهته للمحتاج هو الحثّ والطلب المتكرّر منه حتّى كأنّه محتاج إلى عبادة العباد و تقويهم ، و لمّا استلزمت التقوى الحقيقيّة الوصول إلى الله لاجرم كانت منتهى رضاه من خلقه . ثمّ أمرهم بها بعد التنبيه عليها . و نبّه على الوجوه الّتي لأجلها تحصل تقوى الله و خشيته وهي كونهم بعينه : أي بحيث يعلم ما يعملون ، و لفظ العين مجاز في العلم إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب لاستلزامها إيّاه ، و كون نواصيهم بيده : أي في قدرته . و إنّما خصّ الناصية إشارة إلى أنّ أعظم جوارح الانسان و أشرف ما فيه مملوك . واليد مجاز في القدرة إطلاقاً لاسم السبب القابلي على المسبّب ، و كذلك كون تقلّبهم في قبضته : أي تصرّفهم في حركاتهم و سكناتهم بحسب تصريف قدرته وحكمه لا خروج عنه في شيء .

و قوله : إن أسررتم .

كقوله تعالى « يعلم ما يسرّون » .

---

(١) ١٤ - ٣٧ .

و قوله : إن أعلنتم كتبه . إلى قوله : باطلا .

قد سبقت الإشارة إلى الكتبة غير مرّة . ثمّ أكّد القول في التقوى بقوله : واعلموا . إلى قوله : من الفتن . و هو لفظ القرآن .

و قوله : من الفتن .

تفسير لقوله : مخرجا . و نوراً من الظلم : أى من ظلم الجهل بأنوار العلوم الحاصلة عن الاستعداد بالتقوى .

و قوله : و يخلده فيما اشتهت نفسه .

كقوله تعالى « وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون » (١)، و منزل الكرامة هو المنزل المبارك المأمور بطلبه في قوله تعالى « و قل ربّ أنزلني منزلاً مباركاً و أنت خير المنزلين » (٢) والدار الّتي اصطنعها لنفسه كناية عن الجنّة ، ونسبها إلى نفسه تعظيماً لها و ترغيباً فيها . و ظاهر حسن تلك النسبة فإنّ الجنّة المحسوسة أشرف دار رتّبت لأشرف المخلوقات . وأمّا المعقولة فيعود إلى درجات الوصول والاستغراق في المعارف الإلهيّة الّتي بها السعادة والبهجة واللذّة التامّة و هي جامع الاعتبار العقليّ لمنازل أولياء الله و خاصّته و مقامات ملائكته و رسله . و من المتعارف أنّ الملك العظيم إذا صرف عنايته إلى بناء دار يسكنها هو وخاصّته أن يقال إنّها تخصّ بالملك و أنّه بناها . و ظاهر الكلام يدلّ على أنّها في السماوات و أنّ العرش عليها ، و في هذه الكلمة لطيفة و ذلك أنّك علمت أنّ العرش يطلق و يراد به الفلك التاسع ، و يطلق و يراد به العقل الأوّل باعتبار إحاطة علمه بجميع الموجودات و باعتبار حمله لمعرفة صانعه الأوّل ـ جلّت عظمته ـ ، ويطلق ويراد به سلطانه وعظمته . واستعار لفظ الظلّ للعرش بالمعنى الأوّل باعتبار أنّ حركة الفلك من الأسباب المعدّة لوصول النفوس البشريّة والفلكيّة إلى كمالها بالمعارف الإلهيّة الّتي بها الراحة الكبرى من حرارة نار الجهل كما أنّ بالظلّ يكون الراحة من حرارة الشمس . و بالمعنى الثاني أيضاً هو أنّ المعارف الإلهيّة المفاضة على أسرار المستعدّين من

(١) ٢١ - ١٠٢ (٢) ٢٣ - ٣٠ .

قبل ذلك الملك المقدّس يكون بها الراحة الكبرى كما تكون بالظلّ أيضاً . وبالمعنى الثالث أنّ سلطانه تعالى و علوّه هو المستولى على كلّ سلطان والعالى عليه العلوّ المطلق . و إذ هو مبدء راحة جميع النفوس بجميع كمالاتها العقليّة فهو ظلّها الّذي إليه يلجأ . و إطلاق لفظ الظلّ على النعمة والسلطان في العرف ظاهر يقال : أنا في ظلّ فلان و في ظلّ الملك وعدله إذا كان في نعمة منه و عنايته .

و قوله : و نورها بهجته .

فبهجته تعالى تعود إلى بهائه و كماله المشرق في أقطار العالمين على أسرار النفوس . وظاهر كونه نور الجنّة الّذي تعشى فيه أبصار البصائر ، ويستغرق في الابتهاج به الملائكة المقرّبون .

و قوله : وزوّارها ملائكته و رفقاؤها رسله .

فيه لطيفة : و ذلك أنّه لمّا كانت النفوس البشريّة متّحدة كانت متقاربة المنازل في الكمال ، وممكن لها ذلك . فعبّر عن الرسل بالرفقاء في الجنّة لسكّانها . و لمّا خالفت أنواع الملائكة السماويّة و المجرّدين عن علايق الأجسام في الحقايق و تفاوتت في الكمالات لاجرم خصّص الملائكة بكونهم زوّارها : أى زوّار ساكنيها . إذ كان الرفيق ألصق و أقرب من الزائر . و عبّر بتلك الزيارة عن حضور الملأ الأعلى عند النفوس الكاملة عند [حين خ] انقطاعها عن العلايق الحسيّة والتفاتها عنها . ولمّا كان ذلك الحضور غير دايم بل بحسب فلتات النفس أشبه الزيارة فاستعير له لفظها . و إنّما كان الملك هو الزائر دون النفس لأنّ صورته و مثاله هو الواصل إلى النفس عند استعدادها لتصوّره من فيض واهب الصور . ثمّ عاد إلى التذكير بأمر المعاد وأمر بمبادرته إلى المعاجلة إلى ما يصلحه ويخلص من أهواله من سائر القربات إلى الله . و كذلك مسابقة الآجال .

و قوله : فإنّ الناس يوشك أن ينقطع بهم الأمل .

أى أمل الدنيا والبقاء فيها . و لأجل ذلك الانقطاع و قربه يجب أن يلتفت إلى صلاح المعاد . ويرهقهم الأجل : أى يلحقهم. فلأجل ذلك اللحوق يجب أن يسارع

إلى العمل لما يبقى . ويسدّ عنهم باب التوبة بإدراك الأجل فيجب مبادرتها .

وقوله : فقد أصبحتم . إلى قوله : قبلكم .

أي أصبحتم في حال الحياة والصحّة والأمن وساير الأسباب الّتي يتمنّى من كان قبلكم الرجعة إليها ، و يمكنكم معها العمل .

و قوله : و أنتم بنو سبيل . إلى قوله : بالزاد .

فالواو في أنتم للحال ، واستعار لهم وصف بنو السبيل لكونهم في هذه الدار بالعرض تقصد بهم العناية الإلهيّة غاية اُخرى ، وتحثّهم بالشريعة على الرحيل عن الدنيا فهم فيها كالمسافرين . فأبواب مدينتهم جود الله . و أقرب الأبواب إلى الدنيا الأرحام الّتي منها يخرجون إليها . و أبواب الخروج منها هي الموت . ولفظ السفر مستعار مشهور يقرب من الحقيقة . وظاهر أنّ داراً لا يبقى الإنسان فيها بل تكون مرافق لطريق دار اُخرى ليست بدار للسالك إلى تلك الدار ، و نبّه على إيذانهم فيها بالرحيل منها تنفيراً عن الركون إليها و اتّخاذها وطناً ، وعلى أمرهم باتّخاذ الزاد فيها تنبيهاً على أنّ هناك غاية لها يجب أن يستعدّ للسلوك إليها فيها . و لفظ الزاد مستعار لتقوى الله و طاعته الّتي هي زاد النفوس إلى حضرة ربّ العالمين .

و قوله : واعلموا . إلى قوله : نفوسكم .

تذكير بالوعيد على المعاصي ، وأمر لهم برحمة نفوسهم . و ذلك بالأعمال الصالحة واتّباع أوامر الله .

وقوله : فإنّكم قد جرّبتموها . إلى قوله : شيطان .

في قوّة احتجاج على وجوب تلك الرحمة . و تلخيصه أنّكم جرّبتم أنفسكم في هذه الاُمور الحقيرة فجزعتم ، و كلّ من جزع من أمثال هذه فبالأولى أن يجزع من كونه بين طابقين من نار ضجيع حجر وقرين شيطان ، و قد علمت فيما سلف أنّ للنار سبع طبقات وهي دركاتها، وضجيع حجر من قوله تعالى « وقودها الناس والحجارة»، و قرين شيطان من قوله « فكبكبوا فيها هم والغاوون و جنود إبليس أجمعون » (١)

(١) ٢٦ - ٩٤ .

وهم الشياطين ، وقوله « و من يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين»[(١)] إلى قوله « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنّكم في العذاب مشتركون » [(٢)].

و قوله : أعلمتم أنّ مالكاً . إلى قوله : زجرته .

من صفات النار المحسوسة ذكرها للتخويف والتحذير .

و قوله : أيّها اليفن الكبير . إلى قوله : السواعد .

خطاب للشيخ الكبير لأنّه أولى بالإقلاع عن المعصية لقربه من الآخرة . و سؤاله عن حاله سؤال تقريع و توبيخ على المعصية . وأطواق النار المحسوسة ظاهرة ، و أطواقها المعقولة تمكّن الهيئات البدنيّة من أعناق النفوس ، وأغلالها من سواعدها. ثمّ أخذ في التحذير من الله لغاية العمل بما يرضيه حال الصحّة والفسحة قبل لحوق ضدّيهما . ثمّ في الأمر بالسعى لغاية فكاك رقابهم من النار . قبل أن تغلق رهائنها بآثامها . و قد علمت وجه الاستعارة هنا للرهن . ثمّ في الأمر بالسهر ، و كنّى به عن قطع الليل بالعبادة كقوله تعالى « و من الليل فاسجد له و سبّحه ليلاً طويلاً » [(٣)] و إنّما خصّ الليل لأنّه مظنّة الخلوة بالله والفراغ من الناس ، و لأنّ النهار محلّ عبادة اُخرى كالجهاد والكدح للعيال . ثم بتضمير البطون ، و كنّى به عن صيام النهار. ثمّ باستعمال أقدامهم ، و كنّى به عن القيام في الصلاة . ثمّ بإنفاق أموالهم ، و كنّى به عن الصدقات والزكوات في سبيل الله . ثمّ بالأخذ من أجسادهم ، و كنّى به عن إذابتها بالصيام و القيام للصلوات و إيثار القشف المستلزم للإعراض عن تربيته هذه الأجساد لاستلزام ذلك حبّ الدنيا والإقبال على لذّاتها . ولاشكّ أنّ الأخذ من الجسد بهذه العبادات جود على النفس بملكات الخير والقرب من الله تعالى ، ولذلك قال : فجودوا بها على أنفسكم ولاتبخلوا بها عنها . وفي ذكر أنّ إتعاب الجسد جود على النفس ترغيب فيه . ثمّ استشهد بالآيتين على وعد الله بالنصر لمن نصره ، و بمضاعفة الأجر لمن أقرضه بعد أمره بنصر الله بامتثال أوامره وبقرضه بالصدقات ، ووجه استعارة لفظ القرض كثرة الأوامر الإلهيّة الطالبة للصدقات فاُشبهت طلب

---

(١) ٤٣ - ٣٥ . (٢) ٤٣ - ٣٨ . (٣) ٧٦ - ٢٦ .

المحتاج المستقرض ، وفائدة هذه الاستشهاد إلى قوله : أيّكم أحسن عملا . إعلامهم بانّه الغنّي المطلق عن عباده فيما طلبه منهم من نصرة و قرض ، وبيان غاية العناية الالهيّة منهم بذلك وهو الابتلاء ، وقد علمت ابتلاء الله تعالى لخلقه غير مرّة . ثمّ أعاد الأمر بالمبادرة إلى أعمال الآخرة لغاية الكون مع خزّان الله [جيران الله - خ -] في جنّته مرافقين لرسله كما قال تعالى « وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » (١) ومرافقة رسله كقوله تعالى « اُولئك مع الذّين أنعم الله عليهم من النبّييّن و الصديقين و الشهداء والصالحين و حسن اُولئك رفيقا » (٢) ومزارين للملائكة كقوله تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » (٣) وتكرمة أسماعهم أن يسمع حسيس نار أبداً كقوله تعالى « لايسمعون حسيسها وهم فيمااشتهت أنفسهم خالدون » (٤) و صيانة أجسادهم أن يلقى لغوباً ونصباً كقوله تعالى « لايمسّنا فيها نصب ولايمسّنا فيها لغوب » (٥) .

وقوله : ذلك فضل الله الآية .

اقتباس للآية ووجه الاقتباس ظاهر .

وقوله : أقول . إلى آخره .

خاتمة الخطبة ، و فيها الاستعانة بالله على النفوس الأمّارة بالسوء في قهرها وتطويعها للنفوس المطمئنّة فإنّه نعم المعين ونعم الوكيل .

١٨٣ — وَمِن كَلامٍ لَهُ عَلَيهِ السَّلامُ

قاله للبرج بن مسهر الطائى ، وقد قال له بحيث يسمعه : « لا حكم إلا لله » ، وكان من الخوارج

اُسْكُتْ ! قَبَّحَكَ اللهُ يا أَثْرَمُ ، فَوَاللهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلاً شَخْصُكَ ، خَفِيّاً صَوْتُكَ ، حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ .

---

(١) ٣٩ - ٧٣ (٢) ٤ - ٧١ (٣) ١٣ - ٢٤
(٤) ٢١ - ١٠٢ (٥) ٣٥ - ٣٢

أقول: هو البرج بالباء المضمومة و الجيم . و قبّحه الله: نحّاه عن الخير . وأثرم: ساقط الثنية . والضئيل: الصغير الحقير النحيف . ونعر: صاح . ونجم: طلع.

وكان البرج شاعراً مشهوراً من شعراء الخوارج نادى بشعارهم بحيث يسمعه عليه السلام فزجره و قبّحه ودعاه بآفته إهانة له و انتقاصاً كما هو العادة في إهانة ذوى العاهات بذكر آفاتهم ، و كنّى بضؤولة شخصه عند ظهور الحقّ عن حقارته في زمن العدل بين الجماعة وخمول ذكره ـ وظهور الحقّ زمان قوّة الإسلام وقبل ظهور الفتن وقوّة الباطل ـ ، وبخفاء صوته عن عدم الالتفات إلى أقواله وحقارته ، و استعار لفظ النعير لظهور الباطل ملاحظة لشبهه في قوّته و ظهوره بالرجل الصائل الصائح بكلامه عن جرأة و شجاعة ، و شبّه ظهوره بين الناس و ارتفاع ذكره عند ظهور الباطل وقوّته بظهور قرن الماعز في السرعة بغتة: أى طلعت بلاشرف ولاشجاعة ولاقدم بل على غفلة كنبات قرن الماعز و من البلاغة تشبيه من يراد إهانته بالمهين الحقير وتشبيه من يراد تعظيمه بالعظيم الخطير، وبالله التوفيق .

١٨٤ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

روى أن صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام — يقال له : همام — كان رجلاعابدا ، فقال له : ياأمير المؤمنين ، صف لى المتقين حتى كأنى أنظر إليهم ! فتثاقل عليه السلام عن جوابه ، ثم قال : يَاهَمَّامُ اتَّقِ اللهَ وَأَحْسِنْ فَإِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ ـ حِينَ خَلَقَهُمْ ـ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ

أَطَاعَهُ ، فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ ، فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ : مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ ، وَمَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ ، غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ ، نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ ، وَلَوْلَا الأَجَلُ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ ، عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَادُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ : قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ ، صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً . تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ ، أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا ، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا . أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ : يُرَتِّلُونَهُ تَرْتِيلًا ، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، وَيَسْتَثِيرُونَ دَوَاءَ دَائِهِمْ ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا ، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا ، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبُ أَعْيُنِهِمْ ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ ، مُفْتَرِشُونَ

لجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ ، يَطَّلِبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِى فَكَاكِ رِقَابِهِمْ وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْىَ الْقِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى ، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ ، وَيَقُولُ قَدْ خُولِطُوا : وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ : لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ ، إِذَا زُكِّىَ أَحَدُهُمْ ، خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ ! فَيَقُولُ : أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِى مِنْ غَيْرِى ؛ وَرَبِّى أَعْلَمُ بِى مِنِّى بِنَفْسِى . اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا يَقُولُونَ ، وَاجْعَلْنِى أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَاغْفِرْ لِى مَا لَا يَعْلَمُونَ .

فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ : أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِى دِينٍ ، وَحَزْمًا فِى لِينٍ ، وَإِيمَانًا فِى يَقِينٍ ، وَحِرْصًا فِى عِلْمٍ ، وَعِلْمًا فِى حِلْمٍ ، وَقَصْدًا فِى غِنًى ، وَخُشُوعًا فِى عِبَادَةٍ ، وَتَجَمُّلًا فِى فَاقَةٍ ، وَصَبْرًا فِى شِدَّةٍ ، وَطَلَبًا فِى حَلَالٍ ، وَنَشَاطًا فِى هُدًى ، وَتَحَرُّجًا عَنْ طَمَعٍ ، يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ ، يُمْسِى وَهَمُّهُ الشُّكْرُ ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ ، يَبِيتُ حَذِرًا ، وَيُصْبِحُ لِمَا فَرِحًا : حَذِرًا حَذِرَ مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ . إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ ، قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى ،

يمزج الحلم بالعلم ، والقول بالعمل ، تراه قريباً أمله ، قليلاً زلله ، خاشعاً قلبه ، قانعة نفسه ، منزوراً أكله ، سهلاً أمره ، حريزاً دينه ، ميتة شهوته ، مكظوماً غيظه ، الخير منه مأمول . والشر منه مأمون ، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين ، وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين ، يعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيداً فحشه ، ليناً قوله ، غائباً منكره ، حاضراً معروفه ، مقبلاً خيره ، مدبراً شره ، في الزلازل وقور ، وفي المكاره صبور ، وفي الرخاء شكور ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه ، لا يضيع ما استحفظ ، ولا ينسى ما ذكر ، ولا ينابز بالألقاب ، ولا يضار بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل في الباطل ، ولا يخرج من الحق . إن صمت لم يغمه صمته ، وإن ضحك لم يعل صوته ، وإن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له . نفسه منه في عناء ، والناس منه في راحة . أتعب نفسه لآخرته ، وأراح الناس من نفسه . بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة . ليس تباعده بكبر وعظمة ، ولا دنوه بمكر وخدعة

قال : فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها ، فقال أمير المؤمنين

عليه السلام :

أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ ! ثُمَّ قَالَ : أَهكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا؟

فقال له قائل : فما بالك يا أمير المومنين فقال : وَيْحَكَ ! إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لَا يَعْدُوهُ ، وَسَبَباً لَا يَتَجَاوَزُهُ ، فَمَهْلاً لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا ؛ فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ ! !

أقول : و من هيهنا اختلفت نسخ النهج فكثير منها تكون هذه الخطبة فيها أوّل المجلد الثانى منه بعد الخطبة المسمّاة بالقاصعة ، ويكون عقيب كلامه للبرج بن مسهر الطائى قوله : ومن خطبة له عليه السلام الحمدلله الذّى لاتدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد ، و كثير من النسخ تكون هذه الخطبة فيها متّصلة بكلامه عليه السلام للبرج بن مسهر ويتأخّر تلك الخطبة فيكون بعد قوله : ومن كلامه له عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويتّصل ذلك إلى تمام الخطبة المسمّاة بالقاصعة . ثمّ يليه قوله : باب المختار من كتب أمير المؤمنين ورسائله ، وعليه جماعة الشارحين كالإمام قطب الدين أبى الحسن الكيدرىّ و الفاضل عبدالحميدبن أبى الحديد ، و وافقتهم هذا الترتيب لغلبة الظنّ باعتمادهم على النسخ الصحيحة . فأمّا همام هذه فهو همام بن شريح بن يزيد بن مرّة بن عمروبن جابربن عوف الأصهب ، وكان من شيعة على عليه السلام ، وأوليائه ناسكاً عابداً ، و تثاقله عليه السلام عن جوابه لما رأى من استعداد نفسه لأثر الموعظة ، وخوفه عليه أن يخرج به خوف الله إلى انزعاج نفسه وصعوقها . فأمره بتقوى الله : أى في نفسه أن يصيبها فادح بسبب سؤاله ، و أحسن : أى أحسن إليها بترك تكليفها فوق طوقها ، و لذلك قال عليه السلام حين صعق همام : أما و الله لقد كنت أخافها عليه . فحيث لم يقنع همام إلّا بماسأل ، و عزم عليه بذلك : أى ألحّ عليه في

السؤال و أقسم ، أجابه .

فان قلت : كيف جاز منه عليه السلام أن يجيبه مع غلبة ظنّه بهلاكه وهو كالطبيب إنّما يعطى كلّاً من المرضى بحسب احتمال طبيعته من الدواء .

قلت : إنّه لم يكن يغلب على ظنّه عليه السلام إلّا الصعقة عن الوجد الشديد فأمّا أنّ تلك الصعقة فيها موته فلم يكن مظنوناً له . وإنّما قدّم بيان كونه تعالى غنيّاً عن الخلق في طاعتهم وآمناً منهم في معصيتهم لأنّه لمّا كانت أوامره تعالى بأسرها أو أكثرها يعود إلى الأمر بتقواه وطاعته وكان أشرف مايتقرّب إليه البشر بالتقوى ، وهو في معرض صفة المتّقين فربّما خطر ببعض أوهام الجاهلين أنّ لله تعالى في تقواه وطاعته منفعة ، وله بمعصيته مضرّة فصدّره الخطبة بتنزيهه تعالى عن الانتفاع والتضرّر . وقد مرّ برهان ذلك غير مرّة .

و قوله : فقسم . إلى قوله : مواضعهم .

تقرير وتأكيد لكمال غناه عنهم لأنّه إذا كان وجوده هو مبدء خلقهم وقسمة معايشهم و وضعهم من الدنيا في مراتبهم ومنازلهم من غنيّ و فقير وشريف و وضيع فهوا الغنيّ المطلق عنهم ، وإليه الإشارة بقوله « تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا و رفعنا بعضهم فوق بعض درجات »[(١)] ثمّ أخذ في غرض الخطبة ، وهووصف المتّقين فوصفهم بالوصف المجمل . فقال : فالمتّقون فيها هم أهل الفضايل : أى الّذين استجمعوا الفضايل المتعلّقة بإصلاح قوّتى العلم و العمل ، ثمّ شرع في تفصيل تلك الفضايل و نسقها :

فالاُولى : الصواب في القول و هو فضيلة العدل المتعلّقة باللسان ، و حاصله أن لايسكت عمّا ينبغى أن يقال فيكون مفرّطاً ، ولا يقول ما ينبغى أن يسكت عنه فيكون مفرطاً بل يضع كلّاً من الكلام في موضعه اللايق به ، وهو أخصّ من الصدق لجواز أن يصدق الإنسان فيما لاينبغى من القول .

الثانية : و ملبسهم الاقتصاد و هو فضيلة العدل في الملبوس فلايلبس مايلحقه

---

(١) ٤٣ - ٣١ .

بدرجة المترفين ، ولا مايلحقه بأهل الخسّة و الدناءة ممّا يخرج به عن عرف الزاهدين في الدنيا .

الثالثة : مشى التواضع ، و التواضع ملكة تحت العفّة تعود إلى العدل بين رذيلتي المهانة والكبر ، ومشى التواضع مستلزم للسكون والوقار عن تواضع نفسهم .

الرابعة : غضّ الأبصار عمّا حرّم الله ، وهو ثمرة العفّة .

الخامسة : وقوفهم أسماعهم على سماع العلم النافع ، و هو فضيلة العدل في قوّة السمع ، والعلوم النافعة ماهو كمال القوّة النظريّة من العلم الإلهي ومايناسبه ، وما هو كمال للقوّة العمليّة وهي الحكمة العمليّة كما سبق بيانها .

السادسة : نزول أنفسهم منهم في البلاء كنزولها في الرخاء : أى لاتقنط من بلاء ينزل بها ولا يبطر برخاء يصيبها بل مقامها في الحالين مقام الشكر . والذّى صفة مصدر محذوف ، و الضمير العايد إليه محذوف أيضاً ، و التقدير نزلت كالنزول الّذى نزلته في الرخاء ، ويحتمل أن يكون المراد بالّذى الّذين محذف النون كما في قوله تعالى « كالذّى خاضوا » و يكون المقصود تشبيههم حال نزول أنفسهم منهم في البلاء بالّذين نزلت أنفسهم منهم في الرخاء ، و المعنى واحد .

السابعة : غلبة الشوق إلى ثواب الله و الخوف من عقابه على نفوسهم إلى غاية أنّ أرواحهم لاتستقرّ في أجسادهم من ذلك لولا الآجال الّتي كتبت لهم ، وهذا الشوق والخوف إذابلغ إلى حدّ الملكة فإنّه يستلزم دوام الجدّ في العمل والإعراض عن الدنيا ، ومبدء هما تصوّر عظمة الخالق ، وبقدر ذلك يكون تصوّر عظمة وعده و وعيده ، و بحسب قوّة ذلك التصوّر يكون قوّة الخوف و الرجاء ، وهما بابان عظيمان للجنّة .

الثامنة : عظم الخالق في أنفسهم ، وذلك بحسب الجواذب الإلهيّة إلى الاستغراق في معرفته و محبّته ، وبحسب تفاوت ذلك الاستغراق يكون تفاوت تصوّر العظمة ، وبحسب تصوّر عظمته تعالى يكون تصوّرهم لأصغريّة مادونه و نسبته إليه في أعين بصائرهم .

وقوله : فهم والجنّة كمن رآها . إلى قوله : معذّبون .

إشارة إلى أنّ العارف و إن كان في الدنيا بجسده فهو في مشاهدته بعين بصيرته لأحوال الجنّة و سعادتها و أحوال النار و شقاوتها كالّذين شاهدوا الجنّة بعين حسّهم و تنعّموا فيها ، وكالّذين شاهدوا النار وعذّبوا فيها . و هى مرتبة عين اليقين . فحسب هذه المرتبة كانت شدّة شوقهم إلى الجنّة و شدّة خوفهم من النار .

التاسعة : حزن قلوبهم ، وذلك ثمرة خوف الغالب .

العاشرة : كونهم مأمونى الشرّ ، و ذلك أنّ مبدء الشرور محبّة الدنيا وأباطيلها والعارفون بمعزل عن ذلك .

الحادية عشر : نحافة أجسادهم ، و مبدء ذلك كثرة الصيام و السهر وجشوبة المطعم وخشونة الملبس وهجر الملاذّ الدنيويّة .

الثانية عشر : خفّة حاجتهم ، و ذلك لاقتصارهم من حوائج الدنيا على القدر الضروريّ من ملبس ومأكل ، ولاأخفّ من هذه الحاجة .

الثالثة عشر : عفّة أنفسهم ، وملكة العفّة فضيلة القوّة الشهويّة ، وهى الوسط بين رذيلتى خمود الشهوة و الفجور .

الرابعة عشر : الصبر على المكاره أيّام حياتهم من ترك الملاذّ الدنيويّة ، و احتمال أذى الخلق ، و قد عرفت أنّ الصبر مقاومة النفس الأمّارة بالسوء لئلّا ينقاد إلى قبائح اللذّات ، وإنّما ذكر قصر مدّة الصبر و استعقابه للراحة الطويلة ترغيباً فيه ، و تلك الراحة بالسعادة في الجنّة كما قال تعالى « و جزاهم بما صبروا جنّة و حريرا » الآية .

وقوله : تجارة مربحة .

استعار لفظ التجارة لأعمالهم الصالحة و امتثال أوامر الله ، و وجه المشابهة كونهم متعوّضين بمتاع الدنيا و بحركاتهم في العبادة متاع الآخرة ، و رشّح بلفظ الربح لأفضليّة متاع الآخرة و زيادته في النفاسة على ماتركوه ، و ظاهر أنّ ذلك بتيسير الله لأسبابه وإعدادهم له بالجواذب الإلهيّة .

الخامسة عشر : عدم إرادتهم للدنيا مع إرادتها لهم ، وهو إشارة إلى الزهد الحقيقي ، و هو ملكة تحت العفّة ، و كنّى بإرادتها عن كونهم أهلاً لأن يكونوا فيها رؤساء وأشرافا كقضاة و وزراء و نحو ذلك ، و كونها بمعرض أن تصل إليهم لو أرادوها ، ويحتمل أن يريد أرادهم أهل الدنيا فحذف المضاف .

السادسة عشر : افتداء من أسرته لنفسه منها ، و هو إشارة إلى من تركها وزهد فيها بعد الانهماك فيها و الاستمتاع بها ففكّ بذلك الترك والإعراض والتمرّن على طاعة الله أغلال الهيئات الرديئة المكتسبة منها من عنقه ، و لفظ الأسر استعارة في تمكّن تلك الهيئات من نفوسهم ، و لفظ الفدية استعارة لتبديل ذلك الاستمتاع بها بالإعراض عنها و المواظبة على طاعة الله ، و إنّما عطف بالواو في قوله : ولم يريدوها ، وبالفاء في قوله : ففدوا. لأنّ زهد الإنسان في الدنيا كما يكون متأخّراً عن إقبالها عليه كذلك قد يكون متقدّماً عليه لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : و من جعل الآخرة أكبر همّه جمع الله عليه همّه وأتته الدنيا وهي راغمة. فلم يحسن العطف هنا بالفاء ، و أمّا الفدية فلمّا لم يكن إلّا بعد الأسر لاجرم عطفها بالفاء .

السابعة عشر : كونهم صافّين أقدامهم بالليل يتلون القرآن ويرتّلونه . إلى قوله : آذانهم . وذلك إشارة إلى تطويع نفوسهم الأمّارة بالسوء بالعبادات ، و شرح لكيفيّة استثارتهم للقرآن العزيز في تلاوته وغاية ترتيلهم له بفهم مقاصده وتحزينهم لأنفسهم به عند ذكر الوعيدات من جملة استثارتهم لا دواء دائهم ، ولمّا كان داؤهم هو الجهل وسائر رذائل العمليّة كان دواء الجهل بالعلم ، و دواء كلّ رذيلة الحصول على الفضيلة المضادّة. فهم بتلاوة القرآن يستثيرون بالتحزين الخوف من وعيد الله المضادّ للانهماك في الدنيا ، و دوائه العلم الّذى هو دواء الجهل ، و كذلك كلّ فضيلة حثّ القرآن عليها فهي دواء لما يضادّها من الرذايل ، و باقي الكلام شرح لكيفيّة التحزين والتشويق .

وقوله : فهم حانون على أوساطهم .

ذكر لكيفيّة ركوعهم .

وقوله : مفترشون لجباههم . إلى قوله : أقدامهم .

إشارة إلى كيفيّة سجودهم، و ذكر الأعضاء السبعة .

وقوله : يطّلبون . إلى قوله : رقابهم .

إشارة إلى غايتهم من عبادتهم تلك .

الثامنة عشر : ـ من صفات النهار ـ كونهم حكماء ، و أراد الحكمة الشرعيّة وما فيها من كمال القوّة العلميّة والعمليّة لكونها المتعارفة بين الصحابة والتابعين ، وروى: حلماء . و الحلم فضيلة تحت ملكة الشجاعة هى الوسط بين رذيلتى المهانة و الإفراط في الغضب ، و إنّما خصّ الليل بالصلاة لكونها أولى بها من النهار كما سبق .

التاسعة عشر : كونهم علماء ، و أراد كمال القوّة النظريّة بالعلم النظرىّ وهومعرفة الصانع وصفاته .

العشرون : كونهم أبرار، والبرّ يعود إلى العفيف لمقابلته الفاجر .

الحادية و العشرون : كونهم أتقياء، و المراد بالتقوى هيهنا الخوف من الله . وقدمّ ذكر العفّة والخوف ، وإنّما كرّرها هنا في إعداد صفاتهم بالنهار و ذكرها هناك في صفاتهم المطلقة .

قوله : وقد براهم الخوف . إلى قوله : عظيم .

شرح لفعل الخوف الغالب بهم ، وإنّما يفعل الخوف ذلك لاشتغال النفس المدبّرة للبدن به عن النظر في صلاح البدن ، ووقوف القوّة الشهويّة و الغاذية عن إدّاء بدل ما يتحلّل ، و شبّه برى الخوف لهم ببرى القداح و وجه التشبيه شدّة النحافة ، و يتبع ذلك تغيّر السحنات والضعف عن الانفعالات النفسانيّة من الخوف والحزن حتّى يحسبهم الناظر مرضى وإن لم يكن بهم مرض ، و يقول قد خولطوا إشارة إلى مايعرض لبعض العارفين عند اتّصال نفسه بالملأ الأعلى و اشتغالها عن تدبير البدن وضبط حركاته من أن يتكلّم بكلام خارج عن المتعارف مستبشع بين أهل الشريعة الظاهرة فينسب ذلك منه إلى الاختلاط و الجنون و تارة إلى الكفرو

الخروج عن الدين كما نقل عن الحسين بن منصور الحلّاج وغيره .

وقوله : ولقد خالطهم أمر عظيم .

وهو اشتغال أسرارهم بملاحظة جلال الله و مطالعة أنوار الملأ الأعلى .

الثانية و العشرون : كونهم لايرضون القليل . إلى قوله : الكثير ، و ذلك لتصوّرهم شرف غايتهم المقصودة بأعمالهم .

وقوله : فهم لأنفسهم متّهمون . إلى قوله : مالايعلمون .

فتهمتهم لأنفسهم وخوفهم من أعمالهم يعود إلى شكّهم فيما يحكم به أوهامهم من حسن عبادتهم ، و كونها مقبولة أو واقعة على الوجه المطلوب الموصل إلى الله تعالى فانّ هذا الوهم يكون مبدءاً للعجب بالعبادة والتقاصر عن الازدياد من العمل. والتشكّك في ذلك و تهمة النفس بانقياد ها في ذلك الحكم للنفس الأمّارة يستلزم خوفها أن تكون تلك الأعمال قاصرة عن الوجه المطلوب و غير واقعة عليه فيكون باعثاً على العمل وكاسراً للعجب به ، وقد عرفت أن العجب من المهلكات كما قال عليه السلام : ثلاث مهلكات : شحّ مطاع وهوى متّبع وإعجاب المرء بنفسه . و كذلك خوفهم من تزكية الناس لهم هوالدواء لماينشأ عن تلك التزكية من الكبر والعجب بمايزكّون به. فيكون جواب أحدهم عند تزكيته: إنّى أعلم بنفسى من غيرى . إلى آخره .

ثمّ شرع بعد ذلك في علاماتهم الّتي بجملتها يعرف أحدهم. والصفات السابقة وإن كان كثير منها ممايخص ّأحدهم ويعرف به إلاّ أنّ بعضها قد يدخله الرياء فلايدخل على التقوى الحقّة فجمعها هيهنا ونسقها :

فالأولى : القوّة في الدين ، و ذلك أن يقاوم في دينه الوسواس الخنّاس و لايدخل فيه خداع الناس ، وهذا إنّما يكون في دين العالم .

الثانية : الحزم في الأمور الدنيويّة و التثبّت فيها ممزوجا باللين للخلق و عدم الفظاظة عليهم كما في المثل: لاتكن حلواً فتسترط ولامرّاً فتلفظ . و هي فضيلة العدل في المعاملة مع الخلق ، وقدعلمت أنّ اللين قديكون للتواضع المطلوب بقوله

« واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين »(١) وقد يكون عن مهانة وضعف يقين ، و الأوّل هو المطوب وهو المقارن للحزم في الدين و مصالح النفس ، والثانى رذيلة ولايمكن معه الحزم لانفعال المهين عن كلّ جاذب .

الثالثة : الايمان في اليقين ، و لمّا كان الايمان عبارة عن التصديق بالصانع وبما وردت به الشريعة ، و كان ذلك التصديق قابلاً للشدّة و الضعف ، فتارة يكون عن التقليد وهو الاعتقاد المطابق لالموجب ، وتارة يكون عن العلم وهو الاعتقاد المطابق لموجب هو الدليل ، وتارة عن العلم به مع العلم بأنّه لايكون إلّا كذلك ، وهو علم اليقين ـ ومحقّقوا السالكين لايقفون عند هذه المرتبة بل يطلبون اليقين بالمشاهدة بعد طرح حجب الدنيا والاعراض عنها ـ أراد أنّ علمهم علم يقين لايتطرّق إليه احتمال .

الرابعة : الحرص في العلم والازدياد منه .

الخامسة : مزج العلم و هو فضيلة القوّة الملكيّة بالحلم ، و هو من فضايل القوّة السبعيّة .

السادسة : القصد في الغنى ، وهو فضيلة العدل في استعمال متاع الدنيا وحذف الفضول عن قدر الضرورة .

السابعة : الخشوع في العبادة وهو من ثمرة الفكر في جلال المعبود وملاحظة عظمته الّذى هو روح العبادة .

الثامنة : التحمّل في الفاقه ، وذلك بترك الشكوى إلى الخلق والطلب منهم ، وإظهار الغنى عنهم. وذلك ينشأ عن القناعة والرضا بالقضاء وعلوّ الهمّة ، ويعين على ذلك ملاحظة الوعد الأجلّ وما اُعدّ للمتّقين .

التاسعة : و كذلك الصبر في الشدّة .

العاشرة : الطلب في الحلال ، وينشأ عن العفّة .

الحادية عشر : النشاط في الهدى و سلوك سبيل الله ، وينشأ عن قوّة الاعتقاد فيما وعد المتّقون وتصوّر شرف الغاية .

---

(١) ٢٦ ـ ٢١٥ .

الثانية عشر : عمل الصالحات على وجل ؛ أي من أن يكون على غير الوجه اللائق فلا يقبل كما روى عن زين العابدين عليه السلام أنّه كان في التلبية وهو على راحلته فخرّ مغشيّاً عليه فلمّا أفاق قيل له ذلك . فقال: خشيت أن يقول لي ربّي : لالبّيك ولا سعديك .

الثالثة عشر : أن يكون همّهم عند المساء الشكر على ما رزقوا بالنهار و ما لم يرزقوا ، ويصبحوا وهمّهم الذكر لله ليذكرهم فيرزقهم من الكمالات النفسانيّة والبدنيّة كما قال تعالى « فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » .

الرابعة عشر : أن يبيت حذراً ويصبح فرحاً إلى قوله : الرحمة تفسير للمحذور ومابه الفرح ،وليس مقصوده تخصيص البيات بالحذر والصباح بالفرح كما يقول أحدنا يمسى فلان ويصبح حذراً فرحاً ، و كذلك تخصيصه الشكر بالمساء والذكر بالصباح يحتمل أن لايكون مقصوداً .

الخامسة عشر : قوله إن استصعبت . إلى قوله : تحبّ . إشارة إلى مقاومته لنفسه الأمّارة بالسوء عند استصعابها عليه، وقهره لها على ماتكرهه وعدم مطاوعته لها في ميولها الطبيعيّة ومحابّها .

السادسة عشر : أن يرى قرّة عينه فيما لايزول من الكمالات النفسانيّة الباقية كالعلم والحكمة ومكارم الأخلاق المستلزمة للذّات الباقية والسعادة الدائمة ، وقرّة عينه كناية عن لذّته وابتهاجه لاستلزامها لقرار العين وبردها برؤية المطلوب، وزهادته فيما لايبقى من متاع الدنيا .

السابعة عشر : أن يمزج بالحلم العلم فلايجهل و يطيش ، و المقول بالعمل فلايقول مالايفعل فلا يأمر بمعروف ويقف دونه ولاينهى عن منكر ثمّ يفعله ، ولايعد فيخلف فيدخل في مقت الله كما قال تعالى « كبر مقتاً عندالله أن تقولوا ما لاتفعلون » (١).

الثامنة عشر : قصر أمله وقربه، وذلك لكثرة ذكر الموت والوصول إلى الله .

التاسعة عشر : قلّة زلله قد عرفت أنّ زلل العارفين يكون من باب ترك الأولى

(١) ٦١ - ٣ .

لأنّ صدور الخيرات عنهم صادر ملكة والجواذب فيهم إلى الزلل والخطيئات نادرة تكون لضرورة منهم أو سهو ، ولاشكّ في قلّته .

العشرون : خشوع قلبه عن تصوّر عظمته المعبود وجلاله .

الحادية والعشرون : قناعة نفسه، وينشأ عن ملاحظة حكمة الله في قدرته وقسمته الأرزاق، ويعين عليها تصوّر فوائدها الحاضرة وغايتها في الآخرة .

الثانية والعشرون : قلّة أكله ، و ذلك لما يتصوّر في البطنة من ذهاب الفطنة و زوال الرقّة وحدوث القسوة والكسل عن العمل .

الثالثة والعشرون : سهولة أمره : أى لايتكلّف لأحد ولايكلّف أحداً.

الرابعة والعشرون : حرز دينه فلا يهمل منه شيئاً ولايطرق إليه خللا .

الخامسة والعشرون : موت شهوته ، و لفظ الموت مستعار لخمود شهوته عمّا حرّم عليه. ويعود إلى العفّة .

السادسة والعشرون : كظم غيظه ، وهو من فضائل القوّة الغضبيّة .

السابعة والعشرون : كونه مأمول الخير وذلك لأكثريّة خيريّته، مأمون الشرور و ذلك لعلم الخلق بعدم قصده للشرور .

الثامنة والعشرون : قوله : إن كان في الغافلين . إلى قوله : الغافلين : أى إن رآه الناس في عداد الغافلين عن ذكر الله لتركه الذكر باللسان كتب عندالله من الذاكرين لاشتغال قلبه بالذكر و إن تركه بلسانه ، و إن كان من الذاكرين بلسانه بينهم فظاهر أنّه لايكتب من الغافلين . و لذكر الله ممادح كثيرة و هو باب عظيم من أبواب الجنّة والاتّصال لجناب الله ، وقد أشرنا إلى فضيلته وأسراره .

التاسعة والعشرون : عفوه عمّن ظلمه ، والعفو فضيلة تحت الشجاعة ، وخصّ من ظلمه ليتحقّق عفوه مع قوّة الداعى إلى الانتقام .

الثلاثون : ويعطى من حرمه ، وهى فضيلة تحت السخاء .

الحادية والثلاثون : ويصل من قطعه ، والمواصلة فضيلة تحت العفّة .

الثانية والثلاثون : بعد فحشه ، و أراد ببعد الفحش عنه أنّه قلّما يخرج في

أقواله إلى مالا ينبغي .

الثالثة والثلاثون : ليّنة في القول عندمحاورة الناس ووعظهم ومعاملتهم ، وهو من أجزاء التواضع .

الرابعة والثلاثون : غيبة منكره و حضور معروفه ، و ذلك للزومه حدود الله.

الخامسة والثلاثون: إقبال خيره وإدبار شرّه، وهو كقوله: الخير منه مأمول والشرّ منه مأمون ، ويحتمل باقبال خيره أخذه في الازدياد من الطاعة وتشميره فيها، وبقدر ذلك يكون إدباره عن الشرّ لأنّ من استقبل أمراً وسعى فيه بعد عمّا يضادّه وأدبر عنه .

السادسة والثلاثون : و قاره في الزلازل ، و كنّى بها عن الأمور العظام والفتن الكبار المستلزمة لاضطراب القلوب وأحوال الناس. والوقار ملكة تحت الشجاعة .

السابعة والثلاثون : كثرة صبره في المكاره ، و ذلك عن ثباته وعلوّ همّته عن أحوال الدنيا .

الثامنة والثلاثون : كثرة شكره في الرخاء ، وذلك لمحبّة المنعم الأوّل - جلّت قدرته - فيزداد شكره في رخائه وإن قلّ .

التاسعة والثلاثون : كونه لايحيف على من يبغض ، وهو سلب للحيف والظلم مع قيام الداعى إليهما و هو البغض لمن يتمكّن من حيفه وظلمه .

الأربعون : كونه لايأثم فيمن يحبّ ، و هو سلب لرذيلة الفجور عنه باتّباع الهوى فيمن يحبّ إمّا باعطائه مالا يستحقّ أو دفع ما يستحقّ عليه عنه كما يفعله قضاة السوء وأمراء الجور. فالمتّقى لايأثم بشىء من ذلك مع قيام الداعى إليه وهو المحبّة لمن يحبّه بل يكون على فضيلة العدل في الكلّ على السواء .

الحادية والأربعون : اعترافه بالحقّ قبل أن يشهدوا عليه ، و ذلك لتحرّزه في دينه من الكذب . إذ الشهادة إنّما يحتاج إليها مع إنكار الحقّ، وذلك كذب .

الثانية و الأربعون : كونه لا يضيع أماناته ولا يفرط فيما استحفظه الله من دينه و كتابه ، و ذلك لورعه و لزوم حدود الله .

الثالثة والأربعون : ولا ينسى ما ذكر من آيات الله وعبره وأمثاله ولا يترك

العمل بها ، و ذلك لمداومته ملاحظتها و كثرة إخطارها بباله و العمل بها لغايته المطلوبة منه.

الرابعة والأربعون : ولاينابز بالألقاب ، و ذلك لملاحظته النهى في الذكر الحكيم « ولاتنابزوا بالألقاب »[1] و لسرّ ذلك النهى و هو كون ذلك مستلزماً لإثارة الفتن والتباغض بين الناس ، والفرقة المضادّة لمطلوب الشارع .

الخامسة والأربعون : ولايضارّ بالجار لملاحظة وصيّة الله تعالى « و الجارذى القربى و الجار الجنب »[2] ووصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المرفوع إليه: أوصانى ربّى بالجار حتّى ظننت أنّه يورّثه ، و لغاية ذلك وهى الاُلفة والاتّحاد في الدين .

السادسة و الأربعون : ولا يشمت بالمصائب ، و ذلك لعلمه بأسرار القدر، و ملاحظته لأسباب المصائب ، و أنّه في معرض أن تصيبه فيتصوّر أمثالها في نفسه فلا يفرح بنزولها على غيره .

السابعة والأربعون : أنّه لايدخل الباطل ولايخرج عن الحقّ : أى لايدخل فيما يبعّدعن الله تعالى من باطل الدنيا ولا يخرج عمّا يقرّب إليه من مطالبه الحقّة، و ذلك لتصوّر شرف غايته .

الثامنة والأربعون : كونه لايغمّه صمته لوضعه كلاًّ من الصمت و الكلام في موضعه ، وإنّما يستلزم الغمّ الصمت عمّا ينبغى من القول وهوصمت في غير موضعه .

التاسعة و الأربعون : كونه لايعلو ضحكه ، و ذلك لغلبة ذكر الموت وما بعده على قلبه ، و ممّا نقل من صفات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: كان أكثر ضحكه التبسّم ، وقد يفترّ أحيانا ، ولم يكن من أهل القهقهة والكركرة . وهما كيفيّتان للضحك .

الخمسون : صبره في البغى عليه إلى غاية انتقام الله له ، و ذلك منه نظراً إلى ثمرة الصبر و إلى الوعد الكريم ذلك « و من عاقب بمثل ماعوقب به ثمّ بغى عليه لينصرنّه الله »[3] الآية و قوله « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

الحادية والخمسون : كون نفسه منه في عناء : أى نفسه الأمّارة بالسوء لمقاومته

---

(١) ٤٩ - ١١. (٢) ٤ - ٤٠. (٣) ٢٢ - ٥٩.

لها وقهرها ومراقبته إيّاها ، والناس من أذاه في راحة لذلك .

الثانية والخمسون : كون بعده عمّن تباعد عنه لزهده فيما في أيدى الناس و نزاهته عنه لاعن كبر وتعظيم عليهم ، و كذلك دنوّه ممن دنا منه عن لين و رحمة منه لهم لابمكر بهم وخديعة لهم عن بعض المطالب كما هو عادة الخبيث المكّار . وهذه الصفات والعلامات قد يتداخل بعضها بعضاً ، ولكن تورد بعبارة اُخرى أو يذكر مفردة ثمّ يذكر ثانياً مركّبة مع غيرها . وبالجملة فهذه الخطبة من جليل وبليغ وصفه ولذلك فعلت بهمّام مافعلت. فأمّا جوابه عليه السلام لمن سأله بقوله : ويحك إنّ لكلّ أجل وقتاً لايعدوه : أى ينتهى إليه و يكون غاية له لايتجاوزها ولايتأخّر عنها ، و الضمير في يعدوه للأجل. وسبباً لايتجاوزه: أى ولذلك الأجل سبب: أى علّة فاعلة لايتعدّاها إلى غيرها من الأسباب فمنها ما يكون موعظة بالغة كهذه. فهو جواب مقنع للسامع مع أنّه حقّ وصدق ، وهو إشارة إلى السبب الأبعد لبقائه عليه السلام عند سماع المواعظ البالغة وهو الأجل المحكوم به للقضاء الإلهىّ ، و أمّا السبب القريب للفرق بينه وبين همّام و نحوه فقوّة نفسه القدسيّة على قبول الواردات الإلهيّة وتعوّده بها و بلوغ رياضته حدّ السكينة عند ورودا كثرها وضعف نفس همّام عمّا ورد عليه من خوف الله ورجائه. ولم يجب عليه السلام بمثل هذا الجواب لاستلزامه تفضيل نفسه ، أو لقصور فهم السائل . و نهيه له عن مثل هذا السؤال و التنفير عنه كونه من نفثات الشيطان لوضعه في غير موضعه وهو من آثار الشيطان . وبالله العصمة والتوفيق .

١٨٥ — ومن خطبة له عليه السلام

يصف فيها المنافقين

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ ، وَنَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَمَامًا ، وَبِحَبْلِهِ اعْتِصَامًا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ : خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ

اللهُ كلَّ غَمْرَة ، وَتجرّعَ فيه كلَّ غصّة ، وقد تلوّنَ له الأدنون ، وتألّبَ عليه الأقصون ، وخلعت إليه العربُ أعنّتها وضربت لمحاربته بطونَ رواحلها حتّى أنزلت بساحته عدوانها : من أبعد الدار ، وأسحق المزار .

أُوصيكُم ، عبادَ الله بتقوى الله ، وأحذّركم أهلَ النّفاق ؛ فإنّهم الضالّون المضلّون ؛ والزّالون المزلّون : يتلوّنون ألوانا ، ويفتنون افتنانا ، ويعمدونكم بكلّ عماد ، ويرصدونكم بكلّ مرصاد ، قلوبهم دوية ، وصفاحهم نقيّة ، ويمشون الخفاء ، ويدبّون الضَّراء . وصفهم دواء ، وقولهم شفاء ، وفعلهم الداءُ العياء ، حسدةُ الرخاء ، ومؤكّدو البلاء ؛ ومقنطو الرجاء ، لهم بكلّ طريق صريع ، وإلى كلّ قلب شفيع ؛ ولكلّ شجو دموع ، يتقارضون الثناء ، ويتراقبون الجزاء : إن سألوا ألحفوا ، وإن عذلوا كشفوا ، وإن حكموا أسرفوا . قد أعدّوا لكلّ حقّ باطلا ، ولكلّ قائم مائلا ، ولكلّ حيّ قاتلا ، ولكلّ باب مفتاحا ، ولكلّ ليل مصباحا : يتوصّلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم ، وينفقوا به أعلاقهم : يقولون فيشبّهون ، ويصفون فيوهمون ، قد هوّنوا الطريق ، وأضلعوا المضيق ؛ فهم لمّة الشيطان ، وحمة النيران (أولئك حزب الشيطان ، ألا إنّ حزب

الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

أقول : ذاد : طرد . و الغمرة من كلّ شيء : معظمه . وأسحق المزار : أبعده . والسحق بضم السين: البعد، و كذلك بضمّ الحاء . ويعمدونكم : يهدّونكم ويفدحونكم. و العماد : الأمر الفادح . يرصدونكم : يقعدون لكم المراصد و ينتظرونكم : والضراء : ماواراك من الشجر الملتفّ. والإلحاف : الاستقصاء في السؤال . والشجو: الحزن . والأعلاق : جمع علق وهي السلعة الثمينة . والتمويه : التزيين والتلبيس . وأضلعوا المضيق إضلاعاً : أي عوّجوه و أمالوه. و هوضلع : أي مائل . وضلع بفتح اللام :أي معوجّ خلقة . واللمة بالتخفيف :الجماعة . وحمّة النيران بالتشديد : معظم حرّها . وبالتخفيف سمّ العقرب .

و قد حمدالله تعالى باعتبارين : و هما التوفيق لطاعته الّتي هي سبب الفوز الأكبر و الطرد عن معصيته الّتي هي سبب الخسران الأخسر ، و ذلك الذود إمّا بالنواهي أو بحسم أسباب المعاصي وعدم الإعداد لها و الكلّ منه سبحانه . ثمّ سأله أمرين : التمام لماشكره من النعمة نظراً إلى قوله تعالى « ولئن شكرتم لأزيدنّكم » والاعتصام بحبله المتين وهوالدين القويم العاصم لمن تمسّك له عن الهوى في مهاوي الهلاك ودركات الجحيم ، و أردف ذلك بشهادة الرسالة و شرح حال المرسل صلى الله عليه وآله وسلم في أداء رسالته ، واستعار لفظ الغمرة لمعظم الشرور و المكاره المتكافئة المجتمعة حين بعثته صلى الله عليه وآله وسلم ملاحظة لشبهها بغمرة الماء ، و رشّح بذكر الخوض ، و كنّى به عن مقاساته المتاعب الكثيرة و ملاقاته للنوائب من المشركين في بدء دعوته ، و كنّى بالغصص عن عوارض الغموم له من ملاقاة تلك المكاره ، و كنّى بتلوّن الأدنين له عن تغيّر قلوب أقربائه عليه حينئذٍ بضروب التغيّرات، و تألّب الأقصين عليه اجتماع الأباعد عنه من العرب وانضمامهم من أقصى البلاد إلى حربه .

و قوله : وخلعت إليه العرب . إلى قوله : رواحلها .

مثلان كنّى بهما عن المسارعة إلى حربه لأنّ أقوى عدوّ الخيل إذا خلعت أعنّتها ، و أقوى عدوّ الرواحل إذا ضربت بطونها ، وفيه إيماء إلى أنّهم أتوه فرساناً

وركباناً متسرّعين إلى حربه .

وقوله : حتّى أنزلت بساحته عداوتها .

أى حروبها و شرورها الّتي هى ثمرة العداوة ، و أطلق لفظ العداوة على الحرب مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب. و من طالع كتب السير يطّلع على مالاقى رسول الله صلى الله عليه و آله في ذات الله سبحانه من المشاقّ كاستهزاء قريش به في أوّل الدعوة ، ورميهم إيّاه بالحجارة حتّى أدموا عقبيه ، و صياح الصبيان به، وفرث الكرش على رأسه ، و فتلهم الثوب في عنقه ، و حصره هو و أهله في شعب بنى هاشم سنين عدّة محرّمة معاملتهم و مبايعتهم و مناكحتهم و كلامهم حتّى كادوا يتلفون جوعا لولا بعض من كان يحنو عليهم لرحم أو لسبب آخر فكان يسترق لهم القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً ، ثمّ ضربهم لأصحابه و تعذيبهم بالجوع و الوثاق في الشمس و طردهم إيّاهم عن شعاب مكّة حتّى خرج بعضهم إلى الحبشة وخرج هو عليه السلام مستجيراً منهم تارة بثقيف و تارة ببنى عامر و تارة بربيعة الفرس وبغيرهم ، ثمّ أجمعوا على قتله والفتك به ليلاً حتّى هرب منهم لائذاً بالأوس والخزرج تاركاً لأولاده و أهله ناجياً بحشاشة نفسه حتّى وصل إلى المدينة فناصبوا الحرب ورموه بالكتايب و ضربوا إليه آباط الابل حتّى أكرمه الله تعالى ونصره وأيّد دينه وأظهر . ثمّ عقّب عليه السلام بالوصيّة بتقوى الله والتحذير من المنافقين وتعديد مذاقهم ليعرفوا فيجتنبوا و يحصل النفار عنهم فانّهم الضالّون : أى المنحرفون عن سبيل الله لعدم الاهتداء إليها، المضلّون لغيرهم عنها بالشبهات الباطلة. و كذلك الزالّون المزلّون . و كنّى بتلوّنهم ألوانا عن تغيّراتهم في أقوالهم وأفعالهم من حال إلى حال بحسب أغراضهم الفاسدة فيلقون كلاً بوجه و لسان غير الآخر . و كذلك تفتّنهم : أى تشعّب أقوالهم وحالاتهم بحسب تشعّب أغراضهم. وأراد بعمدهم لهم قصدهم لهم بكلّ مكروه على وجه الحياة والخدعة ، وترصّدهم لهم بكلّ مرصاد تتبّع وجوه الحيل في هلاكهم بكلّ مكروه على وجه الحيلة. وأراد بقلوبهم دويّة وصفاحهم نقيّة اشتمال نفوسهم على الداء النفسانيّ من الحسد والحقد والمكر والخديعة وإعمال الحيلة مع إظهار

البشاشة والصداقة والمحبّة والنصيحة لهم، وهذا هو الضابط في النفاق، وهو أن يظهر الانسان بلسانه أمراً حسناً محموداً ويبطن خلافه، وأراد بصفاحهم وجوههم، وبنقائها سلامتها عن شرّ ظاهر.

و قوله : يمشون الخفاء .

كناية عن كون حركاتهم القوليّة و الفعليّة فيما يريدونه في خفاء أفهام الناس، و كذلك قوله : ويدبّون الضراء . والخفاء والضراء منصوبان على الظرف . وهما مثلان لمن يختل غيره ويخدعه .

و قوله : وصفهم دواء . إلى قوله : العياء .

أى أقوالهم أقول الزاهدين العابدين من الموعظة و الأمر بالتقوى و طاعة الله الّذى هو دواء الغيّ والضلال وشفاء منهما، وأفعالهم أفعال الفاسقين الضالّين من معصية الله الّتي هي الداء الأكبر. والعياء : المعيى للأطبّاء .

و قوله: حسدة الرخاء .

أى إن رأوا لامرء رخاء حسدوه ، ومؤكّد والبلاء : أى إن رأوا به بلاء أكّدوه بالسعاية والتأليب عليه . وروى: ومولّدوا . و هو ظاهر . ومقنطوا الرجاء : أى إذا رجا راج أمراً ففى طباعهم أن يقنطوه و يؤيسوه . و هكذا شأن المنافق الكذّاب أن يبعّد القريب و يقرّب البعيد .

و قوله : لهم بكلّ طريق صريع .

كناية عن كثرة من يقتلونه أو يؤذونه بخديعتهم ومكرهم . و كنّى بالطريق إمّا عن كلّ مقصد قصدوه ، أو عن كلّ حيلة احتالوها و مكر مكروه فإنّه لابدّ أن يستلزم أذى .

و قوله : إلى كلّ قلب شفيع .

أى إنّ من شأن المنافق أن يتّخذ إلى كلّ قلب ذريعة ووجهاً غير الآخر فيكون صديق الكلّ حتّى المتعادين ليتوصّل بذلك إلى إثارة الفتن وايقاع الشرّ بينهم وهو في نفس الأمر عدوّ الكلّ ، و كذلك لهم لكلّ شجو دموع كناية عن توجّعهم لكلّ

شجو وتوصّلهم بذلك إلى أغراضهم وإن كانوا لأهل الشجو أعداءاً .

و قوله : يتقارضون الثناء و يتراقبون الجزاء .

أى يثنى أحدهم على الآخر ليثنى الآخر عليه ، و يترقّب كلّ منهم الجزاء من صاحبه على ثنائه .

وقوله : إن سألوا ألحفوا .

أى ألحّوا في السؤال و هو من المذامّ كما قال تعالى « لا يسئلون الناس إلحافاً » (١) .

وقوله : وإن عذلوا كشفوا .

أى إذا عذلك أحدهم كشف لك عيوبك في ذلك العذل وجبّهك بها وربّما ذكرها بمحضر من لا تحبّ ذكرها معه وليسوا كالناصحين الّذين يعرضون بالذنب عند العتاب تعريضاً لطيفاً دون التصريح ، وإذا حكموا أسرفوا : أى إذا ولّى أحدهم ولاية أسرف فيها بالظلم والانهماك في مأكله ومشربه وعبر في قينات الدنيا إلى حدّ الإفراط من فضيلة العدل . و ذلك لجهله بالعواقب وتصوّره أن لا غاية أشرف ممّا هو فيه، قد أعدّوا لكلّ حقّ باطلا : أى من الشبه يموّهون عليه ويغطّونه بها ، ولكلّ حيّ قاتلا : أى سبباً يميتونه به. والحيّ أعمّ من الإنسان هنا بل كلّ أمر يحيى ويقوم إذا أرادوا فساده ، ولكلّ باب مفتاحاً من الحيل والخديعة و لفظ المفتاح مستعار، ولكلّ ليل مصباحاً ولفظ الليل مستعار لما أشكل من الأمور وأظلم . و كذلك لفظ المصباح للرأى الّذي يدخلون به في ذلك الأمر و يهتدون إلى وجهه به كرأى عمرو بن العاص على معاوية ليلة الهرير برفع المصاحف و دعوتهم أهل العراق أن يحاكموهم إلى كتاب الله فلم يكن لذلك المشكل إلّا ذلك الرأى الصعب ، و يتوصّلون إلى الطمع باليأس : أى بإظهار اليأس عمّا في أيدى الناس والزهد فيه كما يفعله كثير من زهّاد الوقت. ووصفهم بأخذ الشيء بضدّه أبلغ ما يكون في وصف النفاق والحيلة .

و قوله : ليقيموا به أسواقهم .

---

(١) ٢ - ٢٧٤ .

استعار لفظ الأسواق لأحوالهم في معاملة الخلق من أخذ وإعطاء فإنّ فعلهم ذلك يقيمها بين الناس ويروّجها عليهم . و كذلك ينفقوا به أعلاقهم . و لفظ الأعلاق مستعار لما يزعمون أنّه نفيس من آرائهم وحركاتهم الخارجة عن أوامر الله .

و قوله : يقولون . إلى قوله . فيوهّمون .

أي يوقعون بأقوالهم الشبه في القلوب و يوهّمون عليهم الباطل بصورة الحقّ .

و قوله : قد هوّنوا الطريق .

أي قد عرفوا كيف يسلكون في مقاصدهم من الآراء والحيل، وأضلعوا الطريق : عوّجوا مضائقها . و كنّى بمضائقها عن دقائق المداخل في الاُمور ، وبتعويجها عن أنّهم إذا أرادوا الدخول في أمر مضيّق أظهروا أنّهم يريدون غيره تعمية على الغير و تلبيساً أن يقف على وجه الحيلة فيفسد مقصودهم .

و قوله : فهم لمة الشيطان .

أي جماعته و أتباعه . وحمّة النيران مستعار لمعظم شرورهم . و وجه المشابهة استلزامها للأذى البالغ . و كذلك حمة بالتخفيف .

١٨٦ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

اَلْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ ؛ مَا حَيَّرَ مُقَلَ الْعُيُونِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ ، وَإِخْلَاصٍ وَإِذْعَانٍ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَةٌ ، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ ، وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ ، صلى الله عليه وآله وسلم .

وَاعْلَمُوا، عِبَادَ اللهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً. عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ. وَأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ، فَاسْتَفْتِحُوهُ، وَاسْتَنْجِحُوهُ، وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ وَاسْتَمْنِحُوهُ، فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ، وَإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ، وَمَعَ كُلِّ، إِنْسٍ وَجَانٍّ، لَا يَثْلِمُهُ الْعَطَاءُ، وَلَا يَنْقُصُهُ الْحِبَاءُ، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ، وَلَا يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَلَا يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، وَلَا تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ، وَلَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلَا تُولِهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ، وَلَا يُجِنُّهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ. قَرُبَ فَنَأَى، وَعَلَا فَدَنَا، وَظَهَرَ فَبَطَنَ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ وَلَمْ يُدَنْ، لَمْ يَذْرَإِ الْخَلْقَ بِاحْتِيَالٍ، وَلَا اسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ.

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَالْقِوَامُ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا، وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا؛ تَؤُلْ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ، وَمَعَاقِلِ الْحِرْزِ، وَمَنَازِلِ الْعِزِّ، فِي يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ، وَتُظْلِمُ الْأَقْطَارُ، وَتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ، وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ؛ فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ، وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ، وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ، فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَقاً، وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً، فَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ، وَلَا حَمِيمٌ يَدْفَعُ، وَلَا مَعْذِرَةٌ تَنْفَعُ.

أقول: مقلةالعين : شحمتها . والهمهمة : حديث النفس مع صوت خفي لايفهم. والطامسة: كالدارسة . والحباء : النوال . وذرء : خلق. والمعقل : الملجأ . والصروم: جمع صرم و صرمة و هي القطعة من الإبل نحو الثلاثين . و العشار : النوق أتى عليها بعد طروق الفحل عشرة أشهر . والشمّ الشوامخ: الجبال العالية . و معهدها: ماكان مسكونا منها . و قاعاً : خاليا . والسملق : الصفصف المستوى ليس بعضه أرفع من بعض .

و قد حمد الله تعالى باعتبار إظهاره من آثار ملكه و سلطانه ما أظهره من ملكوت السماوات والأرض ، وترتيب العالمين على وجه النظام الأتمّ ممّا هو محلّ العجب العجيب الّذي تحار أبصار البصائر في كيفيّة وقوعه من القدرة الإلهيّة ، و في ترتيبه على النظام الأكمل . بل كلّ مخلوق منها فهومحلّ ذلك العجب والحيرة، ولفظ المقل مستعار و نسبة ذلك إلى جلال كبريائه مناسب لما أنّ السلطان والعظمة و الكبرياء يناسب صدور الآثار العظيمة العجيبة المحكمة عنها . وردع خطرات هماهم النفوس : أي ما يخطر للنفوس فيهمهم به ، وردعه لها استلزام كماله المطلق عجزها عن إدراك حقيقته . و قد سبق ذلك غير مرّة . ثمّ شهد بكلمة التوحيد معتبراً فيها أربعة اُمور :

أحدها : كونها شهادة إيمان : أي يطابق القول فيها للعقد القلبيّ .

الثاني : وإيقان : أي يكون اعتقادها يقيناً و هو اعتقاد أن لا إله إلّا هو مع اعتقاد أنّه لا يمكن أن يكون ذلك المعتقد إلّا كذلك .

الثالث : وإخلاص : وهي أن يحذف عن ذلك المعتقد كلّ أمر عن درجة الاعتبار ولا يلاحظ معه غيره .

الرابع: وإذعان : والإذعان ثمرة ذلك الإخلاص و كماله ، ويتفاوت بتفاوته و يعود إلى سائر الطاعات والعبادات الّتي هي من حقوق تلك الكلمة و توابعها . ثمّ أردفها بأُختها . وذكر الأحوال الّتي كان العالم عليها حين الرسالة ممّا هي شرور تنبيهاً على فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله ، و استعار أعلام الهدى لأئمّة الدين الهادين إلى

سبيل الله . و لفظ المناهج لقوانين الشريعة الّتي يسلك فيها جزئيّات الأحكام . و لفظ دروسها وطموسها لاضمحلالها قبل النبوّة . والواوفي وأعلام للحال . فصدع بما جاء به من الحقّ ما طلب من الباطل ، ونصح الخلق ليردّهم عن غوايتهم إلى صراط الله ، وهداهم إلى الرشد في سلوكه ، وأمرهم بالعدل والاستقامة عليه . ثمّ نبّه السامعين إجمالاً على أنّ خلق الله تعالى لهم ليس خالياً عن غاية وأنّهم لم يرسلوا في الدنيا مهملين عن أمر يراد بهم كاهمال البهيمة . ثمّ على علمه بمبلغ نعمه عليهم كميّة و كيفيّة و إحصائه لها عدّاً ليبعثهم على شكرها ، و لذلك قال فاستفتحوه : أى اطلبوا منه أن يفتح عليكم أبواب بركاته و نصره ، واستنجحوه : أى اطلبوا منه نجاح حاجاتكم ، واطلبوا إليه : أى اطلبوا الهداية إلى حضرته ووجوه مرضاته ، واستمنحوه أن يعطيكم كمالكم . كلّ ذلك بالشكر و سائر العبادات الّتي بها الاستعداد لإفاضة رحمته .

وقوله فما قطعكم عنه حجاب إلى قوله : إنس وجانّ .

إظهار لوجود كماله و عظمته ، و تنزيه له عن صفات المخلوقين المحدثين ، و تقريب له من عباده ليطلبوا منه ويتقرّبوا إليه ويستنجحوه ويستمنحوه وتنفتح آمالهم منه ، و إذ لم يكن تعالى متحيّزاً فلا حجاب دونه و لا باب ، و كان بكلّ مكان في حالة واحدة : أى بعلمه المحيط لاستحالة ذلك التحيّز ، و في كلّ حين و أوان بمعنى مساوقة وجوده لوجود الزمان لابمعنى الظرفيّة له لتنزّهه تعالى عن لحوق الزمان المتأخّر عنه بمراتب من المعلولات ، و مع كلّ إنس و جانّ بعلمه « وهو معكم أينما كنتم » .

و قوله : لايثلمه العطاء . إلى قوله : نائل .

فاستقصاء النائل له بلوغ الجود منه أقصى مقدوره ، و برهان تلك الأحكام أنّ الثلم و النقصان و الاستنفاد و الاستقصاء على المقدور يستلزم النهاية و الحاجة المستلزمين للإمكان ، ولا شيء من واجب الوجود بممكن ، و كلّ من لحقته هذه الأحوال ممكن فواجب الوجود لاتلحقه هذه الأحوال ، و كذلك قوله : لا يلويه

شخص عن شخص : أى لا يصرفه . إلى قوله : عقاب . و برهان هذه الأحكام أنّ الصرف واللهو يستلزمان الغفلة عن أمر والفطنة لغيره بعد الغفلة عنه ، و كذلك حجز الهبة و منعها عن سلب نعمة اُخرى و شغل الغضب له عن الرحمة مستلزمان قصور القدرة وضعفها و تعلّقها بمحلّ جسمانى ، و ذلك مستلزم للنقصان المستلزم للحاجة والإمكان المنزّه قدس الله تعالى عنه ، و كذلك توليه الرحمة عن العقاب يستلزم رقّة الطبع و رحمة النفوس البشرية المستلزمة لعوارض الجسميّة . وجلال الله منزّه عنها .

وقوله : ولا تجنّه البطون عن الظهور .

يحتمل وجهين : أحدهما : لايخفيه بطون حقيقته عن العقول و خفاؤه عن العيون عن ظهوره للبصائر في صور آثاره وملكوت قدرتة . الثانى : أنّه ليس في شيء حتّى يخفى فيه عن الظهور على الأشياء و الاطّلاع عليها . ولا يقطعه الظهور عن البطون : أى لايقطعه كونه ظاهراً أوعالماً بالاُمور الظاهرة عن أن يكون باطناً لا يطّلع العقل عليه أوعن علمه ببواطن الاُمور وحقايقها .

و قوله : قرب . أى بعلمه وقدرته من الأشياء قرب العلّة من المعلول . فنأى : أى بعد بحقيقته عن إدراك العقول و الحواسّ .

و قوله : وعلا فدنا . فعلّوه شرفه بالقياس إلى آثاره شرف العلّة على المعلول و دنوّه منها قربه .

وقوله : وظهر فبطن وبطن فعلن .

تأكيد لماقبله ، وقد سبق بيانه غير مرّة .

و قوله : لم يذرء الخلق باحتيال إلى قوله : الكلال .

تنزيه لايجاده لآثاره عن استخراج الحيل وإجالة وجوه الآراء في استخراجها . ثمّ عن الاستعانة بغيره في شيء من آثاره . ثمّ عن مبدء الاستعانة و هو الكلال و الإعياء لاستلزام ذلك تناهى القوّة المستلزمة للجسميّة ، وإذ قدّم تنزيه الحقّ سبحانه عمّا لاينبغى له ، و وصفه بما ينبغى له شرع في الوصيّة بتقواه . ثمّ في التنبيه على فضائلها ، واستعار لفظ الزمام لها باعتبار كونها قائدة للعبد إلى طريق الحقّ

مانعة له عن الجور إلى طرف الباطل كالزمام للناقة ، و أراد بكونها قواماً كونها مقيمة للعبد في سلوك سبيل الله أيضاً إقامة للمصدر مقام اسم الفاعل .

و قوله : فتمسّكوا بوثائقها .

أى بمابه يوثق منها وهو سائر أنواع العبادات الّتي هي أجزاؤها ، والتمسّك بها يقود إلى لزومها و المواظبة عليها . واعتصموا بحقائقها : أى بالخالص منها دون المشوب بالرياء والنفاق فإنّ الالتجاء إلى خالصها هو المخلص من عذاب الله .

و قوله : تؤل بكم .

انجزم تؤل لكونه جواب الأمر بالتمسّك والاعتصام . وأكنان الدعة مواطن الراحة من الآلام الحسيّة و العقليّة . وهي غرفات الجنّة و منازلها و هي أوطان السعة أيضاً من ضيق الأبدان وضنك بيوت النيران ، و هي معاقل الحرز المانعة من عذاب الله. وهي منازل العزّ في جوار الله .

و قوله : في يوم .

متعلّق بتؤل، واليوم يوم القيامة وسائر ماعدّده من صفات ذلك اليوم ممّا نطق به الكتاب الكريم كقوله تعالى « إنّما نؤخّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » (١) وقوله « و إذا العشار عطّلت » (٢) وقوله « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات و من في الأرض » (٣) وقوله « يسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربّى نسفاً فيذره » (٤) الآية و قوله «فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » (٥) وقوله « فيومئذ لا ينفع الّذين ظلموا معذرتهم» (٦) فهذه بعض أهوال القيامة المحسوسة ، وأمّا المعقولة فقال بعض السالكين: إنّ الإنسان إذا حضرته الوفاة شخص بصر عقله إلى ما انكشف له من الأطوار الاُخرويّة ، وأظلمت عليه أقطار الدنيا ، وغاب منها ما كان يشاهده ، وتعطّلت عنه عشاره ، وناداه داعي الأجل إلى الآخرة فزهقت نفسه ، و أجابت الداعي ، وبكمت لهجته ، وذلّت شوامخ الجبال و رواسخها في نظره لعظمة الله عند مشاهدة كبريائه

---

(١) ١٤ - ٣٤ . (٢) ٨١ - ٤ . (٣) ٣٩ - ٦٨ .
(٤) ٢٠ - ١٠٥ . (٥) ٢٦ - ١٠٠ (٦) ٣٠ - ٥٧ .

فتصير لا نسبة لها في نظره إلى ما شاهد من عظيم ملكوته فكأنّها اضمحلّت وغابت و صارت في نظره كالسراب المترقرق الّذى لا أصل له بعد ما كان يراها عليه من العلوّ و العظمة ، و كذلك ينقطع نظره عن عالم الأجسام و الجسمانيّات عند التوجّه إلى عالم الملكوت ، و كذلك يرى ما كان معهوداً منها كالقاع الصفصف المستوى تحت سلطان الله و قهره ، وحينئذ تنقطع عن الشفيع الشافع و الصديق الدافع و العذر النافع . وبالله التوفيق .

١٨٧ - وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

بَعَثَهُ حِينَ لَا عَلَمٌ قَائِمٌ ، وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ ، وَلَا مَنْهَجٌ وَاضِحٌ : أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ ، بِتَقْوَى اللهِ ، وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ ، وَمَحَلَّةُ تَنْغِيصٍ ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ ، وَقَاطِنُهَا بَائِنٌ ، تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ ، فَمِنْهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ ، وَمِنْهُمُ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الْأَمْوَاجِ ، تَحْفِزُهُ الرِّيَاحُ بِأَذْيَالِهَا ، وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا ، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ ، وَمَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلَكٍ ! !

عِبَادَ اللهِ ؛ الْآنَ فَاعْمَلُوا ، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، وَالْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، وَالْأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ ، وَالْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ ، وَالْمَجَالُ عَرِيضٌ ، قَبْلَ إِرْهَاقِ الْفَوْتِ ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ ، فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ ، وَلَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ !

أقول : الساطع : المرتفع . والوبق : الهالك . و اللدن : الناعم : والإرهاق : الإلحاق .

و قد ذكر البعثة حين ظهور الأحوال الّتي كان العالم عليها تنبيهاً على فضلها وفضيلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

فقوله : حيث لاعلم قائم .

استعار لفظ العلم والمنار للهداة إلى الله الداعين إليه، وعدم قيامه وسطوعه لعدمهم زمان الفترة .

وقوله : ولامنهج واضح .

أى لا طريق إلى الله خالص عن شوب الأباطيل يتّبع . ثمّ عقّب بالوصيّة بتقوى الله . ثمّ بالتحذير من الدنيا ، و قرنها بذكر عيوبها للتنفير عنها . و كونها دار شخوص إشارة إلى ضرورة الارتحال عنها بالموت ، و محلّة تنغيص : أى تنغيص لذّاتها بالآلام و الأمراض حتّى قيل : إنّ اللذّة فيها إنّما هي الخلاص عن الألم .

و قوله : ساكنها ظاعن وقاطنها بائن . كالتفسير لقوله : دار شخوص .

و قوله : تميد بأهلها إلى قوله : إلى مهلك .

ضربه لها ولأحوال أهلها فيها. فمثّلها بالسفينة عند عصف الريح ، و مثّل تصرّفاتها وتغيّراتها بميدان السفينة، و رميهم فيها بالأمراض و الحوادث الّتى هى مظنّة الهلاك بالأحوال الّتى يلحق أهل السفينة عند هبوب الريح العاصف حال كونها في لجج البحار ، و مثّل انقسامهم عند بعض تلك الحوادث و نزولها بهم إلى ميّت لا يرجى له عودة و إلى مستدرك متفارط بانقسام ركّاب السفينة عند عصف الريح عليها إلى غريق هالك و إلى ناج ، و مثّل الناجى من بعض الأمراض الّذى تأخّر موته إلى مرض آخر فلاقى من أهوال الدنيا في تلك المدّة ما لاقى ثمّ لحقه الموت بالأخرة بالناجى من الغرق الّذى تحمله الأمواج و تدفعه الرياح و يقاسى أهوال البحر و شدائده ثمّ بعد خلاصه منه لابدّ له من وقت هو أجله و مرض هو المهلك : أى محلّ هلاكه . ثمّ أمر بالعمل و ذكر الأحوال الّتى يمكن فيها و معها العمل تنبيهاً على انتهاز الفرصة ، و تلك الأحوال صحّة الألسن وإمكان ذكر الله و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و سائر التكاليف المتعلّقة بها ، و كذلك صحّة الأبدان

و لدنة الأعضاء و مطاوعتها للعمل قبل يبسها بالسقم والأمراض، وفسح المنقلب وهو محلّ التصرّف و التقلّب ، و كنّى به عن وقت الصحّة و الشبيبة ، ويقرب منه عرض المجال ، وذكر إرهاق الأجل وحلول الموت تحذيراً منه وجذباً إلى العمل لمابعده. ثمّ أمرهم أن يتحقّقوا نزوله قبل نزوله : أي يتذكّروه و يخطر ببالهم أنّه حقّ و يقدّروا أنّه واقع ليكون آكد في العمل . ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : أكثروا من ذكر هادم اللذّات. ونهاهم عن انتظار قدومه لاستلزام انتظار هم له توهّمهم لبعده عنهم ، وذلك يوقعهم في التكاسل عن العمل . و بالله التوفيق .

١٨٨ — وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحابِ مُحَمَّدٍ ، صلى الله عليه وآله وسلم ، أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللهِ وَلا عَلَى رَسُولِهِ ساعَةً قَطُّ ، وَلَقَدْ واسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَواطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطالُ ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدامُ ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِها .

وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي ، وَلَقَدْ سالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي ، فَأَمْرَرْتُها عَلَى وَجْهِي ، وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَالْمَلائِكَةُ أَعْوانِي ، فَضَجَّتِ الدّارُ وَالْأَفْنِيَةُ ، مَلَأٌ يَهْبِطُ وَمَلَأٌ يَعْرُجُ ، وَما فارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وارَيْناهُ فِي ضَرِيحِهِ ، فَمَنْ ذا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً وَمَيِّتاً ؟! فَانْفُذُوا عَلَى بَصائِرِكُمْ ، وَلْتَصْدُقْ نِيّاتُكُمْ فِي جِهادِ عَدُوِّكُمْ . فَوَالَّذِي لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جادَّةِ الْحَقِّ ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْباطِلِ ، أَقُولُ ما تَسْمَعُونَ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ .

أقول : الهينمة : صوت خفيّ يسمع ولايفهم .

و حاصل الفصل: التنبيه على فضيلته لغاية قبول قوله فيما يأمرهم به.

فذكر منها: أنّه لم يردّ على الله وعلى رسوله في وقت قطّ فيماصدرمن الأمر عنهما ، و استشهد على ذلك بما علمه منه المستحفظون من الصحابة و هم العلماء وأهل الدين الّذين استحفظوا كتاب الله و دينه : أى جعلوا حفظة له وأُودعوا إيّاه ، وقال بعض الشارحين : وفيه ايماء إلى ماكان يفعله بعض الصحابة من التسرّع بالقول والاعتراض على الرسول صلى الله عليه وآله في مواضع كمانقل عن عمر يوم الحديبيّة عند سطر كتاب الصلح أنّه أنكر ذلك وقال لرسول الله: ألسنا على الحقّ قال : بلى . قال : أوليسوا الكاذبين. قال: بلى. قال : فكيف تعطى الريبة في ديننا. فقال صلى الله عليه وآله : أنا أعمل بما أُومر به . فقام عمر فقال لقوم من الصحابة : ألم يكن قد وعدنا الله بدخول مكّة و ها نحن قد صددنا عنها ثمّ ننصرف بعد أن أُعطينا الريبة في ديننا والله لو وجدت أعواناً لم أُعط الريبة أبداً . فقال له أبوبكر : ويحك الزم غزوه فوالله إنّه لرسول الله صلى الله عليه وآله و أنّ الله لايضيّعه . ثمّ قال له : أقال لك : إنّه سيدخل مكّة هذا العام ؟ . فقال : لا . قال : فسيدخلها. فلمّا فتح النبيّ صلى الله عليه وآله مكّة و أخذ مفاتيح الكعبة دعاه . فقال : هذا الّذى وعدتم به .

و منها : مواساته لرسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه و هو ممّا اختصّ به عليه السلام ، و ذلك في مواطن: فثبت معه يوم أُحد وفرّ الناس. روى المحدّثون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا ارتثّ يوم أُحد ، ونادى الناس قتل محمّد رأته كتيبة من المشركين و هو صريع بين القتلى إلّا أنّه حيّ فصمدت له . فقال لعليّ : اكفنى هذه . فحمل عليها فهزمها وقتل رئيسها : ثمّ صمدت له أُخرى . فقال ياعلى : اكفنى هذه فحمل عليها وقتل رئيسها . ثمّ صمدت له ثالثة فكذلك. فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : قال لى جبرئيل حينئذ : يا محمّد هذه المواساة . فقلت : و ما يمنعه ؟ و هو منّى وأنا منه . فقال جبرئيل : و أنا منكما ، وروى المحدّثون أيضاً أنّ المسلمين سمعوا ذلك اليوم هاتفاً من قبل السماء ينادى: لاسيف إلّا ذو الفقار ولافتى إلّا علىّ . فقال الرسول صلى الله عليه وآله : ألا تسمعون؟هذا

صوت جبرئيل . و كذلك ثبت معه يوم حنين في نفر يسير من بنى هاشم بعد أنّ ولّى المسلمون الأدبار، وحامى عنه ، وقتل قوماً من هو اذن بين يديه حتّى ثابت إليه الأنصار وانهزمت هو اذن وغنمت أموالها ، و أمّا يوم خيبر فقصّته مشهورة ، و ذلك قوله : و لقد واسيته . إلى قوله: الأقدام .

و قوله : نجدة أكرمنى الله بها . فالنجدة فضيلة تحت الشجاعة ، وقد يعبّر بها عن الشجاعة .

ومنها حاله عندما قبض رسول الله صلّى الله عليه وآله من تولّى أمره و مباشرة ما يختصّ به من الأحوال حالة وفاته من وضع رأسه على صدره ، وقيل : أراد بذلك أنّ رأسه حينئذ كان على ركبتيه ،وعلى ذلك يكون في صدره عند إكبابه عليه. والأشبه أنّه أراد تسنيده حين اشتداد علّة موته . ثمّ سيلان نفسه في كفه وإمرارها على وجهه، وأراد بنفسه دمه يقال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قاء وقت موته دماً يسيراً ، وأنّ علياً عليه السلام مسح بذلك الدم وجهه ، ولاينا في ذلك نجاسة الدم لجواز أن يخصّص دم الرسول صلّى الله عليه وآله كما روى أنّ أباطيبة الحجّام شرب دمه صلّى الله عليه وآله حين حجمه . فقال : إذن لايتّجع بطنك ، و كذلك تولّيه لغسله باعانة الملائكة ، و كان هو الّذى يغسّله و الفضل بن عباس يصبّ الماء عليه ، روى أنّه عصب عيني الفضل حين صبّه الماء ، و نقل عنه صلّى الله عليه وآله أنّه قال : لا يبصر عورتى غيرك أحد إلّا عمى ، و روى أنّه عليه السلام قال : ما قلّبت عضواً إلّا وانقلب لاأجد له ثقلاً كأنّ معى من يساعدنى عليه ، وماذاك إلّا الملائكة. و حيّاً وميّتاً منصوبان على الحال من الضمير المجرور في به ، و أمّا دفنه فتنازع الصحابة في أنّه يلحد أو يضرح فأرسل العبّاس إلى عبيدة بن الجرّاح و كان يحفر لأهل مكّة و يضرح لهم على عادتهم ، و أرسل إلى أبى طلحة الأنصارى و كان يلحد لأهل المدينة على عادتهم فقال : اللهم اختر لنبيّك فجاء أبو طلحة فلحد له ، و تنازعوا فيمن يدخل القبر معه فقال على عليه السلام : لاينزل معه أحد غيرى و غير العبّاس . ثمّ أذن في نزول الفضل واُسامة بن زيد . ثمّ ضجّت الأنصار و سألوا أن ينزل منهم رجل فأنزلوا أوس بن خولىّ وكان بدرياً ، وقد يعبّر بالضريح عن القبر فيكون أعمّ من الشقّ واللحد.

فأمّا ضجيج الدار و الأفنية بأصوات الملائكة ملأ يهبط منهم و ملأ يصعد بحيث لايفارق هينمتهم سمعه في حال صلاتهم عليه إلى أن واراه في ضريحه. فقد عرفت كيفيّة سماع البشر لأصوات الملائكة في مقدّمات الكتاب، و كذلك صلاتهم تعود إلى وساطتهم في إفاضة الرحمة من الله تعالى على العباد، و كذلك علمت معنى الصعود و الهبوط منهم فيماسبق.

واعلم أنّ حمل الكلام على ظاهره عند الإمكان أولى من التعسّف في التأويل، و ذكر هذه الفضيلة بهذه المقامات تجرى مجرى صغرى قياس ضمير من الشكل الأوّل استدلّ به على أنّه لا أحقّ منه به. وتقدير كبراه: و كلّ من كان ذلك معه صلى الله عليه وآله فهو أحقّ به. و حينئذ يتبيّن أنّه لا أحقّ به منه، و أراد أنّه لا أحقّ بالمنزلة و القرب منه. ففى حياته بالاُخوّة والوزارة، وبعدموته بالوصيّة والخلافة إذ لا يريد أنّه أحقّ بذاته فبقى أن يريد كونه أحقّ به في المنزلة و ولاية أمره بعده. ثمّ عقّب ذكر فضيلته بأمرهم أن يمضوا في جهاد عدوّهم على بصائرهم: أى عقايدهم أنّهم على الحقّ و أنّ عدوّهم على الباطل، و أكّد تلك العقائد بالقسم البارّ أنّه فيما يأمرهم به على طريق الحقّ، و أنّ خصومه على مزلّة الباطل، وذكر الجادّة للحقّ جذباً إليه، و المزلّة للباطل تنفيراً عنه، ولأنّ الباطل لا طريق واضحة له بعلم حقّ أو برهان صدق كما عليه الطريق الحقّ، وباقى الكلام خاتمه الخطبة. وبالله التوفيق.

١٨٩ — ومن خطبة له عليه السلام

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِى الْفَلَوَاتِ، وَمَعَاصِىَ الْعِبَادِ فِى الْخَلَوَاتِ، وَاخْتِلَافَ النِّينَانِ فِى الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ، وَتَلَاطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ: وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ اللّٰهِ، وَسَفِيرُ وَحْيِهِ، وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ.

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَأُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ ، فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ ، وَصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ ، وَطُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ ، وَجِلَاءُ غِشَاءِ أَبْصَارِكُمْ ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ ، فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللهِ شِعَارًا دُونَ دِثَارِكُمْ ، وَدَخِيلًا دُونَ شِعَارِكُمْ ، وَلَطِيفًا بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ ، وَأَمِيرًا فَوْقَ أُمُورِكُمْ ، وَمَنْهَلًا لِحِينِ وُرُودِكُمْ ، وَشَفِيعًا لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ ، وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ ، وَمَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ ، وَسَكَنًا لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ ، وَنَفَسًا لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ ؛ فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ ، وَمَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ ، وَأُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ . فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا ، وَاحْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا ، وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا ، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا ، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا ، وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا ، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا ، وَوَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا .

فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ ، وَوَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ ، وَامْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ ،

فعبدوا أنفسكم لعبادته ، وأخرجوا إليه من حق طاعته .

ثم إن هذا الإسلام دين الله الذى اصطفاه لنفسه ، واصطنعه على عينه ، وأصفاه خيرة خلقه ، وأقام دعائمه على محبته ، أذل الأديان بعزته ، ووضع الملل برفعه ، وأهان أعداءه بكرامته ، وخذل محاديه بنصره ، وهدم أركان الضلالة بركنه ، وسقى من عطش من حياضه ، وأتاق الحياض لمواتحه ، ثم جعله لا انفصام لعروته ، ولا فك لحلقته ، ولا انهدام لأساسه ، ولا زوال لدعائمه ، ولا انقلاع لشجرته ، ولا انقطاع لمدته ، ولا عفاء لشرائعه ، ولا جذ لفروعه ، ولا ضنك لطرقه ، ولا وعوثة لسهولته ، ولا سواد لوضحه ، ولا عوج لانتصابه ، ولا عصل فى عوده ، ولا وعث لفجه ، ولا انطفاء لمصابيحه ، ولا مرارة لحلاوته . فهو دعائم أساخ فى الحق أسناخها ، وثبت لها أسسها ، وينابيع غزرت عيونها ، ومصابيح شبت نيرانها ، ومنار اقتدى بها سفارها ، وأعلام قصد بها فجاجها ، ومناهل روى بها ورادها : جعل الله فيه منتهى رضوانه ، وذروة دعائمه ، وسنام طاعته ؛ فهو عند الله وثيق الأركان ، رفيع البنيان ، منير البرهان ، مضئ النيران ، عزيز السلطان ، مشرف المنار ، معوز المثار ؛ فشرفوه ، واتبعوه ، وأدوا إليه حقه ، وضعوه مواضيعه .

ثُمَّ إِنَّ اللّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً ، صلى الله عليه وآله وسلم ، بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الانْقِطَاعُ ، وَأَقْبَلَ مِنَ الآخِرَةِ الاطِّلاَعُ . وَأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ ، وَخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ ، وَأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ ، فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا ، وَاقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا ، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَانْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا ، وَانْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا ، وَعَفَاءٍ مِنْ أَعْلاَمِهَا ، وَتَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا ، وَقِصَرٍ مِنْ طُولِهَا . جَعَلَهُ اللّهُ بَلاَغاً لِرِسَالَتِهِ ، وَكَرَامَةً لأُمَّتِهِ ، وَرَبِيعاً لأَهْلِ زَمَانِهِ ، وَرِفْعَةً لأَعْوَانِهِ ، وَشَرَفاً لأَنْصَارِهِ .

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لاَ تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ ، وَسِرَاجاً لاَ يَخْبُو تَوَقُّدُهُ ، وَبَحْراً لاَ يُدْرَكُ قَعْرُهُ ، وَمِنْهَاجاً لاَ يُضِلُّ نَهْجُهُ ، وَشُعَاعاً لاَ يُظْلِمُ ضَوْءُهُ ، وَفُرْقَاناً لاَ يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ ، وَتِبْيَاناً لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ ، وَشِفَاءً لاَ تُخْشَى أَسْقَامُهُ ، وَعِزّاً لاَ تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ ، وَحَقّاً لاَ تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ . فَهُوَ مَعْدِنُ الإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ ، وَأَثَافِيُّ الإِسْلاَمِ وَبُنْيَانُهُ ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ . وَبَحْرٌ لاَ يَنْزِفُهُ الْمُنْتَزِفُونَ ، وَعُيُونٌ لاَ يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ ، وَمَنَاهِلُ لاَ يُغِيضُهَا الْوَارِدُونَ ، وَمَنَازِلُ لاَ يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ ، وَأَعْلاَمٌ لاَ يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ ، وَآكَامٌ لاَ يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ ؛ جَعَلَهُ

أَللهُ رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ ، وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ ، وَمَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْـدَهُ دَاءٌ ، وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ ، وَحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ ، وَعِزّاً لِمَنْ تَوَلاَّهُ ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَهُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ ، وَعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ ، وَفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ ، وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَجُنَّةً لِمَنِ اسْتَلْأَمَ ، وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى ، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى ، وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى .

أقول : العجيج : رفع الصوت ، والنينان : جمع نون وهو الحوت . والجأش : القلب . والاُوار : حرّ النار . و الشمس عزبت : غابت . و إنصابها : إتعابها . وتحدّبت : عطفت وحنّت . و الرذاذ : ضعيف المطر . و عبّدوا : ذلّلوا . و المحادّ : المشاقّ . وأثاق الحياض : ملأها . والمواتح : المستقون . والوعوثة : كثرة في سهولة توجب صعوبة المشى كما في الرمل . والوضح : البياض . و العوج : بالفتح فيما له ساق ينتصب كالنخلة ، وبالكسر فيما ليس كذلك كالطريق . و العصل . الاعوجاج . و ساخ : غاص . و السنخ : الأصل . و أزف : دنا . و بحبوحة الدار : وسطها . و الغيطان : المواضع المطمئنّة من الأرض . و المحاجّ : جمع محجّة و هى جادّة الطريق . و المعقل : الملجأ . و الفلج : الفوز . و المتوسّم : المتفرّس . و استلأم : لبس لامة الحرب و هي الدرع .

و صدر الفصل تنبيه على إحاطة علمه بجزئيّات الموجودات على اختلافها و كثرتها ، ونبّه بعجيج الوحوش على أنّه تعالى يعلمها حين يجأر إليه من جدب الأرض وقلّة العشب فكأنّها تضرّع إليه بالعجيج ليكون الانسان أولى بذلك النزع [الفزع - خ -] إليه ، وبعلمه بمعاصى العباد في الخلوات تنفيراً عنها في الخلوة الّتي

هي مظنّتها ، و اختلاف النينان بالمجي، و الذهاب وقطع البحار طولا وعرضاً . ثمّ عقّب بشهادة الرسالة . ثم بالوصيّة بتقوى الله ، و قرنها باعتبارات من صفاته تعالى توجب الفزع إليه وهى كونه سبحانه مبدءاً لخلقهم ومنتهى لمعادهم الحسّى والعقلىّ كقوله تعالى « وهو خلقكم أوّل مرّة وإليه ترجعون» وقد نبّهنا عليه مراراً ، وأنّ به نجاح طلباتهم، وإليه منتهى رغباتهم ، ونحوه قصدهم وسلوكهم فانّه تعالى غاية الكلّ، وإليه مرامى مفزعهم يقال: فلان مرمى قصدى : أى إليه مفزعى في المهمّات ، ونحوه قوله تعالى « إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون » (١) . ثمّ باعتبارات من صفة التقوى توجب الفزع إليها .

(ا) و هى كونها دواء داء قلوبكم ، و قد عرفت كونها دواءً لأدواء الرذائل النفسانيّة الموبقة .

(ب) وبصر عمى أفئدتكم : أى أبصار أفئدتكم من عمى الجهل .

(ج) وشفاء مرض أجسادكم ، و ذلك أنّ التقوى تستلزم قلّة الأكل و الشرب واستعمالهما بقدر الحاجة كما قال في صفات المتّقين : منزوراً أكله . و قدعلمت ما تحدث البطنة من الأمراض البدنيّة ، ولذلك قال عليه السلام : المعدة بيت الأدواء .

(د) و صلاح فساد صدوركم : أى من الغلّ و الحسد و الخبث و النيّات المخالفة لأوامر الله . فانّ التقوى تستلزم نفى ذلك كلّه . و صلاح الصدور منه لأنّ مبادى تلك الشرور كلّها محبّة الدنيا و باطلها ، و المتّقون بمعزل عن ذلك .

(ه) و كذلك طهور دنس أنفسكم : أى من نجاسات الرذائل المهلكة و هو كقوله : دواء قلوبكم . لكن اعتبار كونها دواء يخالف اعتبار كونها طهوراً إذ في الأوّل ملاحظة كون الرذائل أمراضاً ضارّاً تؤدّى إلى الهلاك السرمدى ، وفي الثانى اعتبار كونها نجاساة تمنع من دخول حظيرة القدس ومقعد الصدق .

(و) وجلاء عشا أبصاركم ، وفيه استعارة لفظ العشا لما يعرض عن ظلمة الجهل، وسائر الرذائل من عدم إدراك الحقايق ، ويروى غشاء بالغين المعجمة و هو الظلمة

(١) ١٦ - ٥٥ .

المتوهّمة من الجهل الّتي هي حجاب الغفلة ، و بهذا الاعتبار ففى التقوى جلاء لتلك الظلمة لماتستلزمه من إعداد النفس للكمال ، و كونها نفسها هى الجلاء مجاز إطلاقاً لاسم المسبّب على السبب .

(ز) و أمن فزع جأشكم . إذ قد علمت أنّ بها الأمان من عذاب الآخرة ، وقد يكون بها الأمان من فزع الدنيا . لأنّ أكبر مخاوف الدنيا الموت و ما يؤدّى إليه ، و المتّقون العارفون بمعزل عن تقيّة الموت بل عسى يكون محبوباً لهم لكونه وسيلة لهم إلى اللقاء الخالص لمحبوبهم الأقصى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى « يا أيّها الّذين هادوا إن زعمتم أنّكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين » (١) دلّت الآية على أنّ الصادق فى دعوى الولاية يتمنّى الموت ، و كذلك قوله تعالى « قل إن كانت لكم الدار الآخر عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين » (٢) .

(ح) ضياء سواد ظلمكم ، واستعار لفظ الظلمة للجهل و تغطية القلب ، ورشّح بذكر السواد لاستلزام الظلمة السواد ، وهو كقوله : و جلاء عشا أبصاركم ، وراعى في هذه القرائن كلّها المضادّة . ثمّ أكّد الوصيّة بطاعة الله تعالى بآداب :

أحدها : أن يجعلوها شعارهم ، و كنّى بذلك عن ملازمتهم لها كما يلزم الشعار الجسد . ثمّ عن كونها في الباطن دون الظاهر لقلّة فايدته و هو المشار إليه بقوله . دون دثاركم .

الثانى : أكّد أمرهم با بطانهم : بأمرهم باتّخاذها دخيلا تحت الشعار لإمكان ذلك فيها دون الشعار المحسوس . ثمّ فسّر ذلك فقال : ولطيفاً بين أضلاعكم . و كنّى بلطفها عن اعتقادها و عقليتها و يكون بين أضلاعهم عن إيداعها القلوب .

الثالث : أن يجعلوها أميراً ، و استعار لها لفظ الأمير باعتبار إكرامهم لها وتقديمها على سائر مهمّاتهم .

الرابع : أن يجعلوها منهلا لحين ورودهم : أي يوم القيامة ، و استعار لفظ

(١) ٦٢ - ٦ . (٢) ٢ - ٨٨ .

المنهل لها ، ووجه المشابهة أنّ التقوى والطاعة لله مظنّة التروّى من شراب الأبرار يوم القيامة كما أنّ موارد الإبل مظنّة ريّها .

الخامس : أن يجعلوها شفيعا إلى الله و وسيلة إلى مطالبهم منه ، وظاهر كون المطيع يستعدّ بطاعته لدرك بغيته من الله تعالى ، و لفظ الشفيع مستعار للوسيلة و القربة .

السادس : وجنّة ليوم فزعهم ، وظاهر كون الطاعة ساتراً يوم القيامة من الفزع الأكبر من عذاب الله .

السابع : و مصابيح لبطون قبورهم ، و قد عرفت كيفيّة إعداد الطاعة لقبول الأنفس الأنوار العلويّة والأسرار الإلهيّة المخلّصة من ظلمة القبور و العذاب الأخرويّ . وفي الخبر : أنّ العمل الصالح يضيء قبر صاحبه كما يضيء المصباح الظلمة . و استعار لها لفظ المصابيح لاستلزامها الإنارة .

الثامن : و كذلك سكناً لطول الوحشة في القبور تستأنس به النفوس كما روى : أنّ العمل الصالح و الخلق الفاضل يراه صاحبه بعد الموت في صورة شابّ حسن الصورة و الثياب طيّب الريح فيسلّم عليه فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا خلقك الحسن أو عملك الحسن . و حاصله يعود إلى كون الطاعة سبباً للاستيناس من وحشة الآخرة ، وذلك أنّ الوحشة إنّما تعرض في المكان لمن كان غافلاً عنه و غير متوقّع له ولا متهيّيء للانتقال إليه و مطمئناً بوطنه الأوّل و بأهله و جاعلهم كلّ الأنس . فأمّا أهل الطاعة فإنّهم أبداً متفكّرون فيما ينتقلون إليه و متذكّرون له واثقون بأنس ربّهم وملتفتون إليه . فأنسهم أبداً به وفرحهم دائماً بلقائه ، و اعتقادهم في الدنيا : أنّهم لأهلها بأبدانهم مجاورون . فمنهم يهربون وإلى العزلة ينقطعون . فبالحرىّ أن لا تعرض لهم وحشة و أن تكون أعمالهم سبباً لعدم الوحشة الّتي عساها تعرض لهم ، و لمّا كان الانسان في الدنيا لا يتصوّر ما بعد الموت بالحقيقة لاجرم لابدّ له من وحشة ما إلّا أنّ الأنوار الإلهيّة والأنس بالرفيق الأعلى مزيل لها .

التاسع : و كذلك و نفساً لكرب مواطنكم : أى سعة و روحاً لما يعرض من

كرب منازل الآخرة وأهوالها .

العاشر : كونها حرزاً من متالف مكتنفة . وتلك المتالف هى الرذائل الموبقة الّتي هي محالّ الهلاك و التلف . و اكتنافها إحاطتها بالنفس بحيث لايكفّها إلّا طاعة الله و سلوك سبيله ، و المخاوف المتوقّعة مخاوف الآخرة وحرّ نيرانها .

الحادى عشر : كون التقوى مستلزمة لبعد الشدايد عن المتّقى بعد دنوّها منه ، و كثيراً ما يعبّر بالتقوى عن الطاعة وإن كانت أخصّ في بعض المواضع . أمّا في بعد شدائد الآخرة فظاهر ، و أمّا في الدنيا فلأنّ المتّقين هم أسلم الناس من شرور الناس لبعدهم عن مخالطاتهم ومجاذباتهم لمتاع الدنيا ، وبغضهم لها . إذ كانت محبّتها و الحرص عليها منبعاً لجميع الشرور و الشدايد .

الثانى عشر : كونهامستلزمة لحلاوة الاُمور بعد مرارتها . أمّا اُمور الآخرة فكالتكليف الوارد عليهم لها بالعبادات ، و ظاهر أنّها عند المتّقين أحلى و ألذّ من كلّ شيء بعد مرارتها في ذوقهم في مبدء سلوكهم و ثقلها عليهم و على غيرهم من الجاهلين ، و أمّا المرّ من اُمور الدنيا فكالفقر والعرى و الجوع ، و كلّ ذلك شعار المتّقين ، و هو أحلى في نفوسهم و آثر من كلّ شعار وإن كان مرّاً في ذوقهم في مبدء السلوك و قبل وصولهم إلى ثمرات التقوى .

الثالث عشر : و انفراج الأمواج عنه بعد تراكمها . و استعار لفظ الأمواج للهيئات البدنيّة الرديئة و ملكات السوء الّتى إذاتكاثفت وتوالت على النفس أغرقتها في بحار عذاب الله . وظاهر كون لزوم التقوى سبباً ينفرج باستعداد النفوس به عنها تلك الهيئات وينمحى من لوحها و إن كثرت .

الرابع عشر : كون لزومها سبباً لتسهيل صعاب الاُمور على النفس بعدإتعابها لها ، و ذلك أنّ المتّقين عند ملاحظة غايتهم من نفوسهم يسهل عليهم كلّ صعب من اُمور الدنيا ممّا يشتدّ على غيرهم كالفقر و المرض و كلّ شديد ، و كذلك يسهل عليهم كلّ صعب من مطالب الآخرة بعد إتعاب تلك المطالب لهم قبل تصوّرها التامّ في أوّل التكليف .

الخامس عشر : كونه سبباً لهطل الكرامة عليهم، والكرامة تعود إلى الكمالات النفسانيّة الباقية والالتذاذ بها . ولاحظ في إفاضتها عليهم مشابهتها بالغيث فاستعار لها لفظ الهطل و أسنده إليها ، و كذلك لفظ القحوط ، و كنّى به عن منعهم إيّاها قبل استعدادهم بالتقوى لها .

السادس عشر : كونه سبباً لتعطف الرحمة الإلهيّة بإفاضة الكمالات عليهم بعد نفورها عنهم لعدم الاستعداد أيضاً ، و لفظ التحدّب مستعار للإرادة أو لأثر الرحمة ، و كذلك لفظ النفور لعدم أثرها في حقّهم قبل ذلك .

السابع عشر : كونه سبباً لتفجّر النعم بعد نضوبها ، و لفظ التفجّر مستعار لانتشار وجوه إفاضات النعم الدنيويّة و الاُخرويّة كما قال تعالى « و من يتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب »[1] و كذلك لفظ النضوب لعدمها قبل الاستعداد لها ملاحظة لشبه النعم بالماء في الاستعارتين .

الثامن عشر : كونه سبباً لوبل البركة بعد رذاذها ، ولفظ الوبل مستعار للفيض الكثير من البركة بعد الاستعداد بالتقوى ، ولفظ الرذاذ للقليل قبل ذلك الاستعداد ملاحظة لشبهها بالغيث أيضاً ، و ظاهر كون التقوى سبباً لمزيد الفيض على كلّ من كان له بعض الكمالات كمن يستعدّ بالعلوم دون الزهد و العبادة ثمّ يسلك بهما. ثمّ بعد الفراغ من فضائلها و الترغيب فيها من تلك الجهة أعاد الأمر بها و رغّت فيها باعتبارات اُخر من إنعام المنعم ، وهي كونه تعالى نافعاً لهم بموعظته : أي جاذباً لهم إلى جنّته ، مرغّباً لهم في كرامته ، و واعظاً لهم برسالته إليهم ، و ممتنّاً عليهم بنعمته كقوله تعالى « واذكروا نعمة الله عليكم » في غير موضع من كتابه . ثمّ أمرهم بتعبيد أنفسهم و تذليلها لعبادته و الخروج إليه من حقّه الّذي يطلبه منهم و هو طاعته . ثمّ ذكر الإسلام وفضائله مرغّباً فيه . وهو كالتفسير لطاعته وعبادته فكأنّه قال : واخرجوا إليه من حقّ طاعته الّذي هو الإسلام فإنّه ذكر له فضائل :

(ا) كونه اصطفاه لنفسه : أي طريقاً إلى معرفته ونيل ثوابه .

---

(١) ٦٥ - ٢ .

(ب) كونه اصطنعه على عينه وهي كلمة يقال لما يهتمّ به و كأنّه للصنعة الّتي يختارها من عملت له ويشاهدها بعينه. ولفظ العين مجاز في العام. وعلى تفيد الحال: أى على علم منه بشرفه وفضيلته و وجه الحكمة فيه، ونحو قوله تعالى « و لتصنع على عيني »(١).

(ج) واصطفاه خير خلقه: أى اصطفى للبعثة به وإليه خيرخلقه محمّد وآله.

(د) و أقام دعائمه على محبّته. و لفظ الدعائم مستعار إمّا لأهل الإسلام أو لأركانه. و وجه المشابهة قيامه بها في الوجود كقيام الشيء المدعوم بدعائمه، وكلمة على للحال، و الضمير في محبّته للإسلام: أى أقام دعائمه حال المحبّة له، و قيل بل الله كما تقول طبع الله قلبي على محبّته.

(ه) أذلّ الأديان بعزّه. و ذلّة الأديان تعودإلى عدم الالتفات إليها فيكون مجازاً من باب إطلاق اسم السبب على المسبّب، أو ذلّة أهلها. فيكون من باب حذف المضاف. وظاهر أنّ عزّ الإسلام سبب للأمرين.

(و) و كذلك إطلاق وضع الملل برفعه.

(ز) و كذلك إهانة أعدائه و هم المشركون و المكذّبون له من الملل السابقة إهانتهم بالقتل وأخذالجزية والصغارلهم، و كرامته إجلاله و أجلال أهله وتعظيمهم في النفوس.

(ح) و خذل محادّيه بنصره: أى بنصر أهله. و في القرائن الأربع التضادّ: فالعزّ للذلّ، والرفع للوضع، والكرامة للإهانة، والنصر للخذلان.

(ط) وهدم أركان الضلالة بركنه و قوّته، و أركان الضلالة تعود إلى العقائد المضلّة في الجاهليّة و إلى أهل الضلالة وهو مستعار. و وجه الاستعارة قيام الضلالة بتلك العقائد أو بأهلها كقيام ذى الأركان بها و كذلك لفظ الهدم لزوال الضلالة بقوّة الإسلام وأهله.

(ى) وسقى من عطش من حياضه. فاستعار السقى لإفاضة علوم الدين على

---

(١) ٢٠ - ٤٠.

على نفوسهم و كمالها بها ، و لفظ العطش لما كانوا عليه من الجهل البسيط وعدم العلم و كذلك استعار لفظ الحياض لعلماء الإسلام الّذين هم أوعيته و حياضه الّتي ترده العطاش من العلوم و الحكمة الدينيّة .

(يا) وأثاق الحياض لمواتحه ، و استعار لفظ المواتح إمّا للأئمّة من القرن الأوّل الآخذين للإسلام من الرسول صلى الله عليه وآله الّذي هو الينبوع ، أو لأفكار العلماء وسؤالاتهم و بحثهم عن الدين و أحكامه و استفادتهم بها ، و وجه الاستعارتين كونهم مستخرجين للعلم و الدين عن مظانّه كما يستخرج الماتح الماء من البئر . و لفظ الحياض للمستفيدين .

(يب) جعله بحيث لا ينفصم عروته ، ولفظ العروة مستعار لما يتمسّك الإنسان به منه ، ورشّح بذكر الانفصام. ولمّا كان المتمسّك به ناجياً من الهلاك الأُخرويّ والشرور اللاحقة للملل السابقة و كان عدم الانفصام مظنّة سلامة المتمسّك عن الهلاك كنّى به عن دوام السلامة .

(يج) ولا فكّ لحلقته، كناية عن عدم انقهار أهله وجماعته .

(يد) ولا انهدام لأساسه، استعار لفظ الأساس للكتاب والسنّة الّذين هما أساس الإسلام ، ولفظ الانهدام لاضمحلالهما .

(يه) و لا زوال لدعائمه ، استعار لفظ الدعائم لعلمائه أو للكتاب و السنّة و قوانينهما و أراد بعدم زوالهما عدم انقراض العلماء أو عدم القوانين الشرعيّة .

(يو) ولا انقلاع لشجرته، استعار لفظ الشجرة لأصله وأركانه ، وهو كقوله : ولا انهدام لأساسه .

(يز) ولا انقطاع لمدّته، إشارة إلى بقائه إلى يوم الدين .

(يح) و لا عفاء لشرايعه ، وشرايعه قوانينه و اُصوله و هو كقوله : لا انقلاع لشجرته .

(يط) ولا جذّ لفروعه : أي لا ينقطع التفريع عليه بل كلّ ذهن سليم فكّر في اُصوله و هي الكتاب و السنّة استخرج منها ما لم يستخرجه غيره .

(ك) ولاضنك لطرقه ، وكنّى بعدم الضيق عن عدم صعوبة قوانينه على أهل التكليف ، أو لازم الضيق و هو مشقّة السالكين به إلى الله كما قال صلى الله عليه وآله : بعثت بالحنيفيّه السهلة السمحة .

(كا) ولا وعوثة لسهولته، كناية عن كونه في غاية العدل بين الصعوبة و بين السهولة المفرطة كما عليه أكثر الأديان السابقة من التشبيه و التجسيم فإنّ سلوكها مع ذلك و تصوّرها في غاية السهولة لكنّها طرق يبعد حصول المطالب الحقيقيّة و الوصول إلى التوحيد الخالص منها فكانت في سهولها هذه الوعوثة .

(كب) ولاسواد لوضحه، استعار لفظ الوضح لصفائه عن كدر الباطل الّذى هو سواد ألواح نفوس الكافرين و المنافقين .

(كج) ولا عوج لانتصابه ، و استعارلفظ الانتصاب لاستقامته في إدّائه إلى الله تعالى . إذ هو الصراط المستقيم في الدنيا .

(كد) و كذلك ولا عصل في عوده .

(كه) ولا وعث لفجّه .

(كو) ولا انطفاء لمصابيحه، عبّر بالمصابيح عن العلماء استعارة ، وبعدم انطفائها عن عدم خلوّ الأرض منهم .

(كز) ولا مرارة لحلاوته ، و ذلك أنّ حلاوة الإسلام الحقيقيّ في قلوب المتّقين لايشوبها مرارة من مشقّة تكليف و نحوها لما يتصوّرونه من شرف غايتهم .

(كح) فهو دعائم : أى فالإسلام دعائم ، و ذلك إشارة إلى تعريفه بأجزائه و هي كالشهادتين والعبادات الخمس كما ورد في الخبر: بني الإسلام على خمس.

وقوله : أساخ في الحقّ اسناخها إشارة إلى كونه تعالى بناها على أسرار من الحقّ عميقة لا يهتدى إليها إلاّ آحاد الخلق وهو أسرار العبادات .

(كط) قوله : و ينابيع غزرت عيونها، إشارة إلى تعريفه من قبل مادّته وهي الكتاب و السنّة ، و استعار لهما لفظ الينابيع نظراً إلى فيضان العلوم الإسلاميّة النقليّة و العقليّة عنهما كفيضان الماء عن الينابيع ، و لفظ العيون لما صدرا عنه ،

و هو علم الله تعالى و نفوس ملائكته و نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ، و ظاهر غزارة تلك العلوم و كثرتها .

(ل) و مصابيح شبّت نيرانها إشارة إلى مادّته أيضاً باعتبار أنّ في الكتاب و السنّة أدلّة أحكامها و براهينها ، و استعار لها لفظ المصابيح باعتبار كونها تضيء الطريق لخابطها إلى الله . و رشّح بذكر إضرام نيرانها، و عبّر به عن غاية إضائتها .

(لا) و منار اقتدى بها سفّارها و أعلام قصد بهافجاجها . إشارة إلى تلك المادّة باعتبار أنّ فيها أمارات على أحكام الله الظنيّة يقتدى بها المسافرون السالكون إلى قصدها و القاصدون لطرقها الّتي هي منصوبة عليها .

(لب) ومناهل روى بها ورّادها، استعار لفظ المناهل لتلك الموادّ أيضاً باعتبار كونها من العلم لواردها و مقتبسيه منها كما تروى ورّادالحياض بمائها .

(لج) جعل الله فيه منتهى رضوانه ، وذلك في نحو قوله تعالى « وأتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الإسلام ديناً » (١) وقوله إنّ الدين عند الله الإسلام » (٢) ولأنّ فيه أتمّ وسيلة إلى غاية الكمالات الإنسانيّة الّتي هي منتهى مايرضاه الله و يحبّه من عباده .

(لد) و ذروة دعائمه، و الضمير في دعائمه لله : أى لدعائم الّتي جعلها الله عمدة له في إصلاح خلقه و هى الشرائع و قوانينها ، و ظاهر أنّ الأنوار الّتي جاء بها الإسلام و الهداية الّتي به أشرف وأعلى منها في سائر الشرائع فهو كالذروة لها .

(له) و سنام طاعته ، و لفظ السنام مستعار لمجموع ما اشتمل عليه من البيانات والهدايات . و وجه المشابهة شرفها أيضاً وعلوّها بالنسبة إلى الطاعات السابقة عليه كشرف السنام بالنسبة إلى باقى الأعضاء .

(لو) فهو عندالله وثيق الأركان، و أركانه أجزائه، و وثاقتها تعود إلى بنائها على الأسرار الحقيقيّة والعلم التامّ لواضعها بكيفيّة وضعها و كمال فايدتها بحيث لايمكن انتقاضها ولا زوالها .

---

(١) ٥ - ٥ (٢) ٣ - ١٧ .

(لز) رفيع البنيات : أی مارتقی إليه أهله من المجد و الفضيلة، وظاهر علوّ قدره و قدر أهله و تعظيمهم في النفوس على سائر الأديان وأهلها .

(لح) منير البرهان، وأراد برهانه الّذی دعی الخلق إليه و هوالقرآن و سائر المعجزات ، و لا شكّ في إنارتها و إضاءتها في أقطار العالم و اهتداء أكثر الخلق بها .

(لط) مضیء النيران ، و استعارلفظ النيران لأنواره من العلوم و الأخلاق المضيئة على علمائه و أئمّته .

(م) عزيز السلطان، و أراد قوّته وعزّة أهله ودولته و منعة من التجأ إليه به .

(ما) مشرف المنار ، و كنّى به عن علوّ قدر علمائه وأئمّته و انتشار فضلهم و الهداية بهم .

(مب) معوز المثار : أی يعجز الخلق إثارة دفائنه و ما فيه من كنوز الحكمة ولا يمكنهم استقصاء ذلك منه ، و روی المنال : أی يعجز الناس إمّا بالإتيان بمثله أو باستقصاء حكمه و ثمراته ، و روی المثال و هو ظاهر . ثمّ لمّا بيّن فضيلته أمر بتعظيمه و اتّباعه و أداء حقّه و هو العمل به مع اعتقاد شرفه و كونه مؤدّيا إلى الجنّة . ثمّ بوضعه مواضعه و هی القلوب لا الألسن والشعارالظاهر فقط . ثمّ لمّا فرغ من ذلك شرع في فضائل من بعث به ليذكّرهم نعمة من الله بعدنعمة ، وقرن ذكره بذكر أحوال الدنيا حين البعثة ليظهر شرفها :

فـ(ا) كونها قددنا انقطاعها وإقبال الآخرة واطّلاعها، وقدبيّنّا ذلك في قوله : ألا و إنّ الدنيا قد أدبرت و آذنت بوداع ، و على الجملة فيحتمل أن يريد قرب انقطاع الدنيا و زوالها بالكلّيّة وحضور الآخرة والقيامة الكبرى كما عليه ظاهر الشريعة و يحتمل أن يريد قرب انقطاع دنيا كلّ اُمّة منهم و حضور آخرتهم بموتهم و انقراضهم و لفظ الاطّلاع استعارة كما سبق .

(ب) كونها قد أظلمت بهجتها بعد إشراق ، و أراد إشراق بهجتها بأنوار الأنبياء السابقين و ضياء الشرائع، وإظلامهاحين بعثة الرسول صلّى الله عليه وآله باندراس تلك الآثار و فسادها .

(ج) قيامها بأهلها على ساق، كناية عن ظهوره شدائدها وإثارة الفتن بين أهلها و ما كانت العرب عليه من الخبط و الاختلاف في الحروب و الغارات المؤدّية إلى الفناء.

(د) خشونة المهاد منها ، و كنّى به عن عدم الاستقرار بها و طيب العيش فإنّ ذلك إنّما يتمّ و يعتدل بنظام الشرائع والنواميس الإلهيّة.

(ﻫ) وأزف منها قياد : أى قرب منها انقياد للانقطاع و الزوال و الانخراط في سلك التقضّى و اقتراب علامات ذلك منها ، و علامات زوالها هى علامات الساعة و أشراطها ، و كذلك تصرّم أهلها و انفصام حلقتها ، و كنّى بالحلقة عن نظامها واجتماع أهلها بالنواميس والشرائع وبانفصامها عن فساد ذلك النظام بانتشار سببها عن فساد أسباب ذلك النظام فإنّ أسباب التصرّف النافع فيها إنّما يتمّ بالنواميس الشرعيّة و قوانينها ، و استعار لفظ أعلامها للعلماء و الصلحاء بها وكان عليهم العفاء حينئذ ، و كذلك بعوراتها عن وجوه الفساد فيها ، و بتكشّفها عن ظهورها بعد اختفاء ، و كذلك القصر من طولها فإنّ الدنيا إنّما يكون طولها و دوامها عند صلاحها بالشرائع فإذن قصرها يكون عند فسادها وعدم النظام الشرعى . ثمّ رجع إلى تعديد فوائد بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم :

ف (ا) إنّ الله تعالى جعله بلاغاً لرسالته و هو كقوله تعالى « يا أيّها الرسول بلّغ ما اُنزل إليك »[1] الآية .

(ب) و كرامة لاُمّته لكونه داعيا لهم إلى الكرامة الباقية التامّة و سبب للكرامة .

(ج) و ربيعاً لأهل زمانه ، و استعار لفظ الربيع له ، و وجه المشابهة كونه بهجة للمسلمين و علمائهم و سبباً لبطنتهم من العلم و الحكمة كما أنّ الربيع سبب لبهجة الحيوان بمراعيها وبطنتهم وسمنهم .

(د) و رفعة لأعوانه : أى لأعوان الله و أنصاره وهم المسلمون و ظاهر كونه

---

(١) ٥ - ١٧ .

صلى الله عليه وآله وسلم سبب رفعتهم و شرفهم . ثمّ عقّب بذكر بعض الأنوار الّتي بعث بها صلى الله عليه وآله وسلم وهو الكتاب العزيز وعدّ فضائل :

(ا) كونه نوراً لاتطفى مصابيحه ، وأراد نور العلم و الأخلاق المشتمل عليها، و استعار لفظ المصابيح إمّا لما انتشر من علومه و حكمه فاقتدى بها الناس ، و إمّا لعلمائه و حاملي فوايده .

(ب) كونه سراجاً لا يخبو توقّده ، و أراد أنّه لا تنقطع هداية الناس بنوره فهو كالأوّل .

(ج) و بحر لا يدرك قعره ، لفظ البحر مستعار له باعتبارين : أحدهما عمق أسراره بحيث لايحيط بها الأفهام ولاتصل إلى أغوارها العقول كما لايدرك الغائص قعر البحر العميق . والثاني : كونه معدناً لجواهر العلوم النفيسة و الفضائل كما أنّ البحر معدن للجواهر .

(د) و منهاجاً لايضلّ نهجه ، و ظاهر كونه طريقاً واضحاً لمن سلك به إلى الله . و من تفهم مقاصده لايضلّ قصده .

(ه) وشعاعاً لا يظلم ضوءه : أي لا يغطّي الحقّ الوارد به ظلامُ شبهة ولاتلبيس باطل ، و لفظ الشعاع و الضوء والظلمة مستعار .

(و) و فرقاناً لا يخمد برهانه : أي فيه براهين يفرق بين الحقّ و الباطل لا يخمد ، و لفظ الخمود مستعار ملاحظة لشبه البرهان بالنار في الإضاءه فنسب إليه وصفها .

(ز) وبنياناً لا تهدم أركانه ، و استعار لفظ البنيان لما انتظم من الكتاب ورسخ في القلوب ، و رشّح بذكر الأركان لاستلزام البنيان لها .

(ح) و شفاء لا يخشى سقامه كما قال تعالى « و ننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين »(١) ، وظاهر كون تدبّره وأسراره شفاء للنفوس من أعراض الجهل و رذائل الأخلاق ، وذلك شفاء لايخاف استعقابه بمرض وذلك أنّ الفضائل النفسانيّة

(١) ١٧ - ٨٤ .

إذاصارت ملكات لم تزل ولم يتبدّل بأضدادها وإن كان أيضاً شفاء للأبدان كماسبق .

(ط) وعزّاً لا تهزم أنصاره .

(ى) و حقّاً لا تخذل أعوانه و أنصاره ، و أعوانه هم المسلمون المعتزّون به [المعترفون به خ] و الملتجئون إليه العاملون على وفقه السالكون به إلى الله ، وظاهر أنّ أُولئك الأنصار والأعوان لايهزمهم أحد ولا يخذلهم الله أبداً .

(يا) فهو معدن الإيمان الّذي يستنار منه الإيمان الكامل بالله و رسوله وبماجاء به وبحبوحته ، و ظاهر كون اعتقاد حقّيته و تفهّم مقاصده و العمل بها واسطة عقد الإيمان .

(يب) و ينابيع العلم و بحوره ، و اللفظان استعارة له باعتبار كونه محلّ فيض العلوم النفيسة و استفادتها .

(يج) و رياض العدل و غدرانه ، و اللفظان مستعاران أيضاً باعتبار كونه مورداً يؤخذ عنه العدل بكلّيّته فهو مورده الّذى لا يجور عن سنن الحقّ إلى أن يبلغ به صاحبه السالك به إلى الله .

(يد) و أثافيّ الإسلام و بنيانه ، و اللفظان مستعاران له باعتبار كونه أصلاً للإسلام يبتنى عليه، و به يقوم كما أنّ الأثافيّ للقدر و البنيان لمايحمل عليه كذلك .

(يد) و أودية الحقّ و غيطانه ، و اللفظان مستعاران له باعتبار كونه معدناً للحقّ و مظنّة له كما أنّ الأودية و الغيطان مظانّ الكلاء و الماء .

(يو) وبحر لا يستنزفه المستنزفون .

(يز) وعيون لاينضبها الماتحون، إنّما كرّر استعارة البحر والعيون له باعتبار آخر وهو كونه لاينتهى فوايده والمقاصد المستنبطة منه .

(يح) و كذلك ومناهل لايغيضها الواردون و خصّص النضوب بالعيون لإمكان ذلك فيها دون البحر و الورد بالمناهل لكون النهل وهوالرىّ لغاية وارد الماء .

(يط) منازل لا يضلّ نهجها المسافرون : أى مقامات من العلوم إذا نزلتها العقول المسافرة إلى الله لا تضلّ لاستنارتها و شدّة إضاءتها .

(ك) و كذلك و أعلام لا تعمى عنها السائرون .

(كا) و كذلك و آكام لا يجور عنها القاصدون ، استعار لفظ الأعلام و الآكام للأدلّة والأمارات فيه على طريق إلى معرفته و أحكامه باعتبار كونها هادية إليها كما تهدى الأعلام والجبال على الطرق .

(كب) جعله الله ريّا لعطش العلماء ،استعارلفظ الرىّ له باعتبار كونه دافعاً لألم الجهل عن النفوس كما يدفع الماء ألم العطش ، و لفظ العطش للجهل البسيط أو لاستعداد الطالبين للعلوم و اشتياقهم إلى الاستفادة ، و أطلق لفظ الرىّ على المروى مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه .

(كج) وربيعاًلقلوب الفقهاء ، ولفظ الربيع مستعارله باعتبار كونه مرعى لقلوب الفقهاء يستثمرون منه الأحكام ، وبهجة لها كالربيع للحيوان .

(كد) و محاجّ لطرق الصلحاء ، وظاهر كونه طريقاً واضحاً للصالحين إلى الله.

(كه) ودواءً ليس بعده داء كقوله : شفاء لايخشى سقامه .

(كو) و نوراً ليس معه ظلمه : أي لا تبقى مع هدايته إلى الأحكام ظلمة على البصيرة ، وهو كقوله : وشعاعاً لايظلم نوره .

(كز) وحبلاً وثيقاً عروته، استعار لفظ الحبل له والعروة لما يتمسّك به منه ، و كنّى بوثاقة عروته عن كونه منجياً لمن تمسّك به .

(كح) ومعقلامنيعاًذروته،استعار لفظ المعقل باعتبار كونه ملجأمن الجهل ولوازمه و هو العذاب ، و رشّح بذكر الذروة و كنّى بمنعتها عن كونه عزيزاً يمنع من لجأ إليه .

(كط) وعزّاً لمن تولّاه : أي اتّخذه وليّاً يلقى إليه مقاليد اُموره ولايخالفه، و ظاهر كونه سبب عزّه في الدارين .

(ل) وسلماً لمن دخله : أي أمناً. ودخوله: الخوض في تدبّر مقاصده واقتباسها، و بذلك الاعتبار يكون مأمناً من عذاب الله ومن الوقوع في الشبهات الّتي هي مهاوى الهلاك .

(لا) وهدى لمن ائتم، وهو ظاهر .

(لب) و عذراً لمن انتحله : أى من نسبه إلى نفسه بدعوى حفظه أو تفسيره و نحو ذلك معتذراً بذلك من تكليف لايليق به أو يشق عليه كان ذلك عذراً منجياً له. و هذا كمال تقول لمن يقصد إنساناً بأذى : لا ينبغى لك أن تؤذيه فانه من حملة القرآن الكريم أو ممن يعلم علومه فيكون ذلك سبباً لترك أذاه .

(لج) و برهاناً لمن تكلم به .

(لد) و شاهداً لمن خاصم به .

(له) و فلجاً لمن حاج به . الثلاثة متقاربة ، وأطلق لفظ الفلج عليه من جهة ما يحتج به إطلاقاً لاسم الغاية على ذى الغاية إذ غاية الاحتجاج به الفوز. و الشاهد و الحجة أعم من البرهان .

(لو) و حاملاً لمن حمله : أى يحمل يوم القيامة حملته وحفظته الآن ، و عبر بحمله لهم عن إنجائه لهم من العذاب إطلاقاً لاسم السبب على المسبب .

(لز) ومطية لمن أعمله، استعار له لفظ المطية باعتبار كونه منجياً لهم كقوله : حاملاً و لفظ الاعمال لاتباع قوانينه و المواظبة عليها المنجية من العذاب كما ينجى إعمال المطية في الطريق البعيد .

(لح) و آية لمن توسم ، و ذلك باعتبار تدبر أمثاله و قصصه فان فيها آياتاً و عبراً كما قال تعالى « إن في ذلك لآيات للمتوسمين » [(١)].

(لط) و جنة لمن استلأم : أى لمن استلأمه و لبسه كالدرع ، و استعار له لفظ الجنة لوقايته من استعد بعلمه من عذاب الله ، و كنى باستلئامه عن ذلك الاستعداد به.

(م) و علماً لمن وعى : أى لمن حفظه و فهم مقاصده .

(ما) و حديثاً لمن روى ، و ذلك باعتبار ما فيه من القصص و أخبار القرون الماضية فان أصدق حديث يروى منها ما اشتمل عليه القرآن ، و يحتمل أن يريد بكونه حديثاً كونه قولاً و كلاماً ليس لمن نقله كما قال تعالى «الله الذى نزل أحسن

(١) ١٥ - ٧٥ .

الحديث كتاباً متشابهاً مثانى »الخ[١] وتكون فايدة هذا الوصف أن" فيه غنية لمن أراد أن يتحدّث بحديث غيره ممّا لا يفيد فايدته فينبغى أن يعدل إليه و يشتغل بتلاوته و التحدّث به .

(مب) و حكماً لمن قضى : أى فيه الأحكام الّتى يحتاج إليها القضاة ، وروى حكماً : أى حاكماً ترجع إليه القضاة و لا يخرجون عن حكمه . وبالله التوفيق .

١٩٠- ومن خطبة له عليه السلام

كان يوصى به أصحابه

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا ، وَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا ، وَتَقَرَّبُوا بِهَا ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً ، أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا : (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ .) وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلَاقَ الرِّبَقِ ، وَشَبَّهَهَا رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ ؟! وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ ، وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلَا مَالٍ . يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ : (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ) . وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَصِباً بِالصَّلَاةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ ؛ لِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ : (وَأْمُرْ أَهْلَكَ

---

(١) ٣٩ - ٢٤ .

بالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) فَكَانَ يَأمرُ أَهْلَهُ ، وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ .

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَاناً لأَهْلِ الإِسْلَامِ ، فَمَنْ أَعْطَاهَا ، طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا ، فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً ، وَمِنَ النَّارِ حِجَازاً وَوِقَايَةً . فَلَا يُتْبِعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ ، وَلَا يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ ؛ فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ ، مَغْبُونُ الأَجْرِ ، ضَالُّ العَمَلِ ، طَوِيلُ النَّدَمِ .

ثُمَّ أَدَاءَ الأَمَانَةِ ؛ فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا ، إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمٰوَاتِ المَبْنِيَّةِ ، وَالأَرَضِينَ المَدْحُوَّةِ ، وَالجِبَالِ ذَاتِ الطُّولِ المَنْصُوبَةِ فَلَا أَطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا ، وَلَوِ امْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ أَوْ عَرْضٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ عِزٍّ لَامْتَنَعْنَ ، وَلٰكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ العُقُوبَةِ ، وَعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُنَّ وَهُوَ الإِنْسَانُ (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

إِنَّ اللهَ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا العِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ، لَطُفَ بِهِ خُبْراً ، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْماً ، أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ .

أقول : الربق : جمع الربقة وهي الحلقة في الحبل. والجمّة بالجيم : الحفيرة يجمع فيها الماء ، و روى بالحاء و المعنى واحد . و الدرن : الوسخ . و النصب : التاعب . و الاقتراف : الاكتساب .

و حاصل الفصل الوصيّة بالمحافظة على اُمور ثلاثة و الحثّ عليها :

أوّلها : الصلاة فأمر بتعاهد أمرها و المحافظة عليها و ذلك بافتقار الإنسان لأحوال نفسه حال الصلاة و مراقبتها حذراً أن تشوبها نزغات الشيطان برياء فيها أو التفات عنها . ثمّ بالمحافظة على أوقاتها و أداء أركانها كما هي . ثمّ بالاستكثار منها و التقرّب بها إلى الله لكونها أفضل العبادات و القرب إليه . ثمّ أشار إلى فضيلتها و وجه وجوبها :

أحدها : قوله : فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً وهو لفظ القرآن الكريم. و موقوتاً: مفروضاً ، وقيل منجّماً في كلّ وقت صلاةُ معيّنة .

الثاني : التحذير لتاركها بالتنبيه على استلزام تركها لدخول النار بقوله : لا تسمعون . إلى قوله : من المصلّين .

الثالث : أنّها تحتّ الذنوب حتّ الورق ، و هو تشبيه للمعقول بالمحسوس و وجه الشبه ظاهر، و كذلك و تطلقها إطلاق الربق : أى وتطلق أعناق النفوس من أغلالها كما تطلق الربقة من عنق الشاة .

الرابع : تشبيه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لها بالحمّة تكون على باب الرجل. و صورة الخبر عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم :أيسرّ أحدكم أن يكون على بابه حمّة يغتسل منها كلّ يوم خمس مرّات فلا يبقى عليه من درنه شيء ؟ فقالوا : نعم . قال : فإنّها الصلوات الخمس .

الخامس : تنبيهه بذكر عرفان رجال من المؤمنين و هم الموصوفون في الآية بقدرها .

السادس : نصب الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فيها وأمر الله تعالى بالمواظبة عليها بعد تبشّره له بالجنّة و ذلك في قوله « و أمر أهلك بالصلاة و اصطبر عليها » و امتثاله لذلك الأمر في نفسه و أمره أهله ، و روى أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قام في الصلاة حتّى تورّمت قدماه . فقيل له في ذلك. فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ ، و ذلك من أوضح الدلائل على كثرة فوائدها و قوّة فضيلتها ، واعلم أنّه قد ورد في فضلها أخبار كثيرة بعد تأكيد القرآن للأمر بها ، و قد بيّنّا ذلك و أشرنا إلى فضيلتها إشارة مستوفاة في الفصل

الّذي أوّله: إنّ أفضل ما يتوسّل به المتوسّلون إلى الله سبحانه الإيمان به وبرسوله.

الثانية ممّاأمر بالمحافظة عليه: الزكاة وهي قرينة الصلاة في الذكر في الكتاب العزيز و في الفضيلة فلذلك قال: جعلت مع الصلاة. ثمّ أشار إلى سرّها و هو كونها قرباناً لأهل الإسلام، وسنبيّن ذلك، وأشار بقوله: فمن أعطاها. إلى قوله: طويل الندم إلى شرط كونها مقرّبة إلى الله تعالى و بيان كون قبولها مشروطاً بطيب النفس ببيان سرّها، وقد عرفته أيضاً في ذلك الفصل و علمت أنّ من أقسام المستنزلين عن المال من اقتصر منه على أداء الواجب من الزكاة من غير زيادة و لا نقصان و هم العوامّ لجهلهم بسرّ البذل و بخلهم بالمال و ميلهم إليه من ضعف حبّهم للآخرة قال تعالى «إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا»[1] وطهارة الفرق الّذين ذكرناهم ممّن استنزل عن المال و محابّهم و قربهم من الله وبعدهم بقدر طيب أنفسهم عن بذل المال و الإعراض عنه ومحبّته، و هذه الفرقة أعني من اقتصر منهم على أداء الواجب فقط تنقسم إلى مؤدّ لذلك الحقّ بطيب نفس ومسامحة، و إلى مؤدّ له مع بقاء محبّته و تكدير النفس ببذله و تلهّف عليه أوانتظار جزاء له، و باعتبار القسمين الأوّلين مع القسم الأوّل من هذه الفرقة يكون بذل المال و الزكاة قربة إلى الله تعالى و هو الّذي أشار إليه أمير المؤمنين بقوله: إنّ الزكاة. إلى قوله: و وقاية. وإن كان قد خصّص الزكاة هنا، وإنّما يكون قربة لاستلزامه رفض هذا المحبوب الّذي يتصوّر باذله أنّ جميع الكمالات الدنيويّة يستفاد منه رغبة عنه ومحبّة لله ورغبة فيما عنده، وتكون كفّارة ماحية لرذيلة البخل و ما يستلزمه من الذنوب، ويكون حجاباً بين العبد وبين عذاب الله. إذقد علمت أنّ مبدء العذاب في الآخرة حبّ الدنيا و أعظمه حبّ المال فإذا كان بذل المال مستلزماً لزوال حبّه كان بذلك الاعتبار حجاباً من العذاب و وقاية منه، و أمّا إيتاء الزكاة على الوجه الثاني فهو المذموم و المنهيّ عنه بقوله: ولا يكثرنّ عليها لهفه. بعد أمره بها في قوله: فلا يتبعنّها أحد نفسه و يلزم باذلها على ذلك الوجه النقائص المذكورة: و هي الجهل بالسنّة فإنّ السنّة في أدائها

(١) ٤٧ ٣٩.

أن يؤدّى بطيب نفسه ومسامحة ، و أن يكون مغبوناً في الأجر فإنّ إيتانها على وجه توقّع جزاء لها لا على وجه القربة إلى الله غير مستلزمة لرضوانه وذلك هو الغبن و إن حصل له جزاء غير رضوان الله فإنّ الحصول على كلّ جزاء غير رضوانه جزاء ناقص و غبن فاحش بالنسبة إليه، و أن يكون ضالّ العمل و هو إعطاؤه ذلك المال و بذله على غير وجهه و قصده به غير سبيل الهدى إلى رضوان الله، و أن يكون طويل الندم: أي في محبّة المال و فيما يرجوه به من الجزاء .

الثالثة ممّا أوصى به : أداء الأمانة و هي الّتي أشار القرآن الكريم إليها بقوله « إنّا عرضنا الأمانة على السماوات و الأرض و الجبال » (١) الآية ، وقد بيّنّا فيما سلف أنّها تعود إلى العبادة و الطاعة المطلوبة من الإنسان بما هو إنسان، وظاهر أنّ تلك العبادة لا يمكن من غيره فإنّه إنّما حملها من حيث خلق مستصلحاً للدارين ، و بيان ذلك أنّ مخلوقات الله تعالى إمّا جمادات أو ذات حياة ، و ذوات الحيات إمّا الملائكة و الحيوان الأرضي ، و الحيوان الأرضي إمّا أعجم أو ناطق. فالحيوان منها و هو الإنسان هو المتأهّل لعمارة الدارين و الكون فيها ، و هو الواسطة بين خلقين وضيع وهو الحيوان الأعجم و شريف و هو الملك ، وقد استجمع قوّتي العاملين فهو كالحيوان في الشهوة و الغضب وقوّة التناسل وساير القوى البدنيّة المختصّة بالحيوان، و كالملك في القوّة المجرّدة و العقل و العلم و العبادة و سائر الكمالات النفسانيّة ، و وجه الحكمة في ذلك أنّه تعالى لمّا اقتضت عنايته إيجاده لهذه العبادة المخصوصة أن يجعل في الأرض خليفة لعمارتها جمع له بين القوّتين فإنّه لو كان كالبهيمة خالياً عن العقل لم يتأهّل لمعرفته وعبادته الخاصّة ، ولو خلق كالملك معرّى عن الشهوة و الغضب و سائر القوى البدنيّة لم يصلح لعمارة أرضه و خلافته فيها و لذلك قال للملائكة « إنّي أعلم ما لا تعلمون » فإذن هذه العبادة الخاصّة و هي الأمانة المشار إليها لا يصلح لها إلّا الإنسان ولا يمكن من غيره، و قد علمت أيضاً فيما سلف أنّ إباء السماوات والأرض والجبال عن حملها يعود إلى امتناع

(١) ٣٣ - ٧٢ .

قبولها بلسان حال قصورها و عدم صلاحيّتها لها ، و إشفاقها من عقوبة الله على التقصير عن أداء حقوقها كما أشار إليه أميرالمؤمنين عليه السلام بقوله: أشفقن من العقوبة. ولم يكن ذلك إباء استكبار لخضوعها تحت ذلّ الحاجة إليه ، ولفظ الإشفاق مجاز في ثمرته ولازمه و ذلك أنّ السلطان مثلاً إذا كلّف بعض رعيّته حمل أمانة تكليف تخيير فخاف ذلك المكلّف العقوبة على تقصيره في أداء تلك الأمانة فإنّ خوفه يستلزم تركه وامتناعه من حملها فكان الامتناع من الأمانة مسبّباً عن الإشفاق فأطلق الإشفاق هنا على إباء السماوات والأرض بلسان حالها مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب و قيل : إنّ ذلك الإباء و الإشفاق على وجه التقدير و إنّما جيء بلفظ الواقع لأنّ الواقع أبلغ من المقدّر: أي لو كانت هذه الأجرام عاقلة ثمّ عرضت عليها و ظائف الدين عرض تخيير لاستثقلت ذلك مع كبر أجسامها و شدّتها و لا متنعت من حملها إشفاقاً من القصور عن أداء حقّها . ثمّ إنّ مخاطبة الجماد و الإخبار عنها نظراً إلى قرينة الحال طريقة مشهورة للعرب ومستحسنهم في تعارفهم كقولهم : يادار ما صنعت بك الأيّام ؟ ، ونحوه. بل مخاطبة بعض الجمادات لبعض بلسان أحوالها كقولهم : قال الحائط للوتد : لم تشقّني ؟ قال : سل من يدقّني ، و نحو ذلك كثير. فأمّا قوله عليه السلام : و قد خاب من ليس من أهلها. فتلك الخيبة تعود إلى حرمان ثمرة هذه العبادة و ما يستلزمه من الحصول على الكمالات . إذ ليست من أهلها ، وذكر كون السماوات مبنيّة و الأرض مدحوّة و الجبال بأطوالها و عروضها و علوّها و عظمتها تنبيه للإنسان على جرأته على المعاصي و تضييع هذه الأمانة إذ اُهّل لها و حملها، و تعجّب منه في ذلك. فكأنّه يقول : إذا كانت هذه الأجرام العلويّة الّتي لا أعظم منها قد امتنعت من حمل هذه الأمانة حين عرضت عليها فكيف حملها من هو أضعف منها .

وقوله : و لوامتنع شيء . إلى قوله : لامتنعن .

إشارة إلى أنّ امتناعهنّ لم يكن لعزّة و عظمة أجساد و لا استكبار عن الطاعة له، وأنّه لو كان كذلك لكانت أولى بالمخالفة عن كلّ شيء لأعظميّة أجرامها

عن كلّ المخلوقات بل إنّما ذلك عن ضعف وإشفاق من خشية الله ، وعقلن ما جهل الإنسان . قيل : إنّ الله تعالى عند خطابها خلق فيها فهماً وعقلاً ، و قيل : إنّ إطلاق العقل مجاز في مسبّبه و هو الامتناع عن قبول هذه الأمانة كلفظ الإشفاق فإنّ عقليّة المكلّف العقوبة على التقصير في تكليف يخيّر فيه و يخاف التقصير يستلزم تركه لذلك التكليف و استقالته منه ، وإذ لم يكن لها عقل من جهة ما هي أجرام اُطلق لفظ العقل على لازمه و ثمرته و هو الامتناع و الإباء مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب كإطلاق لفظ الإرادة على ميل الحائط في قوله تعالى «جداراً يريد أن ينقضّ » [(١)] و أقول : يحتمل أن يعود الضمير في أشفقن و عقلن إلى من يعقل من الملائكة السماويّة . إذ لكلّ جرم سماويّ ملك يدبّره هو كالبدن له لإمكان ذلك فيها دون سائر الأجرام الأرضيّة ، و ما جهله الإنسان هو عظمة الله و غاية هذه الأمانة ، و تقصيره في أداء واجباتها المستلزم لعقوبته و استحقاق سخط الله ، و كونه ظلوماً : أي كثير الظلم لنفسه لعدم محافظته على هذه الأمانة ، و كونه جهولاً : أي كثير الجهل بأسرار هذه الأمانة والغفلة عمّا يستلزمه فعلها وتركها وعن الوعيدات الواردة على التقصير فيها .

و قوله : إنّ الله لا يخفى عليه . إلى آخره .

تنبيه لهذا الظلوم الجهول على إحاطة علم الله تعالى بجميع أحواله وا كتساباته في ليله و نهاره وأنّه لطيف الخبر و المعرفة بها ينفذ علمه في البواطن كما يقع على الظواهر .

وقوله: أعضاؤكم شهوده .

أى شهود له عليكم من قوله تعالى « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون »[(٢)] ، و جوارحكم جنوده و ذلك باعتبار كونها معينة عليهم ، وضمائركم عيونه : أى طلائعه وجواسيسه كقوله تعالى « و شهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين » [(٣)] و تلك الشهادة و الإعانة بلسان الحال و قد عرفت كيفيّة

(١) ١٨ - ٧٦ (٢) ٢٤ - ٢٤ (٣) ٧ - ٣٥ .

إنطاق الجوارح وشهادة النفوس على أنفسها ، و كنّى بالخلوات عمّا يفعل فيها من معاصى الله مجازاً ، و إنّما خصّصها لأنّها مظنّة المعصية ، ويحتمل أن يريد بالخلوة مصدر قولك : خلوت خلواً . لا المكان . فيكون حقيقة و ظاهر أكونها عياناً لله : أى معاينة له ، و كلّ ذلك تحذير وتنفير عن تحريك الجوارح و الخلوة بها فيما لاينبغي من المعاصي. وبالله التوفيق والعصمة .

١٩١ — وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

وَاللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي ، وَلٰكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ ، وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ ، وَلٰكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فَجْرَةٌ ، وَلِكُلِّ فَجْرَةٍ كَفْرَةٌ ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ ، وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ

أقول : الدهاء : استعمال العقل والرأى الجيّد فيما يراد فعله ممّا لا ينبغي مع إظهار إرادة غيره. ويسمّى صاحبه داهياً، وداهية للمبالغة ، و خبيثاً و مكّاراً وحيّالاً . و هو داخل تحت رذيلة الجربزة و هي طرف الإفراط من فضيلة الحكمة العمليّة و يستلزم رذائل كثيرة كالكذب. والغدر : هو الرذيلة المقابلة لفضيلة الوفاء بالعهود الّتي هي ملكة تحت العفّة. و الفجور: المقابل لفضيلة العفّة .

فقوله عليه السلام : ما معاوية بأدهى منّى .

أى ليس بأقدر منّي على فعل الدهاء ، وأكّد ذلك بالقسم البارّ .

و قوله : ولكنّه يغدر ويفجر .

إشارة إلى لوازم الدهاء الّتي لأجلها تركه وهو الغدر، وبواسطته الفجور فانّ الوفاء لمّا كان نوعاً تحت العفّة كان الغدر الّذى هو رذيلته نوعاً تحت ما يقابل العفّة و هو الفجور ولذلك نفى الدهاء عن نفسه لكراهيّته للغدر، و نفيه له عن نفسه

لأنّ نفى اللازم مستلزم لنفى الملزوم . ثمّ جعل الغدر أوسط في إثبات الفجور لمعاوية بقياس ضمير من الشكل الأوّل فقوله : ولكنّه يغدر. في قوّة صغرى القياس ، و قوله : ويفجر. في قوّة النتيجة فكأنّه قال : ولكنّه يغدر فهو يفجر ، و نبّه على الكبرى بقوله : و كلّ غدرة فجرة. فصار الترتيب هكذا : ولكنّه يغدر و كلّ من يغدر يفجر والنتيجة فهو إذن يفجر . ثمّ نبّه على لزوم الكفر له بقياس آخر من الشكل الأوّل نبّه على صغراه بقوله : و كلّ غدرة فجرة ، وعلى كبراه بقوله : و كلّ فجرة كفرة ، و إذ ثبت في القياس الأوّل أنّه فاجر و استلزم قوله : و كلّ فجرة كفرة أن كلّ فاجر كافر ثبت بهاتين المقدّمتين أنّه كافر. وروى: غدرة ، و فجرة ، و كفرة . و هو كثير الغدر و الفجور و الكفر و ذلك أصرح في إثبات المطلوب ، قال بعض الشارحين : و وجه لزوم الكفر أنّ هنا الغادر على وجه استباحة ذلك و استحلاله كما كان هو المشهور من حال عمرو بن العاص و معاوية في استباحة ما علم تحريمه بالضرورة من دين محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم وجحده وهومعنى الكفر ، ويحتمل أنّه يريد كفر نعم الله وسترها باظهار معصيته كماهو المفهوم اللغويّ من لفظ الكفر . وإنّما وحّد الكفر ليتعدّد الكفر بحسب تعدّد الغدر فيكون أدعى إلى النفار عن الغدر . إذ هو في معرض التنفير عنه .

و قوله : ولكلّ غادر لواء يعرف به يوم القيامة .

لفظ الخبر النبوىّ ، وفيه تنفير عن رذيلة الغدر .

و قوله : والله ما استغفل بالمكيدة .

تقرير وتأكيد لما ذكره من معرفته بوجوه الآراء و كيفيّة الدهاء للداهى فإنّ من يكون كذلك لا يلحقه غفلة عمّا يعمل عليه من الحيلة والمكيدة .

وقوله : ولا اُستغمز. بالزاء المعجمة .

أى لا يطلب غمزى وإضعافي فإنّني لا أضعف عمّا اُرمى به من الشدائد ، و روى بالراء أى لا اُستجهل بشدائد المكائد . وهذا القول صدر منه عليه السلام كالجواب لما كان يسمعه من أقوال الجاهلين بحاله و نسبتهم له إلى قلّة التدبير و سوء الرأى

و نسبة معاوية إلى استخراج وجوه المصالح والآراء الصحيحة في الحرب وغيرها .

واعلم أنّ الجواب عن هذا الخيال يستدعى فهم حاله عليه‌السلام و حال معاوية و غيره ممّن ينسب إلى جودة الرأى ، و بيان التفاوت بينهم و بينه و ذلك راجع إلى حرف واحد و هو أنّه عليه‌السلام كان ملازماً في جميع حركاته قوانين الشريعة مدفوعاً إلى اتّباعها و رفض ما العادة أن يستعمل في الحروب . فالتدابير من الدهاء و الخبث و المكر و الحيلة و الاجتهادات في النصوص و تخصيص عموماتها بالآراء وغير ذلك ممّا لم ترخص فيه الشريعة، و كان غيره يعتمد جميع ذلك سواء وافق الشريعة أولم يوافق فكانت وجوه الحيل والتدبير عليهم أوسع ، و كان مجالها عليه أضيق . ونقل عن أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في هذا المعنى كلام طويل خلاصته أن قال : إنّى ربّما رأيت بعض من يظنّ بنفسه العقل و العلم و أنّه من الخاصّة و هو من العامّة ، ويزعم أنّ معاوية كان أبعد غوراً و أصحّ فكراً وأجود مسلكاً من علىّ وليس الأمر كذلك و سأومى إلى موضع غلطه ، و ذلك أنّ عليّاً عليه‌السلام كان لا يستعمل في حروبه إلّا ما يوافق الكتاب و السنّة ، و كان معاوية يستعمل ما يخالفهما كاستعماله ما يوافقهما و يسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى ، وكان علىّ يقول لأصحابه : لا تبدؤهم بالقتال حتّى يبدؤكم ولا تتّبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح و لا تفتحوا باباً مغلقاً . هذه سيرته في ذى الكلاع و في أبى الأعور السلمى و في عمرو بن العاص و في حبيب بن مسلمة وفي جميع الرؤساء كسيرته في الحاشية و الأتباع، وأصحاب الحروب إنّما يقصدون الوجه الّذى به هلاك الخصم و ينتظرون وجه الفرصة سواء كان مخالفاً للشريعة كالحريق و الغريق ودفق السموم و التضريب بين الناس بالكذب و إلقاء الكتب في العسكر أو موافقاً لها فمن اقتصر في التدبير على الكتاب والسنّة فقد منع نفسه الطويل العريض من التدبير ومالا يتناهى من المكائد، والصدق و الكذب أكثر من الصدق وحده و الحلال والحرام أكثر من الحلال وحده فعلىّ كان ملجماً بلجام الورع عن جميع القول إلّا ما فيه لله رضى ، و ممنوع اليدين من كلّ بطش إلّا بما دلّ عليه الكتاب والسنّة دون أصحاب

الدهاء و المكر و المكائد فلمّا رأت العوامّ نوادر معاوية في المكائد و كثرة معايبه في الخديعة و ما تهيّأ له و لم يروا مثل ذلك من عليّ ظنّوا القصور فظنّهم أنّ ذلك من رجحان عند معاوية و نقصان في عليّ . ثمّ انظر بعد ذلك كلّه هل يعدّ لمعاوية من الخداع أكبر من رفع المصاحف ، ثمّ انظر هل خدع بها إلاّ من عصى رأى عليّ و خالف أمره من أصحابه فان زعمت أنّه قد نال ما أراد بخداعه من الاختلاف على عليّ فقد صدقت ولكن ليس ذلك محل النزاع و لم يختلف في غرارة أصحاب عليّ وعجلتهم وتسرّعهم وتنازعهم، و إنّما كانت البحث في التمييز بينه و بين معاوية في الدهاء و المكر و صحّة العقل والرأى. فهذه خلاصة كلامه ، و من تأمّله بعين الانصاف علم صحّته و صدقه ، و من هذا يتبيّن لك الجواب عن كلّ ما نسب إليه من التقصير في خلافته كعدم إقراره لمعاوية على الولاية في أوّل خلافته ثمّ يعزله بعد ذلك لما يستلزم تقريره من الظلم ، و كشبهة التحكيم، و كنسبتهم له إلى التوحّش لبعض أصحابه حتّى فارقوه إلى معاوية كأخيه عقيل و شاعره النجاشي و مصقلة بن هبيرة ، و كتركه لطلحة و الزبير حتّى فارقاه وخرجا إلى مكّة و أذن لهما في العمرة و ذهب عنه الرأى في ارتباطهما عنده و منعه لهما من البعد عنه ، و أمثال ذلك فان الانصاف عند اعتبار حاله في جميع ما نسب إليه يقتضى موافقته للشريعة و عدم خروجه عنها . و تفصيل الأجوبة عن ذلك ممّا يخرج عن الغرض ، وبالله التوفيق .

١٩٢ — وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

أَيُّهَا النَّاسُ : لَاتَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ . فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ ! !

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ ، وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : (فَعَقَرُوهَا

فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ) فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ ، خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ

أقول : السكّة: الحديدةتكون في رأس خشبةالفدّان تثار بهاالأرض.وخوارها : صوتها في الأرض. والأرض الخوّارة: الضعيفة .

و حاصل الفصل ترغيب أصحابه السالكين لطريق الهدى في البقاء على ما هم عليه بذ كر كونه طريق الهدى، و من العادة أن يستوحش الناس من الوحدة و قلّة الرفيق في الطريق الطويل الصعب فنهى عن الاستيحاش في تلك الطريق ، و كنّى به عمّا عساه يعرض لبعضهم من الوسوسة بأنّهم ليسوا على حقّ لقلّتهم و كثرة مخالفيهم لأنّ قلّة العدد في الطريق مظنّة الهلاك و السلامة مع الكثرة و نحو ذلك فنبّههم على أنّهم في طريق الهدى و إن كانوا قليلين .

و قوله : فإنّ الناس اجتمعوا . إلى قوله : طويل .

تنبيه على علّة قلّة أهل الهدى و هو اجتماع الناس على الدنيا ، و استعار لها لفظ المائدة ملاحظة لشبهها بها في كونها مجتمع اللذّات ، و كنّى عن قصر مدّتها بقصر شبعها، و عن استعقاب الانهماك فيها للعذاب الطويل في الآخرة بطول جوعها ، ولفظ الجوع مستعار للحاجة الطويلة بعد الموت إلى المطاعم الحقيقيّة الباقية من الكمالات النفسانيّة الفانية بسبب الغفلة في الدنيا فلذلك نسب الجوع إليها ، و يحتمل أن يكون مستعاراً لما تتلهّف عليه النفس و تتأسّف بعد المفارقة من اللذّات الدنيويّة الّتي لاتحصل عليها بعد الموت أبداً فيطول جوعها منها، و راعى المقابلة فالجوع بإزاء الشبع و الطول بإزاء القصر .

و قوله : أيّها الناس . إلى قوله : السخط .

أى إنّما يجمع الناس في عذاب الله رضاهم بالمنكرات و معاصى الله و إن

لم يباشرها أكثرهم وسخطهم لمحابّه من الأعمال ، ومصداق ذلك قصّة ثمود في عموم العذاب لهم بفعل عاقر الناقة فإنّهم بأسرهم مافعلوا ذلك مع نسبة الفعل إلى جميعهم كما قال تعالى «فعقروها» الآية و عمّتهم العقوبة لمّا عمّوه بالرضى ، و الضمير في عمّوه يعود إلى الرجل أو إلى العقر الّذي دلّ عليه قوله : عقر: أى لمّا عمّوا فعله برضاهم به ، و إليه الإشارة بقوله تعالى « واتّقوا فتنة لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة » [1] وظاهر أنّ الراضى بفعل شريك فاعله و في قوّته ، و كذلك إنّما يجمع الله الناس في رحمته باجتماعهم على الرضا بمحابّه والسخط لمكارهه .

فقوله : فما كان إلّا أن خارت أرضهم . إلى قوله : الخوّارة .

تفسير للعذاب اللاحق لهم المشار إليه بقوله : فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب، وقد فسّره القرآن الكريم أيضاً في قوله « فأخذتهم الرجفة » [2] فبيّن عليه السلام كيفيّة ذلك و شبّه صوت أرضهم في خسوفها و ذهابها في الأرض بصوت السكّة المحماة في الأرض عند الحرث بها ، و إنّما زادها صفة المحماة تنبيهاً على قوّة تصويتها و سرعة غوصها لأنّ المحماة يكون لها في الأرض نشيش زائد على مايقتضيه حركتها ويعينها الحمى على النفوذ . فأمّا قصّة ثمود فالمنقول أنّهم خلف عاد في الأرض بعدهلاكهم عنها فكثروا وعمّروا أعماراً طويلة حتّى كان الرجل يبنى المسكن المحكم فينهدم في حياته فنحتوا البيوت في الجبال وكانوا في سعة و رخاء من العيش فعتوا عن أمرالله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان . فبعث الله إليهم صالحاً و كانوا قوماً عرباً وصالح من أوسطهم نسباً فدعاهم إلى الله فلم يتّبعه إلّا قليل منهم مستضعفون فحذّرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال :أيّة آية تريدون ؟. فقالوا : تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم من السنة تدعو إلهك و ندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتّبعناك و إن استجيب لنا اتّبعتنا . فقال : نعم. فخرج معهم و دعوا أربابهم و سئلوها فلم تجب. فقال كبيرهم و أشار إلى صخرة مفردة في ناحية الجبل يسمّونها الكاثبة : أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة جوفاء و براء فإن فعلت صدّقناك وأجبناك. فأخذ عليهم

(١) ٨ - ٢٥ (٢) ٢٩ - ٣٦ .

المواثيق بذلك. ثمّ صلّى و دعا ربّه فتمخّضت الصخرة كما تمخّض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما يطلبون، وعظماؤهم ينظرون. ثمّ نتجت ولداً مثلها في العظم. فآمن به رئيسهم ونفر من قومه و منع أعقابهم ناس من رؤسائهم أن يؤمنوا. فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر و تشرب الماء و كانت ترد غبّاً فإذا كان يوم شربها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتّى تشرب كلّ ماء فيها. ثمّ تفحّج فيحلبون ما شاؤوا حتّى تمتلي أوانيهم فيشربون ويدّخرون. فإذا وقع الحرّ تصيّفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه، وإذا وقع البرد تشتّت ببطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشقّ ذلك عليهم، و زيّنت لهم عقرها امرأتان: عنيزة أمّ غنم وصدقة بنت المختار كانتا كثيرتي المواشي لمّا أضرّت بمواشيهما. فعقرها قدار الأحمر و اقتسموا لحمها و طبخوه فانطلق سقبها حتّى رقى جبلاً يقال له غارة فرغا ثلاثاً و كان صالح قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه و انفجّت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح: تصبحون غداً و وجوهكم مصفرّة وبعد غد وهي محمّرة واليوم الثالث وهي مسوّدة. ثمّ يغشاكم العذاب. فلمّا رأوا العلامات همّوا بقتله فأنجاه الله

إلى أرض فلسطين. فلمّا كان اليوم الرابع و ارتفع الضحى

تحنّطوا بالصبر و تكفّنوا بالأنطاع فأتتهم الصيحة

و خسف شديد وزلزال فتقطّعت قلوبهم

فهلكوا. و بالله العصمة والتوفيق

هذا آخر المجلّد الثالث

من هذا الكتاب

تمّ ثالث أجزاء الكتاب من الأجزاء الخمسة على ما جزئه الشارح المحقّق - قدّس سرّه - في أحسن وضع و على أنقى ورق و بأجود طباعة و يليه الجزئان الآخران - إنشاء الله تعالى -

ولو تدرى نفس مايتحمّله المقدم من الصعوبة في تهذيب طباعة كتاب لعبت به يد الأيّام وحرّفته أقلام الجهلة لقبل ذلك عذراً فيما يؤخذ على الناشر ، أو ليحثّه أن يغفر ما له من الذنب .

و عليه سبحانه التوكّل و به العصمة .

فهرست ما فى هذا الجزء من الخطب و المطالب

العنوان **الصفحة**

العنوان	الصفحة
الخطبة السادسة و التسعون في بيان ما فيه المعتبر والمزدجر للنفوس	٢
الخطبة السابعة و التسعون في بيان مايكون بعده عليه السلام من الأمور	٦
الخطبة الثامنة والتسعون تشتمل على ذكر الملاحم	٩
الخطبة التاسعة و التسعون أشار فيها إلى ماسيقع بعده عليه السلام من الفتن	١٣
الخطبة المائة ألقاها تزهيداً في الدنيا و تحذيراً منها	١٧
الخطبة الحادية والمائة في ذكرمالرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الشفقة على الخلق	٢١
الخطبة الثانية و المائة في أوصاف النبى صلى الله عليه وآله وسلم	٢٢
الخطبة الثالث و المائة في ذكر ما للإسلام من الأوصاف المحمودة	٢٩
الخطبة الرابع والمائة في تبكيت أصحابه بانحيازهم عن عدوّهم	٣٧
الخطبة الخامس و المائة وهي من خطب الملاحم	٣٨
الخطبة السادس والمائة في توحيد الله و تنزيهه و إجلاله وتعظيمه	٤٩
الخطبة السابع و المائة في اقتصاص حال النبى صلى الله عليه وآله وسلم	٧٢
الخطبة الثامن و المائة في التحذير من الدنيا و التنفير عنها	٨٣
الخطبة التاسع و المائة في الإشارة إلى حقيقة الموت	٨٩
الخطبة العاشر و المائة فيها تحذير وتأديب	٩٢
الخطبة الحادية عشر و المائة في الترغيب إلى التقوى، و ذكرشيء من أوصاف الدنيا	٩٥
الخطبة الثانية عشر و المائة في الاستسقاء	١٠٣

العنوان	الصفحة
الخطبة الثالثة عشر والمائة في بعض أوصاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم	١٠٦
كلامه الجاري مجرى الخطبة الرابعة عشر والمائة في التوبيخ بالبخل	١٠٩
كلامه الجاري مجرى الخطبة الخامسة عشر و المائة في استمالة طباع أصحابه لنصرته	١١٠
كلامه الجاري مجرى الخطبة السادسة عشر والمائة في الدعاء على أصحابه مصدّراً بالاستفهام عن أحوالهم القبيحة	١١٠
كلامه الجاري مجرى الخطبة السابعة عشر والمائة في وصف نفسه وذكر فضيلته	١١٢
الخطبة الثامنة عشر و المائة في ردّ ما اعترض عليه	١١٤
كلامه الجاري مجرى الخطبة التاسعة عشر والمائة قاله للمقيمين على إنكار حكومته عليه السلام	١١٨
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة وعشرين قاله لأصحابه في ساعة الحرب	١٢٠
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة و إحدى وعشرين في تعطيف أصحابه و استثارة نجدتهم	١٢١
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائه واثنتين و عشرين في حثّ أصحابه على القتال	١٢٢
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة وثلاث وعشرين في التحكيم	١٢٣
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة وأربع وعشرين لمّا عوتب على التسوية في العطاء	١٣٠
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة و خمس و عشرين للخوارج	١٣٢
كلامه الجاري مجرى اخطبة المائة و ستّ وعشرين فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة	١٣٦
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة وسبع و عشرين يؤمى به إلى وصف الأتراك	١٣٨

العنوان **الصفحة**

كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة و ثمان وعشرين في ذكر المكائيل
و الموازين ١٤١
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة وتسع و عشرين لأبي ذرّ لمّا
اُخرج إلى ربذة ١٤٥
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة وثلاثين في تأبيه أصحابه بالاختلاف ١٤٧
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة و إحدى و ثلاثين في وجوب الشكر
في طوارى الأحوال ١٤٩
الخطبة المائة واثنتان و ثلاثون في ذكر الموت والتنبيه على وجوب العمل له ١٥٢
وفي معنى الحياة والموت ١٥٧
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة و ثلاث وثلاثين و قد شاوره عمر في
الخروج إلى غزو الروم بنفسه ١٦١
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة و أربع و ثلاثين في إقماع المغيرة بن
أخنس ١٦٣
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة وخمس وثلاثين في الترغيب إلى إعانته
والوفاء ببيعته ١٦٤
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة و ستّ وثلاثين في معنى الطلحة
و الزبير ١٦٥
الخطبة المائة و سبع و ثلاثون في ذكر الملاحم ١٦٧
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة وثمان وثلاثين في وقت الشورى ١٧٤
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة وتسع وثلاثين في النهى عن غيبة الناس ١٧٥
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة وأربعين في النهى عن التسرّع إلى
التصديق بما يقال في حقّ مستور الظاهر ١٧٩
كلامه الجاري مجرى الخطبة المائة و إحدى وأربعين أشار فيه إلى بعض

العنوان	الصفحة
مكاره الدنيا و فضائل الآخرة	١٨٠
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة واثنتين و أربعين في الاستسقاء	١٨٢
الخطبة المائة و ثلاث و أربعون في المنافرة مع من ينازعه في الفضل	١٨٦
الخطبة المائة و أربع و أربعون في تقبيح الدنيا وذكر معائبها	١٩١
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة و خمس و أربعين لعمر بن الخطاب و قد استشاره في غزو الفرس بنفسه	١٩٤
الخطبة المائة و ستّ و أربعون في بيان بعثة الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم	١٩٧
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة و سبع وأربعين في ذكر أهل البصرة	٢٠٥
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة و ثمان وأربعين قبل موته في التأبيه بالناس و تنبيههم على لحوق ضرورة الموت طبعاً	٢٠٧
الخطبة المائة و تسع وأربعون في الملاحم	٢١٣
الخطبة المائة وخمسون في التحذير عمّا يقع من بعده من بوائق النقمة بأيدى الظلمة	٢٢٠
الخطبة المائة وإحدى وخمسون في تحميد الله تعالى باعتبارات من أوصافه	٢٢٨
الخطبة المائة واثنتان و خمسون يؤمى فيها إلى صفة مطلق الضالّ	٢٣٩
الخطبة المائة و ثلاث و خمسون يؤمى إلى بعض فضائله و فضائل أهل البيت	٢٤٧
الخطبة المائة وأربع و خمسون يذكر فيها بديع خلقة الخفّاش	٢٥٢
الخطبة المائة و خمس وخمسون خاطب بها أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم	٢٥٨
الخطبة المائة و ستّ و خمسون في إيقاظ الناس من سبات الغفلة و تنبيههم على قرب الساعة	٢٦٦
الخطبة المائة و سبع و خمسون في التنبيه على فضيلة رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم	٢٧٣

العنوان	الصفحة
الخطبة المائة و ثمان وخمسون في التنبيه على شكره للقليل من برّهم	٢٧٥
الخطبة المائة وتسع وخمسون في ذمّ من يدّعى رجاء الله ولا يعمل له	٢٧٦
الخطبة المائة وستّون في ذكر ممادح النبى صلّى الله عليه وآله وسلّم	٢٨٨
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة و إحدى وستّين في جواب من سئله كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به	٢٩٢
الخطبة المائة واثنتان و ستّون اشتملت من اعتبارات الحمد طباق مااشتملت من مباحث التوحيد	٢٩٦
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة وثلاث و ستّين في استعتاب عثمان وقد استسفره الناس	٣٠١
الخطبة المائة و أربع وستّون يذكر فيها عجيب خلقة الطاووس	٣٠٤
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة و خمس وستّين قد أمر صغيرهم بالتأسّى بكبيرهم الخ	٣١٤
الخطبة المائة وستّ و ستّون في التنبيه على فضيلة الكتاب و الأمر بأخذه طريقاً	٣١٨
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة وسبع وستّين بعد ما بويع بالطلافة و قد قال له من الصحابة : لو عاقبت قوماً ممّن أجلب على عثمان	٣٢٠
الخطبة المائة وثمان و ستّون ألقاها عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة	٣٢٣
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة و تسع و ستّين مخاطباً به من أرسله أهل البصرة ليعلموا حاله مع أصحاب الجمل	٣٢٦
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة و سبعين لمّا عزم على لقاء القوم بصفّين	٣٢٧
الخطبة المائة و إحدى وسبعون يذكر فيها ما جرى له يوم الشورى بعد مقتل عمر	٣٢٩

العنوان	الصفحة
الخطبة المائة واثنتان وسبعون في بيان من هو أحق بالخلافة ومن تتم به البيعة	٣٣٩
الخطبة المائة و ثلاث وسبعون في طلحة بن عبد الله	٣٤٤
الخطبة المائة و أربع و سبعون في خطاب الغافلين عمّا يراد بهم من أمر الآخرة	٣٤٦
الخطبة المائة وخمس و سبعون يحذّر فيها من متابعة الهوى ، و يحثّ فيها على الاستقامة ولزوم الصدق	٣٤٩
في تقسيم الظلم ، وبيان أقسامه	٣٦٣
في فضل العزلة ولزوم البيت	٣٦٥
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة و ستّ و سبعين ألقاها بعد ما بلغه أمر الحكمين	٣٦٧
الخطبة المائة و سبع وسبعون ألقاها بعد قتل عثمان ، وصدّرها بالإشارة إلى اعتبارات توحيديّة	٣٦٨
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة وثمان وسبعين في جواب ذعلب اليمانيّ حين سأله هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين ؟	٣٧٣
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة وتسع وسبعين في ذمّ أصحابه	٣٧٥
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة و ثمانين فيمن همّ من أهل الكوفة باللحاق بالخوارج	٣٧٩
الخطبة المائة وإحدى وثمانون - رواها نوف البكّالى- في توحيد الله تعالى و التوصية بالتقوى و التنبيه إلى الاعتبار .	٣٨٠
الخطبة المائة و اثنتان و ثمانون في تحميد الله و التنبيه على وجوب الاستناد إلى قدرته	٣٩٥
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة و ثلاث و ثمانين قاله للبرج بن	

العنوان **الصفحة**

مسهر الطائى ، وقد قال له بحيث يسمعه : لا حكم إلاّ الله ، وكان من الخوارج ٤٠٨
الخطبة المائة و أربع و ثمانون يصف فيها المتّقين بمالهم من الفضائل ٤٠٩
شرح جملة ما يعرف بها المتّقون ٤١٤
الخطبة المائة وخمس وثمانون يصف فيها المنافقين ٤٢٠
الخطبة المائة وستّ وثمانون في تحميد الله و الثناء على نبيّه ٤٢٥
الخطبة المائة و سبع و ثمانون تشتمل على الوصية بالتقوى و التحذير من الدنيا ٤٣٧
الخطبة المائة و ثمان وثمانون فيها التنبيه على فضائله عليه السلام ٤٣٩
الخطبة المائة و تسع و ثمانون في التنبيه على إحاطة علم الله تعالى ٤٤٢
الخطبة المائة و تسعون كان يوصى بها أصحابه بالصلاة و الزكاة ٤٦٢
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة وإحدى وتسعين في سبب تركه الدهاء ٤٦٩
كلامه الجارى مجرى الخطبة المائة واثنتين وتسعين في التنبيه على علّة قلّة أهل الهدى ٤٧٢
فهرس الخطب و المطالب ٤٧٦